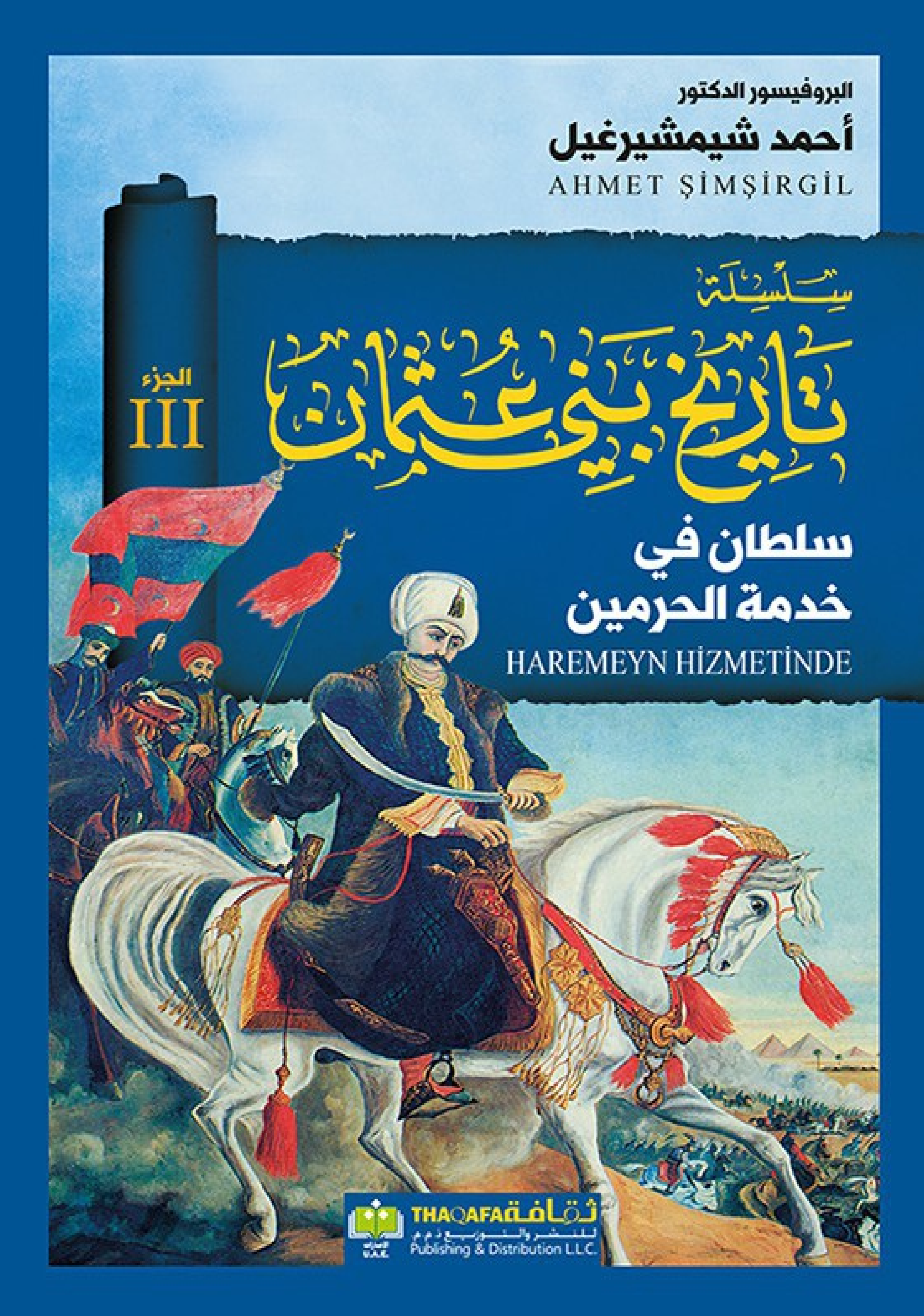

البروفيسور الدكتور
أحمد شيمشيرغيل
AHMET ŞİMŞİRGİL
سلسلة
تاريخ بني عثمان
الجزء
III
سلطان في
خدمة الحرمين
HAREMEYN HİZMETİNDE
ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

سطان

في خدمة الحرمين

سلسلة

تاريخ بني عثمان

سلطان في خدمة الحرمين

الجُزءُ الثَّالِث

تأليف

البروفيسور الدكتور

أحمد شيمشيرغيل

ترجمة المرحوم عبد القادر عبداللي

وأكملته مهتاب محمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الطبعة الأولى 2017

تمهيد

«لو انحسر الماء عن الوادي فإن أثره لا يزول فترة».

من غير الممكن أن تزول بسهولة آثار الدول والأمم وحتى روحها بعد انسحابها من مسرح التاريخ. ومن هنا تنبع أهمية علم التاريخ أساساً.

لأن التاريخ رواية الإنسانية الخالدة. لهذا السبب فإن فوائده لا تحصى.

بالتاريخ يمكن تبني إرث الماضي والاستفادة منه بالشكل الأمثل.

التاريخ يزيد من حدة ذكاء العلماء ، ويفتح بصيرتهم.

وبحسب تعبير الأولين فهو ينمي لدى الشباب دين الدولة ، وملك الأمة.

يري جحود الدنيا.

يشير إلى زوال المال والملك.

يدعو الإنسان إلى التأمل والتفكير.

لهذا السبب يجب تقييم علم التاريخ بمعزل عن الأيديولوجيا والتفسير المنحاز.
وإن لم يتم تناوله على هذا النحو فهو لا يعطي دروساً وعبراً ، بل يجر الناس إلى مجرى مختلف وخاطئ عملاً بالمثل القائل: «من كان الغراب له دليلاً/يمر به على جيف الكلاب».
أما بالنسبة إلى الدول ، فهذه كارثة.

انطلاقاً من هذه الأفكار تأتي سلسلة تاريخ بني عثمان لتتناول موضوع الدولة العثمانية الباقية في الماضي باعتبارها الجزء الأقرب والأهم من تاريخنا.

لأن هذه الدولة شكلت انسجاماً قوياً بين عناصر متنوعة تنتمي إلى أديان

وقوميات مختلفة.

قدمت فوائد للعلم والفن والإنسانية على مدى العصور.

شهدت تعباً ، وحزناً ، وإراقة دم ، وقتل ، وموت ، ولكنها لم تتنازل قطعياً عن مثلها ومبادئها الدينية والإنسانية والوجدانية.

بتأسيس العدالة الاجتماعية لدى المجموعات الإنسانية الواسعة فرضت وجوداً سياسياً مقتدراً وعالمياً.

ولكن الضربة التي تحزن العثمانيين أكثر وتقتلهم حقيقة هي عدم فهم العنصر الأصيل المشكل لهم وهم الأتراك والأمم المسلمة ، وافتراؤهم عليها ، وتعريفهم لها بتعابير كاذبة ملفقة.

لن تقرؤوا التاريخ العثماني فقط في سلسلة تاريخ بني عثمان ، بل ستجدون أجوبة عن التساؤلات التي يمكن أن تخطر ببالكم.

ستعرفون العثمانيين بكل جوانبهم وحقائقهم.

سلسلة تاريخ بني عثمان المكتوبة بالمعايير العلمية وبموضوعية تمنح الإنسان متعة القراءة بحيث لا يستطيع تركها من يده. وبحسب تعبير الشاعر الكبير باقي:

«نحمد الله أن دولة العالم يمكن أن تزول /ولكن اسمنا يبقى في صحيفة العالم».

أ. د. أحمد شمشيرغيل

تقديم

الوحدة والعيش المشترك من أسس نجاح الدول ، ولعلهما أهمها. ولكن ما الذي يُفهم من الوحدة والعيش المشترك ؟ هل هما تفكير الناس بمستوى واحد ، وتبنيهم الأفكار والرؤى نفسها ؟ إنه ليس هذا بالتأكيد. لأنه من غير الممكن أن يتبنى الناس الأفكار نفسها ، وأن يتشاركوا الرؤى ذاتها. فهذا مخالف لطبيعة الأشياء.

ولن يكون للشورى والاستشارة معنى ، وتفقدان ضرورتهما إذا كان الناس جميعاً على فكر واحد ورؤية واحدة. مع أن الشورى والاستشارة تعتبران من أسس استصدار القرار الصائب. وهناك قول سائد: «نور الحقيقة يولد من تصادم الأفكار».

لهذا السبب ، قبل البدء بعمل أو مشروع لا بد من مناقشة هذا العمل أو المشروع مع العارفين به ، وأخذ أفكارهم ورؤاهم ، ثم إعطاء القرار. وبعد اتخاذ القرار يظهر مبدأ التعاون والاتحاد.

لا يحقق النجاح إلا المتحدين والمتعاونين. من يبدأ بثنائيات مثل: لماذا لم تعطَ أهمية لأفكاري ؟ لماذا لم تُقبل أطروحتي ؟ سيدخل التاريخ باعتباره فاشلاً.

من يتردد بين ثنائية لا يصيب

ابتعد عنه واعتبره غير موجود

لهذا السبب عليك ألا تعتبر المتردد ، والعائد عن قراراته منك. وتصرَّفْ باعتباره غير موجود ، وحتى عليك أن تبتعد عنه بقدر ما يمكنك. لأنه في كل فرصة سيفتح باب فتنة ، وسيكون سبباً للضرر أكثر من الفائدة.

يُبرز مولانا جلال الدين الرومي أهمية الوحدة والتعاون بهذه التعابير:

«السعادة حيث يكون القلبان واحداً. يعيش الأبوان حياة غنية في العائلة حين يكونان على قلب واحد. هذا الغنى هو طمأنينة وسعادة وقناعة تتشكل بعيداً عن الحزن والغم والكدر.

انظر إلى عينيك. هل يمكن لعينيك أن تنظر كل منهما إلى جهة ؟ إذا حاولت الفصل بينهما ، فهل تستطيع أن تلتقط مشهداً صافياً ؟ كلاهما تنظران معاً إلى اليمين وإلى اليسار. وعندما تغط في النوم ، تغطان معاً ، وتستيقظان معاً.

انظر إلى ساعدك. تركّب من أجزاء لتصل إلى يدك. في النهاية تنفصل إلى خمسة أغصان. ليس فيها واحدة بطول الأخرى. وقواها مختلفة أيضاً ، ولكنها اجتمعت لأنها تتوجه كلها نحو جهة واحدة. وهكذا تكون القامة والقوة صحيحة. اقبض يدك ، وفكر ، ما الذي يمكنك أن تفعله لو أن السبابة والبنصر يمكنهما الدوران إلى الخلف ؟».

وكما هناك حِكَمٌ كثيرة في أجسامنا ، فإن العالم من أوله إلى آخره حكمة. ومن الممكن لقلب متبصّر أن يرى هذا بوضوح.

من يخرج وحيداً دون رفيق في طريق لن يصل إلى الهدف. فكر بالمياه على سطح الأرض. مهما كانت مياه النبع قوية وغزيرة ، فهي تتجاوز مسافات طويلة ، ولكنها لا تلتقي بالبحر. هدف المياه كلها هو البحر. المياه التي تصل البحر تتوحد مع المياه والأنهار الأخرى في الطريق ، وتقوى حتى تصل إلى البحر ، وتصل إلى الهدف.

وها هم العثمانيون يتوقفون منذ البداية عند مبدأ الوحدة ، ويطبقونه دون أي تنازل على هذا الصعيد. وتعتبر عبارتا: «لا رحمة بين الملوك» و«الدولة العثمانية عروس مغطاة الرأس ، لا تحتمل خاطبين» الرد الأمثل على فكرة تقاسم الدولة بين بيازيد خان الثاني وأخيه جم.

مع أن تقاسم الدولة بين أفراد العائلة المالكة في الدول التركية قبل المرحلة العثمانية كان يقود الدولة إلى الانهيار ، ويمهد الطريق لنهايتها. وفي هذه الأثناء تُسفك دماء

عشرات آلاف الأتراك المسلمين ، ويفقدون أموالهم وأملاكهم.

استفاد العثمانيون من قيم الدولة وتجاربها الممتدة على عصور لدى الأمة التركية بالتنظيم ، والإدارة ، وشعور الحاكمية ، والعدالة ، والرحمة ، والوقار ، والشهامة ، والتضحية ، والغيرية ، والعمق المعنوي ، وعاشتها بصدق ، وحققت نجاحاً لا سابق له في تطويرها. لعل سبب عيش هذه الجماليات كلها هو التقاط روح الوحدة والتضامن ، والحركة على قلب واحد ، وجسم واحد ، ونحو جهة واحدة.

جاء في أهم مصادر كتاب القايون 3 سليم نامة لكاتبه شكري البتليسي هذه الكلمات التي تصور الوحدة والتضامن في ذلك الزمن أفضل صورة:

تركي مع تركي ، وكردي مع كردي

خروف في البيت ، وبلطة بحدين على الغريب

على الرغم من كون شكري البتليسي كردياً فقد استخدم عبارة «التركي مع التركي» ، ولم يميز بين الأقوام والعشائر ، ونظر بعين موحدة ، وأبرز اعتزازه بخدمة الدولة العثمانية. ندرك اليوم بشكل أفضل أن تغريبنا عن تاريخنا ولغتنا وديننا وثقافتنا وضع بهدف بث الشقاق والعداء بيننا ، والأهم من هذا أنه فخ يراد لنا الوقوع فيه.

أثناء قراءتنا الجزء الثالث من سلسلة تاريخ بني عثمان سندرك وبالشكل الأمثل أهمية روح الوحدة والتضامن على صعيدي الدولة والأمة. وهذا المبدأ يرتبط بإشعال عود ثقاب من أجل خرابه وفقدانه ، ولكن الانهيار والخراب الذي يتسبب به لا يمكن تلافيه إلا بعمل يدوم سنوات طويلة ، وطالما كان أكبر عنصر تهديد لدولتنا في المراحل كلها.

على الرغم من هذا فإن الإمبراطورية العالمية التي أسسها السلطان محمد الفاتح كانت ساحة لنوعين من الصراع بعد وفاته ، وتسلّم ابنه بيازيد. في بداية المرحلة ، نشب صراع بين السلطان بيازيد وجم ، وفي النهاية كان الصراع على العرش بين أبناء بيازيد

خان ، وهذا ما قدم نماذج على مدى الخطورة التي تعرضت لها الدولة. وقد استفاد الصفويون بشكل خاص من حالة التأزم التي نجمت عن صراع الإخوة ، وحولوا الأناضول إلى ساحة حريق ، وجُرَّت الدولة إلى انهيار خطير.

هذه المقولات الحكم كانت تنطبق على ما يجري في الأناضول: «الكل رؤوس حيث لا يوجد رأس ، والكل عبيد حيث يكون الجميع رؤوساً» ، «من لا رأس له ، لا طعام له». لقد فقد آلاف الأناضوليين حياتهم في تمردي شاهقولو بابا تكلي ، ونور علي خليفة. وبدأ ابن السلطان أحمد وأبناؤه وابن السلطان قورقود السعي من أجل الحصول على السلطنة ، وقد انفلتت الأمور تماماً.

في زمن كهذا ، أُدركت أهمية الوحدة والتضامن ، ولهذا بذل سليم خان جهوداً جبارة بعد وراثته الحكم عن والده بيازيد خان الثاني من أجل استعادة الوحدة والتضامن.

بقدر ما تعكس كلمات سلطان العالم هذه مشاعره حول الوحدة والتضامن ، فهي تحمل صفة الوصية التي يتركها لأمته من بعده:

اكتبوا بخط جميل على شاهدة قبري — الخوف من الخلاف والفرقة في أمتي

وفي الفرقة دائماً النتيجة الهزيمة — في الوحدة لا مفر من قهقرة العدو

أثناء ترك قرائي مع الجزء الثالث من تاريخ بني عثمان أشعر بالمتعة بتقديم كتابي هذا لطلابي الذين طالما شجعوني على إكماله. وأقدم شكري لمنشورات تيماش التي تبنت طباعة هذا العمل ، وللسيد آدم قوتشال محرر مشروع قسم التاريخ.

أخيراً أقدم شكري القلبي لكل من عبد الكريم شاشماظ ، وطوبا قرة بيه ، وحمزة أوموط ألبيرق ، وزحل طوران وبلغة تركمان لمساعدتهم في تحضير هذا العمل. وأشكر زينب بركطاش التي حضرت العمل للطباعة ، وروضة قزلطوغ التي صممت غلافه. إضافة إلى ذلك أنا مدين لزوجتي الغالية وأولادي الذين وقفوا دائماً إلى جانبي أثناء إنجازي هذا العمل.

من لم يكن سليماناً لا يعرف قيمة الأسف

ومن لم يكن إنساناً لا يعرف قيمة الإنسان

أ. د. أحمد شمشيرغيل

القِسْمُ الأوّلْ

بيازيد خان الثاني

الدولة العثمانية تشبه عروساً مغطاة من فرقها إلى قدمها. لا تحتمل خاطبين لها ، ولا تجلب قهر الشراكة.

خبر الاستشهاد والجلوس

عندما توفي السلطان محمد الفاتح في المحلة المدعوة هضبة الهنكار القريبة من غبزة ، كان ابنه بيازيد والياً في أماصيا ، أما جم جلبي فقد كان ولياً على قرامان. وفي تلك الأثناء كان بيازيد في الرابعة والثلاثين من عمره ، وجم في الثالثة والعشرين.

بعد حصول الوزير الأعظم محمد باشا القراماني على موافقة الوزراء والأمراء ، أخفى وفاة الفاتح عن الجنود خشية وقوع أي فوضى. وأرسل إلى والي أماصيا ابن السلطان الكبير بيازيد جلبي ، ووالي قرامان جم جلبي خبراً. أما جنازة الفاتح فقد وُضعت سراً في عربة ، ورافقها الأطباء وكبار رجال الدولة ، ونقلت إلى إسطنبول. وبنقل وسائط النقل التي في المرسى إلى إسطنبول أريد منع الإنكشاريين ورجال الخدمة الداخلية من الانتقال إلى المدينة.

تصرف محمد باشا القراماني هذا أثار اعتقاد رجال الدولة العارفين بهذا الأمر بأنه يريد أن يجلب جم إلى إسطنبول في أقرب فرصة من أجل إجلاسه على العرش. هذا ما جعل صهرا بيازيد قائدي الجيش سيد سادة روملي أحمد باشا هرسك زادة ، وسيد سادة الأناضول سنان باشا يتحركون على وجه السرعة. بداية ، أوقفا المراسلين المرسلين إلى جم. بعدئذ نشرا خبر وفاة سلطان السلاطين ، وحرضا الإنكشارية. وهكذا خربت خطة محمد باشا القرماني. ثار الإنكشاريون ، ونزلوا إلى المراسِ ، وانتقلوا إلى إسطنبول بالقوة ، ونظموا مسيرات في أزقة المدينة هتفوا فيها: «عاش بيازيد ، عاش!» وقتلوا محمد باشا القراماني وطبيب الفاتح الخاص اليهودي يعقوب باشا اللذين حاولا منعهم. صعد قورقوط جلبي ابن الأمير بيازيد الذي دخل الحادية عشرة من عمره تواً إلى العرش بالوكالة عن والده ، وبدؤوا يجولونه في الأزقة[1].

أثناء وقوع هذه الأحداث في إسطنبول ، وصل الجاويش مصطفى ككليك إلى أماصيا ، ومثل في حضرة الأمير بيازيد الذي يديرها باعتباره سيدها بتاريخ 7 أيار/مايو 1481.

اقترب من خيمته السلطانية ، وحيّاه ، وقبل طرف ثوبه ، ودعا له. بعدئذ سلم الكتاب لوارث السلطنة الجديد.

بعلمه برحيل والده السلطان سقطت دولة العالم بعينه

أثار بكاءه حتى الصباح ما فعله فيه رحيل الأب

تفتت القلب وتفقد الوعي[2] ذرفت عينه دموعاً كاللؤلؤ

إذا كان بيازيد قد تلقى الخبر بتردد بداية ، فقد تحرك في اليوم الرابع من مانيسا مع معيته وبرفقة أربعة آلاف رجل إثر رسائل دعوات إسحاق باشا المتلاحقة ، وتحذيرات رجاله بضرورة تحركه بسرعة ، ووصل إلى أسكودار بتسعة أيام. كان مرتدياً ألبسة الحداد. في اليوم التالي تسلم السلطنة رسمياً من ابنه قورقود ، وصعد إلى العرش العثماني في 22 أيار / مايو 1481.

في اليوم التالي أقيمت صلاة جنازة السلطان محمد الفاتح بإمامة الشيخ مصلح الدين أبو الوفا دليل الأدلاء. بعد صلاة الجنازة ، قبّل السلطان بيازيد جنازة والده ، واحتضنه ، وحَمَله على كتفه مع الوزراء والسادة ، ودفنوه في الحديقة المقابلة لمحراب جامع الفاتح. ووزع بيازيد الصدقات بسخاء ، وأمر بالعديد من ختم القرآن والأدعية عن روح والده ، وبهذا أوفى بحقوق والده عليه[3].

هل هو طموح الدنيا ؟

فور جلوس بيازيد على العرش ، وبسبب كون جم أكثر تميزاً وفاعلية أثناء حياة والده فقد حظي بدعم رجال الدولة أمثال محمد باشا قراماني وأحمد باشا غديك ، ووالي قونية غياث الدين ، وواجه معارضتهم.

كان جم يدعي بأنه صاحب الحق بوراثة العرش العثماني. لأنه ورد في جزء الوراثة

من قانون نامة الفاتح حول ألقاب أبناء السلطان بجوار اسم جم: «ابني السلطان جم وارث ملك آل عثمان». يقول بعض المؤلفين بأن بيازيد خشي من قتله وفق «النظام العام» اعتماداً على قانون نامة جم العثماني ، فتمرد.

ولكن يبدو أن السبب الأساسي هو انتقال السلطنة إليه بالوراثة. غير هذا فإننا إذا وضعنا بعين الاعتبار أن كل ابن سلطان منذ الصغر يُربى على الحكم بعد والده ، وينشغل بالجهاد والحكم بالعدل ، وبذل الجهد في سبيل قضايا سامية ، فمن البساطة بمكان ربطهم بالطموح الدنيوي وفكرة الخوف من القتل.

إضافة إلى ورود اسم جم في القانون نامة ، فإنه ولد في زمن سلطنة والده ، وأوكل إليه حكم إسطنبول في أثناء الحملة على حسن الطويل ، ولهذا يدعي بأن السلطنة من حقه. تحرك جم على ضوء هذه الأفكار ، وقرر التحرك بعد نصائح معيته وبشكل خاص نصائح قاسم بيك قرامان أوغلو. وأرسل القوات القرمانية بقيادة نصوح بيك غديك القراماني إلى إينغول باتجاه بورصة مع قوات الورصق وطورغوطلو.

واجه نصوح بيك غديك القوات التي أرسلها بيازيد بقيادة أياس باشا في نواحي قبلجة في 28 أيار/مايو ، وهزمها ، وسيطر على بورصة. وجاء السلطان جم إلى المدينة بعد ثلاثة أيام ، وصُكت باسمه نقود ، وقُرئت خطب ، وبهذا أعلن حكمه ، وفرض حاكميته على المدن والقرى المجاورة ، وبدأ يرى نفسه حاكم الأناضول[4].

إثر هذا التطور الخطير ، أرسل السلطان بيازيد رسائل إلى سادة القبائل التي دعمت جم ، وحاول جذبهم إلى جانبه. ويأتي على رأس هؤلاء يعقوب بيك أشتين أوغلو أقرب أصدقاء جم. طُلب من يعقوب بيك أن يجذب جم نحو قرمان بالحيلة. وفي الوقت نفسه عبر السلطان مع جيش كبير إلى أسكودار ، وبدأ الاستعدادات من أجل الهجوم على جم.

من جهة أخرى ، فإن جم المستمرة سلطنته في بورصة ثمانية عشر يوماً أرسل إلى

أخيه الأكبر هيئة سفراء مؤلفة من العجوز الخاتون سلجوق ابنة محمد جلبي ومن العلماء مولانا أياس وشكر الله أوغلو أحمد جلبي. وطلب جم قبول الأمر الواقع ، وترك حكم الأناضول له.

الصراع لا يعطي ثماراً

استقبل بيازيد خان عمته الكبرى الخاتون سلجوق التي مثلت بين يديه ، وقبل يدها ، وأكرمها وأعزها ، وكسب دعاءها. وطرقت الخاتون سلجوق باب الرجاء من بيازيد مبينة أنها تعمل لصالح جم ، فقالت:

«يا بنيّ ، ألا يمكن الحيلولة دون سفك دم إخوة الروح ، وعدم إشعال نار الحرب بين المسلمين ، وأن تكتفي بأرض روملي ، وتهب ولايات الأناضول وأرضه لأخيك الأصغر ؟ وإذا فعلت هذا فإنه لن يرفع رأسه الذي يحنيه أمامك ، ولن يدخل بطريق لا تريده. إذا دب الصراع في شجرة فإنها لن تثمر غير الحزن. وإذا دخل سلطانان بصراع فإن الرعية تتعرض لأذى كبير ، وتتحول الدولة إلى خراب ، وهذا لا يناسب الأبطال والشهوم الذين وهبوا أنفسهم للبلد».

لم يُخدع السلطان بيازيد الثاني بهذه اللغة المحملة بالعواطف. فأظهر تصميمه بجواب مستخدماً مثلاً شعبياً يقول: «لا رحمة بين الملوك»[5].

ويبين كمال باشا زادة موقفه بأنه لا يمكن أن يكون شهريارين في بلد واحد ، ولا يمكن أن يكون قائدان بين العسكر[6].

مثل الشاه مثل الرأس من الجسد

لا يجوز أن يكون رأسان للجسد

بعد أن استضاف بيازيد خان السفراء كما يجب ، صرفهم ، وحرك جيشه فوراً.

أما جم فقد قرر الدخول بحرب تحدد مصيره في سهل يني شهير. وفي هذه الأثناء عاد أحمد باشا غديك من حملة أوترانتو ، وقوي بيازيد أكثر عندما انضمت قواته إليه. وإذا كان أحمد باشا ميالاً إلى طرف جم ، فإن كون حماه إسحاق باشا وزيراً أعظم كان سبباً بميله نحو بيازيد.

اندلعت الحرب التي ستحدد صاحب العرش العثماني الجديد في 20 حزيران/ يونيو 1481. كان ابنا الفاتح هذه المرة بموقع العدوين. ولكن خيانة يعقوب بيك أشتين أوغلو الصديق المقرب لجم ، كانت الضربة الأخيرة. تزايدُ قوات بيازيد باستمرار ، أدى إلى اليأس وفقدان قوة المقاومة لدى قوات جم. أصبح كل منهم يفكر بخلاص نفسه.

لا لزوم لدنيا دون رأس

ما يلزم الحي رأساً وليس تاجاً

بداية ترك ساحة المعركة القرامانيون وتركمان الورسق الذين كانوا يحرضون جم بشكل دائم. رأى السلطان جم أن قواته تذوب باستمرار فلم يبق له حيلة ، فانسحب بداية إلى إسكي شهير بألم وحزن شديدين ، ثم إلى مدينة العرش قونية. وقد صودرت أشياؤه وخزينته7.

الغربة...

لم يشعر السلطان جم بالأمان في قونية ، فاصطحب والدته الخاتون تشتشك وعائلته وابنه المرافق له مراد ، وتوجه إلى الدولة المملوكية في 28 حزيران/يونيو.

كانت مغادرته قونية التي يحبها كثيراً صعبة جداً عليه. وبحسب الكتاب الموسوم «وقائع السلطان جم» والذي يتناول ما عاشته ، فإن من يسمع بكاء أهل قونية الذين يحبونه كثيراً وعويلهم ، يعتقد بأن القيامة قد قامت. أما جم فإنه لم ينس بأي شكل الأيام السعيدة التي قضاها والياً في هذه المدينة.

جئت إلى مكان كأنه جهنم

بعد قونية المقام المرام[8]

بألف صعوبة وصعوبة عبر جبال طوروس ، ووصل إلى طرسوس ، ومنها إلى أضنة. استقبله رمضان أوغلو ، واستضافه ، وأكرمه.

وللحصول على إذن السلطان المملوكي قايتباي ، قصد حلب عن طريق أنطاكية. ولم يقصر أمير أمراء حلب باستضافته. وذهب جم إلى دمشق بصحبة الدليل أويوظ بيك ، وتابع طريقه بمعيته البالغة ثلاثمائة شخص هم أقرباؤه وخدمه الخاص وحراسه ، وفي 25 آب /أغسطس وصل القاهرة عن طريق غزة ، ودخلها بموكب خاص بالحكام.

في اليوم التالي ذهب إلى القصر ، ومثل بين يدي قايتباي. عند لقاء السلطان قايتباي بابن السلطان تصافحا ، وتعانقا. ودار بينهما حديث قصير. وقال له السلطان كلمات أبوية جميلة ، وأراح قلبه. وأسكنه في قصر بغاية الفخامة. وأغرقه بالمجاملات. دعاه مرات عديدة إلى الإفطار في رمضان ، وأشعره بالطمأنينة والأمان. اصطحبه مرات عديدة في النزهات ، وأرضاه ، وحاول المحافظة عليه مستمتعاً بوقته.

على الرغم من جهود قايتباي كلها فإن هموم السلطان جم لم تعرف طريقاً للزوال. بدا عليه القلق الداخلي باستمرار. حتى إنه في هذه الأثناء أرسل رسالة إلى أخيه الأكبر شرح له حاله ، وطلب مساعدته. وبالنتيجة فإن هذا البيت يعبر أجمل تعبير عن الانهيار النفسي الذي عاشه:

تنام بالمتعة والمرح على فراش الورد

فلِمَ أنام على رماد حمام المشقة والمهانة ؟[9]

أما بيازيد فقد وعده بأن يقدم له عشرة مئات من الألوف سنوياً. ولكن هذه المراسلات لم تؤد إلى أية نتيجة.

في النهاية أشار جم إلى طلب الإذن بالحج بعبارة: «إذا شعرت بالضيق من شيء ، فانوِ على الحج». وإثر رغبته هذه أرسله قايتباي إلى الحجاز بموكب عظيم.

انطلق السلطان جم من مصر في 20 كانون الأول/ديسمبر 1481 ، واستقبله سيد الحجاز في مدخل مكة. وبعد أدائه فريضة الحج ، سافر إلى المدينة. وزار قبر سيدنا الرسول المبارك[10]. وقدر جواره أفخم التقدير ، وعاد إلى القاهرة في 13 آذار/مارس 1482 وهو في ذروة السعادة.

التحريض القبيح

إذا كان السلطان جم قد عاد من زيارة المقامات المباركة إلى القاهرة مطمئناً وسعيداً ، فقد كانت تنتظره ترتيبات أخرى. أراد قاسم بيك قرامان أوغلو الاستفادة من الفوضى التي تعيشها الدولة العثمانية ، واستخدام جم من أجل استعادة سيادته على إقطاعيته السابقة.

ولهذا الهدف كان يرسل له رسائل تحريضية متتابعة. واتفق قاسم بيك مع سيد سنجق أنقرة محمد بيك الطرابظوني ، ولفق بعض الرسائل المكتوبة بلسان أحمد باشا غديك الموجود في قرمان (لارندا) ، وعمل على إقناع ابن السلطان. وفي هذه الأثناء أرسل بعض أصحاب الأعطيات والزعامات المسحوبة منهم أعطياتهم والضباط السابقين رسائل إلى جم نتيجة القلق على مستقبلهم ، وأبلغوه بأن هذا هو الزمن المناسب.

كان السلطان جم ممتعضاً من جموده في مصر ، وإثر هذه الأخبار القادمة من الأناضول ، فقد قرر التحرك بدعم من السلطان المملوكي. وقد شهد المجلس المنعقد بحضور قايتباي نقاشاً حاداً. وقد طرح الأمير أوزبك من أتابك المماليك بأنه في حال ترك جم يذهب إلى الدولة العثمانية ، من المحتمل أن ينشأ خلاف بين الدولتين ، وعارض هذا الأمر. على الرغم من هذا تمكن جم من الحصول على موافقة قايتباي التي ستؤدي إلى حروب طويلة بين العثمانيين والمماليك.

تحرك في 27 آذار/مارس 1482 من القاهرة مصطحباً معه مجموعة مشكّلة من بعض الزعماء والضباط ، ووصل إلى حلب في 6 أيار/مايو. كان بانتظاره هناك سيد سنجق أنقرة محمد بيك الطرابظوني. ذهب جم بعدئذ إلى أضنة ، واستقبله هناك قاسم بيك قرامان أوغلو. وحصل كاظم بيك من جم على وعد باستعادة قرامان مقابل مساعدة جم في حال نجاحه. وهكذا دخل جم مرة أخرى إلى الدولة العثمانية ليجرب حظه.

نزل جم في إريلي ، فأرسل قائد حرسه سنان بيك إلى أحمد باشا غديك على أمل التوصل إلى اتفاق. ولكنه لم يوفق بهذه المبادرة. وفي 6 حزيران/يونيو أخذ معه قاسم بيك ، وسار نحو قونية ، وحاصر قلعتها. وفي هذه الأثناء أرسل محمد بيك الطرابظوني باتجاه أنقرة.

وإذا كان السلطان جم قد حاصر قلعة قونية حصاراً خانقاً ، فإنه لم يحقق نتيجة أمام جرأة علي باشا المخصي. أما محمد بيك الذي سار باتجاه أنقرة فقد قابله سيد سادة روملي ، وفي المعركة التي نشبت بين الطرفين خسر المعركة ، وفقد محمد بيك أيضاً حياته. حين علم السلطان جم بهزيمة محمد بيك ، فك حصار قونية ، وسار نحو أنقرة بقيادته شخصياً. ولكنه لم يحقق نتيجة إيجابية في محاولته هذه أيضاً. وعندما تلقى خبر اقتراب السلطان بيازيد منه ، اضطر للانسحاب إلى آقشهير ، ثم إلى طاش إلي برفقة قاسم بيك.

لا تسقط متعباً سدى!

دخل السلطان جم مرة أخرى بمباحثات مع أخيه الأكبر الذي تبعه إلى إريلي. طلب سنان بيك كبير الحراس المرسل سفيراً إلى بيازيد بأن يترك قسماً من الدولة العثمانية لإدارة جم. ولكن هذه الفكرة لا يمكن أن تخطر مجرد خاطر في عقل بيازيد. فقال بيازيد في الرسالة التي أرسلها إلى جم:

«ليس سراً في يومك المنير بأن الدولة العثمانية تشبه عروساً مدللة مغطاة من فرقها إلى قدمها. ولا يمكن لعريسين أن يخطباها ، ولا يحتمل الوسط بطلاً. لهذا السبب صم

أذنيك عن هذا العرض السيئ، ولا تقودوا خيولكم لتتعبوها سدى، ولا تدنسوا أطراف أثوابكم بدماء المسلمين. إذا اخترت الإقامة بشرف وسعادة في القدس الشريف، فما الذي يحدث إذا سكنت في الأراضي المقدسة؟ وسيصل دخل مالك الموجود حتى الآن دون نقص كل سنة. وقد أقسم السلطان على هذا»[11].

على الرغم من هذا، رفض جم بإصرار هذا العرض في كل مرة، وأعاد طلبه على هيئة السفراء برئاسة الدفتر دار محمد بيك والإمام علي بخشايش أوغلو. أخيراً رد عليه بهذه الأبيات إضافة إلى ما كتبه من قبل:

منحنا القدر نصيب السلطنة

فلماذا لا تقبل بهذه القسمة؟

حظيت بشرف حج الحرمين

فلِمَ تبالِ بسلطنة الدنيا؟[12]

رد السلطان جم كل عروض أخيه الواقعية، وأصر على طلب حصة من مال والده وملكه. إثر هذا أرسلت قوات الأناضول بقيادة أحمد باشا هرسك زادة ضد السلطان جم. أما جم فقد قرر الانتقال إلى الطرف الروملي عن طريق البحر بعد الاتفاق الذي أجراه مع قاسم بيك قرامان أوغلو.

في الحقيقة إن هدف جم كان الذهاب إلى حاكم الغنم الأبيض. ولكن قاسم بيك أصر بشكل خاص على انتقاله إلى روملي. لأنه كان يحسب حساب صدام بيازيد مع جم في روملي، واستغلال هذه الفرصة من أجل اقتطاع جزء من دولة القرامانيين. اعتقد ابن السلطان المنحوس بأن هذه الازدواجية من صالحه، فركب السفن مع ثلاثين من رجاله من ميناء كوركوس في 18 تموز/يوليو 1482، واتجه إلى رودوس. وبهذا ستستمر مغامرة ابن السلطان الأوروبية التي دامت ثلاثة عشر عاماً.

نزل السلطان جم في رودس التي كانت بيد فرسان طريقة القديس يوحنا في 26 تموز /يوليو 1482 ، واستقبله أتباع الطريقة وعلى رأسهم الأستاذ الأعظم بيير دي أوبوسون استقبال الحكام ، وفرشوا له السجاد الأحمر في الطرق التي مر منها. وعبر وسط الأهالي النازلين إلى الشوارع ، وبرفقة قائد الفرسان إلى القصر المخصص لإقامته.

أما الحقيقة فلم يكن جم سوى أسير لدى أعداء الترك فرسان القديس يوحنا الذين يريدون استخدامه لمصلحتهم. وبالفعل فقد حاول دي أوبوسون الاستفادة من هذا الوضع فأرسل رسائل إلى حكام أوروبا جميعاً وعلى رأسهم البابا سيكستوس الرابع ، وأبلغهم بإمكانية التخلص من الأتراك ، وطردهم من أوروبا في حال تحركوا فوراً.

أما جم فقد خُدع بمجاملات دي أوبوسون والمظاهر التي عرضها له ، ووعده في حال تسلمه الحكم بإعادة الجزر التي أخذت من الرودوسيين لهم ، ومنح سفنهم حرية حق الرسو في موانئ الأتراك ، وإعفائها من الجمارك وضرائب الملح. وتعهد بتقديم مائة وخمسين ذهبية مقابل النفقات التي تصرف عليه.

من جهة أخرى فقد قلق السلطان بيازيد من انتقال جم إلى رودوس. وكلف أحمد باشا غديك ومسيح باشا الذي حاصر رودوس في زمن الفاتح بلقاء الفرسان ، والتوصل إلى اتفاقية معهم. أرسل بيير دي أوبوسون بناء على طلب أحمد باشا غديك وإذن البابا سفيرين إلى بيازيد ، وعقد معه اتفاقاً. بحسب الاتفاق ، وافق بيازيد على دفع خمس وأربعين ألف دوكا للفرسان في آب /أغسطس من كل سنة مقابل محافظتهم على حياة جم.

وقد وضع الفرسان بعين اعتبارهم إمكانية حصار بيازيد لرودوس والضغط عليها ، فوجدوا أن الأنسب نقل ابن السلطان جم إلى إحدى القلاع الواقعة في المتوسط بإذن من ملك فرنسا. وبهذه الطريقة ، يبدو أنهم فكروا بإمكانية إلهاء جم عندما يريد الانتقال إلى روملي لأنه سيعبر من الطرق الأوروبية. بالنتيجة بقي جم خمسة أسابيع في رودوس ، وغادر

الجزيرة مع اثنين وثلاثين من معيته في الأول من أيلول /سبتمبر 1482[13].

وحقيقة هذا النقل جعل السلطان جم مصدر دخل مهم بيد الفرسان ، واستخدامه سلاحاً دائماً ضد العثمانيين.

وهكذا خدع جم مرة أخرى بأمل دخول الأرض العثمانية في روملي عن طريق المجر. وقد ذهبت السفن التي تحمل جم ومعيته بداية إلى جزيرة إستانكوي (كوس) ، ومنها إلى سيراقوسة ، ومن ثم عرّجت على مسينة ، وأخيراً وصلت إلى فيلفرانش على الشاطئ الفرنسي في 16 تشرين الأول /أكتوبر. بعدئذ أخذ جم إلى مدينة نيس التابعة لدوقية سافوي ، وبقي مدة طويلة في هذه المدينة التي أحبها كثيراً. في النهاية فهم السلطان جم من خلال تصرفات الرودوسيين ومواقفهم أنهم سيستغلونه من أجل تحقيق فائدة سياسية. ولهذا السبب أرسل رسالة إلى بيازيد يطالبه فيها ألا يتركه بين أيدي الكفار.

وخلال سكن السلطان جم في دوقية سافوي تخلى عن فكرة الحصول على عرش العثمانيين ، وعبر عن هذا الأمر بهذه القصيدة:

يا جم أترِع جام الذل فهؤلاء فرنكشتان

إنه قدر يمكن أن يكتب على جبين الكل

حججنا إلى كعبة الله وطفنا حولها مرة

وهذه بألف قرامان وعجم وملك عثمان

نحمده أننا وصلنا فرانكشتان سالمين

لأن كل سليم يعتبر سلطاناً على نفسه

لا تفوت فرصة أكل وشرب ومتعة

لن تدوم هذه الدنيا لأحد فاسمها الفانية

السلطة ليست غير ذلك يا جم

كن رقيقاً وشفافاً وشاعرياً في المجلس

اشكر ربك لمنحك صك السلطنة

أنا معجب بقوام الغلمان الممشوق

للرجل متعة جميلة في هذه الدنيا

ويكذب من يقول إن السلطنة دائمة

إن الذين حكموا الدنيا شرقاً وغرباً

هم ضيوف سليمان كان أو إسكندر

النفس زائلة حتى وإن كانت سلطاناً

سبحان الحي الباقي يهلك من يشاء

بأمرك يمكن أن ينفذ العالم ما تشاء

وبأمره الزوال من أسهل ما يكون

أتوسل للمصطفى لأحظى بحريتي

وهل مصير الشهوم زنازين الفرنجة

سر يا بيازيد ، استمر بعصرك أنت

كذب من أبلغك بأن السلطنة دائمة[14]

ويصور جم بأنه كان حراً إلى درجة ما في المدينة من خلال هذا البيت:

ترى هل هذه المدينة نيس مدينة

حيث كل شخص بالنسبة إليها نيس

أثناء إقامة جم هناك ، أرسل نصوح خطيب زادة جلبي سراً إلى ملك فرنسا لويس الحادي عشر من أجل الحصول على دعمه. ولكن الفرسان قبضوا على خطيب زادة ، وسجنوه في قرية قريبة من نيس مما أفشل هذه المحاولة ، وبقي ينتظر أربعة أشهر.

من قصر إلى قصر

نتيجة ظهور الوباء في نيس ، وجد الفرسان أن بقاءهم في هذه المدينة غير مناسب ، فانتقلوا إلى شامبيري مركز دوقية سافوي. أَرسل جم من هناك رجليه المقربين مصطفى وأحمد بهيئة الإفرنج إلى ملك المجر.

التقى السلطان جم في شامبيري بدوق سافوي شارل الأول الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره تواً. تأثر شارل كثيراً عندما استمع لقصة جم منه مباشرة ، وإذا كان قد وعده بأن يفعل ما بوسعه من أجل إنقاذه من هذا الوضع ، فقد سمع الفرسان بهذا الأمر ، وقرروا إبعاده عن هذه المدينة فوراً. وفي 20 تموز /يوليو وصلوا إلى مدينة داوفين على طريق نهر رون ، وسجنوا جم هناك في قصر بوت. وفي هذه الأثناء قبضوا على الرجلين اللذين أرسلهم جم إلى ملك المجر ، وقتلوهما.

في هذه الأثناء يعرج على سافوي السفير فوق العادة حسين بيك الذي أرسله بيازيد الثاني إلى ملك فرنسا لويس للتباحث معه. وإذا كان السفير قد بادر مع الفرسان للقاء جم ، فإنه لم ينجح بمبادرته. ولكنه تمكن من إيصال رسالة بيازيد خان له. يعرض بيازيد على جم استمرار عرضه السابق فيما لو تخلص من الفرسان.

يقصد سفير بيازيد ملك فرنسا ، ويعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال وهدايا ذات قيمة معنوية مقدسة بالنسبة للمسيحية موجودة في الخزينة السلطانية في إسطنبول مقابل

المحافظة على جم. ولكن لويس الحادي عشر كاثوليكي متعصب ، لذلك لم يقبل شيئاً من المسلمين ، ورفض العروض ، وحذر حتى من لقاء السفير.

إثر وفاة لويس الحادي عشر في 30 آب/أغسطس 1483 ، اتخذ الفرسان إجراءات احتياطية جديدة تحسباً لأي فوضى يمكن أن تحدث في فرنسا. في المرحلة الأولى فصلوا الرجال التسعة والعشرين المرافقين لجم بالقوة ، وأرسلوهم إلى رودوس. ونقلوه إلى قصر ساسيناج.

رأت فيلبينة هيلينة الجميلة والجذابة ابنة حاكم القصر البارون جاجغوس دي ساسيناج السلطان جم ، ووقعت بغرامه. وقبل مرور فترة طويلة ولد بينهما عشق عظيم يصلح لأن يكون موضوعاً للروايات ، واستمرت بينهما المراسلات واللقاءات[15].

أثناء عيش هذه التطورات على صعيد جم ، كان بيازيد خان يتخذ بعض الإجراءات الاحتياطية في أدرنة. قتل أحمد باشا غديك أحد قادة جم المشهورين خلال وليمة أقيمت له في أدرنة بتاريخ 18 كانون الثاني/يناير 1483. كان الوزير الأعظم إسحاق باشا حميُ أحمد باشا غديك قد عُزل من منصبه ، وأحيل إلى التقاعد مع سنجق سيلانيك. فيما بعد قتل ابن جم أوغوظ خان بموجب فرمان محافظ إسطنبول إسكندر باشا. ولم ينفد قاسم بيك قرامان أوغلو من النتيجة نفسها باعتباره هو الذي دفع السلطان جم إلى هذه الأمور.

على الرغم من معاناة السلطان جم في الغربة التي جعلته يعاف روحه ، انهار عندما سمع بخبر موت ابنه أوغوظ خان ، وغرق بآلام جديدة وعميقة. حاول أن يعبّر عن آلامه شعراً ليجد لنفسه سلواناً.

مزقت الدنيا ياقتي بعد كل آهاتي

لأن همّ أوغوظ خان لهيباً في روحي

لا أبادل شعرة من أوغوظ خاني

بمال قارون وألف مثل ملك آل عثمان

سُمع بأن أوغوظ خان قد استشهد

فجن جنون جم في بلاد الفرنجة[16]

في مطلع عام 1484 كان جم في قصر بورغ—نيوف الموجود في منطقة ليموغس. بعد تلقّيه خبر وفاة أوغوظ خان ، بدأ يفكر بشكل جدي بالهرب ، والبحث عن طريقة يتجاوز فيها حراسه. عندما لم يحصل على نتيجة من محاولاته العديدة ، خطط رجاله المقربون حسين الصوفي ، وأياس ، وجلال ، وسنان ، وشادي الصوفي لقتل الحراس أثناء النزهة الصباحية ، وتهريب جم. ولكن أحد المقربين من جم أفشى الخطة ، وكشف الأمر. عندما أدرك السلطان خطورة الأمر ، نقله إلى برج أنشئ حديثاً مؤلف من سبعة طوابق تور دي زيزيم (برج جم)، ووضع هناك تحت رقابة شديدة.

لم يكتب جم خلال السنتين اللتين قضاهما هنا الغزل فقط ، فقد حاول تبديد وحدته بتعليم ببغاء الكلام ، وقردٍ لعب الشطرنج.

من جهة أخرى كانت هناك فعاليات دبلوماسية كبرى بين الدول الأوروبية في سبيل الحصول على جم. وقد دخل كثيرون بمحاولات على هذا الصعيد على رأسهم البابا الجديد إينوسنت الثامن ، وملك نابولي وأخيراً ملك المجر ماثياس كورفين.

كان البابا يريد جم لترتيب حملة صليبية بقيادته ، ويريده المجريون للهدف نفسه ولكن على أن يعدوا الحملة هم ، أما نابولي ومؤيدوها فقد كانوا يخططون للحصول على منافع معينة من خلال حصولهم على جم. أما الفرسان فقد كانوا يجوبون بجم من قصر إلى آخر في فرنسا من أجل ألا يخطف منهم.

إلى جانب هذا ، إضافة إلى الأموال التي يحصل عليها الفرسان من بيازيد ، فقد كانوا يكتبون رسائل عن لسانه إلى والدته الموجودة في القاهرة الخاتون تشتشك ، وإلى

زوجته للحصول على مزيد من النقود. إضافة إلى ذلك فإن الإبقاء على ابن السلطان بين أيديهم هو نوع من الضمان لرودوس. فإذا حاول بيازيد شن حملة على رودوس فإن الدول المسيحية وعلى رأسها البابوية ستشكل جيشاً كبيراً ، وتطرح جم قائداً لهذا الجيش.

ولكن ضغط بيازيد من جهة ، وضغط الدول الأوروبية من جهة أخرى جعل الفرسان يجدون صعوبة بالمحافظة على جم بين أيديهم ، وبموجب موافقة ملك فرنسا ، قبلوا بتسليمه للبابا.

السلطان جم في روما

بحسب الاتفاقية ، تقرر ترك الخمسة والأربعين ألف دوكا التي يقدمها السلطان بيازيد للفرسان ، مقابل منحهم امتيازات مهمة. ومقابل هذا القرار المهم جداً الذي اتخذه رئيس فرسان رودوس ، رُفِّع إلى درجة كاردينال. وقد خصص البابا عشرة آلاف دوكا من الخمسة والأربعين ألفاً لملك فرنسا.

على الرغم من هذا فإن سفر جم الذي انطلق في 11 تشرين الأول/أكتوبر 1488 من بورغ –نيوف إلى مرسيليا عبر نهري ليون ورهون ، ومن هناك إلى طولون فقد أوقف بناء على طلب ملك فرنسا شارل الثامن. لأن سفير بيازيد فوق العادة القادم إلى ملك فرنسا عرض تقديم خمسين ألف ذهبية سنوياً في حال بقاء جم في فرنسا ، وترك كنيسة القيامة للمسيحيين في حال السيطرة على القدس ، إضافة إلى إرسال الأشياء المقدسة إلى الملك.

على الرغم من أمر الملك بإيقاف الترحيل ، فقد أُركب جم بالسفينة من طولون كأنه مخطوف. بداية سلكوا الطريق الساحلي إلى أوستيا ووصلوا إلى روما عن طريق نهر تيبر. واستقبلته هنا نخبة روما كلها وقطعاتها العسكرية ما عدا البابا والكرادلة.

وعلى ظهر الحصان ، وبرفقة الابن فرانسيسكو سيبو جاب أزقة روما بموكب مهيب ، ووصل إلى المكان المخصص له في الفاتيكان.

في اليوم التالي (14 آذار/مارس) استقبل البابا إنوسنت الثامن جم بشكل رسمي. استقبل البابا والكرادلة والسفراء المتواجدين في روما جميعاً ابن السلطان واقفين. وكان البابا قد اعتمر تاجه الكبير، وألبسة المراسم. طلب موظف التشريفات من جم بأن يخلع قبعته المخروطية على الأقل وينحني أمام البابا، لأن الأباطرة يقبلون قدمي البابا في حضرته. اعتبر ابن الفاتح أن هذه الحركة ذلاً، وعبر بنبرة حازمة أنه لا يمكن أن ينحني سوى أمام والده. لم يقبل بخلع القبعة المخروطية، والانحناء على الرغم من الإصرار كله، وتوجه إلى البابا مباشرة، وعانقه كما عانق الكرادلة.

شرح جم بالتفصيل سبب سفره إلى رودوس منذ البداية، وبعد هذا الشرح أبدى رغبته بأنه ليس لديه أمل سوى الذهاب إلى مصر ليعيش مع عائلته هناك، وطلب التوسط بهذا الموضوع.

كان البابا يريد أن يستخدم ابن السلطان في حملة مسيحية يشنها ضد العثمانيين. وانطلاقاً من هذا الأمر أبدى حزنه على جم، وبعد أن ذرف الدموع معه، اقترح عليه الذهاب إلى المجر. استشعر ابن السلطان الذكي أن البابا يريد أن يضعه في مقدمة حملة صليبية.

شرح ابن السلطان بأن حملة كهذه يمكن أن تسبب كرهاً واسعاً في العالم الإسلامي، ومن غير الممكن أن يقبل أمراً كهذا. إثر هذا خرج من لسان البابا جملة:

«اذهب إذاً، ونم في زاوية مثل الكلب».

وكان جم يعرف اللغة نفسها، فرد باللغة اللاتينية بنبرة حادة:

«إذا لم تكن أسوأ من الكلب القادم إليك، فأنت على وشك أن تكون هكذا!».

إثر هذا الجواب الذي تلقاه البابا، اعتذر بخجل، وحول الموضوع نحو مجرى آخر[17].

قضى جم مرحلة صعبة في كنيسة القديس أنجيلو خلال عهد البابا إنوسنت الثامن. وإثر موت البابا عام 1492 ، وفي عهد البابا الجديد ألكسندر بورجيا بدأ يعيش جم حياة أكثر حرية. كان باستطاعته أن يقوم بنزهة على الحصان خارج روما ، ويشارك بالولائم التي يقيمها النبلاء في الهواء الطلق أو الصالونات. وفي أثناء تلك الاجتماعات كانت فتيات العائلات النبيلة يدرن من حول هذا الأمير العثماني من أجل التقرب منه أو الحديث معه. وحتى إنه يروى أن لويزا بورجيا ابنة البابا الشهيرة بجمالها قد رقصت شبه عارية أمام جم.

وقد اشتهر جم أثناء جولاته في روما بمساعدته للفقراء الذين يقابلهم. وقد فتحت هذه التصرفات الباب أمام تفسيرات خاطئة بسبب عدم تطور البعد الإنساني لدى المسيحيين في تلك الفترة ، واعتبر ابن السلطان قريباً من الديانة المسيحية. واستمد البابا ألكسندر بورجيا الجرأة من هذه التصرفات ، وعرض على السلطان جم اعتناق المسيحية في أحد اللقاءات. وأبلغه أنه إذا فعل هذا سيحظى بجذب العالم المسيحي الأوروبي كله إلى جانبه ، ويجلس على العرش العثماني براحته.

ولكن السلطان جم رد بجواب حازم قائلاً: «أنا لا أترك ديني ليس من أجل سلطنة العثمانيين ، بل من أجل سلطنة العالم كله!» واضطر البابا أن يتحدث بليونة لمدة طويلة من أجل تهدئة ابن السلطان.

لم تستمر طويلاً أيام الراحة تلك التي قضاها جم في روما. لعب موت ملك المجر ماثياس كورفين دوراً بحركة أوروبا من جديد.

في هذه الأثناء بدأت البندقية بمبادرات العمل على إعداد حملة صليبية إزاء هجوم طلائع المقاتلين العثمانيين على أراضي البندقية. وقد طلبوا من البابا بأن يكون جم في مقدمة حملة من هذا النوع ، وشرحوا له أهمية هذه الحركة ، وطلبوا تسليمه لهم. إلى جانب هذا فقد عملت البندقية على حل الخلاف بين فرنسا ونابولي ، وجلبهما إلى جانبها من أجل تأسيس تحالف قوي ضد العثمانيين.

مقابل هذه المبادرات التي تقوم بها البندقية ، توجه ملك فرنسا شارل الثامن بجيش كبير إلى إيطاليا في أيلول /سبتمبر من عام 1494. كان هدف شارل السيطرة على مملكة نابولي ، ثم أخذ جم معه ، لينظم حملة صليبية كبرى إلى القدس.

في هذه الأثناء هاجم قائد إحدى القلاع السفير التركي مع سفير البابا الذي يحمل النقود كل سنة لتسليمها للبابا ، وصادر الأوراق التي كانا يحملانها. ووقعت رسالة كان قد كتبها بيازيد للبابا بيد ملك فرنسا.

في رسالة بيازيد يتعهد بدفع مائتي ألف ذهبية للبابا في حال قتل جم. صادر شارل الرسالة ، ودخل إلى روما في كانون الثاني /يناير 1495 ، وطلب من البابا أن يسلمه جم. وافق البابا بشرط أن يعيده إلى البابوية بعد عودة الملك إلى فرنسا.

خذوا جنازتي إلى ديار الإسلام

وهكذا يتعرف السلطان جم على الملك شارل في قصر القديس أنجيلو ، وفي 26 كانون الثاني /يناير يسلم البابا جم لملك فرنسا. في 28 كانون ثاني يغادر الجيش الفرنسي روما ، ويشارك بالحملة على نابولي ، ويسيطر على العديد من القلاع.

عندما كُسرت مقاومة مملكة نابولي ، وتمت السيطرة على قلعة سانجيرمانو ظهرت أعراض المرض على جم. تقدم المرض بعد فترة ، وانتفخ وجهه وعيناه ورقبته. وأصبح ينقل على نقالة لعدم إمكانيته ركوب الحصان.

عندما شعر بقرب نهايته ، قال لرجاله المخلصين القريبين منه:

«حاولوا أن تبذلوا الجهد لنقل جنازتي إلى دار السلام. احذروا أن تتركوني في بلاد الفرنجة ، ويستغل أعداؤنا الأمر ليهاجموا بلاد الإسلام باسمي».

وفي الحقيقة عندما أدرك السلطان جم أن حملة صليبية تنظم باسمه على الدولة العثمانية ، كثيراً ما كان يناجي ربه قائلاً:

«يا إلهي! إذا كان أعداء الدين هؤلاء يهدفون من هذه الطقوس السيئة حملة على أهل الإسلام بسببي ، فلا تجعلني أشهد على ذلك اليوم. خذ روحي بأسرع ما يمكن. خذني إلى رحمتك». وفي المراحل الأخيرة ، يقدم الوصايا انطلاقاً من القلق ذاته[18].

فيما بعد كتب رسالة لأخيه الأكبر السلطان بيازيد رجاه فيها أن يجلب والدته وأولاده ، ويرعاهم ، وألا يحرم من أخلصوا في خدمته من رعايته[19]. كان أصدقاؤه الذين لم يتركوه لسنوات طويلة يبكون.

على الرغم من اهتمام الملك شارل بالسلطان جم الذي دخل نابولي ، فقد توفي في 25 شباط /فبراير 1495 يوم الجمعة. وحُنط جسده بأمر من الملك.

بحسب ما نقل فإن جلال بيه غسل جم قبل معرفة الملك بخبر وفاته ، وكفنه بلفة كبير حراسه سنان بيك. وبعد أن صلى عليه من كان معه ، أخبر ملك فرنسا بالوفاة[20].

قالوا حدث الأمر وعلينا الدعاء

رحم الله جم وأراحه في الجامع[21]

هناك روايات عديدة حول مقتل جم بالسم أو المرض. يدعي بعض المؤلفين العثمانيين أن البابا أرسل لجم حلاقاً حلق له لحيته بموسى مسمومة تسببت بموته ، ويدعي البعض الآخر أن الحلاق قد أرسله بيازيد وهو كبير الحراس مصطفى بيك. يقول المؤلفون الإيطاليون المعاصرون له بأن جم سممه البابا ، ومن ثم سلمه لملك فرنسا.

ويقول كبير رجال المراسم بورشارد الذي رأى جم بأنه من الممكن أن يكون قد تسمم نتيجة تناوله طعاماً لم يناسب طبيعته ، أما المصادر البندقية فتفيد بأنه مات نتيجة المرض. مؤلفو الوقائع المرافقين لجم يقولون بأنه توفي نتيجة تسمم غذائي أو مرض[22].

يعتقد بعض المؤلفين بأن قتل البابا لجم لن يفيده بشيء ، ويعتبرون أن موته كان طبيعياً. ولكن طلب البابا النقود التي وعد بها بيازيد بعد وفاة جم تشوش العقول. لهذا

السبب يمكن القول إن البابا لم يثق بالاتفاق الذي عقده مع ملك فرنسا ، فسمم جم الذي فوته من بين يديه ، ولهذا طلب النقود. ومن جهة أخرى فإن خشية البابا من محاسبة السلطان بيازيد الثاني على تسليمه ابن السلطان لملك فرنسا ، تعطيه السبب الكافي من أجل الإقدام على تصرف من هذا النوع.

من جهة أخرى فإن بقاء جم ثلاثة عشر عاماً في أوروبا ربط يديه ورجليه ، ومن الطبيعي أن يقضي عليه. ولكن حمايته الشديدة تجعل من الصعب جداً وصول أحدهم من إسطنبول إلى قربه ، والحلاقة له.

بالمقابل فإن سنان بيك الذي بقي بخدمة ابن السلطان جم حتى اللحظة الأخيرة ، وعند عودته إلى إسطنبول دخل بخدمة بيازيد ، ورُفع لرتبة باشا ، ألا يمكن أن يكون قد أقدم على هذا العمل ؟ من الممكن أن يكون سنان بيك قد طرق هذا الطريق مقابل تفكير الملك شارل بتجهيز حملة على القدس.

من غير الممكن الاستهانة بما أفاد به كبير رجال التشريفات الذي كان بجواره ، والمصادر البندقية. ولا يستبعد أن يكون قد أصيب بتسمم غذائي نتيجة بقائه سنوات طويلة بعيداً عن عائلته ووطنه ، وعاش حياة أليمة قضى معظمها في السجن ، وشعر بالقلق من استخدامه أداة في حرب صليبية ، ولهذا السبب فقد أنهك جسده وتوترت أعصابه ، وتناول طعاماً في بلدان لم يألف أطعمتها.

بالنتيجة فإن كل ادعاء حول وفاة السلطان جم يمكن أن يحمل قدراً من الحقيقة. لهذا السبب لا يمكن الإفراج عن ستارة سر هذا الموضوع بسهولة. الحقيقة أن السلطان جم قد انتقل إلى الحياة الأبدية.

الحكم لله

كان حيدر جلبي من قصبة سفرحصار دفتر دار السلطان جم ، ورفيق دربه ، وشريك همه. فهو الذي جلب خبر موته وبقايا أغراضه من أوروبا إلى إسطنبول. بحسب

الروايات فإن هناك ببغاءً أبيضَ علمه السلطان جم الكلام أثناء إقامته في قر بورغ – نيوف. وكان ذلك الببغاء يتكلم بشكل غاية في الجمال، ويقطر العسل من فمه. كان الببغاء يقول للسلطان جم كل يوم «الله ينصر السلطان جم»، وبعد موته، بدأ يقول بحزن وألم: «الله يرحم السلطان جم»[23].

عندما جلب حيدر جلبي هذا الببغاء الأبيض إلى إسطنبول، صبغه بالأسود، وشبهه بالغراب، وألبسه ثياب الحداد، وعلمه مراسم العزاء، ثم قدمه هدية للسلطان.

حينئذ ردد الببغاء بلسان فصيح عدة مرات: «الحكم لله، وليس بيد العبد. أطال الله عمر سلطان سلاطيننا» أعجب سلطان السلاطين كثيراً بهذا التعليم والحِكم، ومنح حيدر جلبي زعامة كبيرة على قلعة غرميان[24].

كان بيازيد خان قد توسل للسلطان جم بأن يسكن في القدس، وأبلغه في كل فرصة بأنه سيفي بوعده هذا إن تمكن من تحريره. إذا كان خبر موته مفرحاً على صعيد الدولة، فقد كان محزناً على صعيد الإخوة. لهذا السبب أقيمت عليه صلاة الغائب. وأعلن الحداد ثلاثة أيام، ووزع على الفقراء مائة فضية صدقة.

بعد تحنيط جسد جم بأمر من الملك على يد رجاله المخلصين، دفن في مكان يدعى غايتة. وقد بذل بيازيد خان جهوداً دبلوماسية كبرى من أجل جلب جنازة جم. أخيراً، هدد نابولي بأنه في حال عدم تسليم جثة جم خلال ثمانية أيام، سيرسل الأسطول إلى هذه الدولة، وينزل الجيش في جنوب إيطاليا، ويأخذها بالقوة.

ارتبك ملك نابولي فريدريكو إزاء هذا التهديد الشديد اللهجة، فاضطر لإرسال جنازة جم إلى أولونيا. استقبلت الجنازة في أولونيا من قبل الأسطول السلطاني بطلقات المدفعية، وتم استلامها. جلب الأسطول التركي الجنازة من أولونيا إلى مودانيا. وهكذا دفن السلطان جم بعد أربع سنوات من وفاته عام 1499 في حظيرة جامع المرادية بجانب أخيه الأكبر الأمير مصطفى. عندما توفي كان في السادسة والثلاثين من عمره.

عندما كان ابن السلطان محمد الفاتح الأصغر جم صغيراً تلقى دروساً خاصة في قصر أدرنة وتعلم اللغة العربية والفارسية بشكل جيد جداً. وسيتعلم فيما بعد اللاتينية واليونانية والإيطالية والفرنسية. ويروى بأنه كان ينظم أجمل الغزل عندما عين سيداً لسنجق قصطامونو الذي يعتبر مركزاً ثقافياً في تلك الفترة.

وإثر وفاة أخيه الأكبر مصطفى عام 1474 ، أرسل إلى قونية ليكون سيداً لسنجقها. وتابع جم هناك تعليمه ، وإضافة إلى ما تلقاه من العلم والثقافة ، فقد اكتسب مهارة بالرماية والفروسية من الخصائص العسكرية.

أثناء وجوده في قونية جمع من حوله شعراء كبار مثل سعدي ، وسهاي ، ولالي ، وقاندي ، وشاهدي ، وحيدر جلبي. قسم من هؤلاء الشعراء لم يفارقه عندما اضطر لمغادرة البلد ، ولهذا أطلق عليهم اسم «شعراء جم».

بعد خسارته الصراع على السلطنة أمام أخيه بيازيد الثاني ، وعبوره عام 1482 إلى أوروبا عاش حالة من الانهيار الكامل. وبعد هذا التاريخ عاش حياة غربة وضيق وحزن وشوق لعائلته ووطنه على مدى ثلاثة عشر عاماً.

يروي نائب حاكم رودوس المؤرخ غوليوم كاورسين الذي وجد الفرصة للتعرف على جم عن قرب حول وضعه الجسمي والنفسي الآتي:

«السلطان جم في الثامنة والعشرين (في الحقيقة في الثالثة والعشرين) من عمره. طويل القامة ، وصحيح الجسم ، ويبدو عليه التكبر. عيناه زرقاوان ، بل شهلاوان قليلاً ، وحاجباه كثان ، وينعقدان فوق أنفه مباشرة. وهو ماهر جداً بالفروسية والصيد والرماية. بشرته مائلة إلى اللون الكستنائي. وهو ملتح. على الرغم من كونه مهاجراً ولاجئاً لا يقدم أي تنازل في شخصية الأمير. إنه صاحب عزة نفس ووقار. متعلق جداً باللغة التركية. ويجيد فن الكتابة بشكل متقن جداً»[25].

ويبين ماتيو باسي الذي رأى ابن السلطان شخصياً بأنه يشبه والده الفاتح كثيراً.

أما سانوتو الذي حضر مراسم تعريف البابا للأمير جم على ملك فرنسا شارل ، فيقول:

«يلاحظ على حركات ابن السلطان ومواقفه أنه يمتلك صفات المحارب الكبير. عدم وصول أمير كهذا لقيادة الأتراك هو لطف كبير من الرب بالمسيحيين»[26].

إضافة إلى امتلاك السلطان جم ثقافة متجذرة ، ومعرفته الأدب الكلاسيكي بشكل جيد ، فهو يكتب شعراً عميقاً طافحاً بالخيالات الغنية بفضل تمكنه العميق من الأدب الفارسي. يمكن اعتبار قصائده على بحر الغزل دروساً في الشعر ، وكان السلطان جم أهم من كتب حول الغربة وحب الوطن. وله ديوانان أحدهما بالتركية والآخر بالفارسية.

من المؤكد أن الذين عرفوا سيرة حياة السلطان جم التي عاشها في أوروبا بشكل خاص قد تأثروا بعمق. ولكنه بقي مصدر تهديد على الدولة العثمانية منذ بدئه الصراع من أجل السلطنة حتى وفاته. وبالفعل فإن سلطان السلاطين والذين يفكرون بوحدة الأراضي العثمانية لم يحظوا بالراحة طوال الفترة التي قضاها جم في أوروبا. ويلخص البيت الذي كتبه القاضي عسكر [كبير العلماء] الحاج حسن زادة وفاته بشكل جلي: «تاريخ موت جم هو في الوقت نفسه إشارة إحلال النظام»[27].

أما كمال باشا زادة فيعبر عن الراحة التي شعر بها البلد بموت السلطان جم بهذا البيت:

هدأت رياح الفتنة وسكنت[28] حين أترع جام جم بشراب الموت

في الحقيقة إن السلطان جم نفسه أدرك هذا الوضع مع الزمن ، وأراد أن يتخلى عن شغفه بالسلطنة والعرش ، وقال في كل فرصة بأنه لم يعد يريد سوى العيش إلى جانب أسرته في مصر. وحتى إن جم عبر عن ندمه بالشكل الأوضح في الأوقات التي ازدادت فيها الخطورة ، ووصل إلى وضع اشتهى فيه الموت.

من جهة أخرى فإن الغربيين الذين لا يريدون وحدة الأرض العثمانية قد وضعوه

تحت أيديهم لسنوات طويلة ، ولم يتوانوا عن نقد فرسان رودوس والبابوية الذين منعوه من الانتقال إلى روملي. وعبروا عن طمعهم بالنقود التي يرسلها بيازيد خان29.

لهذه الأسباب فإن موت جم كان بداية صفحة جديدة بالنسبة إلى الدولة العثمانية وبيازيد الثاني. لأن بيازيد الثاني لم يستطع الدخول في حرب خشية من مساهمة جم فيها من الداخل على مدى وجوده في الخارج لثلاثة عشر عاماً ، ولم يستطيع أيضاً الدخول بسياسة خارجية فعالة ، واستعاض عنها باتفاقيات يراعي فيها مصالح الدولة. ومع انسحاب جم من مسرح الأحداث ، لم تتأخر الإمبراطورية العثمانية بتوجيه السياسة الخارجية بطريقة تهدد فيها أعداءها.

كان على بيازيد أن يحل قضية بغدان باعتبارها أهم حركة سياسية ولعلها الوحيدة ضد العالم المسيحي أثناء وجود جم في رودوس.

حملة بغدان

التطورات التي برزت عام 1483 فرضت تنظيم العثمانيين حملة على بغدان. لأن المجر كان هدفهم فرض نفوذهم على بغدان ، علماً أنهم كانوا قد وقعوا مع العثمانيين معاهدة عدم اعتداء.

كان على العثمانيين أن يأخذوا بعض مدن بغدان التي تشكل قاعدة مهمة على طريق بولونيا التجاري والعسكري لأن العثمانيين يسيطرون على ثلاثة أرباع ساحل البحر الأسود.

كان السلطان محمد الفاتح قد هزم الشخصية القوية ستيفان سيل مارة ، وعوق نشاطاته بانتصاره على البغدانيين في موقعة آق درة [ألبا فاليا] عام 1476. ولكن السلطان محمد ، لم يستطع تنفيذ حلمه بسبب انتشار مرض الطاعون في الجيش ، فاضطر للعودة.

مقابل هجمات طلائع مقاتلي سيد سنجق الدانوب والقرم على بغدان ، كان

البغدانيون يضغطون بشكل دائم على بلغاريا التي تعتبر مستودع القمح للعثمانيين.

من جهة أخرى لم يُؤسَّس رابط بري مع القرم التي أصبحت تحت الحكم العثماني في عهد الفاتح. ولهذا لم يكن هناك بُدٌّ من فتح قلعتي كيلي وآقكرمان.

أراد بيازيد أن يخلِّص بلغاريا من ضغط البغدان ، فعقد اتفاقاً مع البولونيين والمجر سنة 1483 ، وشنَّ حملة على بغدان في ربيع السنة التالية. وبدأ بنقل الأحمال والمدفعية الثقيلة عبر البر ونهر الدانوب.

عندما جاء سلطان السلاطين إلى أدرنة في الأول من أيار/مايو عام 1484 بدأ بتجهيز هذه البلدة اللطيفة بالأعمال الخيرية ، وقدَّم للناس إحساناً يفوق التصور. قدم الولائم الكثيرة لعلماء المدينة وشيوخها وفقرائها ، ووزع الحلل فاتحاً قلوب أهل المدينة.

وأسس لمجمع عظيم على ضفة نهر طونجا يتألف من جامع ومدرسة دينية ومطعم ومشفى (23 أيار/مايو 1484). وأصدر فرماناً ببناء السوق والقلعة الخشبية والأسواق الأخرى التي احترقت قبل عام بالحجر.

بعد بدء بيازيد بأعمال الإعمار هذه ، دخل دوبروجا في 27 حزيران/يونيو. عبر الدانوب من مرسى إيساكتشي. انضمت إليه قوة مؤلفة من عشرين ألفاً عند فلاد من الأفلاك ، ووصل إلى أمام قلعة كيلي.

في 6 تموز/يوليو حاصر قلعة كيلي التي تعد باب بغدان من البر والبحر. أدرك قائد القلعة بأنه لن يستطيع مقاومة هذه القوة القادمة ، فأعلن استسلامه بعد تسعة أيام من المقاومة (15 تموز/يوليو 1448)[30].

بعد أن أدى بيازيد خان الثاني صلاة الجمعة في كنيسة المدينة الكبرى التي حولها إلى جامع ، ترك جنداً وعتاداً في القلعة ، ثم توجه شمالاً نحو قلعة آقكريمان الواقعة على طرف خليج صغير أحدثه نهر دينياستر.

في هذه الأثناء جاءت قوات القرم المؤلفة من خمسين ألف مقاتل بقيادة غيراي خان المنغلي ، والتحقت بالجيش.

كانت قلعة آقكريمان أكثر تحصيناً من قلعة كيلي. وفيها مؤونة وعتاد يكفيها أشهر. وهي محاطة بخندق عريض وعميق. ويصف كمال باشا زادة القلعة على النحو الآتي[31]:

أمامها خندق ماء عريض كالبحر	بابها من حديد ، وأبراجها من حجر
برجها ممكن ولا عبور خندقها	أطرافها الأربعة كبحر فلا صعود

على الرغم من هذا فقد تمكن العسكر العثماني من ملء الخندق خلال أسبوع ، وجعله بمستوى الأرض ، ولم تستطع القلعة الصمود أمام مدفعيتهم وبنادقهم أكثر من اثني عشر يوماً. في 11 آب/أغسطس طلبوا الأمان على حياتهم ، وسلموا القلعة. وقبلت الأمكنة المجاورة لقلعتي كيلي وآقكريمان الحاكمية العثمانية.

وعلى عادة العثمانيين يفتح سجل بالأماكن التي يتم فتحها. من يرغب بالبقاء يبقى في المكان ، ومن يرغب بالذهاب يسمح له بالمغادرة إلى حيث يشاء. نُقل جزء من السكان إلى بيغا القديمة على شاطئ مرمرة ، وأُسكنوا هناك[32].

حصل خان القرم المشارك في الحرب مع قائد الأفلاك على جزء مهم من غنائم الحرب. وقد أنفق السلطان بيازيد أموال الغنائم التي حصل عليها من هذه الحملة على المؤسسات العلمية والاجتماعية التي بدأ بإعمارها في أدرنة.

كانت السيطرة على قلعة آقكريمان مهمة جداً على الصعيد العسكري. بعد هذا أصبح بإمكان القوات العثمانية أن تعبر بين دوبروجا والدانوب ، والبحر الأسود ونهر بروت باتجاه الشمال ، وبالتالي تقيم ارتباطاً سهلاً مع خانية القرم.

من جهة أخرى فإن فتح العثمانيين لقلعتي كيلي وآقكريمان أنزل ضربة قوية

بالحياة الاقتصادية لبغدان. بهذا الفتح فقدت بغدان والمجر إمكانية التجارة عبر البحر الأسود.

وقد أرسل سيد بغدان سيل مارة رسالة إلى البندقية يقول فيها: «إن هاتين المدينتين (كيلي وآقكريمان) هما مولدوفيا كلها. أما مولدوفيا بهاتين المدينتين فهي سد بالنسبة إلى المجر وبولونيا» ، وأبرز بأن بلده هي قلعة بالنسبة للمسيحية في مواجهة الهجمات التركية ، ورجاهم تقديم الدعم له.

اذهبوا علناً ، واعملوا الواجب

من جهة أخرى فقد أرسل بعض الأمراء البغدانيين الذين بقوا في آقكريمان خبراً لستيفان بأن جنوده إذا جاؤوا في وقت ما من الليل إلى أمام القلعة ، سيدلون لهم الحبال ، ويمكنهم أن يدخلوهم إلى الداخل. إثر هذا قام ستيفان بعملية إنزال بالسفن في الليلة المتفق عليها.

استفاد البغدانيون من غفلة حراس القلعة ، وبينما كانوا يشدون القادمين بالحبال ، علم المحاربون المسلمون بالأمر. استنفروا بسرعة ، وقبضوا على الذين دخلوا القلعة ، وقضوا على الذين كانوا على وشك الصعود. وقدموا من أسروهم عند صعودهم إلى القلعة لسلطان السلاطين مع تقرير بالحادث. أما سيد البغدان فقد أنقذ روحه بصعوبة بالغة[33].

فور تلقي بيازيد خان الثاني الخبر حول ما جرى ، كلف سيد سادة روملي علي باشا المخصي بحملة على بغدان. وأصدر أمراً لجزء من الجيش النظامي قال فيه:

«اذهبوا ، وادخلوا بلد أولئك الكفار. فهم أرادوا الدخول ليلاً إلى الحصن الذي فتحته. اذهبوا أنتم الآن علناً ، واعملوا الواجب!».

أخذ علي باشا المخصي قوات سيد الأفلاك معه ، ودخل بغدان في أيلول/سبتمبر

1485. لم يجرؤ ستفيان سيل مارة على المقاومة ، فهرب إلى كازيمير ملك بولونيا.

عندما لم يجد علي باشا المخصي ستيفان سيل مارة بعد البحث عنه في كل مكان ، خرب عرش بغدان ، وعاد بكثير من الغنائم.

بعد مغادرة قوات علي باشا المخصي المنطقة ، عاد ستيفان سيل مارة بالقوات التي حصل عليها بمساعدة ملك بولونيا والمجر إلى بلده ، وهاجم قلعتي كيلي وآقكريمان من جديد.

إثر هذا كُلف سيد سنجق سيليسترة من قادة طلائع الهجوم بالي بيك مالكوتش أوغلو بحملة بغدان.

بعد دخول هذا القائد الطليعي إلى بغدان طلب ستيفان سيل مارة المساعدة من ملكي بولونيا والمجر. وأرسل الملكان بعض الوحدات للمساعدة.

بنى مالكوتش أوغلو جسراً على نهر بروت ، ووقف هناك مع محاربيه الطلائعيين ، وأرسل فرسان الأعطيات إلى المقدمة. رأى مراقبو العدو أن قوات مالكوتش أوغلو قد انقسمت ، وبقيت قليلة ، فأبلغوا بالأمر ، فقادوا خيولهم كلها باتجاهه ، ودخلوا المعركة.

لم يُبدِ سيد الطليعة المحاربة هذا الخبير أي هلع ، وقابلهم من جهة ، وجعل بقية القوات تنصب فخاً.

طليعة الشجعان القلة الذين كانوا مع مالكوتش أوغلو ثقبوا كثيراً من الصدور بسهامهم التي تقبض الأرواح. بعد ذلك فتتوا أكباد الأعداء بضرباتهم القاتلة. وتراجعوا ببطء ، وجرّوا العدو نحو الكمين. وفي اللحظة التي اشتدت فيها حرارة الحرب ، وشعر العدو بأنه على وشك تحقيق النصر ، خرج الجنود الكامنين على أصوات التهليل والتكبير وقرع الطبول وإطلاق الأبواق ، وهاجموا العدو.

العدو الذي لم يستطع التغلب على عدد قليل من الطليعة المحاربة خلال

ساعات طويلة ، اعتقد بأن وحدات جديدة قد جاءت للإمداد ، فاهتزت معنوياته ، وبدأ يبحث عن طرق الهرب.

أمر مالكوتش أوغلو طلائعه بملاحقة الهاربين ، فقتلوا عدداً كبيراً منهم. وعادوا محملين بكثير من الغنائم34.

أدرك أمير بغدان ستيفان سيل مارة بأنه لن يستطيع التغلب على العثمانيين. ورضخ للعثمانيين كي لا يزيد من خراب بلده ، وقبل بدفع ضريبة سنوية مقدارها أربعة آلاف ذهبية. وأوصى ابنه الذي يحمل اسم بغدان في آخر عمره ألا يسلم أموره للأمم الأخرى غير الأتراك لأنهم الأقوى ، والتزم حكام بغدان كلهم تقريباً بهذه الوصية.

الأحداث التي أدت إلى الحرب مع المماليك

خربت العلاقات بين العثمانيين والمماليك نتيجة الصراع على النفوذ في بلد دولقادر بشكل خاص ، ووصلت الأمور إلى قيام السلطان محمد الفاتح بتجهيز حملة على هذا البلد. ولكن من المحتمل أن وفاة الفاتح في طريقه إلى الشام فرض الهدوء محل التوتر بين هذين البلدين.

في أواخر عهد السلطان محمد الفاتح أقيمت علاقات بين العثمانيين وحاكم الهند ، وعند مجيء سفير شاه الهند محمود الثاني إلى جدة علم بوفاة الفاتح. وصادر النائب المملوكي في جدة الهدايا الثمينة التي أرسلها الشاه محمود إلى سلطان السلاطين ، وأرسلها إلى قايتباي. وقد أنزل مستواه إلى خنجر من بين الهدايا التي تم وضع اليد عليها. وتضايق بيازيد الحاكم العثماني من دناءة النفس هذه ، ولكنه لم ينبس بكلمة.

تأججت الخصومة من جديد على الرغم من حسن النية العثمانية بلجوء السلطان جم إلى المماليك في صراعه على السلطنة ، واستقباله بشكل جيد ، وعدم تلبية طلب بيازيد بتركه ، وإرساله إلى الدولة العثمانية.

ومقابل ضغط أسرة أوتش أوقلر الحاكمة في تشيكوروفا وأسرة بوظوقلر في مرعش وألبستان ، قرر بيازيد الثاني رعاية السيد التركمان دولقادرلي علاء الدولة بوظقورد بيك. وكان دولقادرلي يحرض بيازيد بشكل دائم ضد المماليك35.

بالنتيجة تحرك علاء الدولة بوظقورد بدعم من العثمانيين ، وهزم كل من نائب حلب وصفد واحداً تلو الآخر (نيسان/أبريل 1484). قتل نائب حلب في المعركة ، وأسر نواب قلعة الروم وبيرة وعينتاب. وبينما كانت وحدات دولقادرلي العثمانية تسير باتجاه ملاطية وقعت في كمين نصبه الأمير أوزبك قائد القوات المملوكية ، وهزمها. استعاد المماليك قلعة غولك والأمكنة التي سيطر عليها العثمانيون ، وعادوا إلى أضنة وطرسوس.

على الرغم من هذا النصر لم يرغب السلطان المملوكي قايتباي الدخول بصراع مجهول النهاية مع العثمانيين. وبعد تشاوره مع أمرائه ، أرسل الأمير الثاني جاني بيك حبيب إلى إسطنبول عن طريق البحر.

أرسل السلطان قايتباي رسالة بأسلوبه يشرح ما جرى ، إضافة إلى ذلك رجى من الخليفة المتوكل أن يبعد الخلاف بين الحاكمين المسلمين. ولكن السفير المملوكي لم يُوفق بمحاولته هذه.

في هذه الأثناء عبرت القوات العثمانية بقيادة سيد سادة قرامان وأستاذ ابن السلطان عبد الله قراغوز باشا الحدود سنة 1485 ، ودخلت الأراضي المملوكية. تمكن قراغوز باشا من تأمين دعم القشتامور والقصطون وقرة عيسالو ، ودخل بحملة تأديبية ضد تركمان الورصق وطورغوطلو الذين يرعون المماليك. أخذوا الحصون الثلاثة التي لجأ إليها آل طورغوت الشرقيين ، ووضعوا فيها حراساً. كلف بيازيد خان حماه فرهاد بيك مع مصطفى وموسى بيك بحراسة القلاع المفتوحة36.

إثر عملية العثمانيين هذه ، بدأ قايتباي باستعدادات واسعة ، ووزع كثيراً من النقود على جنوده. بعدئذ أرسل جيشاً كبيراً بقيادة الأتابك الأمير أوزبك إلى أضنة.

أمر الأمير أوزبك بصب المدافع في حصن أياس ، وعندما وصل إلى جسر أضنة قابل القوات العثمانية. أراد السادة مصطفى وموسى وفرهاد أن يوقفوا تقدم المماليك على الجسر الحجري فوق نهر سيحان والبالغ طوله ثلاثمائة متر ، وفيه اثنتان وعشرون فتحة.

ولكن السادة العثمانيين استشهدوا على الرغم من البطولات الكبرى التي أبدوها في القتال ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى جنود الأناضول الذين أبدوا الشجاعة نفسها.

إثر هذا عُين أحمد باشا هرسك زادة سيد سادة الأناضول ، وكُلف باستعادة القلاع التي تمت خسارتها مع كيليكيا. وأرسل قرة غوز باشا سيد سادة قرامان ومحمد باشا خضر بيك أوغلو ليكونا بمعية أحمد باشا.

الغيرة في تسلسل الرتب العثمانية

قابل الجيش المملوكي بقيادة الأتابك أمير أوزبك على طريق أضنة.

وقد ظهر خطر خفي في الجيش العثماني. لم يستطع محمد باشا ابن خضر بيك البارز في عمره وشهرته ومكانته هضم وضعه بخدمة هرسك زادة. فاتفق مع قراغوز باشا على عدم بذل الجهد والإقدام الضروري في ساحة الحرب ، وخطط للانسحاب من أجل إسقاط هرسك زادة من الاعتبار.

وقد طرح نيته بكلماته التي قال فيها: «لنقدم نحن الجهد والشجاعة في هذه الأيام الصعبة والمؤلمة ، وليحظى هرسك زادة بالمحبة والتقدير والترقية والمكانة الأعلى. أما نحن فلن يعجب أحد بنا كأننا طعام دون ملح ، ولا أحد يحسب حساب تضحياتنا. وهذا ليس عمل عاقل أو سلوكه. إنه مثل زراعة البذار دون مقابل من أجل أن يحصده الآخرون».

عندما هاجم أحمد باشا هرسك زادة بجنود الأناضول الوحدات المملوكية ، اكتفى قرة غوز باشا وخضر بيك بالفرجة من بعيد. فلم تضرب أذرعهم بالسيوف ، ولم يرتموا في وسط ساحة الحرب.

بذل أحمد باشا جهوده في هذا الوضع إلى الدرجة القصوى ، وقاتل ببطولة فائقة ، وقدح من سيفه الشرر أثناء القتال. عندما رأى محاربو الأناضول قتاله البطولي أحاطوا به وسيوفهم تقطر دماً. ولكنهم بدأوا يتساقطون واحداً تلو الآخر أمام المماليك المتفوقين عدداً. وإثر انسحاب فرسان القرامان من الساحة ، عمت الهزيمة. قاتل هرسك زادة حتى لم تبق قوة بذراعيه ، وتعطلت أصابعه عن الحركة ، فوقع أسيراً لدى المماليك.

يذكر المؤلف المملوكي ابن إياس بأن أربعين ألف جندي عثماني قد قتل في معركة أضنة ، وأسر كثير منهم وعلى رأسهم هرسك زادة ، واغتُنم منهم كثير من البضائع والجمال والخيول والأسلحة والفراء والأقمشة ، وتمت السيطرة على حوالي مائة وعشرين سنجقاً عثمانياً ، وقطعت رؤوس عدد كبير من الجنود العثمانيين.

ثمة مبالغة كبرى بعدد الأربعين ألفَ عثماني بحسب المؤلف المملوكي. لأن القسم الأكبر من العثمانيين لم يدخل الحرب. ولكن القتال العنيف الذي حدث في مراحل عديدة من المعركة يظهر بأن الخسائر كانت لدى الطرفين كبيرة جداً[37].

وقد تعامل المماليك مع الأسرى العثمانيين بقسوة شديدة ، وأخذوا جزءاً من الألف وخمسمائة جندي عثماني الذين طلبوا الأمان على أرواحهم في حصار أضنة إلى حلب ، وجزءاً منهم إلى دمشق ، وجزءاً منهم إلى القاهرة ، وعلقت في رقابهم صلبان ، وجُولوا في هذه المدن ، وتعرضوا لمختلف الإهانات. أما من بقي في الطريق رافضاً المسير ، فقد ضربت رقبته ، واستشهد[38].

بعد أن دخل الأتابك الأمير أوزبك إلى القاهرة بمراسم احتفالية في تشرين الثاني/ يناير 1486 بالجنود العثمانيين المضروبين بالسلاسل لعرضهم على الناس ، صعد إلى حضرة السلطان وبجانبه أحمد باشا هرسك زادة. أهين أحمد باشا المضروبة رقبته بالسلاسل ، وفُرض عليه تقبيل الأرض. بعدئذ دار بينه وبين السلطان قايتباي الحديث الآتي:

قايتباي: ماذا كان والدك هرسك ؟

هرسك زادة: كان سلطان سلاطين إحدى ولايات الكفار.

قايتباي: كيف حصل عليك العثمانيين ؟

هرسك زادة: أخذوا بلدنا بحد السيف. وأسروني.

قايتباي: أنت عبد وأنا عبد. لماذا جئت إلى إقليمي ؟

هرسك زادة: هل يمكن للعبد أن يرفض طلباً يطلبه منه السلطان ؟ أرسلني سيدي ، وأنا جئت.

قايتباي: صحيح... كيف حصلت على الفتاة التي تزوجتها ؟

هرسك زادة: خدمتها. وبذلتُ جهداً يا سيدي ، وحصلت عليها.

قايتباي: ما رأيك بمجيئنا إلى بني عثمان ؟

هرسك زادة: ليس عجيباً أن ينتصر سلطان على سلطان. في النهاية سينتهي الأمر بود.

إثر هذا الجواب كلف قايتباي هرسك زادة بالوساطة على أمل إزالة التوتر بينه وبين السلطان بيازيد ، وعَقد اتفاقاً بينهما. وأطلق سراح كثير من الأسرى العثمانيين. وأرسل هرسك زادة مع كثير من الخيل والقماش والذهب والهدايا ، وبصحبته هيئة سفراء خاصة به إلى إسطنبول على أمل عقد صلح[39].

على الجهة الأخرى كان السلطان بيازيد قد حزن كثيراً نتيجة هزيمة أضنة ، والازدواجية التي في الجيش. وبدأ ببعض الإصلاحات في الجيش. زاد عدد الإنكشاريين. وسلحهم كما سلح الوحدات العسكرية الأخرى بأسلحة أكثر تأثيراً. وأضاف سفناً جديدة إلى الأسطول. واتخذت التدابير اللازمة من أجل أن يستطيع الأسطول تقديم المساعدة للقوات

البرية بسرعة أكبر.

في هذه الأثناء كان من الضروري تأديب الورصق وأبناء طورغوت للعبهم دوراً كبيراً بانتصار المماليك. ولهذا الهدف أرسل جيشاً عثمانياً كبيراً إلى المنطقة بقيادة الصدر الأعظم داوود باشا.

تحرك داوود باشا بجيش يضم أربعة آلاف إنكشاري ، وعشرة آلاف جندي نظامي ، وعساكر من روملي والأناضول وعربات مدفعية وبنادق في ربيع عام 1487. وانتقل علي باشا المخصي سيد سادة روملي بالسفن عن طريق غليبولو ، والتحق بالجيش في الأناضول.

وصل الجيش العثماني إلى طاش إلي ، وتحرك من ثلاثة محاور من أجل إخراج أبناء طورغوت والقضاء على الورصق. جاء داوود باشا بجنوده النظاميين من جبال بلغاريا ، وسيد سادة روملي علي باشا المخصي من طرسوس ، وقوات سيد سادة الأناضول سنان بيك من جهة مقاطعة أولاش ، وطوقوا موطن الورصق من الجهات كلها. نتيجة هذا الوضع جاء كل سادة الورصق آقباشا أوغلو ، إلوان أوغلو ، وسماق أوغلو ، إيدير أوغلو ، وإفران أوغلو ، وأوغوظ ، ولجؤوا إلى داوود باشا. بعدئذ سار داوود باشا نحو ولاية طورغوت ، ونفى منها محمد بيك طورغوطلو على الرغم من شفاعة علاء الدولة بيك دوالقادر.

في هذه الأثناء جاب علي باشا المخصي منطقة قرة طاش كلها من أولها إلى آخرها ، ونزل إلى شاطئ البحر الأسود ، ثم عاد إلى جبال البلغار والتحق بداوود باشا.

ونتيجة عدم رؤية الجيش المملوكي ، عاد داوود باشا ، وسمح للجنود بالتوزع على ثكناتهم في سهل إسطابل المجاور لآقشهير.

معركة أغا تشايرِ

على الرغم من هذا فقد بدأ العثمانيون التحضير لحملة ضد المماليك في السنة التالية. كانت القناعة السائدة بأن عملية عسكرية كبرى ستشن ضد المماليك في مصر

والغرب وتشارك فيها القوات البرية والبحرية. كان السلطان قايتباي يحاول أن يبحث عن طريقة للاتفاق مع العثمانيين بواسطة سلطان دولة الغنم الأبيض يعقوب بيك من جهة ، ويحاول عقد تحالف مع الجمهوريات الإيطالية من جهة أخرى.

أما السلطان بيازيد الثاني فقد كان يطلب من البندقيين منحه قاعدة عسكرية في قبرص. ولكن المجلس البندقي أخلص للتحالف مع المماليك ، ورفض الطلب العثماني.

أكملت الدولة العثمانية الاستعدادات كافة ، وفي 18 آذار/مارس 1488 أرسلت قوة مؤلفة من الإنكشارية والفرسان ، وجنود الخدمات الثقيلة ، وجنود الأعطيات بلغ عددها ستين ألفاً ، واتجهت باتجاه تشوكورفا. وأبحر أسطول عثماني مؤلف من مئة سفينة شراعية إلى البحر المتوسط بقيادة هرسك زادة.

دخل علي باشا خلدون إلى أضنة بسرعة عن طريق قونية أريليسي ، وبعد أن حصنها وحصّن طرسوس سيطر على قلاع أياس وعين ظربة ، وكورة ، ونمرون ، وملوانة العائدة للمماليك. وبعد معركة حامية سيطر على قلعة سيس. وقد وضع في كل حصن سيطر عليه جنوداً بأمر ضابط.

ساعد الأسطول العثماني بالسيطرة على أياس ، ثم ضرب شاطئ طرابلس الشام ، ثم صدرت له الأوامر بإعاقة القوات المصرية التي ستمر من شاطئ إسكندرون. وبالفعل فقد أنهكت قوات شيخ نابلس ابن إسماعيل على يد الأسطول العثماني عندما حاولت العبور من الممر. ولكن العاصفة الشديدة التي هبت أثناء إنزال القوات العثمانية إلى الشاطئ ، اضطرتها لمغادرة الممر.

استفاد الجيش المملوكي من هذا الوضع ، وعبر ممر بقرس ، وتمركز مقابل الجيش العثماني في آغا تشايرِ قرب أضنة. يعد جيش المماليك أربعين ألفاً من دمشق وحلب وطرابلس الشام وصيدا والرملة إضافة إلى وحدات من تركمان الشام وآل طورغوت والورصق.

تواجه الجيشان في آغا تشاير قرب أضنة في 17 آب/أغسطس 1488.

كان الإنكشاريون يشكلون مركز الجيش العثماني الذي يقوده علي باشا المخصي. كان كل من أحمد بيك الأحمر ابن إسفنديار أوغلو ، وعمر طورهان أوغلو ، ومحمد بيك ، ويحيى باشا في المركز. وكان في الميمنة كل سيد سادة الأناضول سنان باشا ، وسيد سادة قرامان يعقوب باشا ، وأحمد باشا ابن ولي الدين ، وسليمان بيك ، أما في الميسرة فقد كانت هناك قوات روملي بقيادة خليل باشا.

أما على رأس الجيش المملوكي وفي مركزه فقد كان الأتابك أمير أوزبك. وكان في الميمنة على رأس جند الشام وتركمانها ملك أمراء دمشق ، وفي الميسرة أمير أمراء حلب. أما تيمراز الشمسي فقد كان يقود أربعة آلاف من رماة الرماح.

درس الأتابك أمير أوزبك نظام الحرب العثماني بدقة ، فهاجم بداية قوت الأناضول بعنف. رأى علي باشا أن هذا الجزء قد تزعزع ، فتوجه نحوه ، وكلف خليل باشا سيد سادة روملي بضرب المماليك من جنب ، والالتفاف عليهم.

ولكن خليل باشا لم يستطع الحركة بسبب قول السادة الذين معه لقواتهم: «قفوا ، ولا تخربوا الصف!».

سقط في هذه الأثناء السيدان عيسى وسليمان من أبناء أفرانوس بعد مقاومة شديدة ، فانهارت ميمنة الجيش العثماني. اختارت قوات القرامان طريق الهرب لأنها رأت صعوبة المعركة[40].

وإذا كان جزء من جنود المماليك قد لاحقوا قوات رمضان وأبناء طورغوت مع يعقوب باشا ، فإنهم لم يستطيعوا الظفر بهم.

في هذه الأثناء تمكن جزء من قوات المماليك من نهب مقر القيادة العثمانية ، وبدؤوا يلتفون إلى خلف قوات روملي. ولكن مقاومة يحيى بيك سيد سنجق نيبولو الخارقة أدهشت المماليك. أصيب حصان يحيى بيك الذي خاض المعركة بإقدام خارق ، وسقط على الأرض ، ولكن شجاعة رجاله وتضحياتهم بأرواحهم مكنتهم من إنقاذه من وسط جنود

المماليك الذين أحاطوا به ، فركب حصاناً آخر ، وتابع المعركة. وعندما دخلت الوحدات الروملية تحت قيادة سنان بيك سيد سنجق كوستانديل بمعركة تشبه ما خاضه يحيى بيك ، بدأت القوات المملوكية بالتفكك.

في المعركة التي بدأت مع الفجر ، واستمرت حتى هبوط الظلام ، انسحبت في نهايتها القوات المملوكية. ولكن القوات العثمانية لم يكن قد بقي لديها القوة لملاحقتها. لم يصغِ علي باشا لنصائح القادة الذين اعتبروا أن الصواب هو ملاحقتهم ، وانسحب.

ولكن القوات المملوكية المنسحبة باتجاه حلب ، تعرضت لهجوم هرسك زادة الذي كان ممسكاً بممر بقرس. ولو كان علي بيك قد لاحق العدو ، لقضي على جيش المماليك بين نارين. لهذا السبب لم يحقق هجوم هرسك زادة تأثيراً كبيراً[41].

لقد أنقذ سيد سادة روملي يحيى باشا وسنان باشا الجيش العثماني من هزيمة ساحقة بقتالهما البطولي ، فأودعا الأسلحة والمدفعية التي كانت معهما في قلعة أضنة ، ثم انسحبا باتجاه لاريندا. وعمل علي باشا على استجماع قواته التي تشتتت في لاريندا ، وفي الوقت نفسه أبلغ سلطان السلاطين بالوضع. فأمره سلطان السلاطين بمعاقبة المذنبين ، والقدوم مع العسكر المسرحين إليه.

إثر هذا أمر علي باشا باعتقال قراغوز باشا ، وسيد سنجق قيصري سنان بيك يولارقصدي ، وسيد سنجق قارة سي إسحاق بيك ، ومن أمراء روملي مسلّم بيك ، وإسكندر جلبي قراجا باشا أوغلو الذين اعتبروا مهملين ومتقاعسين في الحرب ، وأرسلهم إلى إسطنبول. وأعدم قراغوز باشا للعبه دوراً مؤثراً بتشتت الجيش في معركة أضنة نتيجة تقاعسه.

عندما ذهب علي باشا المخصي ، وشرح مراحل المعركة كلها ، أنَّب سلطان السلاطين سيد سادة روملي خليل باشا ، وعين مكانه يحيى باشا الذي أظهر بطولة كبرى.

من جهة أخرى عاد الأتابك أمير أوزبك نتيجة إصرار طورغوطلو أوغلو بيك وورصق

بيك إلى أضنة لمحاصرة قلعتها بعد أن كان بنية العودة إلى حلب.

استمر الحصار الشديد ثلاثة أشهر. وقد تفتتت أسوار القلعة لتعرضها لقصف مدفعي رهيب. وقد أنهك حراس القلعة الذين كانوا يقاتلون نهاراً، ويحاولون إصلاح ما تهدم من أسوار القلعة ليلاً.

وجاء في رسالة أرسلوها إلى المركز:

«نحن في حالة عجز وقصور. يجب العمل اليوم، وليس غداً لإيجاد طريقة ما تبعد العدو عنا. وإلا فإن رفاقنا المحاربون سيموتون على طريق سيدنا السلطان. ماذا يحصل إذا كسر ما هو موجود، ولم يصل الإمداد؟ لن يكون لنا نجعة لإمداد القلعة إن سألتم عن حالتها. وما الفائدة إذا لم يحصل هذا؟».

على الرغم من هذا التوسل، لم يستطع العثمانيون إرسال إمدادٍ إلى قلعة أضنة. وإنّ اشتعال مستودع البارود، ونشوب حرائق بسببه صعّب الأمر تماماً. أثناء عمل قائد القلعة على إطفاء الحريق، أصابته كرة مدفع، واستشهد، بعد ذلك فتح الحراس الأبواب، واضطروا للاستسلام طالبين الأمان على أرواحهم (أيلول/سبتمبر 1488).

هزائم العثمانيين المتتالية في منطقة تشوكوروفا جعل تركمان بوظوق وأوتش أوق وبقية الأقوام يميلون إلى طرف المماليك. وقد كان علاء الدولة دولقادرلي بوظقورت بيك قد اتفق مع سلطان المماليك قايتباي، وأرسل ابنه رهينة إلى القاهرة، كما زوّج ابنته لابن الأتابك أمير أوزبك.

إثر هذا قرر العثمانيون مساعدة الشاه بوضاق الذي هرب من قلعة دمشق، ولجأ إليهم. وقد ذهب كل من محمد خضر بيك سيد سنجق أماصيا، وإسكندر بيك ميخال أوغلو سيد سنجق قيصري، ومحمود بيك سيد سادة قرامان مع الشاه بوضاق، وهاجموا شقيقه علاء الدولة. ولكن قوات الشاه بوضاق المدعومة من العثمانيين هزمت نتيجة الدعم الكبير الذي أرسله المماليك لعلاء الدولة.

وقد سقط إسكندر بيك ميخال أوغلو أسيراً ، وقتل ابنه. وقد أُخذ هذا المحارب الطليعي إلى القاهرة ، وشُهر به أمام الناس ، وسجن بأمر من قايتباي. ومن أجل طلب سلطان المماليك التفاهم مرة أخرى ، أرسل ماماي الحكسي سفيراً إلى سلطان العثمانيين طالباً الاعتراف بسيادته على منطقة دولقادر. وبسبب أسر السفير ، وعدم عودته ، دخل أمير أوزبك ومعه علاء الدولة إلى الأراضي العثمانية ، وحاصرا قيصري. وبالمقابل فقد توجه أحمد باشا هرسك زادة على رأس قوة كبيرة على طريق قرة حصار ، فنهبوا كلاً من نيدة وإريلي ولارندة وآقسراي ، وانسحبوا.

الهدنة

انتقدت المصادر المملوكية حركة النهب والتخريب التي قام بها المماليك في الأناضول ، والمعاملة السيئة التي عومل بها المسلمون. حتى إن السلطان قايتباي لم يتوانَ عن تأنيب القادة والجنود المتمردين العائدين إلى مصر.

على الرغم من هذه النجاحات كلها فإن السلطنة المملوكية عاشت أزمة مالية كبرى بسبب الحروب. لقد سئم الناس والتجار من دفع تكاليف الحرب بشكل مستمر ، ووصلوا إلى نقطة التمرد. هذا ما دفع السلطان قايتباي إلى شرح الوضع بصراحة على مجلس يضم العلماء والأمراء.

«أبناء عثمان لا يتخلون عن قتال جنود مصر. عمّ الفساد في البلاد الجبلية ، وخربت. والتجار يتجنبون جلب مختلف الأشياء إلى مصر. الجنود يريدون رواتبَ. إذا لم أدفع لهم رواتبهم ، سيدخلون مصر والقاهرة ، وينهبونها ، ويحرقون بيوتها».

لهذا السبب أخرج السلطان قايتباي إسكندر ميخال أوغلو من السجن ، وقدّره واحترمه كثيراً. وتمنى عليه أن يكون وسيطاً بإنهاء الحرب ، وأرسله برفقة هيئة سفراء. وهكذا بدأ يبحث عن طرق السلام.

من جهة أخرى ، عاد السلطان بيازيد الثاني إلى إسطنبول من رحلة صيد إلى غومولجينا عندما تلقى خبر التخريبات التي قام بها جنود المماليك ، والهزيمة التي تعرض لها ، وأمر بنصب خيمته في أوسكدار ، ورفض طلب السلطان المملوكي ، وقرر الخروج بنفسه بالحملة.

استمرار الحرب على مدى أربع سنوات بين دولتين سنيتين ، وإراقة دم كثير من المسلمين ، وتخريب بيوتهم ، وإغلاق طريق الحج حرّك علماء المسلمين والدول الإسلامية الأخرى.

العالم العثماني الشهير علاء الدين علي والمعروف باسم الملا عرب هدأ سلطان السلاطين ، وشرح له مخاطر العجلة في الحرب. وبعدئذ تباطأت الاستعدادات. وفي هذه الأثناء كان سفير أمير تونس المتوكل عليُّ الله عثمان قد وصل إلى إسطنبول في سفينة.

قدم السفير لبيازيد الثاني هدية هي عبارة عن نسخة من القرآن الكريم وبعض كتب الأحاديث ، وقرأ عليه رسالة الأمير التي تتحدث عن تعرض تونس لاعتداء الإسبان ، وما تشهده الأندلس من ظلم ، ومدى خطورة الحرب بين دولتين مسلمتين في هذه الظروف الحرجة ، ورجاه بأن يعمل من أجل السلام.

مبادرة الملا عرب ، ورجاء أمير تونس جعلا بيازيد خان الثاني يتقبل الاتفاق.
فأرسل ماماي الحكسي السفير المملوكي السجين في إسطنبول مع الشيخ علي جلبي قاضي بورصة إلى القاهرة.

استقبل السلطان قايتباي السفير العثماني باحترام شديد. وإثر قبول تخصيص دخل أضنة وطرسوس للمدينة ومكة ، قدّم السفير العثماني مفتاحي هاتين المدينتين للسلطان. وبهذا تم قبول ربط أضنة وطرسوس اللتين كثيراً ما تغيرت تبعيتهما إلى المماليك. وتمّ تحديد حصن غولك حدوداً بين الدولتين 42.

وهكذا أطلق قايتباي الأسرى العثمانيين الموقوفين في القاهرة وعلى رأسهم

إسكندر بيك ميخال أوغلو ، وبالمقابل أرسل أمير جانبولاط ياشبك أوغلو سفيراً إلى سلطان السلاطين العثماني.

وإذا كانت هذه الاتفاقية قد حققت السلام بين الدولتين ، فهي بعيدة عن بث الطمأنينة لدى العثمانيين. لهذا السبب اعتبر العثمانيون هذا السلام هدنة. سيستمر السلام خمسة عشر عاماً على الرغم من ظهور بعض الخلافات المحدودة ، وحلها.

بغدانيون بالألبسة التركية

أدخل العثمانيون بغدان تحت نفوذ دولتهم ، وبعد أن وسعوا حدودهم إلى ما بعد آقكريمان ، أقاموا علاقات مع بولونيا. وُقِّعت أول معاهدة بين الدولة العثمانية وبولونيا في عهد كازمير الرابع (1490). وقد مددت هذه المعاهدة ثلاث سنوات أخرى في عهد جان ألبرت ابن كازمير الذي حل محله عام 1492.

ولكن ألبرت أراد أن يتوسع ببولونيا جنوباً ، وأن يحتل في المرحلة الأولى مولدوفيا ، وبعد أن يسلمها لأخيه سيغيسموند ، يضم بغدان التي انتقلت إلى الحكم العثماني.

وبعد أن أمّن جان ألبرت دعم المجر ، ووجد في نفسه القوة اللازمة ، أخفى هدفه الحقيقي ، وطالب أمير بغدان ستيفان سيل مورة بأن يتحرك معه ضد الأتراك. شعر ستيفان بخطط دولة البولونيين ، فشكى أمره للدولة العثمانية (1497) ، وأبلغها بأنه يستطيع دحر العدو فيما لو أرسلت له قوات دعم. وأضاف بأن هدف البولونيين بعد بغدان هو الأرض العثمانية.

لم يكن وارداً احتمال ترك العثمانيين إمارة تدفع لها الضريبة وعدم تقديم المساعدة لها. من جهة أخرى فإن سقوط أرض بغدان بيد البولونيين ، يعني وقوع موانئ هذا البلد على البحر المتوسط في الخطر.

لهذه الأسباب أمر بيازيد خان الثاني بجمع القوات كلها في المركز ، وبتوجه يعقوب باشا سيد سادة روملي إلى فيليبة لمراقبة حركة العدو ، والتدخل عند الضرورة. رأى ملك المجر فلاديسلاس التحضيرات العثمانية الكبرى ، فبدأ بمبادرات دبلوماسية ليحول دون عملية عثمانية كبرى ضد بولونيا ، وطالب بضم بولونيا إلى المعاهدة التي عقدها مع العثمانيين لمدة ثلاثين عاماً ، ولكن العثمانيين رفضوا هذا.

دخل ملك بولونيا ألبرت في مطلع حزيران/يونيو 1497 إلى مولدوفيا بذريعة حماية بغدان من الأتراك ، وطردهم من الموانئ القريبة لمصب نهر الدانوب ، واحتل بعض القلاع.

وبالمقابل فقد عبرت قوة تركية مؤلفة من ستمائة شخص نهر طونا إلى مقابل سيليسترة ، ووقفت إلى جانب حاكم بغدان. حضَّر ستيفان خطة ذكية إزاء قلة عدد وحدة المساعدة التركية التي وصلت. لقد وضع الوحدة التركية في مكمن مناسب. ووضع خلفهم أربعة آلاف بغداني بألبسة تركية. بعدئذ أرسل خبراً إلى البولونيين مفاده بأن القوات الطليعية العثمانية قد وصلت ، وطلب منهم أن يقضوا عليها قبل وصول القوات الأساسية. لم يكن ألبرت على علم بخطة حاكم بغدان ، فأرسل إلى ستيفان قوة مؤلفة من خمسة آلاف رجل. وقد جر ستيفان هؤلاء إلى جوار الوحدات التركية الكامنة.

شنت القوات التركية هجوماً مفاجئاً على القوات البولونية التي دخلت إلى الكمين بدلالة حاكم بغدانيا. دهش البولونيون من الهجوم المفاجئ ، وقبل أن يستعيدوا توازنهم ، بدأ البغدانيون بقرع الطبول على الطريقة العثمانية ، وتحركوا ، وهذا ما أدى إلى ذهول البولونيين تماماً. ولاعتقادهم بأن الجيش العثماني الأساسي قد وصل ، انطلقوا في طريق الهرب.

لم ينفد من الخمسة آلاف بولوني سوى ألفاً فقط ، وتمكنوا من الوصول إلى الملك. عندما أبلغه هؤلاء بأن الوضع سيئ جداً ، وأن الجيش العثماني دخل أرض بغدان ، فترك ألبرت أرض بغدان بسرعة ، وانكفأ إلى دولته. وبقيت الأحمال والأثقال والأغراض

والأموال لبغدان43.

لم يجد العثمانيون هزيمة البولونيين في أرض بغدان كافية. لأن الملك ألبرت من الضروري أن يدفع الثمن في أرضه لجرأته على توجيه سلاحه نحو العثمانيين.

بداية شنت طليعة مقاتلين سيدي سنجقي كيلي وآقكريمان هجمات وصلت إلى أمام لمبرغ في أيار/مايو من عام 1494 ، وشن الحاكم ستيفان هجمات نهب داخل الحدود البولونية. وفي تموز/يوليو من العام نفسه نهب التتار بولونيا من أولها إلى آخرها.

وفي ربيع العام التالي دخل سيد سنجق سيليسترة وقائد القوى الطليعية بالي بيك ماليكوتش أوغلو بقوة مؤلفة من أربعين شخصاً إلى بولونيا. وفي الحملة التي كان دليلها حاكم بغدان قاد قوات المقدمة ابن بالي بيك الصغير علي طور بيك ، كما قاد قوات المؤخرة ابنه الأكبر علي بيك.

كانت حركة مقاتلي الطليعة عنيفة جداً. فدخلوا حصني قارقوفا وصورروق على طريق دينيستر ، ثم توغلوا إلى قلاع درشني وغلوريا وقانظوغا وغالبانيا مع مصيف الملك قلعة براكلاافف ، وهدمتها أو أحرقتها.

عندما وصل علي طور بيك إلى أمام قلعة راديمني ، دفع كلاً من الحاكم حسن ، وبالي بيك يحيى باشا أوغلو إلى منطقة. وكانت الغنائم التي تركها الذاهبون خلفهم ثقيلة إلى درجة عدم تمكن القوات الطليعية من حملها.

لم يكن البولونيون حتى ذلك الوقت قد عرفوا من العثمانيين سوى اسمهم. ولكنهم لم يروا أي مقاتل طليعي منهم. والآن يدركون استحالة الوقوف أمام القوات الطليعية العثمانية التي تتدفق كالسيل.

أثناء العودة تلقى بالي بيك خبراً بأن الجسر المبني فوق نهر طورلا قد هدم ، وأن الطرق التي تمر من مضائق ضيقة قد أغلقت بالحجارة والأتربة. إثر هذا أرسل الحاكم حسن

في المقدمة ، وأنشأ جسراً جديداً.

بعد أن عبروا المضيق بصعوبة واجهوا جنود العدو. وعلى الرغم من تقديم القوات الطليعية كثيراً من الخسائر في الحرب الدائرة ، فإن وحدات العدو لم يبق منها ولو فرداً تقريباً.

وعندما أنهى بالي بيك هجومه داخل الحدود على طريق آقكريمان ، فإن القوات التي يقودها مصطفى بيك قاسم بيه أوغلو وقوات القرم ضربت حدود بولونيا على طولها مرة خرى ، ودخلوا إلى قلعة براقلاو ، وهدموها ، وأحرقوها[44]. وقد فرز خمس الغنائم لخزينة الدولة ، ووزع الباقي على المقاتلين كما جرت العادة.

ونتيجة خدمات حاكم بغدان ستيفان سيل مورة في هذه الحملة ، وإخلاصه فقد كوفئ بحلِّة من فراء السمور ، وراية بطغرائين خاصة بمرتبة سيد السادة ، وقبعة ذات ريشة خاصة بقادة الجيش الإنكشاري. ورايات الشرف ذات الطغراء تعني الحظوة برتبة باشا ، والقبعة ذات ريشة الإنكشارية برتبة ميرألاي.

من جهة أخرى فقد شعر البولونيون باليأس الكامل من الطليعة العثمانية. وبدأوا يضغطون على ملكهم الذي لم يجرؤ على مواجهة الطليعة العثمانية بالقول: «إما أن تأتي وتثبت أقدامك ، وتحمي ولايتك! أو اذهب إلى سلطان العثمانيين ، وطأطئ رأسك ، وأطعه!»[45].

إثر هذا أرسل الملك سفيراً إلى العثمانيين من أجل السلام. ونتيجة توسط ملك المجر ، وانشغال العثمانيين في تلك الأثناء بمورة ، وجد سفير بولونيا فرصة عقد السلام عند مجيئه إلى العاصمة بهدايا ثمينة.

اغتيال بيازيد خان

عندما جلس بيازيد خان الثاني على العرش كان ملك المجر ماتياس كورين أحد

أخطر منافسيه في أوروبا. وكثيراً ما بذل جهده للحصول على السلطان جم أثناء وجوده بين أيدي فرسان رودوس ، واستخدامه ضد العثمانيين ، ولم يستطع تحقيق آماله على الرغم من حصوله على دعم البابا في هذا الموضوع.

كانت المشاكل بين العثمانيين والمجر محصورة في تلك المرحلة بصدامات محدودة على طول الحدود. ولكن الدولتين كانتا تتجنبان الدخول بحرب كبرى ، أو الإقدام على أية حركة يمكن أن تخرب الاتفاق بين البلدين46.

إثر وفاة ملك المجر ماتياس بسكتة قلبية بتاريخ 6 نيسان/أبريل 1490 ، دخلت البلاد بصراع داخلي بسبب عدم وجود وريث شرعي له. حاول جزء من المجريين تنصيب فلاديسلاس ابن ملك بولونيا كازمير بسبب القرابة بينهما ، ولكن جزءاً آخر منهم رفض هذا الأمر ، وعارضه. وأراد الجزء الآخر أن يجعل من جان بن ماتياس ملكاً.

كان هذا الوضع من مصلحة العثمانيين. قبل كل شيء فقد كانت وفاة حاكم قوي وحازم مثل ماتياس كورفين أمراً يثير الامتنان لدى الدولة العثمانية. لأن معارضته للعثمانيين ، وحزمه يعيقان فتوحاتهم. وأما التدخلات التي تقع ، فهي تقويه أكثر. أرسل سادة الحدود تقريراً إلى المركز يفيد بموت ملك المجر ، ويشرح الفوضى التي دبت في الداخل ، ويبين أن تحقيق النصر في هذه الظروف أمر سهل للغاية.

في هذه الأثناء تواصل سليمان باشا المخصي محافظ سمنديرة مع قائد قلعة بلغراد ، وحظي منه على موافقة بمنحه السيادة على قلعة بلغراد إضافة إلى بعض القلاع مقابل وقوفه إلى جانب العثمانيين. وردَّ أويلاك محافظ بلغراد بأنه سيسلم القلعة لسلطان السلاطين في حال وصوله إليها47.

إثر ذلك انطلق بيازيد خان الثاني بالحملة عام 1492 بعد أن أنهى استعداداته البرية والبحرية. عند وصول سلطان السلاطين إلى صوفيا ، علم بأن محافظ بلغراد قد عُزل من منصبه ، وسحب إلى المركز ، وأن أمور الحكم قد استقرت للملك فلاديسلاس.

طلب سلطان السلاطين الاستمرار بهجمات القوات الطليعية في منطقة المجر ، وأمر أحمد باشا هرسك زادة بترك جزء من القوات في المنطقة ، ودخل ألبانيا انطلاقاً من صوفيا عبر مناستر48 ، لأن الأحداث في ألبانيا والهجمات على الأتراك قد وصلت إلى أبعاد مقلقة في تلك الأثناء.

وكان أهل المنطقة المدعوة ولاية يوان في ألبانيا في حالة تمرد دائمة ، كثيراً ما يتسببون بالفوضى. كان يقضي متمردو هذه المنطقة صيفهم في الروابي المرتفعة ، وشتاءهم في الوديان ، وبسبب وعورة الطرق التي يستخدمونها ، وسهولة حركتهم الشديدة لاعتيادهم على المنطقة ، واستعدادهم الدائم للمعارك يجعل شن حملة عليهم متعبة جداً ، وملاحقتهم حقيقة غاية في الصعوبة.

ونتيجة دخول شهر رمضان عند دخول سلطان السلاطين إلى تبة دلان ، أقام في المنطقة أربعة وعشرين يوماً. في هذه الأثناء أرسل قوات الجيش النظامي بقيادة داوود باشا لملاحقة العصاة. نشبت معارك حادة في ظروف جبلية صعبة لا يمكن التحرك فيها سوى على الروابي. وحاربوا الألبان يومين في مكان حاصروهم فيه ، وأربعة أيام في مكان آخر ، ونشبت بينهم معارك ضارية.

في النهاية حصر المتمردون الألبان أنفسهم في الملاجئ التي أنشأوها في الجبال والصخور. كانوا يمطرون الأتراك الذين يضطرون لصعود الجبال من أجل خوض المعارض بالرماح المسمومة. وعندما تصيب هذه الرماح أي جسم حي تسلبه روحه.

لم يهتم المحاربون العثمانيون الشجعان بأرواحهم ، وتسلقوا الجبال كالفهود على الرغم من الظروف الصعبة. وبهجوم على الملاجئ يشبه البحر الهائج ، أحرقوها ، وقضوا عليها بطرفة عين. قتل من قتل ، ولوحق من هرب. كانت الغنائم كثيرة ، والأسرى أكثر من أن يحصوا. وقد كان ابن سردار [قائد] الألبان بين الأسرى49.

بعد أن أنهى الجيش عمله في ألبانيا ، تحرك نحو بيرلبة عبر مناستر. أثناء عبورهم

ممراً ضيقاً وقت السحر، كان هناك درويش ضخم بزي أتباع الطريقة القلندرية[50]، اقترب من سلطان السلاطين كأن له أمنية يريد منه أن يحققها له. لم يعر الحراس اهتماماً للدرويش القلندري لاعتقادهم بأنه سيدعو لسلطان السلاطين، أو يطلب منه طلباً، فيلبيه له.

عند اقتراب القلندري من السلطان، سحب من تحت ردائه سيفاً طويلاً، وشتت ميسرته وهي بحالة ذهول، وصرخ: «أنا مهدي الزمان»، وهجم على بيازيد خان. وقع الأمر بلمح البصر، وقد واجه سلطان السلاطين وجه الموت البارد.

في تلك اللحظة كان إسكندر باشا ماراً من أمام السلطان، فهوى بعصاه ذات الكرة الشوكية على القلندري بقوة. كان القلندري قد رفع السيف إلى الأعلى من أجل أن يهوي به على سلطان السلاطين، وبضربة الكرة الشوكية الثقيلة اهتز جسمه، وتكسرت عظامه، وهوى على الأرض[51]. وعندما هُرِع الآخرون مزقوا الدرويش إرباً. ولهذا السبب لم يعرف هدف الدرويش، ومن أرسله، ووجهه[52].

تشتت ميسرة سلطان السلاطين المكلفين بحمايته حتى لو كلفهم الأمر حياتهم، وخوفهم، وذهولهم أثار غضب سلطان السلاطين الشديد. على الرغم من هذا تغلب على غضبه، واكتفى بطردهم من وظائفهم، وقطع أعطياتهم.

غير هذا فقد أمر سلطان السلاطين بإبعاد المفسدين أهل البدع الذين يجوبون بهيئات لا تناسب السنة الشريفة، ويطلقون على أنفسهم أسماء «المنورين»، «بكطاشيين أغرار»، و«دراويش» خارج الحدود. إثر هذه الحادثة أُمر حراس الحاكم بتقلد السيوف عند عقد مجلس الحرب.

وصل بيازيد خان الثاني إلى أدرنة في أواسط أيلول/سبتمبر 1492، وأقام فيها أربعة أشهر بسبب انتشار وباء الطاعون في إسطنبول[53]، ثم غادرها إلى العاصمة.

كان بيازيد خان أثناء حملته الأخيرة قد حرك وحدات الطليعة المقاتلة في المجر وألبانيا. وهذه مختصر قصة مقاتلي الطليعة التي بدأت بأوسع حملاتها في التاريخ

العثماني...

شهوم بأجنحة النسور

مع كل نَفَسٍ صاح الله أكبر كل من غزا صاح الله أكبر

تتألف الطليعة المقاتلة العثمانية التي يصفها عاشق باشا زادة في شعره بأنها تذكر الله تعالى حتى نفسها ، ولا تفكر بغيره في غزواتها من مجموعات فرسان خفيفة التسليح54. تقول الروايات إن مؤسسها كوسة ميخال في عهد الغازي عثمان. وقد لعبت دوراً مهماً بتطور مقاطعة أوتش ، وكبرها. ولإفرانوس بيك جهد كبير بتحويلها إلى بنيات تشبه الثكنات.

ثكنة الطليعة المقاتلة يقابلها اليوم في الجيوش المعاصرة القوات الخاصة (الكوماندوس). الفرق بينهما أن أولئك مغاوير بأسلحة خفيفة لديهم موهبة فائقة بالحركة.

كأن عبارة العالم الكبير محمود قاشغارلي: «الحصان هو جناح التركي» قيلت خصيصاً لوصف الطليعة المقاتلة.

يقضي أفراد الطليعة المقاتلة معظم يومهم على صهوات الجياد في الحملات أو عمليات الدفاع.

يتدربون باستمرار على الخيل.

يقودون خيولهم في أثناء التدريب بين براميل الخشب المشتعلة ، ويعبرون من بينها كالريح.

يقفزون من فوق الجدران والموانع العالية مئات المرات.

أثناء انطلاقهم على الخيول بأقصى سرعة ، يطلقون سهامهم بحيث لا يمكن للعين متابعتها ، ويصيبون أهدافهم.

يمكنهم القفز من فوق حصان إلى آخر وهو ينطلق بأقصى سرعة ، وأن يمروا بجوار الحصان ، ومن تحته ، ويطلقون السهام ، ويحققون الهدف حتى وهم في هذه الحال.

يمكنهم السباحة مع خيولهم في الأنهار الفائضة ، والعبور إلى الطرف الآخر55.

يخرج الطليعي في الحملة بعدة خيول على الأقل ليستخدمها بتحميل الغنائم أثناء المعركة ، وبعدها.

ويعملون على أن تكون خيولهم عربية تركض إلى مسافات طويلة ، وشديدة التحمل ، وسريعة.

يجب أن يكون الطليعي خفيفاً كي يستطيع الحركة بسرعة ورشاقة. كل عتاد الطليعيين عبارة عن قوس وسهام ، وسيف ، وترس ، وسكين ، وعصاة بكُرة شوكية معلقة على سرج حصانهم. وإذا رصدت بعض حالات ارتداء قميص درع خفيف ، فإن هذه الحالات نادرة ، ولا يرتدي مقاتلو الطليعة عموماً الدروع. وفيما بعد أصبحوا يستخدمون البنادق.

ألبستهم خفيفة ، وبسيطة. على رؤوسهم قبعات حمراء من فراء الذئاب. ومن ألبستهم الأخرى سترة جيوب أو صدارة من الجلد ، وسروال. يرتدي ضباطهم فراء نمر أو فهد. ويوجد على طرفي ظهر كل منهم جناحا نسر.

وطعام الطليعة خفيف مثل أحمالهم. من أغذيتهم الأساسية الأرز ، واللحم المسلوق ، وبسطرمة لحم الغنم. كل مقاتل طليعي يحمل معه قدراً خفيفاً من أجل استخدامه في إعداد الطعام.

غالبية الطليعة المحاربة من أبناء الترك الشجعان الروملیین أو غرب الأناضول ووسطه. لا يمكن قبول الأجانب في هذه الثكنة بشكل قطعي. يأتي كل مرشح طليعي للقائد ، ويقدم نفسه ونسبه. قرار الرفض أو القبول بيد سيد المجموعة الطليعية فقط. حتى سلاطين السلاطين لا يتدخلون بقبول أحد في هذه الثكنات ، ولا يتدخلون بعملها نهائياً.

لأن الطليعي السيئ يمكن أن يتسبب بالقضاء على وحدته. كل مرشح طليعي مضطر لتقديم كفيل يكون إمام القرية أو ولي شؤونها أو أحد الأشخاص المعروفين بنزاهتهم[56].

يجب أن تكون موهبة المحاكمة وإصدار القرار الصائب عالية المستوى لدى الطليعي ، وأن يفكر بسرعة في الحالات الطارئة ، ويصدر قراره ، وينفذه بسرعة البرق ، وينفذ أوامر قائده دون أن يرف له جفن. لهذا السبب فإن الطليعية تغدو مهنة تنتقل من الأب إلى الابن. لأن الطليعي هو أفضل من ينشئ الطليعي.

لدى الطليعة دفاتر منتظمة. يسجل في تلك الدفاتر اسم الطليعي وهويته (اسم الأب ، المحلة أو القرية). لا يمكن لأي أحد أن يدخل بين هؤلاء بشكل فوضوي من الخارج. هناك نسخة من دفتر الطليعة المقاتلة لدى القائد صاحب العلاقة ، ونسخة أخرى في المركز. كل مقاتلي الطليعة يعملون تحت قيادة قادة مناطق.

الدولة لا تخصص ثكنة لمقاتلي الطليعة ، ولا تعطيهم رواتب ، ولا تقدم لهم سلاحاً أو عتاداً. الطليعة المقاتلة يؤمنون أسلحتهم بأنفسهم ، ويعيشون من الغنائم التي يحصلون عليها من أعدائهم. وبالمقابل فهم مُعفَون من دفع الضريبة للدولة. ولعدم انتساب الطليعة المقاتلة إلى الجيش فهم يسكنون في مناطق حدودية من روملي عموماً ، ويستعدون للهجمات الطليعية فور تلقيهم الأوامر من قادتهم[57].

أهم هدف لمجموعة الطليعة هو تمشيطهم بلد العدو ، وكسر قوته المادية والمعنوية.

إن حركات هجوم الطلائع في أرض العدو بهدف الكشف أو النهب أو التخريب ليست حركة متسكعين دون خطط بالتأكيد. الهجمات الطليعية العثمانية تكون بالتأكيد وفق القواعد والقوانين ، وترتبط بتنظيم دقيق وعظيم.

تُشن الهجمات الطليعية ضد الدول التي تكون بحالة حرب أو خلاف مع الدولة العثمانية. وتُحدث الطليعة تخريبات مادية ومعنوية في تلك الدولة حتى وصول الجيش

النظامي. وتستمر عمليات الطليعة في كل فرصة بعد انسحاب الجيش حتى توقيع معاهدة سلام.

ولكي تسمى الهجمة على أرض العدو هجمة طليعية لا بد أن تكون تحت إدارة سيد طليعي.

أثناء الحملات تشكل المجموعات الطليعية من زمر مؤلفة من عشرة أشخاص. يقود العشرة عريف ، والمائة نقيب ، والألف رائد.

تقوم الطليعة بهجماتها عموماً في أشهر الربيع والصيف ، وتقضي الشتاء إلى جانب عائلاتها إن لم يكن هناك ظروف طارئة ، وإلا فإنها تقضي أوقاتها بالتدريب. وعندما يحل الربيع ، تصبح على أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامر قادتها. إذا حددت الدولة لقادة المجموعات الطليعية مكان الهجوم وجهته ، فتتوجه المجموعات الطليعية نحو تلك الجهة.

يحافظ على سرية الحركات حتى الوصول إلى المناطق الحدودية. يتم الدخول إلى أرض العدو من منطقة غير متوقعة ، ولا يوجد فيها مدافعين. وعندما يعلم الناس في مدينة ما بوصول الطليعة المقاتلة ، يأخذون أشياءهم الثمينة ، ويحاولون الهرب إلى مناطق آمنة أو ملاجئ سرية.

عندما يدخل مقاتلو الطليعية بشكل جماعي إلى الدولة المعادية ، ويصلون إلى نقط هامة أو استراتيجية ، ينقسمون إلى وحدات صغيرة ، ويستمرون بطريقهم. وتُحدد لكل وحدة القرية أو المدينة التي ستهاجمها بشكل مسبق. وكل ذراع ينتقل إلى الهجوم ، وقبل الوداع يقولون إلى اللقاء في التفاحة الحمراء[58].

ومثلما يسمي البعض التفاحة الحمراء بودين أو روما أو فيينا ، ولكنها بالنسبة إلى البعض هي الجنة الأعلى. لأنهم في تلك اللحظة يغامرون بحياتهم ، ولا يفكرون بالعودة. وقد غدا هذا طموح التركي بعد دخوله في دائرة الإسلام نتيجة عشقه للجهاد وحبه ، وترسخ كشعور امتد لمئات السنين.

وقد ترنم أحد شعراء الطليعة بدستور الحياة هذا وهدفها عند نيته الانطلاق بالحملة بهذه التعابير:

وبكل روحه نحو الهدى	توجه الغازي في سبيل الله
يأمل بالجنة في الدنيين	لا يهتم بروحه وما يكسبه
هذا ما يليق بالغازي[59]	عشق رائع وإخلاص صادق

عندما يريد مقاتلو الطليعة مهاجمة مكان ما ، ينقسمون إلى عدة مجموعات ، ويندفعون على دفعات. إذا خرجت قوة معادية أمام أول قوة مهاجمة ، فتنقض على العدو المجموعة الثانية من ذوي أجنحة النسور في أشد لحظات القتال ضراوة ، وتفتتها. ولأن الهجوم دائماً يكون مفاجئاً وحاداً ، فهو يهز القوات المعادية ، ويفتتها[60].

بعد أن تجمع الطليعة الغنائم من المدينة أو المنطقة السكنية التي تهاجمها ، تعمل على جعل ما تبقى خلفها في حالة غير قابلة للاستخدام. وهكذا فهي تبث الرعب في المدن والقصبات التي تدخلها من جهة ، وتخرب اقتصاد العدو لتجعل جيشه في وضع صعب من جهة أخرى. أما شعب المنطقة المتعرضة لهجوم الطليعة ، فيضغط على حكومته وجيشه الذي لم يستطع حمايته من أجل عقد معاهدة سلام مع العثمانيين.

عندما تتلقى وحدات العدو خبر دخول الطليعة المقاتلة إلى بلدها ، فتحاول إعاقتها من خلال ضبط الممرات الضيقة والجسور التي عبرت منها. ولكن الطليعة في أغلب الأحيان عندما تأخذ ما تريد أخذه ، وتكمل مهمتها ، تعود إلى وطنها من طرق معاكسة لا يتوقعها العدو. عند الضرورة تمر هذه القوى من طرق وعرة وغابات ومناطق قفرة ، وتصطاد العدو الذي يكمن لها. وبالفعل فإن الكتب التي دوّنها النمساويون تتحدث عن عبور الطليعة من معبر لويبل في منطقة كارينتا من جبال الألب على خيولهم وهي المنطقة الأكثر وعورة والأشد صعوبة.

ومن بين مهام الطليعة الحيلولة دون تعرض الجيش العثماني لأي مداهمة أثناء عودته من الحملة ، واتخاذ التدابير اللازمة بهذا الخصوص ، ومنع العدو من الدخول إلى الأرض التركية.

من المهمات الهامة الأخرى لثكنة الطليعة جمع المعلومات. يستخدم الديوان السلطاني عموماً ضباطَ الطليعة المقاتلة بالمهمات المخابراتية. ويطلق هؤلاء إلى الدولة الهدف بهويات تلك الدولة. ولهذا السبب فإن الطليعي العثماني يجب أن يجيد عدة لغات بلقانية أو أوروبية[61].

وكان لدى الضباط العثمانيين الطليعيين الذين يكلفون بهذه المهمات كل ما يلزمهم من الإخلاص المطلق والصدق ، والذكاء والمكر وموهبة الاحتيال ، وتجربة السياحة والسفر ، ومعرفة الدولة التي سيذهب إليها ، وإتقان لغتها ، وتحمل التعذيب ، ومقاومة كل الظروف. يبقى الطليعي العثماني في الدولة التي يقصدها أحياناً سنين طويلة. ويستمر بحياته في تلك الدولة مثل أهلها بالضبط. وعموماً يتخذ صفة شماس أو كاهن أو راهب أو برجوازي أو تاجر.

بعد أن يجوب الجاسوس الطليعي الدولة الهدف ، يرسل تقاريره التحريرية أو الشفهية إلى قائده أو سيد السادة التابع إليه ، وتوصل المعلومات اللازمة فوراً إلى الديوان السلطاني المركزي. يقول فرانز بابينغر في كتابه الموسوم «السلطان محمد الفاتح وعصره» حول هذا الموضوع الآتي:

«ما يُذهل الناس معرفة الطليعة المقاتلة المنطقة التي تهاجمها وشعبها بشكل جيد جداً في كل الحملات تقريباً. فقد توزعت شبكة الجواسيس العثمانيين حتى وسط ألمانيا. كان أولئك الجواسيس شجعاناً ومؤثرين. كانت الإمبراطورية العثمانية على علم بكل ما يجري من أمور هامة لدى جيرانها. تفاصيل الاجتماعات التي تجري في ألمانيا أو على أرض المجر كلها كانت تُرسل إلى إسطنبول»[62].

كانت صلاحيات سادة الطليعة واسعة جداً ، وهم يتلقون الأوامر من السلطان بشكل مباشر. ورتبهم سيد سنجق. أي أن رتبة السيد الطليعي بحسب اصطلاحات اليوم هي لواء وحدات خاصة. وبعضهم يحمل رتبة سيد سادة ، وهذه الرتبة تعني بحسب اصطلاحات هذه الأيام «فريق» ، وسمي في العصر العثماني الكلاسيكي «باشا».

غالبية سادة الطليعة هم رفاق الغازي عثمان ، أو أبناء القادة المشاهير الذين حققوا نجاحات كبرى في السنوات الأولى لتأسيس الدولة. يستمدون أسماءهم من آبائهم. على سبيل المثال: أبناء ميخال ، أبناء غفرانوس ، أبناء مالكوتش ، أبناء باشا ييت... عندما عبر الترك إلى روملي للمرة الأولى كان المرتبطون بالسيد إفرانوس في ألبانيا ، وأبناء ميخال أوغلو في صوفيا ، وأبناء طورخان في مورة ، أما أبناء مالكوتش فقد كانوا في نواحي سيليسترة63.

بقي أبناء سادة الغزو الذين نقلوا الأتراك العثمانيين من الأناضول إلى روملي ، وجعلوا هذا المكان وطناً لهم يحملون أرواحهم على أكفهم وهم يقومون بهجماتهم الطليعية باتجاه منطقة نهر الدانوب. أطلقوا على نهر الدانوب اسم «البحر المبارك» ، واستشهد المئات منهم بعبورهم النهر مئات المرات للمحافظة على روح حركة الجهاد. وخلّد الشاعر يحيى كمال بياتلي تلك الأيام بهذه الأشطر:

ألف فارس هجمنا طلائعَ محتفلين كالأطفال

ألف فارس تغلبنا على ذلك الجيش العملاق!

صاح سيد السادة ذي الريشة البيضاء: «إلى الأمام!».

وعبرنا الدانوب ذات يوم صيفي قوافلَ...

ارتمينا إلى المكان من كل الجهات كالبرق ،

وعبرت الخيول التركية الطريق كالبرق

على خيولنا التي تنطلق بأقصى سرعة ذات يوم ،

تصل بسرعتها العرش في السماء السابعة...

نرى الورود تفتحت في الجنة ذات يوم ،

ما زال خيال تلك الذكرى الحمراء أمام أعيننا.

ألف فارس هجمنا طلائعَ محتفلين كالأطفال

ألف فارس تغلبنا على ذلك الجيش العملاق!

ومثلما يُنشئ سادة الطلائع طلائعهم كفدائيين ، يعتبرون إيصالهم إلى النضج الروحي مهمة أساسية لهم. بعد أن يدفعوا الجزء المخصص من الغنائم للدولة ، ويوزعوا حصص المقاتلين الطليعيين ، ينفقون جزءاً مهماً من حصصهم على أعمال تدعم العلم والفن ، وأمكنة وأشخاص تهتم بهما. لهذا السبب يتخذون من العاصمة (إسطنبول) نموذجاً لإعداد الولاية التي يقيمون فيها ، ويبذلون الجهد من أجل جعلها حضناً للعلم والعرفان.

ومثلما الطليعة بحاجة لقائد يدير أعمالها ، ويوجهها ، فهي بحاجة إلى شخصيات محورية تغذيها روحياً ، وتجعلها مستعدة للجهاد. ولا يمكن إلا للفقهاء الغزاة والشعراء الدراويش أن يقوموا بهذه المهمة في الثكنات شتاء ، وعلى طرق الجهاد صيفاً. وكان هذا النوع من الأشخاص يسمى في روملي فقهاء خراسان.

ولهذه المهمة استقدم أحمد بيك إفرانوس زادة الشيخ عبد الله إلهي إلى وردار ينجة سي. وخلال فترة قصيرة أثر عبد الله إلهي بعلماء المدينة ، ومقاتليها وأهلها ، وأكسبهم خصوصيات مشتركة وغدا شخصية مركزية.

الفقهاء الغزاة الذين نهلوا العلم من عبد الله إلهي ، نقلوا حماس الغزو عبر أشعارهم ومقولاتهم ، وهكذا أصبح جو التصوف مصدر إلهام لهم جميعاً. وبدراويش أمثال

عبد الغني ، وأغهي ، وعشقي ، ودروني ، وغريبي ، وحيرتي ، وخيالي ، ورازي ، وصدقي ، ومحمد رازي إلهي ، وأصولي نشر العثمانيون في روملي ثقافة وحضارة ، وعَبَّر عاشق جلبي عن هذا الوضع على النحو الآتي:

«يُروى أنه عندما يولد ولد في بريزريندة ، يطلق عليه اسم حيه قبل اسمه. وعندما يولد ولد في ينيجة ، يتحدث الفارسية عندما يصل إلى مرحلة قول بابا. وإذا ولد صبي في برشتينا ، يولد والمحبرة في خصره»64.

يتشكل في مراكز العلم والثقافة هذه محاربون غاية في النظافة يتجاوزون هويتهم كمحاربين ، ويُعجنون بالشجاعة والقداسة ، ويحترمون العرض والشرف ، ويعيشون ملتزمين بأسس الإسلام الخمسة.

أيام الهجمات الطليعية

بقيت طلائع العثمانيين تضرب منطقة ترانسليفانيا وإردال وبانات بعد عبورها نهر الدانوب من بين سمندرة وأورساوا حتى فتح البوسنة. ومع فتح البوسنة بدأت هذه الهجمات تتوسع لتصل إلى سيرميا ، إسكلافونيا ، وكرواتيا ، وإلليريا ، وشمال البندقية.

لم يعد هناك أحد من سادة الطلائع المشاهير مثل إسكندر بيك سيد البوسنة شقيق علي بيك ميخال أوغلو ، وعمر بيك طورهان أوغلو على قيد الحياة. كان علي بيك ميخال أوغلو سيد سنجق سمندرة ، وبالي بيك مالكوتش أوغلو سيد سنجق سيليسترة ، وأحمد بيك إفرانوس أوغلو سيد سنجق في ألبانيا ، ويستمرون بعمليات الهجمات الطليعية.

عندما قرر بيازيد خان الثاني التوجه إلى ألبانيا أثناء ذهابه إلى المجر ، حرّك الطلائع بذلك الاتجاه.

عندما عبر علي بيك ميخال أوغلو نهر الدانوب من أمام حصن بوجين ، ودخل إلى المجر ، كان الفصل شتاء ، والبرد الشديد يخيم على الجو. ولعدم مصادفته القوات المجرية ،

استمرت الهجمات الطليعية دون خطورة ، وضرب عشر قرى مجرية. أما مصطفى بيك الذي أرسله ميخال أوغلو مع ألفي مقاتل إلى أماكن أبعد ، فقد طوقته الوحدات المجرية في طريق عودته. بنتيجة المعركة تمكن الطليعيون من هزيمة المجر على الرغم من تقديمهم خسائر كثيرة. وكان قائد العسكر المجريين بين الأسرى.

عندما توجه سلطان السلاطين من صوفيا إلى ألبانيا ، ترك هرسك زادة في صوفيا ، وأرسل علي باشا المخصي إلى ترانسيلفانيا من أجل القيام بهجمات طليعية. ولكن علي باشا تعرض لهزيمة ماحقة في صراعه مع قوات كينيزسي بال عندما واجهها.

من جهة أخرى تقدم علي بيك ميخال أوغلو الذي ذهب باتجاه قارنيولا إلى لايباه وهو يحرق الولايات المجرية ويهدمها.

وساروا كسيل جارف لقّوا العالم كغيمة

بعد المداهمات الطليعية الفظيعة عادوا بآلاف الأسرى ، وغنائم لا تحصى. ولكن بطء سيرهم في طريق العودة بسبب كثرة الأسرى والغنائم أدى إلى ظهور خطورة كبرى في طريقهم.

أرسل الإمبراطور الألماني ماكسيمليان حملة عسكرية كبرى بقيادة رودولفو دو خفينهولر ، وتعقبوا الطليعة ، وقطعوا طريق عودتها. وقد دَعمت السدود وأصلحت الممرات. ولم تدرك الطليعية أنها وقعت بالفخ حتى وصلت إلى ممر فيلاخ. لم يكن أمامهم سوى القتال في ذلك الممر الذي يرتفع من الجانبين كجبلين.

طوّرت الطليعة استراتيجية قتالية جديدة ضد وحدات الجيش المدرعة والقوية في مجال ضيق. تدخل مجموعة تستخدم الصولجانات ذات الكرات الشوكية التي تسمى «بوظضوغان» ، وتحارب بعنف ، ثم تنسحب بهدوء ، وتترك مكانها لصفوف تأتي من الخلف. يتغلغل القادمون الجدد بين صفوف العدو هذه المرة بحملة مذهلة. استمرت

المعركة بشكل مذهل عدة ساعات ، وتحول الوادي إلى بحيرة من الدم. لم يظهر على الطليعة أي أثر ليأس. كانوا يعتقدون بأنهم عند حلول الظلام سيتمكنون من شق صفوف الجيش المنتصب أمامهم كالجبل ، والعبور. لأن العدو خسر خسائر كبرى ، وبدأ وضعه يهتز.

ولكن في النقطة الأعنف من المعركة ، ولعلها النقطة التي كانوا سيحققون فيها الحسم ، وقع ما لم يكن بالحسبان. مئات الأسرى حرروا أنفسهم من السلاسل ، وبدأوا يهاجمون الطليعة من الخلف. مُنيت الطليعة بخسائر فادحة لأنها وقعت بين عدوين ، وفقدت إمكانية الحركة. على الرغم من هذا نجحت مجموعة طليعية بقيادة علي بيك ميخال أوغلو بشق صفوف العدو ، وإنقاذ نفسها65.

لقد سقط حوالي عشرة آلاف تركي في تلك المعركة القاسية ، وسقط بالأسر حوالي سبعة آلاف ، ولم ينفد من جهنم نتيجة عزم ميخال أوغلو وجهوده سوى ثلاثة أو أربعة آلاف طليعي. وفقدت الوحدات الألمانية والمجرية سبعة آلاف جندي.

شعر ملك المجر باعتزاز كبير نتيجة هذا الانتصار الذي حققه على الطليعة ، فأرسل رسائل إلى البابا والملوك المجاورين يشرح فيها الوضع. لهذا السبب طلبوا منه وحدات مساعدة من أجل ضرب البوسنة وجوارها. واستجابة لهذا النداء أرسل إلى كل دولة قوة مؤلفة من عدة آلاف ، ولاقى الأمر دعماً من ألمانيا وفرنسا وكرواتيا والبابوية.

وقد وضع فلاديسلاس ملك المجر هذه القوات المساعدة كلها تحت أمر ابن أخيه ديرينسيل أحد حكام كرواتيا. وكان هذا الرجل قائداً موهوباً وشجاعاً ، وقد أوقع الوحدات التركية التي دخلت الأراضي المجرية في الفخ مرات عديدة ، وأنزل بها ضربات مميتة. وكانت هناك قوة مدرعة مؤلفة من اثني عشر ألفاً. قوي ديرينسيل بالقوات المساعدة ، وبدأ يشن هجمات على القلاع الحدودية بهدف طرد الأتراك من البوسنة.

من جهة أخرى فقد حزن بيازيد خان الثاني كثيراً عندما علم بهذه الهزيمة التي

تعرضت لها قوات الطليعة أثناء عودته من حملة ألبانيا.

أرسل فرماناً إلى سيد سادة البوسنة يعقوب باشا المخصي يأمره فيه بالتحرك ضد الوحدات الصليبية المتحالفة ، والاستمرار بالهجمات الطليعية في المنطقة.

كان يعقوب باشا آغا بخدمة بيازيد أثناء وجوده في أماصيا ، وأحد القادة الذين كسبوا ثقة سلطان السلاطين. فور تلقيه الأمر ، دخل إلى إستيريا بثمانية آلاف رجل ، بعدئذ وصل إلى حصن يايتشا الذي فُتح في عهد السلطان محمد الفاتح ، وعاد لسيطرة المجريين. وإذا كان حراس القلعة قد تعرضوا لهجوم الطليعة المفاجئ ، فإن صفوفهم سرعان ما انهارت ، وأغلقوا على أنفسهم القلعة. لم يجد يعقوب باشا الانتظار هنا مناسباً ، فعبر نهر أونا ، ودخل إلى إسكلونانيا. وقد قلب منطقتي سلافين وكولبا اللتين لم تستطع أية هجمة طليعية الوصول إليهما. وقد نهب كرواتيا وجنوب إستيريا على مدى خمسة عشر يوماً.

أما ديرينسيل بال ، فقد جمع قواته المنتشرة على أطراف القلاع العثمانية الحدودية عندما سمع بنشاط يعقوب باشا ، وبدأ تحركه. وأوقف وحدات يعقوب باشا العائدة من الهجمات الطليعية في مضيق جبلي يدعى سادبار. رأى يعقوب باشا أنه وقع في مأزق ، فعرض عليهم النقود مقابل العبور. ولكن الاتفاق لم يتم لأنهم طلبوا الأسرى كافة ، والغنائم كلها.

لم يتوقع الصليبيون قوة يعقوب باشا ، فاختلفوا فيما بينهم. جزء منهم أصر على قبول الاتفاق. مع أن قوات العدو كانت ضعف القوات العثمانية على الأقل ، ومواقعها مناسبة إلى أبعد الحدود. كسب يعقوب باشا يومين بمفاوضات العبور مع العدو ، واستغل هذه الفرصة ، وأمر بقطع الأشجار من الغابة ، وفَتَحَ طريقاً جديداً ، وتخلص من عبور الممر الجبلي.

سيطر العثمانيون على أسلحة وعتاد عسكري بكميات كبيرة في مدينة ضربوها ليلاً. ولكن ديرينسيل بان لم يترك ملاحقتهم ، وقطع طريقهم مرة أخرى في كربوفا. وقد

كانت قوته قد ازدادت بعد ملاقاته العثمانيين ، ووصل تعداد جيشه إلى ثلاثين ألفاً. شرح كمال باشا زادة وحدات العدو على النحو الآتي:

«كانت مواكب الكفر تغطي الأرض والسماء كسحاب أسود. كلٌّ من مقاتليهم مغطى من فرقه إلى قدمه بالحديد ، فلا تعرف ما إن كان الرجل من لحم أو أنه حصن حديدي. لا يهمه مهما ضربته بآلات الحرب. لو سقط في النار ، ونهض فلن يشعر بالألم. عندما تسقط على الجنود الشمس ، يبدون بخوذاتهم وسيوفهم ودروعهم مثل شلال نار. بدأوا بهذه القوة والغرور بالهجوم على قوات يعقوب باشا».

قلق الباشا من كبر عدد قوات العدو ، وعدم مناسبة موقع المعركة بالنسبة إلى العثمانيين. فكر بالكارثة التي يمكن أن تحدث فيما لو خسر المعركة ، وسقط أسيراً. فصل المتعبين من الجنود ، وجعلهم حراساً على الغنائم. ونظّم صفوف ثلاثة آلاف مقاتل كقوة ضاربة. بعدئذ أخرج قادتهم الشجعان المشاهير ، وقال لهم:

«لا تخشوا كثرة عدد العدو. لا تقولوا عددهم لا يحصى ، ونحن قلة. يا رفاقي الذين قرروا أن يكونوا مجاهدين أو شهداء! {... كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}66. تسلحوا اليوم بالهمة والإقدام. في ساحة الوغى يقاوم الغازي من أجل تقديم الروح. الموت هو الذل والخوف. لا تخافوا الموت ، ولا تسعوا إليه. إن قتلتم فأنتم مجاهدون ، وإن مُتّم فأنتم شهداء. بكل الأحوال فالسعادة من نصيبكم. ستكونون سعداء في الدنيا والآخرة». ثم سحب سيفه الذي يُروى أنه كان لأحد الصحابة من غمده ، وأقسم على القتال في الصفوف الأمامية. شجعت هذه الحال المقاتلين ، وشحنتهم بالحماس إلى القمة.

هجم المقاتلون المؤمنون بأن الموت أجمل من الوقوع بالأسر على الدافنين أنفسهم بالحديد بواسطة البنادق بداية ، ثم بالصولجانات ذات الكرات الشوكية ، فذهل الطرف الآخر الذي لم يكن يتوقع هجوماً كهذا. وبجهود ديرينسيل بان وصبره تعارك الطرفان لساعات. على الرغم من قلة عدد الوحدات التركية المنضبطة والصابرة ، فقد نالت

نتيجة كفاحها بثبات وإقدام.

وأثناء انطلاق قوات العدو المندهشة من ضرب الأتراك الحازم في طريق الهرب خلَّفت وراءها تسعة آلاف قتيل ، وعشرة آلاف أسير. وأثناء هرب ديرينسيل محاولاً إنقاذ نفسه ، لحق به قائدٌ اسمه حسن ، ونازله ، وأسقطه عن حصانه ، وقبض عليه ، وقاده إلى يعقوب باشا. كان ابن يعقوب باشا بالتبني محمد قد قطع رأس حاكم يايتشة ميخال باتكاي. إضافة إلى ذلك هناك ثلاثة كروات من عائلة ديرينسيل أسرى ، وأثناء هرب ثلاثة كونتات سقط أحدهم في الأسر ، وقُتل الاثنان الآخران.

سأل يعقوب باشا ديرينسيل بان عندما مثل بين يديه: «هل أنت قائد هؤلاء؟» ولكنه لم يتلق جواباً. عندما شك بالشارات التي يحملها ، أمر بقتله. إثر ذلك اعترف له ديرينسيل بأنه القائد الأعلى ، وانتصرَ على المجاهدين سبع مرات في أوقات مختلفة ، وألزمَ الطليعة بكثير من الأعمال ، وقتلَ كثيراً من الأتراك ، وعذّب نساءهم ، ولكن الحظ هذه المرّة لم يساعده.

صباح اليوم التالي باكراً اصطحب يعقوب باشا معه ديرينسيل ، وجاب على ساحة الحرب. أمر بقتل ابنه وأخيه اللذين كانا بين الأسرى. وأرسل ديرينسيل مع كثير من غنائم الحرب إلى بيازيد خان في إسطنبول. وبعد التحقيق مع ديرينسيل في إسطنبول أرسل إلى قلعة قرة حصار في أفيون ليموت هناك بعد فترة.

وقد كتب يعقوب باشا حول نصر كربوفا بنفسه شعراً ، ومن أبيات قصيدته:

وكان قد وصل النداء حينئذ — التقينا بالعدو في كربوفا

مراد خان هو فتح كربوفا — نحن غزونا بأمر الحق

واصطفت الملائكة فوقنا — ضربنا رقاب الكفرة بالبخس

وهرب الباقي في السهول والوديان — قتلنا خمسمئة وتسعة آلاف

أخذوا جميعاً أسرى من الميدان   قبض على عشرة آلاف حي

حتى هذا الرجل وقع في الأسر   ديرينسيل سيد سادة الملك

واسجن الناس ، وكبلهم وصفدهم   كن لعيناً في دولة شاهنشاه

فهذا ما يليق بمقام الجاهل   لتلق المهانة والعذاب

وأرفع راية الدين في الذرى   لأقلب الكفار رأساً على عقب

طالما بقيت في دار الفناء   لأنبشن إقليم الكفر نبشاً

أتمنى كسبها في دار البقاء   مقامي الخلود في جنة عدن

محمد على مراده الذي تمناه   وكما حاز السلطان بيازيد بن

وصلت بعون الهدى إلى الجهاد[67]   أنا الدرويش يعقوب سيد بوسنة

شعر بيازيد خان الثاني بامتنان شديد عندما سمع بغزوة كربوفا ، فأكرم يعقوب باشا بكثير من الهدايا ، وعيّنه سيد سادة روملي ، ونقل يحيى باشا إلى البوسنة.

وفيما بعد هاجم يعقوب باشا مع جزء من الطليعة منطقة إستيريا وصولاً إلى شمال دالماتشا ، ومنطقة بانات وصولاً إلى منطقة تيماشوار ، وضرب أرجاءها كلها ، وعاد بكثير من الغنائم والأسرى. وبعد هذه الضربات المتبادلة التي طالت لفترة طويلة ، وقَّع المجريون عام 1495 معاهدة صلح مدتها ثلاثون سنة.

حروب مورة

نشبت في مورة التي ضم معظمها السلطان محمد الفاتح إلى الدولة العثمانية اعتباراً من عام 1460 حروباً حامية الوطيس بين الترك والبندقيين. كانت تلك الأحداث

مجرد وقائع حدودية صغيرة في فترة إقامة السلطان جم في أوروبا ، ولكنها بدأت تتطور بعد موته بسبب نهج البندقيين سياسة معادية للعثمانيين أثناء الحروب العثمانية المملوكية ، وافتعالهم المشاكل في كل فرصة.

وعندما هبت العاصفة على أسطول أحمد باشا هرسك زادة ، ووقع في موقف صعب أثناء الحرب مع الدولة المملوكية ، طلب اللجوء إلى قبرص ، ولكن البندقيين رفضوا طلبه. من جهة أخرى فقد كان ابن إسكندر جان كاستريوتا في ألبانيا كلما وجد الفرصة يهاجم العثمانيين ، ويحظى دائماً بدعم البندقيين[68].

لهذا السبب ، بعد أن وقَّع بيازيد الثاني معاهدة مع بولونيا ، التفت نحو قلاع البندقية في مورة. بداية نقل إسكندر باشا صاحب الخبرة الذي كان قد خرج إلى التقاعد إلى ولاية البوسنة ، وأمره بشن هجمات طليعية على أراض شمال البندقية. وبهذا يقسَّم القوات البندقية ، ويحول دون جعلها ترسل مساعدات إلى ما تسيطر عليه في مورة.

بعد ذلك دفع الأسطول المؤلف من ثلاثمائة سفينة عشرين منها كبيرة ، وسبعة وستين ذات مجاديف ، بقيادة قبطان البحر داوود باشا إلى مياه مورة. وتلفت النظر سفينتان من الأسطول بشكل خاص. كان طول الواحدة سبعين ذراعاً ، وعرضها ثلاثين ذراعاً. لقد أُنْفِقَ على كلٍ من هاتين السفينتين سبعين ألف فلوري عدا أجور العمال والخشب. كان الريس براق يقود إحدى هاتين السفينتين ، والريس كمال يقود الأخرى. أثناء عبور السفن من مضيق تشنق قلعة حُمِّلت بالمدفعية من القلاع التي على الطرفين الأناضولي والروملي[69].

كان في الأسطول قوة يبلغ تعدادها ما يزيد عن سبعين ألفاً بين فارس وجندي نظامي من المشاة وراكب من الأناضول وروملي. وكان كمال بيك حاكم يني شهير إضافة إلى الريسين قرة حسن وهرك في الأسطول.

عندما عبر هذا الأسطول الكبير مضيق تشنق قلعة ، ذُهل منه فرسان رودوس

قبل الجميع. اعتقدوا بأن الأسطول قادم إليهم ، وقد اقتربت نهايتهم ، وطلبوا من ملك فرنسا لويس الثاني عشر المساعدة فوراً. وقد أرسل ملك فرنسا عشرين سفينة مجاديف مساعدة لهم.

بعد فترة من حركة الأسطول ، أكمل بيازيد خان الثاني استعداداته ، وانطلق من إسطنبول باتجاه أدرنة في الأول من حزيران 1499. وصل إلى أدرنة في العاشر من حزيران ، وأقام فيها عشرة أيام. بعدئذ عبر فيليبة ، وسماكوف ، ودمير قابِ ، حط رحاله في سهل واردار. أثناء وجوده في هذا المكان انضمت إلى الجيش قوات روملي والأناضول. وكلف سيد سادة روملي مصطفى باشا بالسيطرة على إنة بهطِ [ليبانتو].

كان إنة بهطِ أحد أهم الموانئ في خليج كورينت. وقد بنيت قلعته بشكل مخروطي فوق قمة مرتفعة. كانت قلعة حصينة تتألف من ثلاثة أسوار كل منها فوق الآخر.

وصلت وحدات روملي مع مصطفى باشا إلى إنة بهطِ بسرعة ، وطُلب منها الاستسلام ، ولكن قائد القلعة رفض. كانت أسوار إنة بهطِ البرية قوية جداً ، وحصينة إلى أقصى الحدود. ولعله من المستحيل السيطرة عليها إذا لم تُحاصر من طرف البحر أيضاً. وتصرَّف قائد القلعة براحة لثقته بأن الأسطول البندقي لن يسمح للسفن العثمانية بالوصول إلى هناك ، واتخذ موقف الدفاع.

من جهة أخرى فإن الأسطول العثماني بقيادة داوود باشا واجه رياحاً معاكسة ، وعاصفة بعد خروجه من مضيق تشنق قلعة ، فضيّع زمناً طويلاً على الطريق ، وخسر ست سفنٍ. اثنتان من تلك السفن سفينتا مدفعية. وبقي الأسطول أياماً طويلة في نواحي مودون أفاد البندقيين. بداية تباطأوا لاعتقادهم بأن وجهة العثمانيين هي رودوس. ولكنهم عندما أدركوا أن هدف العثمانيين مدن مورة ، وعلى رأسها إنة بختِ ، فقد أغلق أسطول مؤلف من مئة وخمسين قطعة بحرية بقيادة أنطونيو غريماني ميناء إنة بختِ.

كل منها تشبه جبلاً وسط البحر[70] كلها ضخمة ليس ثمة صغيرة بينها

استشهاد الريس براق

في هذه الأثناء قطع أسطول الأعداء طريق الأسطول العثماني عندما دخل القناة بين ميناء نافارين وجزيرة بروضانو.

اتخذ الأميرال غريماني موقفاً متردداً إزاء قوة الأسطول العثماني الجديدة هذه. ولكن في هذه الأثناء جاء الأميرال الخبير اندرياس لوريدانو مع خمس عشرة سفينة مجهزة تجهيزاً جيداً من كورفول ، والتحق بالأسطول. وبهذا قوي غريماني أكثر ، فاتخذ وضعية القتال. وكانت الريح لصالح الأسطول البندقي.

كان ألبان أرمينو قائد قوات الأسطول الطليعية يراقب بشكل خاص الريس كمال. في هذه الأثناء رأى أن سفينة عثمانية كبيرة انفصلت عن الأسطول العثماني.

كان حاكم يني شهير كمال بيك في هذه السفينة التي يقودها الريس براق. فاتجه نحوها لاعتقاده بأنها سفينة الريس كمال نتيجة ضخامتها. ولحق به لورندو من أجل القضاء على الريس كمال. كان البندقيون يحملون حقداً خاصاً نحو الريس كمال لكثرة الضربات التي تلقوها منه.

هاجم سفينة الريس براق بلحظة واحدة عشرين سفينة معادية ، وكانت الريح مناسبة لها نتيجة الاعتقاد بأنها سفينة الريس كمال. سفينتان شراعيتان كبيرتان في كل منهما ألف رجل ، وأخريان في كل منهما خمسمائة رجل أحاطت بسفينة الريس براق. ألقت سفينتا لوريندانو وألبان أرمينيو الشناكل إلى السفينة التركية في الوقت ذاته تقريباً. تمكن الريس براق بطلقات المدفعية المتلاحقة من إغراق السفينتين الصغيرتين ولكنه لم يستطع منع تعليق سفن المجاديف الكبيرة شناكلها بسفينته. وقد بدأت معركة فظيعة ، وفقد الطرفان كثيراً من الناس.

في هذه الأثناء حاولت سفينتان بندقيتان الاقتراب من سفينة الريس هرك ،

ولكنهما لم تنجحا ، واضطرتا للابتعاد. وقد أغرقتا بقذائف المدفعية التي أطلقت من سفينة الريس هرك.

أما الريس كمال فقد انسحب نحو الشاطئ تحت تأثير القصف المدفعي البندقي الكثيف. واجه الريس كمال هجومَ فرسان العدو على الشاطئ ، فشتتهم بنيران مدفعيته.

زلزلت الأرض ورجفت السماء[71]　　　أطلقوا قذائف مدفعية كالجبال

ولكن المعركة الأكثر دموية كانت تدور على جناح الريس براق. بدأت السفن المعلقة فيما بينها بواسطة الشناكل تُجر بتأثير الرياح إلى وسط الأسطول البندقي. عندما أدرك بأن عدد قواته التي تحارب العدو بشجاعة قد بدأ يقلُّ ، وتنخفض احتمالات الخلاص ، فلم يبق له سوى الحل الأخير كي لا تقع سفينته بأيدي العدو.

أشعل سفن العدو بواسطة النفط ، ولكنه لم ينجح بإنقاذ سفينته على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة. بالنتيجة فقد اشتعلت سفينة الريس براق أيضاً ، وتحولت السفن الثلاث إلى كتلة من اللهب. كافح بحارة الطرفين النار والماء بكل ما استطاعوا من أجل إنقاذ أرواحهم.

استشهد من الطرف التركي خمسمائة رجل. وكان البحار التركي العظيم الريس براق والريس قرة حسن وكمال بيك سيد سنجق يني شهير بين الشهداء[72].

تقدمت السفن العثمانية التي في عرض البحر بسرعة ، وبدأت بإنقاذ البحارة الذين يسقطون في البحر بواسطة الزوارق ، وتمكنت من إنقاذ سبعمائة بحار.

ولم ينقذ أحد تقريباً من سفن الأعداء. ومات القسم الأكبر منهم حرقاً ، بينما مات الباقون غرقاً. وهناك أكثر من ستمائة رجل كانوا يتخبطون على سطح الماء قضى عليهم مقاتلو البحرية العثمانية. وقد احترق القبطانان البندقيان لوريدانو وأرمينو مع سفينتيهما (28 تموز/يوليو 1499).

وقد سيطر المجاهدون على سفينة مجاديف هرعت لمساعدة سفن الأعداء ورجالهم الذين سقطوا في البحر ، وأسر من كان فيها.

أطلق البحارة الأتراك على جزيرة برودانو التي جرت قربها المعركة اسم جزيرة الريس براق وفاء لهذا البحار التركي.

أدرك أنطونيو غريماني بأنه لن يستطيع فعل شيء ، فترك طريق إنة بختِ للأسطول التركي ، وانسحب إلى كورفو. وأثناء وجوده هناك انضمت إليه السفن الفرنسية العشرون التي أُرسلت لمساعدة فرسان رودوس ، مع سفينتين رودوسيتين. وهكذا استعاد ثقته بنفسه ، وتحرك من جديد ، وجاء إلى فتحة خليج إنة بختِ ، وبدأ بانتظار الأسطول التركي.

السيطرة على إنة بختِ

فور سماع بيازيد الثاني الذي كان في سهل تشاطالجا بالأمر ، أرسل ألفي إنكشاري إلى مورة تقوية لفرسان الأناضول بقيادة أحمد باشا هرسك زادة.

ركَّب أحمد باشا قوته المؤلفة من عشرين ألف رجل بالأسطول من أمام حصن هولوم إتشي. وعلى الرغم من هجوم أسطول البندقية مع سفن حلفائه لقطع طريق السفن العثمانية المتجهة إلى ليبانتو ، فإنها لم تحقق أي نتائج إيجابية بالنسبة إليها.

كانوا متصورين أن الاستعدادات المتخذة في خليج إنة بختِ ستمنع دخول الأسطول العثماني. ولكن الأسطول العثماني ذات ليلة مظلمة أطفأ أنواره كلها ، ودخل إلى ميناء إنة بختِ (25 آب/أغسطس).

لم يكن أمام أسطول العدو ما يفعله عندما عاش حالة الذهول فجراً. أثناء مغادرة السفن الفرنسية الأسطول لمهاجمة جزيرة كيفلونيا ، فتح البندقيون أشرعتهم نحو زانتا تاركين إنة بختِ لبختها.

من جهة أخرى كان مصطفى باشا سيد سادة روملي قد بدأ بحصار قلعة إنة بختِ إثر رفض قائدها زوانا موري تسليمها. وقبل مرور زمن طويل جاء سيد سادة الأناضول سنان باشا ، وشارك بالحصار. أما السلطان بيازيد فقد أمر بنصب خيمته السلطانية على رابية قريبة من المنطقة لأن صيف إنة بختِ حار جداً ، وخانق. كان موري يدافع بإصرار عن القلعة لاعتقاده بأن البندقيين سيأتون بأسطولهم لدعمه من البحر. حتى إن أندريه أحد قادة القلعة شن هجوماً خاطفاً على الأتراك بقوة مؤلفة من ألفي رجل ، ولكنه لم يحقق نتيجة إيجابية بالنسبة إليه ، واضطر للعودة.

عندما رأى حراس إنة بختِ السفن الحربية صباح 26 آب/أغسطس من بعيد ، بدأوا ما يشبه احتفال العيد من الفرح. ولكنهم عندما أدركوا أن هذه السفن للأتراك بعد وقت قصير ، وقعوا بيأس فظيع.

لم يُضعْ زوانا موري أي وقت. راجع مصطفى باشا فوراً متوسلاً الأمان ، وسلم مفاتيح القلعة73.

وهكذا لم يقدم الأتراك على نهب أو سلب في إنة بختِ التي وقعت بيدهم ، وتركوا أهلها فيها. وسمحوا للجنود القادمين للقتال هنا متطوعين بالمغادرة. وُجد في القلعة كثير من الأسرى المسلمين. وأُرخ فتح القلعة بعبارة: «هذا البلد آمن».

وقالوا لشعبها أنت آمن	منحت إنة بخت الأمان
قول هذا البلد آمن *74	أُرّخ عام أُخذ الحصن

وبحسب الاتفاقية فقد سمح العثمانيون للمدافعين بترك أسلحتهم ، والذهاب. ولكن قسماً من الحراس كان مختبئاً في القلعة الداخلية فتمرد مع بعض الأهالي ، وشنوا هجوماً أثناء أداء الأتراك صلاة الجمعة في الجامع ، وقتلوا كثيراً من المسلمين. ولكن تدخل فصيل عثماني كان خارج الجامع في الوقت المناسب قمع التمرد ، وأنزل بالمشاركين بهذه

العملية أشد العقوبات.

بعد توزيع السلطان بيازيد رتب الترقية على المشاركين بفتح إنة بختِ ، أمر ببناء قلعتين على الرأسين البحريين المتقابلين اللذين يدعيان ريون وأنتيريون والمطلين على الخليج ، وعاد إلى أدرنة. إحدى القلعتين سيبنيها سيد سادة روملي ، والأخرى سيبنيها سيد سادة الأناضول.

بدأ بناء القلعتين في 25 أيلول/سبتمبر ، ونتيجة النشاط الشديد أنهي بناؤهما في 18 تشرين الأول/أكتوبر. وضع في كل منهما عشرون مدفعاً. وأبقي على عدد كافٍ من جنود المهام الخاصة والإنكشاريين. وبهذا لم يحصل العثمانيون على أهم ميناء تجاري بندقي فحسب ، بل حصنوا أنفسهم ضد أي خطر يمكن أن يأتي من البحر. لم يعد الوصول إلى إنة بختِ ممكناً دون الحصول على إذن من الحصن.

من جهة أخرى فقد تحوَّل الأسطول التركي الذي كان قبل مرحلة الفاتح يقدم خسائر فادحة عندما تضربه العاصفة إلى موقع يخوض فيه حرباً مع الأسطول البندقي ، وحتى يوقع فيه خسائرَ ، وهذا مؤشر واضح على تحول حاكمية البحر المتوسط إلى البحارة الأتراك.

من جهة أخرى فقد كلف بيازيد خان الثاني بعد البدء بالحملة مباشرة إسكندر باشا بحماية البوسنة ، وشن هجمات طليعية على أراضي البندقية. وبعد أن انتظر إسكندر باشا فترة في البوسنة ، وبعد السيطرة على إنة بختِ ، بدأ بحملة طليعية شارك فيها عشرة آلاف فارس ، وخمسة آلاف جندي مشاة. عبروا نهر آق صو [تاغليمنتو] ، وتقدموا حتى ضفة نهر إسونزا ، وبعد أن أسس مقر قيادته في صحراء أودين ، قطع الطريق بين فيريول وكارينتيا. انفصلت الطليعة هنا إلى ثلاث مجموعات ، وقطعت نهر إسونزا — وقلبت السهل الغني القريب من مدينة البندقية رأساً على عقب. نهبوا مائة وثلاثين مدينة وقصبة ، وعادوا بثمانية آلاف أسير.

في طريق العودة كانت الأنهار قد فاضت نتيجة الأمطار الغزيرة ، وصعب على الطليعة أن تسير بأحمال الغنائم الثمينة. على الرغم من هذا الوضع فإن البندقيين لم يتجرؤوا على الهجوم نتيجة إصابتهم بيأس شديد.

طلب البندقيون عقد اتفاقية مع العثمانيين بعد خسارتهم الميناء الهام إنة بختِ ، واكتشافهم ضعفاً بحريتهم وعدم تمكنهم من تحمل نفقات حرب طويلة. طرقوا باب الدولة العثمانية بواسطة سفير يدعى لوي مافينتي.

تحدث السفير بداية عن عدم خرقهم السلام ، ولهذا السبب طالب بإطلاق سراح التجار الأسرى ، وإعادة إنة بختِ. وقد حصل على صلاحية التخلي عن هذه الشروط في حال عدم الموافقة على هذا العرض. ولكن السلطان بيازيد أجاب:

«إذا أردتم السلام معي ، فعليكم أن تسلمونا مدن مودون وكورون وناوبليا التي في مورة ، وتدفعوا لنا ضريبة سنوية محددة».

عندما أبلغ السفير بأن صلاحيته تنتهي عند تقبل فتح إنة بختِ ، وليس لديه صلاحيات أخرى ، لم تصل المباحثات إلى نتيجة.

فتح مودون

قلق البندقيون من طلب بيازيد خان الثاني مودون. وبمعرفتهم بأن مودون هدف للفتح العثماني ، أرسلوا الأميرال أنطونيو غريماني في نهاية 1499 إلى مياه المدينة للدفاع عنها ، وبدأ استعداداته.

بعد ذلك بدأت البندقية بالبحث عن حلفاء. أخذت وعداً من المجر بالدعم مقابل النقود. وبدأت تضغط على البابا كي ينظم حملة صليبية كبرى. نتيجة إلحاح البندقيين على طلبهم هذا أصدر البابا بياناً ، وطالب الجميع بدعمهم. وضغط على الأفلاك والبغدان كي يتمردوا على العثمانيين.

أما بيازيد خان الثاني فقد سرّع الاستعدادات من أجل مودون وكورون. أمر مصطفى بيك سيد برفيزة ببناء أربعين سفينة ، وضمها إلى قوات داوود باشا. ولمنع عملية إنزال يقوم بها العدو على شواطئ مورة ، كلف علي باشا المخصي بالدفاع عن المدينة. وتقرر إرسال يعقوب باشا إلى إنة بختِ مع اثني عشر ألف جندي مشاة وعشرين ألف فارسٍ.

أثناء استعداد العثمانيين للحرب ، قام البندقيون بعدة محاولات. شنوا هجمة سريعة ذات ليلة ، وأحرقوا عشرين سفينة من التي حضَّرها مصطفى بيك سيد برفيزة75. بعدئذ هاجموا قلعة راكية القريبة من برفيزة. وإذا كان مصطفى بيك قد هُرِع لنجدة القلعة ، ولكنه وجد أن البندقيين قد سيطروا عليها. على الرغم من هذا اشتبك مع البندقيين. استشهد أخاه ، وابن أخيه ، واضطر للانسحاب جريحاً76.

بعد هذا أنزل البندقيون قوة مؤلفة من ألف رجل على شواطئ مورة. ولكن علي باشا الذي جاء إلى هذه المنطقة هزم هذه القوة ، وأجبر المتحرشين بقلعة ناوبلي على الانسحاب.

تحرك سلطان السلاطين من أدرنة في 7 نيسان/أبريل 1500 بعد انشغاله طوال الشتاء بالاستعداد للحرب. عندما وصل إلى ديميتوكا ، وصل سفير جديد للبندقية ، وأبلغه بأنه قبل بدفع الضريبة ، ولكنه لم يأخذ كلامه بعين الاعتبار. قضى سلطان السلاطين عيد الفطر في سيريز ، ثم ذهب إلى كونتاري. وهنا مثل في حضرته علي باشا المخصي ، وأرسله في المقدمة من أجل أن يحاصر مودون ، ثم أرسل سيد سادة الأناضول سنان باشا مع قواته.

عندما حاصر الباشايان سنان وعلي مودون ، ذهب إلى القلعة جريحاً يحمل بيده سهماً أرسله الأتراك. أبلغ الناس هناك بأن الأتراك يريدون أن تستسلم مودون دون قيد أو شرط ، وإلا فإنهم سيأخذونها بحد السيف.

مودون ميناء وقلعة يسميها اليونانيون ميثوني تقع إلى الجنوب الغربي بقليل من

مورة. الأسوار البحرية من طابق واحد بسيط ، ارتفاعها وعرضها عشرون ذراعاً. من يراها يعتقد أنها قطعة من الرخام.

هناك خندق يحيط بالجانب البري من ثلاث جهات عمقه ثلاثة طوابق ، ولا يسمح بالمسير العام. رماة المدفعية الذين في القلعة في غاية المهارة بعملهم. يصيبون الهدف بدقة من بعد ميل ، ويضعون القذيفة بالهدف بشكل دقيق. غير هذا ، يقود الحراس قائد جريء يدعى ماركو غابرييل مشهور جداً في تلك الأنحاء. وقد قوى القلعة بجنود مأجورين ، وجهز الناس للمدافعة.

إثر رفض عرض الاستسلام ، نشبت المعركة. مع وصول سلطان السلاطين إلى أمام مودون ، تم البدء بحركات أكثر جدية. في نهاية معارك عنيفة دامت أربعة أيام ، تمت السيطرة على الحصن الخارجي. لم يكن بالإمكان قصف الأسوار لأن المدفعية في الأسطول.

أخيراً ، وفي السابع عشر من تموز/يوليو ظهر الأسطول التركي ، وألقى مراسيه في عرض البحر. في اليوم التالي غادرت الأسطول سبع سفن ، واقتربت من الشاطئ ، وأنزلت هناك جنوداً ومدافع. وهكذا حوصرت القلعة من البحر والبر ، وفي العشرين من تموز/يوليو بدأ القصف المدفعي عليها من اثني عشر مكاناً. وعلى الرغم من تقديم الذين في القلعة كثيراً من الضحايا نتيجة هذا القصف الشديد ، فقد استمرت بالمقاومة.

في هذه الأثناء شوهد الأسطول البندقي من جديد وقد كان يلاحق الأسطول العثماني من زانتا ، ولكنه لم يستطع التدخل بسبب عدم مؤاتاة الرياح. في 24 تموز/يوليو ، فتحت أشرعتها ، وتحركت من أجل أن ترهب سفن المسلمين. ونتيجة القصف المدفعي الكثيف المتبادل أحمر لون البحر.

أحاطت سفينتا شادي بيك دولقادر أوغلو ومصطفى بيك سيد ولاية آيدن بسفينة بندقية كبيرة. وألقى داوود باشا جسراً على سفينة أميرال البندقية. ولكن تدخل سفينة بندقية أخرى أوقع داوود باشا في موقع خطر. إزاء هذا الوضع تحرك الريس بيري بسرعة ،

وشارك في الهجوم على مؤخر السفينة ، وأنقذ داوود باشا من الوضع الخطير الذي وقع فيه.

السفن تتجاور من أجل إلقاء الجسور ، وتنسحب ، والمعركة تدور بدموية شديدة. نزل السلطان بيازيد خان إلى الشاطئ من أجل متابعة المعركة عن قرب أكثر. كان سلطان السلاطين يتابع المعركة الدامية ، وينادي مشجعاً مقاتلي البحرية:

«يا أرواحي! هذا يومكم!»77.

عندما رأى البحارة الشجعان ، وسباحو المعركة عموماً سلطان السلاطين قربهم ، أغرقوا إحدى سفن البندقية الكبرى ، وسحبوا اثنتين بعد أن سيطروا عليهما ، وهنا اختار الأسطول البندقي الانسحاب لضمان سلامته.

هربُ الأسطول الصليبي ، وقتلُ الأسرى أمام القلعة أثر على المدافعين عن مودون ، وخلخل معنوياتهم. ولكن كلمات قادة القلعة الحماسية جعلتهم يقررون الاستمرار بالدفاع عنها اعتماداً على سلامة أسوارها ، وعمق خنادقها.

كان القصف التركي يشتد باستمرار. لم يبق لدى من في القلعة إمكانية البقاء في بيوتهم نتيجة قذائف الهاون. من جهة أخرى كان العمل يجري بهمّة من أجل ملء الخنادق لكي يتمكنوا من السير إلى القلعة.

حين كانت الخنادق على وشك أن تُملأ ، ويُشنُّ هجوم عام ظهر الأسطول الصليبي ثانية. تظاهر الأميرال البندقي الجديد تريفيزاني بأنه سيشن هجوماً ، وبعد أن جذب الأسطول التركي إلى طرفه ، دفع أربعة سفن شراعية كبيرة محملة بكل أنواع المساعدة من العتاد إلى الغذاء نحو مودون.

مرت السفن الأربعة فاتحة أشرعتها الكبرى بمساعدة الريح من وسط الأسطول العثماني ، ونجحت بالدخول إلى الميناء. ولكن مدخل الميناء كان مغلقاً بجنزير قوي. إثر هذا ترك غالبية الحراس التحصينات ، من أجل كسر الجنزير لتأمين دخول السفن إلى

الميناء ، وإفراغ حمولتها.

سحب الناس والحراس الذين في القلعة المدافع والبنادق وبقية العتاد والمؤن التي في السفن الشراعية بنشاط وهمة عاليتين وبفرح شديد.

مناورة الإفرنج الماهرة ، واللعبة التي لعبوها ، والنجاح الذي حققوه أغضب بيازيد خان الثاني بشكل شديد. وكان يعمل على معاقبة المقصرين من جهة ، ويأمر بشن هجوم عنيف على جهة الميناء من أجل عدم السماح باستخدام اللوازم المجلوبة حديثاً من جهة أخرى.

إزاء هذا الوضع ، نزل الحراس الذين على الطرف البري ، وهرعوا نحو جهة البحر.

لم تكن جدران القلعة قد هدمت بالشكل المطلوب ، ولم تملأ الخنادق بشكل تام بعد. ولكن ذهاب قسم كبير من الحراس إلى جهة الميناء منح الأتراك الفرصة التي ينتظرونها. شنوا هجوماً بسرعة ، ودون أن يضيعوا أي وقت.

على الرغم من المقاومة الشديدة للحراس الذين في الأبراج ، فقد تمكن بعض الأتراك الشجعان من صعود الأسوار في البداية. وقد دلوا الحبال التي كانوا يحملونها على خصورهم فوراً ليسهلوا صعود الآخرين. وصعد جزء من المقاتلين على السلالم. رأى الحراس الذين في الميناء أن الأتراك صعدوا إلى القلعة ، وبدأت هناك معركة حامية ، فعادوا ، وشنوا هجوماً على الأتراك.

وهكذا بدأت معركة حامية الوطيس داخل القلعة ، واستمرت من العصر حتى غروب الشمس. عندما خيّم الظلام ، دخل أهالي مودون إلى بيوتهم ، وبدأوا يقذفون النفط على الأتراك من النوافذ ، ويوقعون بينهم خسائر فادحة ، وأحرقوا المدينة.

على الرغم من هذه المقاومة الشديدة فإن السيطرة قد تمت على القلعة عند وقت صلاة العشاء تقريباً. ولم يرحم الأتراك الذين قاوموهم[78].

حوَّل سلطان السلاطين كنيسة المدينة التي أصبحت خرابة تقريباً إلى جامع. في اليوم الخامس للفتح ، أقيمت فيها صلاة الجمعة ، وقرئت الخطبة باسمه.

اعتُبر بيازيد خان الثاني فاتح مودون ، وأمر بإعادة إصلاح أسوارها. أسكن فيها خمس عائلات من كل قرية في مورة ، وكثيراً من العائلات الأناضولية ، وأعاد الحياة إليها. وأوقف دخل المدينة لمكة79.

إثر فتح مودون استسلمت نافارين وكورون للوزير الأعظم علي باشا وقبطان البحر داوود باشا. دخل بيازيد خان إلى كورونا في 20 آب/أغسطس 1500 ، وصلى الجمعة في كنيستها الكبرى بعد تحويلها إلى جامع ، وترك فيها قوة حماية مؤلفة من ألف جندي مهمات خاصة وألف وخمسمائة إنكشاري كما فعل في مودون.

إثر فتح هذه القلاع كلها ، انقطعت علاقة البندقيين تماماً بمورة ، فتعاونوا مع الأسطول الفرنسي في العام التالي ، وحاصروا الجزر التركية في ميديللي الواقعة في البحر المتوسط ، ولكن والي صاروخان قورقود جلبي أمَّن مساعدة أحمد باشا هرسك زادة ، وشن حملة ، أفشلت عمليتهم. وبموجب معاهدة معقودة في 14 كانون الأول/ديسمبر 1502 ، اضطروا للاعتراف بفتح العثمانيين لمورة.

رثاء الأندلس

قطع المجاهدون المسلمون شمال أفريقيا من أولها إلى آخرها سنة 711 (92 هجرية) ، ودخلوا إسبانيا التي كانت حضارة شبه الجزيرة الإيبرية فيها محطمة ، وزينوها ، وأحدثوا فيها آلاف المؤسسات الثقافية والاجتماعية. وكانت قرطبة ، وإشبيلية ، ومورسية ، وبلانسيا ، وطليطلة ، وغرناطة من أبرز المدن التي ازدهرت. أنشأت الأندلس كثيراً من الحلفاء ، وكانت مؤثرة على صعيد كبير جداً بحملة النهضة الأوروبية التي قام بها المسلمون هناك.

ظهر في الأندلس بعد أربعة قرون من حكم الأمويين لها (1011) العديد من الدول

الإسلامية فيما سمي «ملوك الطوائف». وصراع هذه الدول فيما بينها تسبب بتوسع المسيحيين الذين كانوا محصورين على طرف خليج غاسكونيا تدريجياً على حساب المسلمين.

كانت تستمر الأندلس بحياتها نتيجة دعم دولتي المرابطين والموحدين، ولكن انهيار هاتين الدولتين جعلها تتحضر لفتح أشرعتها نحو أيامٍ مليئة بالآلام.

لأن ثلاثة ممالك ظهرت نتيجة تقدم المسيحيين تدريجياً، فقد ظهرت في البداية مملكة أراغون، ثم نافار، وليون. بعدئذ أضيف إلى هذه الممالك كل من كاستيليا والبرتغال. وفي النصف الثاني للقرن الرابع عشر احتلت هذه الممالك شبه الجزيرة كلها ما عدا أرض دولة بني الأحمر.

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر توحدت مملكتي كاستيليا وأراغون نتيجة زواج الكاثوليكي لفرديناند وإيزابيل، وهكذا ظهرت إلى الساحة دولة قوية[80].

مع دخول عام 1487 هُددت مالقا، وبدأت تُقرع أجراس الخطر على غرناطة.

إزاء هذا الوضع أرسل عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر طلب العون من الأسر المالكة المسلمة في شمال أفريقيا، والممالك، كما أرسل سفيراً إلى إسطنبول (1486–1487).

وبهدف شرح الوضع المؤلم الذي هم فيه، جلب السفير معه مرثية الشاعر الأندلسي أبو البقاء صالح بن شريف الرندي (توفي 1285) لمدن قرطبة وإشبيليا وبلنسية التي تضاهي كل منها الأخرى بجمالها.

يبدأ الرثاء بعبارات مؤثرة تتغلغل إلى الوجدان، وتوصي بعدم الغرور والتباهي بالماضي، ثم تتحدث حول الممالك والمدن الأهم التي فقدها المسلمون والظلم الذي يتعرضون له. وتحول المساجد إلى كنائس فيها نواقيس وصلبان، ويعدد المصائب التي

حلت بالمسلمين ، ومن أبياتها التي يحذر بها المسلمين مما تتعرض له الأندلس ، ويطلبهم لنجدتها:

إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ	يا غافلاً وله في الدهر موعظة
كأنها في مجال السبق عقبانُ	يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها في ظلام النقع نيران	وحاملين سيوف الهند مرهفة
لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطان	وراتعين وراء البحر في دعة
فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟	أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟81	كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

أيام وصول الرسالة كانت الدولة العثمانية مشغولة بالعديد من القضايا.

قبل كل شيء كانت المعارك الدائرة مع المماليك ترجح لصالحهم. وجود جم في أوروبا يحول دون إمكانية الضغط على تلك الدول. وفي النهاية لم يكن بإمكان الأسطول العثماني الوصول إلى الأندلس بشكل مباشر.

ومثلما طرقت دولة بني الأحمر باب العثمانيين ، فقد طرقت الدولة المملوكية أيضاً. ولكن المماليك على الرغم من اعتبارهم مركز العالم الإسلامي ، وامتلاكهم أسطولاً قوياً لم يقدموا أية مساعدة.

أرسل حاكم المماليك رسائل تهديد للبابا وفرديناند الكاثوليكي من أجل منع الظلم الذي يقع على المسلمين في الأندلس. وقد قال في رسائله بأنه سيأمر بذبح مسيحيي فلسطين في كنيسة القيامة ، وسيغلق أبواب سورية والقدس في وجه المسيحيين إذا لم يرفعوا يدهم عن مسلمي غرناطة ، ولكن هذا التهديد لم يؤثر.

أخيراً في كانون الثاني /يناير 1492 استسلمت دولة بني الأحمر شريطة ألا يعامل أهلها معاملة سيئة ، ويعترف بحقوقهم. وهكذا سقطت آخر قلاع المسلمين الذين استمر حكمهم للأندلس ثمانية قرون. ولكن سيثبت مرة أخرى بأن الوعود التي يقدمها المسيحيون للمسلمين ليس لها أية قيمة. لقد دخل المسيحيون إلى القطعة الأخيرة من الأندلس هذه بوحشية وبربرية. خُربت المساجد والمعابد والقصور التي تعتبر روائع فنية. أحرق فرديناند خمسمائة ألف مخطوط في الساحات. وازدادت المعاملة السيئة للمسلمين يوماً بعد يوم.

تعرّض من لا يعتنق المسيحية لتعذيب لا يتصوره عقل. ونال اليهود أيضاً نصيبهم من هذا التعذيب بعد أن عاشوا مرتاحين تحت إدارة المسلمين.

لم يكن الإسبان يسمحون لمن يريد مغادرة شبه الجزيرة. لأن المسلمين كانوا فنانين وأصحاب مهن. غالبية أرباب العلوم والفنون والزراعة من المسلمين. إذا غادر هؤلاء سيحرم البلد من هذه الأعمال.

من يجد الفرصة يلقي بنفسه إلى السواحل الأفريقية ، وقد كانت تتقاطر القوافل إلى هناك [82].

الريس كمال وتطور البحرية

لعبت هذه التطورات في الأندلس دوراً بإنهاء الحرب العثمانية المملوكية التي طالت كثيراً ، وأخذت شكلاً أكثر خطورة مع الزمن. ومثلما فعل سلطان المماليك قيتباي ، أرسل بيازيد خان الثاني رسالة لكل من البابا وفرديناند يرجوهما فيهما عدم الضغط على مسلمي الأندلس ، ولكن هذا الأمر لم يعط نتيجة.

لو تركنا قضية وجود جم في أوروبا جانباً ، فلعل هذا الوضع يجب أن يكون أكثر ما آلم بيازيد خان لعدم امتلاكه أسطولاً قوياً.

كانت البحرية العثمانية قد تطورت كثيراً في عهد السلطان محمد الفاتح ، وقد

تقدمت كثيراً على بحرية جمهورية البندقية التي كانت الأقوى في البحر المتوسط بشكل دائم. ولكن العثمانيين لم يكن لديهم بحارة متفوقين مثلما لدى البندقيين.

لهذا السبب بدأ بيازيد الثاني بتقوية البحرية ، وتنشئة قادة بحريين أقوياء في آن واحد. وبدأ يبني سفناً تشبه سفن البندقية ، منها شراعية وبمجاديف في آن واحد ، ومنها قادس ، ومنها قادس صغيرة.

بعدئذ كسب القرصان التركي المشهور المدعو الريس كمال ليعمل في خدمة الدولة. كان الريس كمال من أشهر قراصنة البحر المتوسط الأتراك في أواخر القرن الخامس عشر.

كتب حوله كمال باشا زادة: «في عهد سلطنة بيازيد خان الثاني ظهر بحار ريس سفينة يدعى كمال. يتحدث العالم عن جرأته وبطولته ، وسُمع باسمه في الأرجاء كلها. كانت نساء الكفار في ديار المغرب عندما يبكي أولادهن الصغار يخوفونهم ، ويهدئونهم باسمه. الكفار الذين يرون وجهه في البحر يموتون من الخوف ، وعندما يسمعون صوته يتجمدون كالجدار. الريس غازي بطل ساحات الحروب البحرية كأنه رستم زمانه. اسمه أسطورة. سيفه دائماً على خصره. عمله ليلاً نهاراً هو الغزو والجهاد. لا يدع سفينة تسير على سطح البحر ، إلاّ ويقضي عليها فور رؤيته لها. يقتل الكفرة الذين في السفينة ، ويأخذ البضائع التي فيها ، ويغرقها»83.

وفي الحقيقة أن السفن التي تعمل بأمر الريس كمال تجولت على شواطئ إسبانيا وأفريقيا ، ومضيق سبتة ، وجزر البليار ، وحارب القراصنة المسيحيين بنجاح ، وضرب سواحل الفرنجة.

وفي سنة 1488 ، ورداً على قمع الإسبان للأندلسيين ، ضرب جزر مالطا وجربة وسجيليا وسردونيا وكورسيكا الخاضعة لسيطرة الإسبان أو تحت نفوذهم. بعد ذلك حول شواطئ أرغون إلى خرابة. وقصف الموانئ الإسبانية كلها. وأنزل جنوداً في كثير من

المناطق ، ونهبها. وأنزل جنوده إلى مالقا التي احتلها الإسبان من العرب ، وعذبوا فيها المسلمين كثيراً. وبعد أن نهب المدينة ، أشعل النيران فيها ، وانسحب. وقد بثت حملة الريس كمال هذه رعباً فظيعاً بين الإسبان.

كانت الدولة العثمانية صاحبة الشواطئ الطويلة في القارتين الآسيوية والأوروبية بحاجة بحارة خبراء يمكنهم التصدي لأساطيل دولة البندقية وحلفائها. وقد فكر السلطان بيازيد الثاني بشكل صائب عندما قرر الاستفادة من القراصنة الأتراك في البحر المتوسط ، ودعا البحار التركي الشهير الريس كمال لخدمة الدولة84.

وقد استجاب الريس كمال من كل قلبه لهذه الدعوة. ويروي الريس بيري دخوله في خدمة الدولة في كتابه «كتاب البحرية» على النحو الآتي:

تلطف علينا بيازيد خان ذات يوم — وأرسل لنا أمره وفرمانه

أمر بمجيء الريس كمال إلى بابه — ليخدم في أملاكه البحرية

كان تاريخ ذلك الحدث يا أعزاء — غلبنا تسعمائة مرة للوطن85

فور مجيء الريس كمال ، بدأ بأعمال الإصلاح والتعديل في الأسطول. ركب في السفن الحربية مدفعية بعيدة المدى. وبهذا حظيت السفن التركية بإمكانية قصف سفن العدو وشواطئه من مسافات بعيدة. أكسب الدولة قادة مشاهير من أمثال الريس براق ، والريس قرة حسن ، والريس هرك. وأنشأ ابن أخيه الأميرال العظيم ، والجغرافي ، وعالم الخرائط والرياضيات الريس بيري86.

بعد عشر سنوات من سقوط غرناطة ، أي في عام 1502 ، أرسل المسلمون الباقون في المدينة رسالة إلى بيازيد الثاني. شرح السفير لسلطان السلاطين القمع الديني الذي يتعرض له مسلمو الأندلس ، ويأسهم إزاء هذا القمع.

إثر هذا أرسل بيازيد خان البحار المشهور الريس كمال على رأس أسطول كبير. وبعد أن قصف الريس كمال شواطئ إسبانيا ، أنقذ مجموعة من مسلمي الأندلس ، وأمن نقلهم إلى شمال أفريقيا وإسطنبول.

تجوال الريس كمال غرب البحر المتوسط سيترك ذكريات عميقة لا تنسى في شمال أفريقيا. ولَّد إعجاباً عظيماً بالقوة التركية ، وقدرتها ، وعدالتها. وسيسير الإخوة بربروس في هذا الطريق العظيم الذي فتحه ، ويحققون انتصارات أعظم ، وسيحولون البحر المتوسط إلى بحيرة تركية تقريباً.

الخطر الصفوي

قضى الشاه إسماعيل على دولة الغنم الأبيض عام 1502 ، وأعلن سلطنته في تبريز ، وأسس دولته ، وبعد أن أخذ أذربيجان والعراق ، وضع عينه على الدولة العثمانية.

بدأ المذهب الشيعي يدخل إلى الأسرة الصفوية في عهد الشيخ علي (1392–1429). حفيد هذا الرجل المدعو الشيخ جنيد (توفي عام 1460) اعتنق المذهب الشيعي ، و طريقته إلى تنظيم سياسي بكل معنى الكلمة. أما حفيده الشاه إسماعيل ، فقد حول المشيخة إلى شاهية ، وأسس قوة عظمى تهدد العثمانيين في آسيا.

لم تكن هذه الخطورة تشبه المخاطر التي سبقتها بما في ذلك خطر تيمور. كان الوضع مفتوحاً على إمكانية الوصول إلى نتائج أفظع بكثير. لأن المقاطعات التركية في الأناضول والدول التركية الأخرى كلها على مذهب وعقيدة أهل السنة ، فقد كان صراعها فيما بينها صراعاً على الحكم.

ولكن الآن تتطور قوة من مذهب آخر ، وهي مرشحة لتفتيت الأناضول.

وبينما كان الشاه إسماعيل يعمل على توسيع دولته ، بدأ يرسل كثيراً من أنصاره إلى الأناضول بهيئة دراويش وأتباع طرق صوفية. وقد كان هناك بالفعل علاقة قوية بين

الباطنيين الأناضوليين والصوفيين الأردبيليين ومنذ فترة طويلة.

والآن دعاة الشاه يطورون هذه العلاقة ، ويحضرون الباطنيين الأناضوليين لتمرد واسع ضد الحكومة العثمانية. وقد تحوَّل جزء كبير من أتباع هذه الطريقة إلى طموح الارتباط بالدولة الصفوية. وقد كان هؤلاء يرسلون إلى الدولة الصفوية نوعاً من الضريبة تسمى «نذراً».

رأى بيازيد خان الثاني خطورة الوضع ، فمنع الذهاب إلى إيران من الأناضول ، والمجيء من هناك ، ونفى جزءاً من شيعة تكة إلى مودون وكورون. ومثلما منع هذا الإجراء تواصل الشاه إسماعيل مع أنصاره في الأناضول ، فقد حرمه أيضاً من دخل كبير.

ونتيجة الرغبة بأن تكون هناك إدارة قوية في تكة ، سحبت ولاية صاروخان من الأمير قورقود ، وأرسل إلى أنطاليا.

على الرغم من اتخاذ هذه الإجراءات كلها فإنها لم تحل دون تطور نشاط الصفويين في الأناضول. في عام 1507 دخل الشاه إسماعيل أرض الأناضول أول مرة دون أن يعلن الأمر بهدف مهاجمة أبناء دوالقادر. وقد وصل إلى نواحي طوقاط. فور علم الدولة بالأمر ، أرسلت إلى المنطقة قوة بقيادة يحيى باشا ، وسئل عن سبب تجاوزاته هذه.

قال مجيباً: «سلطان السلاطين هو والدي. لا عين لي على أرضه. مشكلتي مع حاكم فارس والعراق مراد بيك الذي لجأ إلى أبناء دوالقادر». وبعد أن قدم بعض الاعتذارات ، دخل إلى ألبستان. خرب الأمكنة التي مر منها ، وأحرقها ، وبعد أن سيطر على خربوط وديار بكر ، انسحب.

ثمة سببان لعدم توجه الشاه إسماعيل إلى دولة «علاء الدولة» بشكل مباشر عبر ديار بكر والانتقال إلى الدولة العثمانية. الأول هو عدم ترك الوقت الكافي لعلاء الدولة من أجل أن يستعد ، والهجوم عليه من مكان لا يتوقعه نهائياً ، والثاني هو رغبته بتجاوز حدود الدولة العثمانية دون إذن ، وتحريك العلويين هناك ، وتشجيعهم.

وبالفعل حقق الشاه إسماعيل هدفيه الاثنين. فقد ارتكب مجازر كبرى في أرض دوالقادر، وفي الوقت نفسه سيطر على خربوط وديار بكر. بقاء العثمانيين متفرجين على عبوره الأرض العثمانية شجع شيعة الأناضول، ومنح أنصار الشاه ثقة وجرأة كبرى87.

بدأ الشاه إسماعيل يستفيد من عدم تحرك الحكومة إزاء الخلفاء الشيعة الذين يرسلهم، وبدأ هؤلاء يعملون كخلية النحل، ويزداد عددهم باستمرار. غطى الممثلون والمتصوفون الشيعة البلد من أرزنجان إلى أنطاليا. كان يبرز بشكل دائم بأن الشاه إسماعيل هو من نسل سيدنا علي(!)، وتنظم لهالمدائح.

وبالفعل قبل مرور زمن طويل على هذه الحملة، بدأت التمردات تنفجر في مناطق مختلفة من الأناضول88.

بيت الدنيا

أثناء انطلاق التمردات في الأناضول، انهار بيازيد خان الثاني بخبر وفاة ابنه السلطان محمود، حيث يحبه كثيراً وقد أرسله والياً على سنجق صاروخان (913 هـ-1507/1508م).

ولد الأمير محمود عام 1475، وأرسل والياً على سنجق قصطامونو بداية، ثم نقل إلى صاروخان مكان قورقود الذي نقل إلى أنطاليا عام 1505.

توفي الأمير عن عمر اثنين وثلاثين سنة، وكان قد اشتهر بحسن إدارة السنجق، وكرمه مع الناس. كانت شجاعته وشهامته مثلاً في الولايات، وملحمة على كل لسان.

يروون أن دباً ظهر في منطقة تابعة لولاية قصطامونو، وقد أقلق أهالي القرى والولاية والقبائل هناك. إذا سار فوقع خطوه ترجف الأرض، ويردد صداه الجبل والصخر والأخضر واليابس. وإذا أمسك الحجر بين مخالبه يحوله إلى طحين، وإذا أمسك الحديد يلينه كالقطن. هاجم تركياً ذات يوم، وقتل حصانه، وجرحه. أنقذ التركي روحه بصعوبة،

وأعلن بأنه سيعطي ألف فضية لمن يقتل ذلك الدب. وذاع الخبر في كل الأرجاء.

عندما نقلوا الخبر إلى ابن السلطان ، أرسل ساعياً إلى القرية ينادي: قولوا للتركي أن يعطي ما يعطيه. ولينتظر في المكان الذي ذكره. غداً سأرسل رجلاً ليقتل عدوه. وليحقق هو ما أراد.

في وقت السحر تنكر ابن السلطان محمود ، وركب حصانه ، وعندما وصل إلى المكان المذكور من أجل تنفيذ الوعد الذي وعد به ، كان التركي بانتظاره. أشار إلى مكان الدب من بعيد. عندما وصل ابن السلطان إلى أمام الدب ، هاجمه الدب بعنف شديد. ولكن ابن السلطان السريع جداً تملص من بين مخالب الدب ، ونزل بالصولجان على رأسه ، فترنح. بعدئذ قطّعه بسيفه. وتُروى حكايات لا تعد ولا تحصى تشبه هذه للتعبير عن مدى جرأته[89].

كان يهتم كثيراً بالعلم والعلماء ، ويرعاهم. لهذا السبب امتلأ قصره بالظرفاء والحكماء. من هؤلاء نجاتي الذي يوصف بأنه فرّح أهل الذائقة الرفيعة ، وسيد ميادين الشعر ، ورجل النظم الجيد. وكان في الوقت نفسه يعمل رامياً لدى ابن السلطان. كتب رثاء للأمير من سبع مقاطع وتاريخاً. بعض أبيات هذه المقاطع على النحو الآتي:

تبين أن الفرح يتحول إلى مأتم	بيت الدنيا كله عذاب ومشقة
للحياة ، ويعتبر الميل للحياة إثم	تفرض الدولة ألا يهب نفسه
ولا يفرق بين مستول وسلطان	يمحوه بخرقة هي خرقة لكفن
إذا دارت عليه اليوم فغداً عليك	حتى الأناني يبكي دماً لهمه

* * *

تبيّن أن بلاء يهطل بدل المطر	الدم سيل بين الكبد والدمع

والآن يأمل الناس والدنيا بنظرة نور شمس ورحيم على الكل

وتخون النجوم الإنسان وتفنيه يستل سيف مريخ وترقص زهرة

سقط أرضاً ، والسكر يسقط في الماء حيف على شهامة السلطان

وأن يكون هناك مهنة أكثر قداسة أممكن تحمل مشقة فناءه

* * *

كن مستعداً للهم والحسرة لمس غصن الورد ريح صرصر

الدنيا كلها اليوم حزينة عليه أسفي عليه ، كانت الدنيا تحترمه

* * *

وليحزن القديسون مثل الناس ليخرج الهم كالنواح إلى السماء

ذهب واختفى من بيننا كالروح لنتلوى بألم الفراق اليوم فجأة

له ألف عبد مثل فلان ابن فلان ويلاه لم يصطحب معه أحد

* * *

كان كورشةٍ في نهار العمل كانت الأستانة مأوى العالم

ولكن جده كان سلطان دولته تعتقد أنه أمير عز ووقار

وهو في الذاكرة يخشى الله يظهر بأنه سلطان مجلجل

وضع العرش والتاج لأولاده لم يمنع حاجة عن رفيق

* * *

فراق الأب صعب ليبكي السادة		ليبكي العرش حسرة ومعه التاج

لتفلت شعرها العزيز ، وتبكي وحيدة		وصل الخبر للسلطانة الوالدة

ليجف البحر ويبكي البر لهذا الفراق		حزنت على سلطان البر والبحر

* * *

وحاكم صاروخان سلطان روما		يا رب ارحم شاه الدنيا كلها

بأن يخدم ويضبط ملك العالم		يا رب لم يرغب السلطان إلا

إلى الحشر تُمنح الدعاء في العلم[90]		الأمنية الآن أن تبقى روحه

تمرد شاه قولو

شاه قولو بابا التكلي الذي يمر في التاريخ العثماني باسم شيطان قولو هو ابن المدعو الخليفة حسن أحد خلفاء الشيخ حيدر والد الشاه إسماعيل. وحسن من قرية يالملي التابعة لقضاء قورقودلي ، ودخل بخدمة الشيخ حيدر مرتين ، وأصبح خليفته ، ثم كُلف بنشر أفكاره في بلده ولاية تكة.

اكتسب شاه قولو وابنه الخليفة حسن شهرة واسعة بأنهما مشغولان بالتعبد في مغارة قرب قريتهما المجاورة لأنطاليا. وقد وصل خبر تدينهما إلى بيازيد الثاني خان ، وبدأ سلطان السلاطين بإرسال حوالي ستة أو سبعة آلاف فضية لهما كل سنة[91].

في عام 1510 وجد شاه قولو أن الأرضية قد تهيأت. لأن الصراع بين أبناء السلطان وصلت إلى درجة خطيرة. وكان الخلفاء في غرب الأناضول وكل من سرز ، وسيلانيك ، وينجة الصغرى ، وفيليبة ، وصوفيا والأقضية التي حولها من روملي يبلّغون بأن الوقت أصبح مناسباً.

ترك ابن السلطان قورقود سنجقه ليكون أقرب إلى إسطنبول عندما بدأ ينزعج من حركة قطاع الطرق في منطقته، وعلم بأن أخويه أحمد وسليم يعملان على الوصول إلى السلطة. تركُ ابن السلطان ولاية تكة بشكل مفاجئ ذات ليلة من آذار/مارس 1511 جعل المتمردين يعتقدون بأن بيازيد خان الثاني قد مات.

وبدأوا حركة تمرد بقيادة شاه قولو بقوله: «البلد فارغ. هذه فرصتنا. هيا لنسيطر على الدولة كلها».

تحركوا بسرعة، وهاجموا بداية الذين ذهبوا خلف الأمير قورقود. بعد أن قتلوا بعضهم، هاجموا خزينة قورقود. عندما هرع رئيس حامية أنطاليا حسن بيك ودفتر دار الأمير قورقود لإنقاذ الخزينة، نشبت معركة دامية بين الطرفين في قابوليقايا. اضطر حسن بيك للانسحاب بالخزينة إلى أنطاليا عندما انشق عنه قسم من القوات، وانضم إلى المتمردين. وإذا كان أنصار المتمردين قد ازدادوا، وحاصروا أنطاليا، فإنهم لم ينجحوا بالسيطرة عليها.

بعد تحقيق شاه قولو بابا التكلي هذا النصر، قال بوضوح: «أنا خليفة الشاه إسماعيل بن حيدر. الدولة والسلطنة لي». وبدأ أنصاره يعلنون بأنه المهدي أو النبي وحتى الإله.

في هذه الأثناء هزت الحياة الاجتماعية فكرة شاه قولو التي تقول: «لا فرق بين الحلال والحرام، ولا ضرورة للقرآن». بعد أن سمع أنصاره كلماته هذه بدأوا يحرقون ويهدمون كل مكان يمرون به، وينهبون، ويحرقون كل الكتب التي يصادفونها بما في ذلك القرآن، ويقتلون الذين لا يلتزمون معهم، ويغتصبون عائلاتهم. تكاثر أنصار شاه قولو، وضربوا إلمالي، إستانوس، كتشيبورلو، وغول حصار، وبوردور. وقتلوا نساء هذه الأقضية وجزءاً من أهلها، وتوجهوا نحو كتاهية[92].

كُلِّفَ سيد سادة الأناضول أحمد باشا قراغوز بالتصدي لتمرد شاه قولو. اعتقد قرة

غوز باشا بأنه يستطيع القضاء على التمرد براحة ، لهذا لم يصطحب معه قوة كبيرة. وإذا كان قد حقق انتصاراً في بداية المعركة ، فإن المتمردين استجمعوا أنفسهم أثناء قيام جنوده بالنهب ، وحققوا نصراً كبيراً. وألقي القبض على قرة غوز باشا أثناء محاولته الهرب.

وصل شاه قولو إلى أمام كوتاهية ، فقتل قرة غوز باشا ، ورفعه على الخازوق من أجل بث الرعب بالأهالي93. على الرغم من هذا لم ينجح شاه قولو بالسيطرة على كوتاهية ، وبعد أن قام بنهب القرى المحيطة بالمدينة ، قابل قوات الأمير قورقود بقيادة حسن آغا في سهل آقشهير.

عندما قتل حسن آغا في المعركة ، تشتت قواته ، وبصعوبة تمكن الأمير من إغلاق القلعة عليه. بعد ذلك أبلغ المركز بالحوادث التي وقعت بتقرير مفصل ، وطلب اتخاذ التدابير اللازمة على الفور.

تأجج غرور المتمردين إلى درجة أنهم فكروا بالسيطرة على بورصة. ولكنهم شعروا بالقلق عندما علموا أن السلطان بيازيد لم يمت ، وهو حي ، سيطر عليهم القلق. ولم يجرؤوا على احتلال بورصة ، لأنهم إذا فشلوا بهذا الأمر فإن خطوط الهرب ستكون خطرة ، ولن يجدوا قلعة تحميهم.

من جهة أخرى فقد علم السلطان بيازيد من تقرير قورقود بتفاصيل الحدث. كان السلطان مريضاً ، وساءت حالته أكثر عندما سَمِع بالمظالم التي حدثت. أنّب الوزير الأعظم علي باشا المخصي بشدة لأنه حمل ذنب عدم التمكن من قمع قرة غوز باشا التمرد. وأبلغه بضرورة القضاء على المتمردين ، وإلا فإن نهايته ستكون وخيمة جداً.

أُنهك بيازيد خان الذي شاخ كثيراً نتيجة صراع أبنائه المستمر مدة طويلة. ومما ضاعف حزنه قضية شاه قولو ، وحالة سكان الأناضول التي أصبحت بالويل. وبدأ يعد لجلوس الأمير أحمد على العرش مكانه.

ولكن إجلاس الأمير أحمد على العرش قبل القضاء على تمرد شاه قولو لن يكون

سهلاً. لأن الإنكشاريين المؤيدين لسليم لن يقبلوا بأحمد بسهولة. ولكن علي باشا المخصي وجد طريقة يجلس فيها أحمد على العرش. سيسحق قوات شاه قولو بعنف ، وبهذا يؤمن تأييد الإنكشاريين لأحمد.

عبر الوزير الأعظم علي باشا المخصي غليبولو إلى الأناضول مع أربعة آلاف إنكشاري ، وأربعة آلاف جندي نظامي. التقى بالأمير أحمد في آلطون طاش. كان المتمردون قد عادوا لحصار أنطاليا ، ولكنهم فكوا الحصار عندما سمعوا بمجيء الوزير الأعظم ، وانسحبوا إلى قزل قايا.

قزل قايا قاعدتهم. فهي محاطة بأرض صخرية ، ووديان ضيقة وعميقة ، وغابات قطعها شديد الصعوبة. النقطة الوحيدة المفتوحة على القاعدة هي من جهة قرامان. لهذا السبب دفع علي باشا المخصي أستاذ الأمير شهنشاه حيدر باشا إلى تلك الجهة على رأس قوة من ألفي رجل. وبهذا يكون قد أغلق المنفذ الوحيد لهرب المتمردين.

حاصر علي باشا المخصي المتمردين ثمانية وثلاثين يوماً. من المحتمل أنه كان ينتظر من المتمردين أن يستسلموا. أما الأمير أحمد الذي لم يكن يفكر سوى بأن يكون حاكماً فلم يكن مؤيداً للحرب. أما الشيعة فقد ساروا باتجاه حيدر باشا لأنهم اعتبروا هذه النقطة هي الأضعف في الطوق الذي وقعوا وسطه. غير هذا ، فإن علاقتهم جيدة مع قادة القرمانيين لأسباب سياسية.

وبالفعل فقد حققوا نجاحاً سهلاً نتيجة محاربة القرمانيين دون رغبة. قتل المتمردون حيدر باشا ، وتحركوا باتجاه سيواس.

ترك شاه قولو خيوله وجماله المتعبة ، وبعض خيامه في مكانها ، وهكذا تمكنوا من التخفي عن الوحدات العثمانية بنزولهم من الجبل. ولم يتمكن علي باشا المخصي من معرفة أن شاه قولو قد انسحب ، وأن حيدر باشا قد قتل إلا بعد يومين.

غضب بشدة. وركّب الإنكشاريين على الخيول في تشكيل غير مطروق سابقاً ،

وقال للأمير أحمد:

«من غير المناسب أن تلاحق أنت حفنة من المتمردين. لألحق بهم وهم قريبون كي أقضي عليهم. وفي الوقت ذاته ، من الواضح أن السلطنة تناسبك. بعد ذلك أعود ، ونسير إلى العاصمة». وكما يفهم من هذا الأمر أن علي باشا المخصي رأى ترك الأمير في الخلف أنسب له من أجل حمايته من خطر محتمل. أخذ الصدر الأعظم معه فرسان روملي والأناضول وقرمان ، وجرى خلف الشيعة بسرعة. بعد ملاحقة سريعة دامت أربعة عشر يوماً ، أدرك قوات شاه قولو قرب سيواس. كانت القوات العثمانية متعبة ومنهكة نتيجة المسير دون توقف. رفض علي باشا المخصي مقترح أخذ قسط من الراحة ، وانتظار بقية القوات ، واتخذ قرار الحرب فوراً.

وضعَ الشيعة جمالهم بشكل حلقة ، وتمترسوا بينها ، وبدأوا يحاربون بهمة. وبموجب الاتفاق مع القرمانيين فقد انسحب فرسانهم من المعركة ثانية. استجمع علي باشا قواته بمهارة وجرأة ، ومنع وقوع الهزيمة. في هذه الأثناء أصيب شاه قولو بسهم ، وقتل[94]. رأى علي باشا المخصي أن المتمردين قد تشتتوا ، فتقدم بسرعة ، وراح ضحية عدم الحيطة. أحاط به المتمردون ، وقتلوه بسهم (2 تموز/يوليو 1511)[95].

بقيت قوات الحكومة في مواضعها عندما بقيت دون قائد. استغل مريدو شاه قولو الفرصة ، فانسحبوا بسهولة إلى إيران.

وبما أن المتمردين قد اعتادوا على الفوضى وسرقة ما تقع يدهم عليه ، فقد داهموا قافلة مؤلفة من خمسمائة شخص قادمة من تبريز إلى الأناضول عند حدود أرزنجان. قتلوا التجار ، وأخذوا بضائعهم.

كان الشاه إسماعيل في العراق حينئذ ، ونتيجة شكوى الناس من هؤلاء ، عاد إلى تبريز ثانية. كان الشاه إسماعيل يهتم بالتجارة ، ويرعى التجار ، فقتل رئيس المتمردين ، ووزع الباقين على السجون.

عدم لحاق الأمير أحمد لعلي باشا المخصي ، وتركه وحيداً خسَّره حامياً قوياً من جهة ، وفتح الطريق لبرودة علاقته بالإنكشاريين من جهة أخرى. عندما علم باستشهاد الوزير الأعظم ، عاد إلى أماصيا حزيناً جداً ، ولم يبق أمامه سوى التفكير من جديد بطريقة يحظى بواسطتها على العرش.

صراع أبناء السلطان

شيخوخة بيازيد خان الثاني ، ومرضه ، وعدم التمكن من القضاء على التمردات الصفوية ، وعدم اهتمام السلطان بشؤون الدولة ، وتركها للوزراء أدى إلى نشوب صراع بين أبناء السلطان على العرش.

من أبناء بيازيد الذين هم على قيد الحياة ؛ أحمد والياً في أماصيا ، وقورقود في صاروخان ثم أنطاليا ، وسليم في طرابظون ، وشهنشاه في قرمان. وفاة شهنشاه عام 1511 في فترة الصراع الأشد على العرش حصرت الصراع على العرش بين ثلاثة أمراء.

الأمير أحمد أكبر الأبناء. وكان بيازيد يهتم به اهتماماً خاصاً. وكان الوزراء أيضاً يؤيدون أحمدَ اللين الطبع والمسالم ، وعندما تحين الفرصة يمتدحونه أمام السلطان. كرمه الشديد وعدله جعل الناس في المناطق التي يديرها تحبه.

تأييد والده له ، ووقوف الوزير الأعظم علي باشا المخصي والوزراء إلى جانبه ، جعل الانطباع يسود بأن أحمد سيجلس على العرش بالتأكيد. كان والده يحقق له كل رغباته. عندما طلب الأمير سليم أن يعطى ابنه سليمان سنجق قرة حصار ، لم يصغ لمعارضة أحمد نتيجة تنبيه أستاذه سنان باشا يول أرقاصِ بأن الأفضل وضع عدوه على مرأى منه لأن ولايته لصيقة لتلك الولاية. فلم يرفض بيازيد خان الثاني رغبته ، وعين سليمان في بلو.

ولكن الأمير أحمد لم يجد دخول سليمان بين ولايته وإسطنبول مناسباً. وبينما كان من المستحيل أن يتراجع السلطان عن كلمته ، فقد وافق مرة أخرى على طلب الأمير

أحمد ، وأرسل سليمان إلى كفة. أشار هذا الحدث إلى مدى نفوذ الأمير وتأثيره على والده.

أما قورقود الذي تسلم السلطنة مدة ثمانية عشر يوماً عندما مات جده الفاتح فقد زاد مخصصات الإنكشاريين ، وكسب قلوبهم. وعين قورقود والياً على سنجق صاروخان عام 1491 ، ولعب دوراً باستعادة ميديللي. كان يدعم البحارة الأتراك العاملين في البحر المتوسط الإخوة بربروس. كان متفوقاً بالعلم والمعرفة. وترى نقطة ضعفه الكبرى هي عدم وجود أبناء له. ويقول كمال باشا زادة حول هذا الجانب:

إنه قصفة ورد في بستان زهر[96] لم يعط وردة تكون رابطاً بالحياة

نقل الأمير قورقود من صاروخان إلى أنطاليا بناء على نصيحة أحمد عام 1502. وبهذا أبعده عن العاصمة ، وأرسله إلى السنجق الذي يشهد الفعاليات الأشد للشيعة. وقد حزن الأمير كثيراً لهذا الأمر ، وطلب إعادته من جديد إلى صاروخان ، ولكن طلبه رُفض.

وفي هذه الأثناء اختلف قورقود مع الوزير الأعظم علي باشا المخصي بسبب عطاء ، فترك الإمارة ، وانسحب إلى أنطاليا. إثر ذلك زاد سلطان السلاطين مخصصاته ، وأرسل مولانا علاء الدين لنصحه. ولكن الأمير قال: «لا تلزمني السلطنة والولاية» ، ورفض العودة إلى إدارة السنجق. عندما عاد مولانا علاء الدين ، أبلغ السلطان بأن قورقود ليس غاضباً ، وأنه يرغب أن ينشغل بالعلم والعرفان. وفي هذه الأثناء زاد السلطان مخصصاته مرة أخرى.

ولكن غضب قورقود لم يهدأ. بعد فترة أخذ معيته وذهب إلى مصر بحجة الذهاب إلى الحج. وإذا كان قانصوه غوري قد استقبله باحترام ومودة ، فإنه لم يجد إقامته في مصر مناسبة. كان يخشى من التسبب بما حدث في قضية السلطان جم بين الدولتين. ولم يسمح لقورقود بالذهاب إلى الحج ، كما أبلغ بيازيد بالوضع.

إزاء هذا الوضع كتب قورقود رسائل إلى والده والصدر الأعظم عبّر فيها عن ندمه ، ورجاهما العفو عنه. وقد رجا السلطان المملوكي أيضاً العفو عنه. أعطى بيازيد جواباً بالموافقة بسبب حنانه وشفقته على أولاده ، وأبلغه بالعودة إلى سنجقه. وهكذا عاد الأمير إلى أنطاليا

بعد قضائه سنة في مصر.

حاول فرسان رودوس القبض عليه أثناء عودته من مصر لاستخدامه كما استخدموا السلطان جم جلبي ، ولم ينجحوا. ولكن قورقود بعد عودته إلى أنطاليا لم يهدأ هوسه بالعودة إلى صاروخان. وبالفعل فقد ترك سنجقه فجأة ذات ليلة ، وعاد إلى صاروخان. وإذا كان الأمير أحمد قد انزعج من هذه الحركة ، واشتكى منها ، فقد وجدت الحكومة أن الأنسب هو عدم نبسها إزاء حالة الأمر الواقع هذه.

كان أصغر أبناء بيازيد خان الثاني سليم سيد سنجق طرابظون. سليم حالة معاكسة تماماً لأخيه قورقود ، وهو حزين على سوء إدارة والده للدولة منذ فترة طويلة ، ولم ير حرجاً من خوض الصراع عندما رأى أن السلطنة ستترك للأمير أحمد. ولعدم وجود قانون «توريث السلطنة» في الأسرة المالكة ، يمكنه أن يقتل أخاه الذي سيجلس على العرش اعتماداً على قانون الفاتح. وهذا ما فرض عليه أن يراقب حركة أخويه عن قرب.

ولكن بُعْد سنجق سليم عن المركز ، وصعوبة الوصول إليه يحرمه من تلقي المعلومات براحة. أما ابنه سليمان فقد نقل من بلو إلى كفة نتيجة تدخل أحمد. لهذا السبب ترك سنجقه ، وذهب إلى ابنه سليمان في كفة. ولم يجد ضرورة للحصول على إذن من أجل المغادرة لمعرفته بأنه سيرفض.

كان الأمير سليم يريد أن يفاجئ أخويه اللذين يريدان الحصول على السلطنة وهما غير مستعدين. وبالفعل أخذ معه ثلاثمائة وخمسين جندياً تتارياً ، وانتقل إلى روملي.

جهود في سبيل إجلاس الأمير أحمد على العرش

أما الأمير أحمد فقد طرق باب والده مرة أخرى من أجل معاقبة أخويه على مغادرتهما سنجقيهما دون إذن. ولكن السلطان بيازيد خان الثاني رفض هذا العرض انطلاقاً من فكرة أن عملاً كهذا سيتسبب بمزيد من الفوضى أثناء تمردات الشيعة في الأناضول ، وتنامي الفتنة. وتفهم الأمير أحمد هذه الفكرة.

من جهة أخرى فقد أزعج كبار رجال الدولة انتقال الأمير سليم إلى روملي ، وطلبه سنجقاً في تلك المنطقة. رفض الديوان طلبه قائلاً:

«عبور الأمراء إلى روملي مخالف للقوانين القديمة. وهو يؤدي إلى فوضى كبرى. إذا أعطي سليم سنجقاً هناك ، سيطلب الأميران الآخران مثلما طلب. من يستطيع إيقافهما حينئذ؟ يجب أن يعود إلى سنجقه القديم».

وكلف كلاً من غورز الأصفر والعالم الشهير مولانا نور الدين بتقديم النصح له.

استقبل سليم مولانا غورز الأصفر بمراسم فخمة ، وسأله: «هل هناك مانع شرعي من طلب ولد رؤية والده؟» وإثر تلقيه الجواب بالنفي ، قال له:

«غايتي الكبرى هي رؤية وجه والدي المبارك ، وتقبيل يده. هناك مواضيع أريد أن أحدثه فيها شخصياً. بعد مناقشة هذه الأمور ، سأذهب إلى حيث يريد.

على الرغم من هذا أرسل رجال الدولة قوات سيد سادة روملي حسن باشا باتجاه سليم. ولكن حسن باشا عندما واجه قوات سليم انسحب ، إما لعدم رغبته بالحرب أو لأنه خاف. إزاء هذا الوضع تحرك بيازيد خان الثاني شخصياً ، ووقف في وجه قوات سليم في منطقة تشوكور تشاير. اتخذ الطرفان وضعية الحرب في الليل. وإذا كان سليم قد أصر على مقابلة والده ، وتقبيل يده ، فإنه لم ينجح. عندما أدرك أن رجال الدولة لن يسمحوا بهذا ، أرسل سفيراً ، وعبّر عن هدفه على النحو الآتي:

أمنيتي القلبية ورغبتي هي تقبيل يد والدي. ولكن عوائق كثيرة ظهرت. لا يمكن فعل شيء لأن الأمر أمره. في هذه الحال أعطوني ولاية إسلامية طرفية في روملي.

من المحتمل أن محاربي الطليعة وسادة السناجق في روملي القريبين من الأمير سليم طلبوا الاسترحام ، وتم التوصل إلى اتفاق نتيجة المباحثات بين الطرفين. وبحسب هذا الاتفاق لن يترك بيازيد خان الثاني العرش لأحد طالما هو على قيد الحياة ، وسيترك هذا

الأمر لإرادة الله ومشيئته. أما سليم فقد منح سنجق سمنديرة.

بعد الحيلولة دون قتال الأب والابن ، وانتهاء الأمر على هذا النحو ، تحرك سلطان السلاطين إلى أدرنة ، وسليم إلى سمنديرة. ولكن رجال الدولة المعارضين لسليم لم تسرهم هذه التطورات ، وبدأوا يعدون الخطط من أجل أن يجلسوا أحمد على العرش. وقد كان أحمد في تلك الأثناء مع الصدر الأعظم علي باشا المخصي يقاتل شاه قلو. قرروا دعوة الأمير أحمد بعد الخروج من تلك المشكلة إلى إسطنبول ، وإجلاسه على العرش. ولمعرفة سليم بتخطيطهم هذا ، لم يستعجل بالذهاب إلى سنجقه ، وانتظر نتائج هذه التطورات.

لم تجر الأحداث كما اشتهى أنصار الأمير أحمد. وإذا كانت قوات شاه قولو قد هزمت ، وانتهى التمرد ، فقد استشهد علي باشا المخصي في المعارك ، وهكذا حُرم أحمد من أكبر داعميه. من جهة أخرى فإن انسحاب أحمد إلى أماصيا بدلاً من ملاحقة المتمردين زاد من برودة العلاقة بينه وبين الإنكشاريين.

أيام سماع السلطان بيازيد بمقتل الوزير الأعظم علي باشا المخصي تلقى خبر وفاة والي قرامان الأمير شهينشاه ، وانهار. تفاقم مرضه نتيجة الحزن. وكان رجال الدولة يحمسونه بشكل مستمر من أجل أحمد ، ويعملون على إقناعه بأن جلوس سليم على العرش لن يكون من مصلحة الدولة.

قرر الانسحاب من السلطنة بشكل قطعي ، وعاد من أدرنة إلى إسطنبول. دعا كبار رجال الدولة ، وناقش معهم التطورات الأخيرة ، وعبّر لهم عن رغبته بترك السلطنة. رجال الدولة كلهم تقريباً ما عدا الوزير الأعظم الجديد أحمد باشا هرسك زادة وجدوا القرار مناسباً ، واتفقوا على إجلاس أحمد على العرش. وإذا كان هرسك زادة قد ألح على بقاء بيازيد سلطاناً ، ونقل أحمد من أماصيا إلى قرامان ، فإنه لم يستطع انتزاع موافقتهم. إثر إعطاء السلطان قراره ، دعا سادة روملي ، وأخذ منهم وعداً بعدم معارضة أحمد. بعدئذ قال لوزرائه:

«حددوا الطريق الأنسب والأكثر منطقية لجلب السلطان أحمد ، واتخذوا

الإجراءات اللازمة. اعتباراً من الآن هو سلطانكم».

كان الأمير سليم يتقدم نحو سمندرة ببطء شديد ، ويشغل نفسه بالطريق لأنه يعلم بالتطورات التي تجري في المركز يوماً بيوم. وكان يردُّ على الأوامر التي تطالبه بالاستعجال ، بالاعتذار ، والتبرير بأنه يتابع قضية شاه قولو ، وأنه يمكنه أن يهتم شخصياً بهذه القضية إذا كانت هناك رغبة بتكليفه.

وإزاء تحذيره الشديد بضرورة ذهابه فوراً إلى سنجقه ، تراجع عن متابعة الطريق ، وتوقف في زاغر. أبلغ سادة روملي وجنودهم بأن لديه حملة على إنغوروس (المجر). كانت قوة سليم تزداد.

مواجهة الأب والابن

أخيراً علم سليم باستدعاء أحمد إلى المركز ، فتوجه نحو أدرنة على رأس قوة تتألف من أربعين ألف شخصٍ. لأن القرار المتخذ مخالف للتعهد المقدم له. بعد أن سيطر سليم على المدينة ، وعيّن الموظفين فيها وحراسها من رجاله ، ذهب إلى تشورلو ، قابل هناك قوات والده. أخرج رجال الدولة بيازيد خان شخصياً على رأس الحملة لكي يزيل خطر سليم قبل أن يكبر.

عندما تقابلا ، شعر رجال الدولة أن بيازيد لا يرغب بقتال ابنه ، ويريد أن يتوصل إلى إطار اتفاق معين ، فقالوا:

«انظروا إلى قوة ابنكم القادم ليقبل يدكم. هل يأتي الابن لزيارة والده بجنود منظمين ومسلحين على هذا النحو ؟ يجب أن نقضي عليه فوراً».

أما بيازيد خان ، فقد قال:

«هل ما تعرضونه عليّ مناسب لأوامر الحق ؟ هل العاقل يحارب ابنه ؟».

ولكنه سمح بخوض المعركة نتيجة الإصرار الشديد.

كان السلطان قد فقد صلاحية تحديد الخيار تقريباً. أما رجال الدولة فقد كانوا واعين إلى أن الحبال قد قطعت تماماً بينهم وبين سليم ، وأن الطريق الوحيد لاستمرار رفاهيتهم وسعادتهم وحكمهم هي سلطنة أحمد.

عندما بدأت تهدر المدافع ، واشتبك الجيشان ، كان بيازيد خان ينظر إلى عيون وزرائه ، ويفتح يديه النحيلتين ، ويدعو قائلاً: «ليحمه الحق سبحانه وتعالى من الخطر». وتنهمر الدموع من عينيه.

وجد سليم نفسه وجنوده وسط المعركة على الرغم من عدم رغبته بها. أثناء المعارك العنيفة ترجّل كثير من الفرسان ، وسقط كثير من ذوي الخدود الوردية في صحراء الخواء. خلال فترة قصيرة أوشكت قوات سليم أن تتشتت أمام قوات السلطان المنتظمة وتحت تأثير مدفعيته. فجأة وجد سليم نفسه محاصراً ، وبفضل سرعة حصانه المدعو الغيمة السوداء وحيويته تمكن من إنقاذ نفسه.

كان مطارداً مطاردةً حثيثة نتيجة أوامر رجال الدولة بضرورة القبض عليه. في هذه الأثناء لعبت مقاومة فرهاد بيك رفيقه المشهور بشجاعته دوراً بالتحضير لهربه. نزل الأمير إلى مرسى «آه يولو» ، وركب من هناك مع رجاله المقربين في السفن التي كانت تنتظره ، وتوجه نحو كفة.

فور وصول سليم إلى كفة استقبله خان القرم غيراي منغلي. ولكنه عندما رأى سليماً من بعيد ، شد مقود حصانه ، وتوقف. أراد أن يكون الأمير هو القادم إليه. أما سليم فقد استشعر هدفه. لهذا السبب شد رأس حصانه. رأى الخان هذا ، فاضطر للمسير. وبتحرك سليم التقيا في الوسط. خجل الخان من فكرته ، واعتذر من سليم. سار الاثنان فترة على حصانيهما ، وتبادلا الحديث. هدّأ خان القرم من روع سليم:

«لا تحزن من ميل الوزراء إلى طرف أحمد ، وخسارتك الحرب أمام والدك. لأعطيك

عسكر القرم إن أردت. وتذهب ، وتحصل على العرش اللائق بك».

أجاب الأمير الذي كان يستمع بانتباه بالجواب الآتي:

«نحن لم ننطلق في الطريق من أجل رغبات دنيوية ، وشغف بالسلطنة. ترك والدنا إدارة الدولة للوزراء والأمراء لأنه مريض وشيخ. وأعداء الدين والدولة ينتفضون في كل مكان. وكل من أخويّ يعيش في عالمه. وقع على عاتقنا حماية شرف هذه العائلة المالكة العريقة وسمعتها. هدفنا زيارة سلطان السلاطين ، وتقبيل يده ، وكسب خير الدعاء منه أولاً ، ثم شرح وضع البلد له ، وأخذ بعض العساكر من أجل إلقاء المتمردين خارج البلد. ومثلما ابتعد عني أركان الدولة ، دخلوا بيننا مثل جدار انطلاقاً من حرصهم على العرش والتاج. وكانوا سبباً بابتعادنا عن المكان هناك. ليحدث ما يقدره الله. لا يليق بنا سحب الجند ، وقتال والدنا».

عندما انزوى الأمير سليم في خيمته بعدئذ ، قال لرفاق السلاح من معيته:

«هذا ما قاله لنا الخان. لا يمكن أن نقع بحاجة الخان حتى وإن كنا طامعين بالملك. ثم ما الخير الذي يمكن أن تجلبه السلطنة للإنسان ؟ من جهة أخرى أليس من الواضح أن فتح بلدنا للتتار من أجل أن يدوسوا بأقدامهم الأرض التي فتحها الأجداد خطأ ؟ لا حاجة لمساعدة التتار».

إذا كنت عاقلاً فحكم ضميرك — تنتهي الرغبات عند باب الحق

ينقل المؤرخ الشهير الشيخ سعد الدين أفندي هذه الحادثة كما سمعها من أحد شهودها الأحياء:

«كان المرحوم بالي باشا المنسحب من منصب سيد السادة ذات يوم شيخاً محبباً ونظيفاً ومتديناً. وهو رجل يحبه الناس ويحترمونه ، وأنشأ في إسطنبول جامعاً أخاذاً ، ولديه أعمالُ خير وجُود. كان شيخاً طيب النوايا يقضي يومه بالطاعة والعبادة. عندما كان يأتي

لزيارة قبر سيدنا أبي أيوب الأنصاري يعرّج على أبي اعتماداً على حق الصداقة والأخوة السابقة بينهما ، ويتبادلان الحديث. كنت في تلك الأيام قد أصبحت ملازماً تواً ، وأستمع لحديثهما بمتعة كبرى. قال بالي باشا:

تحرك سليم خان في ذلك التاريخ من سنجق طرابظون إلى قرية أوغراش القريبة من أدرنة من أجل زيارة والده ، ومناقشة الخراب الذي تشهده البلاد. ولكن الوضع وصل إلى حافة الحرب نتيجة تحريض الوزراء ، فابتعد سليم خان عن وسط الفتنة.

أثناء العودة إلى كفة في السفينة. كان فرهاد بيك وأحمد بيك في حضرته حينئذ. وكنا نتحدث حول قضايا السلطنة مع بعض مرافقيه وندمائه. وبهدف التخفيف عنه ، والترويح عن حزنه الناجم عن سفر فاشل ، تحدثنا عن أمنياتنا بأن يجلس سعادة سيدنا على العرش ، ويصل كل منا إلى الدولة لفتح عصر جديد وحظ جديد ، ويمسك سيدنا مقود الدولة بذراعه القوية ، ويفتح الشرق والغرب ، ويبدد جموع الشيعة ، ويمحو الكفار ووجودهم من صفحة الزمان بشكل نهائي.

كان سليم خان في هذه الأثناء صامتاً ، وقد شرد بحاله. بقي مراقباً إزاء هذا الوضع. بدا عليه أنه نائم. بعدئذ رفع رأسه ، وتفضل بالقول:

يا شركائي بالهم! أنتم تناقشون السلطنة باستمرار. لا فائدة منها. السلطنة ثمانية أو تسعة أعوام. لو قالوا لكم هاكم ما أردتموه.

قال والد بالي باشا الذي اغرورقت عيناه من هذا الكلام:

«أنا أيضاً سمعت ما يطابق هذا الكلام من فرهاد باشا»97.

فيما بعد أرسل سليم سفراء إلى والده ، واعتذر عن الحرب التي نشبت دون إرادته. وقابل بيازيد خان الثاني هذا التصرف المهذب بتقدير كبير. وهنأه على تصرفه بعدل ، وعدم مد يده إلى مال الناس حتى في أوقات الضرورة. ومنحه سنجقي سمندرة ويانبولو. وأعاد له

خزينته ومكتبته التي غنمها في الحرب دون نقص. غير هذا ، فقد عامل رجاله الذين جلبوا الرسالة معاملة حسنة. وكان حب بيازيد خان لسليم يزداد بين يوم وآخر.

نحن مع سليم

من جهة أخرى بدت هزيمة سليم ، وانسحابه إلى كفة إنجازاً لحكم الأمير أحمد. كُتِبَ له رسالة تطالبه بالمجيء إلى إسطنبول بأسرعِ ما يمكن ، والبقاء ملتزماً بالعهد الذي قطعه للوزير الأعظم أحمد باشا هرسك زادة ، والتحرك بعد تأمين تأييد الإنكشارية لأنها تميل الآن لسليم ، ولكنه لم يصغ لهذا الطلب.

إثر الأمر الذي تلقاه الأمير أحمد تحرك بسرعة إلى غبزة ، ومنها إلى مالتبة. أرسل أستاذه سنان باشا يولارقصدِ إلى رجال الدولة ، وطلب إذناً بالدخول إلى المدينة في اليوم التالي. وتقرر أن يجلس على العرش في اليوم التالي لدخوله إسطنبول.

ولكن المركز العثماني سيشهد تلك الليلة تطورات لم يشهدها من قبل. لم يتقبل الإنكشاريون شهوم ساحات المعارك فرض رجال الدولة أمراً واقعاً ، وتأثيرهم على السلطان لإجراء التغيير. كانوا أساساً خجلين من عدم نجاحهم في مواجهة المماليك ، ومن ثم في مواجهة تمرد الشيعة. لهذا السبب كانوا يرغبون برؤية سلطان سلاطين قوي لا يترك أمور الدولة للوزراء. فاجتمعوا مساء ، وناقشوا القضية.

وقد جرحوا بشكل خاص من ترك الأمير أحمد ساحة الحرب في حادثة شاه قولو ، وانسحابه. قال قادتهم:

«بأي وجه يرى نفسه من وقف بعيداً يتفرج على حفنة من الحثالة الحفاة وهم يخربون البلد ، ويبثون الفرقة ، ويتعدون على شرف السادة الأنقياء ، وحتى هرب من ساحة الحرب دون حماية شرف الدولة ؟ من يتعلق بحلاوة الروح لا يمكن أن يكون قائداً. من لا يثبت قوته لا يمكن أن يكون لائقاً بالتاج. قبول تسليم مفاتيح خزينة السلطنة التي هي أمانة الحق سبحانه وتعالى لمهووس براحته والنوم على جنبه يعني هدم الدولة العثمانية.

بوجود محارب شجاع مثل الأمير سليم لا يمكننا أن نقبل بجلوس أحد أخويه على العرش ، فنور السلطنة يلمع في جبينه ، وهذا ما يفرضه علينا حق النعمة. لا يمكن أن ندخل بطريق غير طريق طاعة النسر المقدس».

في هذه الأثناء قبضوا على سنان باشا أستاذ الأمير أحمد ، وجلبوه ، وقبل أن يصرفوه ، قالوا له:

«نقتلك لو أردنا. اذهب إلى سيدك ، وقل له إن السلطنة على العرش العثماني لا تكون بالكلام. بقينا نعلق عليه الأمل إلى اليوم. ظهر شاه قولو ، وخرب البلد. قتل قرة غوز باشا وعلي باشا. لم تكف السلطان أحمد قوته لإزالتهم على الرغم من وجود قوة كبيرة معه. بأي وجه الآن يطلب السلطنة ؟ هل يعتقد بأن عاصمة السلطنة خاوية ؟ هذا مأوى الزهاد والمصارعين. هؤلاء عبيد الدين الذي جاء به سيدنا الرسول. من المستحيل أن نجعله سلطاناً. اذهب إليه ، وأخبره ، ليسحب نفسه ، وليذهب حيث يشاء... ».

وقد تقرر ما سيقومون به بعد ذلك. بعد ما قام به رجال الدولة المؤيدون للأمير أحمد من تخطيط وتنفيذ على مدى سنوات ، اعتقدوا أنهم وصلوا إلى النتيجة النهائية ، وفي أثناء نومهم بطمأنينة ، سيرفع أنصار سليم ستارة الفصل الأخير من المسرحية.

ترددت أصداء الصراخ في بيوت رجال الدولة مثل الوزير الثاني قوجة مصطفى باشا ، وسيد سادة روملي حسن باشا ، والقاضي عسكر عبد الرحمن مؤيد زادة ، والنيشانجي جعفر جلبي تاجي زادة وعلى رأسهم الوزير الأعظم أحمد باشا هرسك. تحرك حوالي ثلاثة آلاف إنكشاري ، وبدأوا يداهمون بيوت أنصار الأمير أحمد. وكانوا يحاولون القبض عليهم ، وينهبون بيوتهم في آن واحد. وبصعوبة تمكن رجال الدولة من إنقاذ أرواحهم مستفيدين من ظلمة الليل ، ولكن أقرباءهم تعرضوا لإهانات غير مسبوقة. في هذه الأثناء كانت أصداء هتافات «نريد سليماً!» ، «الله الله على دولة السلطان سليم ، والعمى لأعدائها!» تشق الليل[98].

من أجل أن يهدّئ بيازيد خان الثاني الإنكشاريين ، عزل في اليوم التالي غالبية رجال الدولة. عين قوجة مصطفى باشا وزيراً أعظمَ. حزن أحمد كثيراً عندما سمع بالأحداث. أراد أن يرسل أستاذه سنان باشا غولارقصدِ. ولكن الإنكشاريين لم يسمحوا لأحد بالدخول إلى إسطنبول. أرسلوا بعض قادة المشاة إلى الأمير ، وقالوا:

«يجب أن يحضر الأميران الآخران كي يُسمح للسلطان أحمد بتقبيل يد والده. تفضيله أحد أولاده على الآخرين يسبب الفتنة. ليعد الآن».

تعقيدات جديدة

أدرك الأمير أحمد أنه لن يستطيع الجلوس على العرش دون إقناع الإنكشاريين أو إزالتهم من الوسط. عاد إلى الأناضول بحزن شديد. لقد رأى أن هذا وقت التحرك. سار باتجاه قرامان من أجل تثبيت حاكميته على الأناضول. حاصر الأمير محمد الذي عينه والده والياً على قرامان إثر وفاة شهينشاه في مدينة قونية ، وأجبره على الاستسلام. وهكذا بدأ أحمد يصدر الأوامر لمن حوله وكأنه حاكماً مستقلاً بعد أن استقر في قونية.

من جهة أخرى فقد انفجر تمرد شيعي جديد بعد حادثة شاه قولو بابا التكلي عام 1512. رأى الشاه إسماعيل أن التنافس يزداد بين أبناء بيازيد ، وأن أحمد بدأ يتحرك وحده في الأناضول ، فلم يرد أن يفوّت الفرصة. وقد أرسل هذه المرة الخليفة المحظي لديه نور علي إلى الأناضول.

عندما وصل الخليفة نور علي إلى قويولحصار كان قد جمع من حوله عشرين ألف رجل على الأقل. هزم الشيعة القوات العثمانية المرسلة لقمعهم بقيادة فائق باشا ، ثم ساروا بسرعة نحو طوقاط. سيطروا على المدينة ، وأمروا بقراءة خطب الجمعة باسم الشاه إسماعيل.

في هذه الأثناء كان الخليفة المدعو عيسى والصوفي المدعو قرة إسكندر يحرضان

العلويين في محيط أماصيا على التمرد. وبوعد الصوفيين أنهم سيدعمون سلطنة الأمير أحمد ، جذبوا إليهم ابنه الأمير مراد ، وبدأوا يهاجمون القرى بشكل خاص ، وقتلوا كثيراً من الناس.

لجأ الناس إلى الجبال والمدن ، وطرقوا باب الأمير أحمد أمير أماصيا من أجل التصدي للخليفة نور علي. أرسل الأمير أحمد قوة كبرى بقيادة أستاذه سنان باشا لمواجهتهم. ولكن هذه القوات أيضاً قدمت ألفي شهيد ، وانسحبت مهزومة.

بعد ذلك اتجه الخليفة نور علي إلى سيواس ، وقتل في معركة دارت قرب غوكصو في 20 تموز/يوليو 1512.

بالنتيجة فإن تمردات شيعة الأناضول المرتبطين تماماً بالصفويين بدأت تأخذ حالاً فظيعة بالنسبة إلى العثمانيين. خمسون ألف إنسان فقدوا حياتهم في تلك المعارك ، وفقد حياته الرجل الثاني في الدولة العثمانية بعد السلطان وهو الوزير الأعظم علي باشا المخصي ، وأُحرقت القرى ، ونُهبت ، وفقدت أمنها. بالتوازي مع تطور التمردات وازديادها ، كبرت المشكلة بين الأمراء ، ووصل بيازيد خان الثاني إلى نقطة ترك السلطنة.

خرجت الأمور عن نطاق السيطرة. كان السلطان بيازيد مقيداً إزاء حركة الأمير أحمد التي تحمل صفات التمرد ، وتأجج تمرد الشيعة من جديد. أما الإنكشاريون فقد كانوا يعيدون في كل مرة إنهم يريدون رؤية سليم على رأسهم. قال سلطان السلاطين الذي جمع الديوان:

«لم تبق لدي طاقة لتحمل عبء السلطنة. اعملوا اللازم لجلب ابني السلطان سليم». وكُتبت رسالة دولة فوراً ، وأُرسل قائد الإنكشارية باليماز ومعه عدة قادة مجموعات إلى سليم.

على الرغم من هذا فقد عمل مناهضو الأمير سليم هذه المرة على إجلاس الأمير قورقود على العرش لأن التطورات لم تحدث كما يريدون. دعوه إلى إسطنبول على عجل. فور

تلقي الأمير الخبر وهو في مانيسا تحرك إلى ميهاليتش ، ومن هناك إلى مرسى داوود باشا بالزوارق في آذار من عام 1512 ، ونزل إلى اليابسة ، وجاء إلى ثكنة الإنكشارية. قال للإنكشارية إنه هرب إلى إسطنبول خوفاً من الأمير أحمد ، ولكن هدفه الحقيقي هو جذب الإنكشاريين إلى طرفه ، والحصول على السلطنة بدعم من رجال الدولة. كان الإنكشاريون يعاملون قورقود باحترام خاص منذ أيام سلطنته التي أوكله بها والده مدة ثمانية عشر يوماً.

قال قورقود للإنكشاريين: «أنا جئت مطالباً بحقي القديم. أنتم تعرفون أن والدي وكلني بالسلطنة. سمعت بأنكم دعوتم سليماً إلى السلطنة. نعم ، السلطنة بيد المتمردين على الإسلام. ولكن لا يجوز منح حقي القديم لأحد». وبهذا يذكرهم بالأيام الأخيرة من أجل الحصول على دعمهم.

أبدى الإنكشاريون احتراماً شديداً لقورقود. ولكنهم أبلغوه بشكل واضح وصريح أنهم لن يقبلوا بسلطان غير سليم. ولكنهم في الوقت نفسه تعهدوا بألا يصيبه ضرر من طرف سليم.

مبروكة عليك السلطنة يا ابني!

من جهة أخرى ، شكر سليم الحق تعالى وحمده ، وسجد له عندما استلم رسالة والده التي تستدعيه. بعدئذ ذهب براً من كفة إلى آقكريمان ، ومنها بحراً إلى روملي ، ونزل في موقع يني بهتشة في إسطنبول. أصدر السلطان بيازيد أمراً باستقبال سليم. نُصبت الخيام السلطانية في يني بهتشة ، وهُرع الناس والجنود لاستقباله. اصطف الإنكشاريون ، وعبروا من أمامه بالمراسم. وبسبب سأم شعب إسطنبول من الفوضى المستمرة فترة طويلة ، خرجوا مسلمين وغير مسلمين ، مرضى وأصحاء ، شباباً وشياباً بحماس عظيم ، وصفقوا لسليم. أثناء مجيء سليم إلى يني بهتشة قابل أخاه الأكبر قورقود. وبعد أن تبادلا الحديث فترة على ظهر الفرسين ، انطلق قورقود إلى سنجقه.

وقد عقد الديوان لمناقشة ما يمكن فعله قبل استدعاء سليم إلى القصر في اليوم

التالي. قرر الذين لا يريدون سليماً أن يلعبوا ورقتهم الأخيرة. عينوا سليماً قائداً عاماً ، وطلبوا منه أن يعاقب المتمردين في الأناضول مع المكلف بالمهمة الأمير أحمد. وهكذا يبقون على بيازيد خان في السلطنة ، ويستمرون بنفوذهم. بعد أن اتخذ الديوان هذا القرار ، جاء الوزراء إلى خيمة سليم ، وبدأوا يحاولون فرض قرارهم كأنه قرار بيازيد خان.

«ظهر كثير من المتمردين في البلد ، وقطعوا مسافة طويلة. لم يستطع الأميران أحمد وقورقود إيقافهم. الناس مذهولون ، وقد وطأتهم حوافر الخيل. أمر سلطاننا يقضي بأن تقود جنود المسلمين جميعاً ، وتنتقل إلى الأناضول ، وأن تحرروا الشعب من ظلم المتمردين وتعذيبهم».

رد سليم خان بعد سماعه هذه الكلمات:

«نعم ، حدثت أحداث مختلفة في البلد. وداس العدو أرضنا بأقدامه. يحتاج هذا الملك إلى إداري مقتدر. أنا عبد الله العاجز أقول لكم نصبوني سلطان سلاطين. لأن هذا الملك بحاجة إلى سلطان سلاطين. لأن ظل والدي بدأ يغيب. إذا كان هناك من تليق به السلطنة أكثر مني ، فاجلبوه ، واجعلوه سلطان سلاطين. أنا أفكر بكم وبالبلد أكثر مما أفكر بنفسي. وإذا لم يكن هناك أحد ، أليس من المعيب ترك هذا الملك دون إدارة؟ بوجود جنودنا وخزينتنا ، لماذا نهزم أمام حفنة من المتسكعين؟ نحن نحارب بعضنا بعضاً. أخي السلطان أحمد يحارب في الأناضول الآن. تقولون الحقوا به ، فسيذهب ملكه. مع أنه يعتبر نفسه سلطاناً. ولا بد من سلطان مع أجل خوض الحرب مع سلطان! إذا كنت لست لائقاً بأن أكون سلطاناً عليكم ، قولوا هذا ، ابحثوا عن حل لمشكلتكم. وإذا كنت لائقاً بأن أكون سلطاناً ، لماذا تريدون إرسالي بصفة قائد جيش؟».

عندما سمع الإنكشاريون المنتظرون في الخارج كلام سليم ، صرخوا بصوت واحد: «يلزمنا سلطان سلاطين. وهذا ليس سوى سليم خان. نضع رؤوسنا وأرواحنا في طريقه». وحينئذ لم يعد أي رجل دولة يستطيع قول كلمة مخالفة لهذا الأمر. لم يبق أمامهم سوى دعوته إلى القصر.

كان بيازيد خان بانتظار سليم من أجل أن يترك السلطنة.

كان مشهد سليم وهو يذهب إلى القصر لتقبيل يد والده مختلفاً تماماً. هرع رجال الدولة الكبار والفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء لرؤيته ، وامتلأت الزوايا والأسطح والأزقة بالرجال والنساء. تحولت المدينة لحديقة تفتح فيها الزنبق لكثرة لفات الفرسان وقبعات الإنكشاريين المثنية. دخل إلى القصر بموكب كبير ، ووسط صفوف الإنكشاريين وبرفقة تحيتهم له.

مَثل سليم في حضرة والده ، وقبّل يده بأدب واحترام ، ووقف بين يديه. بعد حوار مفعم بمشاعر الفراق والحسرة ، قرأ بيازيد خان الثاني من القرآن الكريم الآية الكريمة التي تقول: {... إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ... }99 ، وقال لسليم:

«يا نور عيني وبهجة قلبي. جلست اليوم بإذن الله ومشيئته على العرش. المفروض عليك أن تعلي اسمنا وشأننا ، وأن تسير في طريق أجدادك ، وأن تزيل ظلم الظالمين للناس كما فعل أجدادك ، وأن تترك في الدنيا اسماً جميلاً ، وألا تساير الغاطسين باللهو والمتع ، وتغطس على أنها سرور وطمأنينة ، وألا تجعل الذين تحت إدارتك يحولون دينهم إلى جبن ، وأمانتهم إلى خيانة ، وألا تُغرّ بالمال والموقع ، وألا تغوص في بحر الهوى والهوس باستخدام الجيش لأهداف خارج أهدافه ، وسحق الناس بالأقدام».

بعد هذه النصائح ، رفع بيازيد خان يديه إلى السماء ، ودعا قائلاً: «يا رب بارك لسليم خان ودولته ، ووفقه». أخيراً قال لمن حوله: «نصبت سليم خان مكاني ، أعانه الله على ما سيفعله». ثم قال لابنه: «يا بارك الله لك بسلطنتك يا ابني!» وانسحب من السلطة100.

وفاته

تمردات الشيعة المتوسعة في الأناضول بتحريض الصفويين ، وعدم التمكن من كبحها ، ومداخلات ابنه أحمد الذي يحبه كثيراً إلى درجة أنه رغب بالتنازل عن العرش له

إلى درجة التمرد ، والصراع بين أبنائه ، والأحداث التي جعلته يحارب سليماً ، ثم يجلسه على العرش خربت بنية بيازيد خان الثاني كثيراً. كان راغباً بالانسحاب إلى زاوية ، وقضاء آخر عمره بالطاعة والعبادة. من المحتمل أن بيازيد خان فكّر بمخاطر وجود سلطانين في المركز ، وكان قلقاً من إزعاج الوزراء سليماً لأنهم لم يريدوه في أي وقت.

لهذا السبب أرسل لسليم خبراً كأنه يذكره بمقولة: «الدولة لا تتسع لسلطانين. وبحسب تعبير الشيخ سعد الدين:

لا يمكن انتظار خدمة بعد ذلك	إذا وجد سلطاناً في دولة سلطان
أريد ألا أضع رأسي على تربة عبد	إذا بقي يومان من حياتي الفانية
ولأقتنع بطريق الدرويش المتصوف	لأجلس في زاوية وأتعبد ربي

طلب بيازيد خان الثاني الإذن من أجل الذهاب إلى قصر ديمتوكا الذي أصلحه قبل تسلم سليم السلطنة. وأبلغه سليم بالموافقة من أجل أن يبقى مسروراً. وبناء على طلبه عيّن يونس باشا سيد سادة روملي ، والدفتر دار قاسم جلبي ، والطبيب آخي جلبي بخدمته. واختار من خدمه الأكثر احتراماً ، وأدخلهم بمعيته. وخصص له مصروفاً سنوياً عشرين حملاً (مليوني فضية).

قبل التحرك من إسطنبول إلى ديمتوكا في الخامس من أيار/مايو عام 1512 جاء سليم خان وأركان الدولة كلها ، وقبّل يد بيازيد الثاني خان. ودّع سليم خان والده بالسير فترة إلى جانب الهودج. ولم يعد سليم خان على الرغم من طلب والده هذا منه عدة مرات. أخيراً كانت لحظات الوداع حزينة جداً ، وذرفت الدموع من عيني الأب والابن. وبعد أن دعا بيازيد خان لسليم مرة أخرى ، تابع طريقه.

كان بيازيد خان الذي بلغ السابعة والستين قد ضعف جداً ، وانهارَ ، ومرض. بعد أن قطع عدة منازل بهذه الحال ، ساءت حالته الصحية. وفي نزل سيوتلودرة القريب من

أدرنة ، وفي يوم الخميس المصادف 10 حزيران /يونيو 1512 توفي.

أرسل يونس باشا المرافق لبيازيد خان رسالتين تشرحان الوضع لكل من السلطان سليم والصدر الأعظم ، وانطلق باتجاه إسطنبول فوراً برفقة الجنازة. تلقى سليم خان خبر الوفاة فتأثر كثيراً ، ولم يستطع ضبط دموعه. استقبل الجنازة علماء الدين الملفوفين بالكفيات السود والسادة ورجال الدولة وعلى رأسهم السلطان سليم. بعد أداء صلاة الجنازة في جامع الفاتح ، حمل النعش ليدفن في حديقة الجامع الذي يحمل اسمه في ساحة بيازيد اليوم. فيما بعد أمر سليم خان ببناء قبة جدرانها ذات شكل مثمن.

وفاة بيازيد خان قبل وصوله إلى ديمتروكا كان سبباً بتقديم تفسيرات حول أن سليم قد سممه. وفي الحقيقة أن المصادر جميعها تقريباً تقول إن مرض بيازيد قد زاد في الطريق ، أو أن صحته تدهورت مع الشيخوخة والحزن ، وتوفي.

على الرغم من هذا فإن بعض المصادر المحلية والأجنبية تفيد بأن شكل حصول سليم خان على العرش مع بقاء أخويه على قيد الحياة ، وعدم إمكانيته تحقيق طموحاته دون إزالة والده من الساحة ، تبيّن بشكل مؤكد أنه قد سممه. وبحسب هؤلاء فإن سليماً استخدم بهذا العمل أحد يهود الدونمة. وكون طبيبه يهودي الأصل يقوي سيناريوهات من هذا النوع.

ولم ير سليم إمكانية الدخول في الصراع مع الشاه إسماعيل دون إزالة أخويه المتوفزين في الأناضول من أجل السيطرة على العرش ، والمتصرّفين كأنهما سلطانيين ، وقلقه من موقف والده وكيفية تعامله مع هذا الأمر يجلب التفكير بأنه يمكن أن يتخلص منه ، وهذا أمر يمكن تصديقه. وإذا وضعنا نصب أعيننا نظرة الوزراء له ، ستأخذ هذه الفرضية قوة إضافية.

ولكن أمام هذه الرؤى كلها لا بد من وضع هذا أيضاً بعين الاعتبار.

الأمير أحمد متمرد في الأناضول. وقد طلب من سليم أن يعطي أولوية لقمع

تمرده. وقد وصلت خطورة الشاه إسماعيل وتمردات الأناضول إلى حالة تزلزل وحدة المنطقة ، وبيازيد خان سيقدم دعمه الكامل في هذه النقطة.

وبسبب مرض النقرس فإن بيازيد خان يفكر منذ عام 1503 بترك السلطنة ، وتفكيره هذا أجج الصراع بين أبنائه الأمراء. ويجب ألا يقلق سليم من طرف والده لأنه وصل إلى السلطنة بدعم العسكر ورغبتهم.

إضافة إلى ذلك فقد نمت ثقة والده به من خلال ما رآه منه في الحرب بينهما وما بعدها من شجاعة ، ودراية ، وعدالة ، وهذا ما فتح الطريق لتسليمه العرش برضى كامل.

وفي النهاية لا يمكن لأي صاحب منطق الادعاء بأن بيازيد خان المريض والمنهك ، والمتهرب من متابعة الأحداث والحروب سيحاول العودة إلى العرش ، أو حتى الإقدام على تصرف يؤدي إلى التمرد على حاكم شرعي يقود البلاد والدولة إلى الانقسام.

هذه الأمور كلها تبطل أطروحة تسميم سليم لوالده ، وتجعلها غير ممكنة.

أما بالنسبة إلى قضية الطبيب اليهودي فلم يطرح اسم في هذه الأطروحة. مع أن هناك نقطة مؤكدة أن سليماً عندما أرسل والده إلى ديمتروكا عين له طبيباً مشهوراً اصطحبه هو آخي جلبي.

آخي جلبي هو ابن الطبيب كمال الدين تركي من تبريز. وهو طبيب حائز على ثقة بيازيد خان الثاني الكبرى. بداية كلف بمراقبة طعام سلطان السلاطين ، بعدئذ عُين رئيساً للأطباء. وعمل آخي جلبي كبير أطباء بيازيد خان مدة أربعة أعوام ، وهو يُعرف بحبه واحترامه الشديد له وعدم إمكانية إقدامه على هذا الأمر ، لذلك يتم البحث عن طبيب يهودي لا اسم له.

شخصيته

إنه سلطان السلاطين العثماني الثامن. والده السلطان محمد الفاتح ، ووالدته

غولبهار التي يعتقد بأن أصلها أرناؤوطي. من المتوقع أن تكون غولبهار قد دخلت حرم الفاتح عام 1446 ، وبعد سنتين من زواجها ولدت بيازيد.

تربى بيازيد باهتمام كبير منذ الصغر ، وتلقى تعليمه على يد أفضل أساتذة عصره. أشهر أساتذته ميريم جلبي ، والملا عبد القادر ، وخطيب قاسم ، وعبد الله أفندي ، والملا صلاح الدين. وقد أصبح والياً على أماصيا وهو في السابعة من عمره بإشراف علي باشا المخصي.

كانت أماصيا إحدى أكثر المدن ازدهاراً ورفاهية. وهي بمثابة مركز ثقافي يجمع فيه العلماء والشعراء. وكل الظروف مناسبة في هذه المدينة لتنشئة سلطان سلاطين.

طور الأمير بيازيد معلوماته الإدارية ، ونهل مزيداً من العلم في أماصيا بإشراف معلمه علي باشا المخصي الذي شغل مناصب عالية في الدولة ، والنيشانجي أحمد كمال الدين جلبي ، والدفتر دار الحج محمود جلبي زادة ، وسعد الدين جلبي ، وكاتب الديوان سعدي جلبي. وحضر أحاديث السيد صدر الدين محمد الخرساني ، وحضرة زين الدين حافي ، والخليفة عبد الرحيم مرزيفوني.

وتلقى دروساً في الخط على يد الخطاط الشهير الشيخ حمد الله. ومن علماء الدين المشاهير الذين وجدوا في محيطه إبراهيم جلبي تشاندرلي ، والقاضي شمس الدين مصلح زادة جلبي ، وناجي زادة ، وعبد الرحمن ناجي زادة ، مصطفى باشا حمزة بيك زادة ، ومحي الدين محمد جلبي ، وأخيه صلاح الدين موسى جلبي.

وقد زار السيد إبراهيم جلبي ابن السيد صدر الدين محمد وخليفته والذي كان يناديه والدي حيث يقيم في ينيجة قرب أماصيا ، واستفاد من علمه. وحضر أحاديث المتصوفين المشاهير مثل جمال خلوتي المشهور باسم الخليفة جلبي ، والشيخ ياوصي والد أبو السعود أفندي والمشهور باسم محي الدين إسكيليبي ، وحظي بخير دعائهم.

تعلم العربية والفارسية ولغة الأويغور إضافة إلى التركية. وهناك وثائق تقول إنه

يتكلم الإيطالية. وكان صاحب علم في المنطق والرياضيات والفلك.

كان كثيراً ما ينظم رحلات صيد. وبفضل هذه الرحلات أجاد الفروسية ، واستخدام كل أنواع السلاح.

وكان قائد الجناح الأيمن للجيش العثماني في معركة أوطلوقبلي ، ولعب دوراً بتحقيق النصر فيها.

كان بيازيد خان الثاني طويل القامة قليلاً ، وأسمر ، وأشهل العينين ، وعريض الصدر. تشير ملامح وجهه بشكل دائم إلى أنه يفكر بأمر مهم. كانت طبيعته تبدي أنه حزين ، وفي أكثر المواقف سعادة يبتسم ابتسامة خفيفة. أكثر ما يحب منذ وجوده في أماصيا الفروسية وتنظيم رحلات الصيد. ولكنه حرم من هذه المتعة بعد إصابته بالنقرس.

وبسبب شهرته بكونه سلطان سلاطين صاحب علم وتقوى وعدالة ورحمة ووقار وحلم ، لُقِّب ب. «الولي».

وجود كثير من أسماء الشعراء والفنانين والعلماء والمشايخ في «دفتر الإنْعام» الذي يحتوي على إحسانه لمختلف الأشخاص بين عامي 1503—1511 يدل بوضوح على القيمة التي يوليها للعلم والثقافة. وقد حظي كثير من الشعراء والعلماء بدعمه مثل الملا لطفي ، وكمال باشا زادة ، وعبد الرحمن مؤيد زادة ، وجعفر جلبي تاجي زادة ، وسعدي جلبي ، وإدريس بتليسي ، وعلي أفندي الزنبيلي ، ونجاتي ، ووصالي ، وذاتي ، والفردوسي.

لم يكن بيازيد خان يرعى علماء بلده فقط ، بل يرعى علماء بلاد المسلمين الأخرى أيضاً. كان يرسل خمسة آلاف فضية سنوياً إلى حضرة الملا جامي المقيم في هِرات ، وشيخ التكية النقشبندية التي مركزها بخارى. وكانت الهدايا والأعطيات التي يقدمها من ماله الخاص كثيرة جداً. وقد دعا الملا جامع والحاج عبد الهادي ابن حضرة عبيد الله الأحرار إلى إسطنبول. وعندما جاء الحاج عبد الهادي إلى إسطنبول احترمه كثيراً ، وقدره ، وكسب خير دعائه.

وقد اهتم بيازيد خان بالحركة الفنية الأوروبية ، وتواصل مع مختلف الفنانين بطرق عديدة. في رسالة أرسلها ليوناردو دافنتشي أبدى استعداده لبناء جسرين أحدهما على الخليج ، وآخر فوق البوسفور. وإثر هذا حاول مايكل أنجلو المجيء إلى إسطنبول. ولكن بعض الأحداث السياسية والتطورات حالت دون تحقيق هذه التطورات.

إضافة إلى هذه العلوم فقد تطور أيضاً في عهد بيازيد خان علم التأريخ العثماني ، ووصل إلى صفحة متقدمة. وقد كلَّف إدريس البتليسي بكتابة تاريخ عثماني بالفارسية. غير هذا ، فقد كتبت كثير من الكتب المهداة له. كان يقرأ كل الكتب المقدمة له. ويشجع ما يراه قيماً منها ، ولا يعير اهتماماً للمؤلفين الذين يطرقون باب المداهنة والمجاملة.

سلطان سلاطين يمسك المحبرة لمعلمه

بدأ السلطان بيازيد بتلقي دروس الخط على يد الشيخ حمد الله عندما كان في أماصيا ، وتابع فيما بعد ، ووصل في هذا المجال إلى درجة المهارة. قصته مع الشيخ حمد الله تعكس شكلاً مثيراً يعبر عن احترامه للعلم والعلماء

بعد وفاة والده الفاتح ، ومجيئه إلى إسطنبول ، وجلوسه على العرش ، ودخوله بصراع مع أخيه جم ، انقطع ارتباطه بالشيخ حمد الله. ولم يستطع الشيخ البقاء مدة أطول في أماصيا بعد مغادرة بيازيد ، فهاجر إلى إسطنبول ، وأقام في بيت ابني بلده الخطاطين مثله جلال وعبد الله أماصي مقابل حمام قاضي عسكر في سراتشخانة باشِ.

كتابة الشيخ ذات يوم عرض حال ليقدم لسلطان السلاطين ، جمعت بيازيد خان بأستاذه من جديد. عندما رأى سلطان السلاطين عرض الحال ، عرف من أول نظرة أن هذا خط أستاذه حمد الله الذي لم يتواصل معه منذ فترة طويلة بسبب قضايا العرش والقصر. شعر بأن الشيخ قد أتى إلى إسطنبول ، فأمر بإيجاد الخطاط الذي كتب عرض الحال ، واستدعائه ليمثل بين يديه.

وهكذا التقى سلطان السلاطين بأستاذه من جديد ، وأسس مكتباً للخط ، وعينه

كاتبه ، وفي الوقت نفسه كاتب القصر. واعتباراً من تلك اللحظة استخدم لقب: «كاتب السلطان بيازيد خان».

كان السلطان كثيراً ما يعرج على أستاذه ، ويسأله أسئلة متنوعة حول فن الخط ، ويتبادل معه الحديث. أخرج ذات يوم من خزينته سبع قطع كتابية لياقوت المستعصمي (توفي 1238) ، وعرضها على أستاذه.

قال: «ما أجمل أن يُخترعَ خط بهذا الأسلوب». كان الشيخ قد عمل على إيجاد تحديثات مختلفة ، وجلب إلى الخط بعض الجماليات. وقد بقي الخطاطون بمن فيهم الشيخ حتى ذلك الوقت يكتبون تحت تأثيره حيث انتهى هذا الأسلوب ، وغدت كتابة الشيخ حمد الله أسلوباً. وبالفعل قيل الآتي:

ما إن ظهر خط حمدي ابن الشيخ

نُسخَ خط ياقوت من العالم

كان الشيخ حمد الله قد حقق فتحاً في الخط ، وأوجد أسلوباً ، ولكن يجب ألا يُنسى أن الآلاف من قطعه الفنية التي لا تقدر بثمن أنجزت نتيجة تشجيع بيازيد خان الثاني ، ودعمه.

حتى إن سلطان السلاطين في كثير من الأحيان أمسك المحبرة لأستاذه وهو يكتب ، وكان يضع المخدات خلف ظهره بيده من أجل أن يريحه. وخارج اليومية التي يقبضها خصص له دخل قريتين في صاري غازي من توابع أسكودار. وقد أشاع بعض الحاسدين كلاماً مختلقاً بأن الخط لا يكتبه الشيخ ، بل السلطان بيازيد ، ولذلك فهو لا يستحق النقود التي يقبضها.

وصلت هذه الشائعات لبيازيد خان ، فأمر بإعداد وليمة كبرى لمجموعة من العلماء والشيوخ الكبار ، وأجلس الشيخ حمد الله في صدر المجلس. وحين شعر بأن

البعض قد امتعضوا وغضبوا من هذا الوضع ، تناول نسخة من المصحف الشريف كتبها أستاذه ، وعرضها على الجميع واحداً واحداً. وبعد أن حظيت بتقدير الجميع ، أشار إلى أستاذه ، وفخر به قائلاً إن أي حاكم لم يحظ حتى الآن بخطاط كهذا ، وقد اضطر الجميع لموافقته على ما قاله.

بعدئذ أمر بيازيد خان بوضع بعض كتب العلماء الموجودين في المجلس فوق بعضها بعضاً ، وأشار إلى المصحف الذي كتبه الشيخ حمد الله ، وسألهم هل يوضع هذا المصحف فوق هذه الكتب أم تحتها برأيكم ؟

ردد الجميع الآية الكريمة التي تقول: {لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ}[101] ، وأضافوا: «كيف يمكن وضع كتاب آخر فوقه ؟ بالطبع يجب أن يوضع المصحف فوقها. إثر هذا قال بيازيد خان:

«ليس هناك من بث الحياة بكتابة القرآن عظيمَ الشأن مثل هذا الرجل. كيف لا أجلسه في صدر المجلس ؟».

سؤال غاية في الجمال!

على الرغم من كل هذا فقد طرحت ادعاءات فارغة بأن بيازيد خان الثاني لم يكن متسامحاً ، وصاحب فكر غير منفتح. الدليل الوحيد المقدم على هذه الادعاءات هو أنه أمر بإخراج اللوحة التي طلب والده من جينتيلي بيليني أن يرسمه فيها من القصر ، وببيعها. ولكن لمن باعها ؟ وبكم باعها ؟ ومتى باعها ؟ لا يجاب عن هذه الأسئلة في أي وقت. هل الذين اشتروا اللوحة ألقوها إلى الزبالة ، فوجدت بعد قرنين ؟ بقي القول لا يعرف أين رسم بيليني لوحته ، ولمن قدمها. مع الأسف أن بعض الفرضيات التي لا تستند إلى أية وثيقة أو معرفة تقبل وكأنها حقيقة دون تمريرها من مصفاة النقد العلمي.

خَطا بيازيد خان الثاني خطوات مهمة على طريق تقوية الأسطول ومراسي الإمداد إثر الضعف الذي ظهر في الجيش إبان الحروب مع المماليك ، وطلب الأندلسيين النجدة.

زاد عدد الإنكشاريين. وتأسست فصائل الآغوات. وجهز الجيش بأسلحة جديدة. وخضعت تشكيلات المدفعية والفرسان ، ووحدات نقل المدفعية إلى إصلاحات كبرى.

أعطى أهمية للأسطول ، وأمر ببناء سفن شراعية حربية ، ووضع فيها مدفعية بعيدة المدى. وأعماله هذه هي التي أمّنت الأرضية لابنه سليم الجبار بأن ينشغل بالجهاد دون توقف ، ولعبت دوراً مهماً بنجاحه.

كان بيازيد خان الثاني يبتعد عن الحرب قدر الإمكان إن لم يكن مضطراً. وكان يحرص على البقاء في إسطنبول بشكل دائم لتأمين الطمأنينة والسكينة لرعيته ، وعدم مسهم بضرر. وقد فسرت خصوصيته هذه على أنها ترك الجهاد ، وكثيراً ما وُجه إليه الانتقاد. ويقول خان القرم منغيلي غيراي في رسالة وجهها له:

«صاحب السعادة والقوة والعظمة سلطان سلاطين الأرض ؛ إذا كان هناك مانع قوي لإغلاق باب الغزو والجهاد أمر سيدنا خليفة الله للعباد ، أبلغونا ، ليعمل عبدكم بموجبه. حضرة سلطان السلاطين العالي الشأن والدائم القرار».

يحمل رد السلطان بيازيد على هذه الرسالة أهمية فائقة على صعيد الإشارة إلى طريقة تفكيره. جاء في رسالة سلطان السلاطين:

«تسألونا في رسالتكم التي أرسلتموها إلينا عما إذا كان هناك نص أو حديث حول تركنا الغزو والجهاد ، واختيارنا طريق الهدوء وترك العمل. في الحقيقة إنه سؤال غاية في الجمال. يعلم الجميع بأن الجهاد والغزو هو فرض ، وأهم نهج في الإسلام. وما يقع على عاتق السلاطين هو أن يكونوا على هذا النهج. ولكنني وحدي مسؤول عن تابعيتي المنتشرة على أرضنا الواسعة. غداً كيف ستكون حالي عندما أقف بين يدي الله ، ويقول لي: (يا بيازيد! أنعمت عليك بأقاليم كثيرة ، واخترتك من جملة العباد ، ورأيت أنك مناسباً للسلطنة والخلافة لعدة أيام. ونفذت أوامري على عبادي ، بأي طريق عدلت بينهم ؟) أفكر بماذا يمكن أن أجيب عليه. عندما نذهب إلى جهة ما من أجل الحرب ، فالناس ميالون للسوء

بطبعهم ، ويمكن أن يستغلوا غيابنا ، ويحدثون فتنة. لهذا السبب رأيت أن الأنسب عدم الذهاب إلى أي جهة ، وأن أجلس مكاني من أجل ضبط نظام البلد. ولهذا السبب أقضي وقتي كله ليلاً ونهاراً بمراقبة أحوال الناس ، وتلبية حاجاتهم ، والسلام»102.

آثاره العمرانية

يلفت النظر عهد السلطان بيازيد بأنه عهد تسرّع فيه نشاط العمران في الدولة العثمانية. المجمعات الدينية التي أنشأها أثناء إمارته في أماصيا ، وأثناء سلطنته في أدرنة وإسطنبول تمتع الناظرين. وله أبنية خيرية في كل من عثمانجك ، غيفة ، وصاروخان ، وبوياباط.

يتحدث عالم الدين سعد الدين أفندي عن أعماله الخيرية على النحو الآتي:

«بيازيد خان الثاني الذي يعجز الكلام عن وصف كرمه ، وسخائه ، وسعة صدره ، لم ينس أماصيا التي كان سيد سنجق فيها بعدما جلس على عرش السلطنة ، وبنى على ضفة النهر الأخضر بناء خيرياً منح البلدة جمالاً إضافياً. يتألف المجمع من مسجد يطفح بالنور والسرور ، وزاوية ، ونزل للمسافرين ، ومدرسة ، ومطعم مجاني ، ومدرسة كبيرة. واشترط على من سيدرس في المدرسة أن يكون صاحب علم بحيث يستطيع الفتوى».

في السنة الثالثة لجلوس بيازيد خان الثاني على العرش بدأ ببناء المجمع الديني الشهير المسمى باسمه في أدرنة. وبعد أربع سنوات بدأ المجمع المؤلف من مسجد ، ومطعم خيري ، ومدرسة ، ومدبغة ، وحمام ، ودار شفاء بتقديم خدماته.

وكانت دار شفاء المجمع مخصصة لمعالجة الأمراض العقلية والنفسية. وبينما كان يُنظر إلى المرضى النفسيين في أوروبا على أن الشيطان يتلبسهم ، ويعاقبون ، وحتى يحرقون أحياء ، فإن الذين يعانون من المشكلة نفسها في الدولة العثمانية يستعيدون صحتهم بإشراف الأطباء نتيجة علاج في دار شفاء بناها بيازيد خان وسط الخضرة وتغريد الطيور.

يصف أوليا جلبي هذا البناء الجميل على النحو الآتي:

«في وسط البستان المذكور قبة مبنية من الحجر تمد رأسها نحو السماء مفتوحة من الأعلى ، ومغطاة بزجاج لكي تستمد النور. هناك قبة صغيرة تشبه تاج كيانيان على ستة أعمدة رخامية رفيعة في ذلك المكان المفتوح. وضع الفنان الخبير بعمله ميلاً من الحديد مطلياً بالذهب الخالص ، وعليه ما يشبه الراية ، وتتجه الراية إلى اتجاه الريح. مشهد غريب. ولكن تحت القبة الكبيرة ثماني زوايا. وثمة ثمانية أقواس داخل تلك القبة المقوسة. وهناك غرفة شتوية تحت كل قوس ، ولكل غرفة نافذتان ، إحداهما تطل على الخارج حيث حديقة الأزهار ، والثانية على البركة الكبيرة والنوفرة تحت القبة الكبيرة. وأمام هذه الغرف الثمانية الشتوية ، وداخل القبة الكبيرة أيضاً هناك ثماني غرف صيفية».

كانت تزرع أزهار كثيرة في دار الشفاء مثل الزنبق ، والقرنفل ، والمنثور ، والياسمين ، والنسرين ، ورقبة الجمل وغيرها. وتلعب رائحة هذه الأزهار إضافة إلى ألوانها دوراً بشفاء المرضى النفسيين.

كانت تطبق حمية غذائية دقيقة جداً في المستشفى. وكانوا يعدّون الطعام للمرضى بإشراف الأطباء ، وبحسب حالة كل مريض مستخدمين لحم البط ، والحجل ، والزرزور ، والحمام البري ، والأرانب.

ويبرز أطباء دار الشفاء بأن الموسيقى مفيدة للمرضى ، وخاصة على صعيد تفتح الذهن ، وتقوية الذاكرة ، وتهدئة المرضى الانفعاليين ، وبث السرور في المرضى المهمومين والمتشائمين ، فقد عولج المرضى بواسطة الموسيقى. يقوم كبير أطباء دار الشفاء الخبير في هذا الموضوع بإسماع المرضى مختلف المقامات ، ويراقب سرعة خفقان قلوبهم ، وعلى هذا الأساس يحدد المقطوعة اللازمة. فرقة دار الشفاء الموسيقية تقدم حفلاتها في برنامج معين موزع على الأيام. ويعمل في الفرقة الموسيقية عشرة موسيقيين ومطربين.

وأخيراً يُستخدم خرير الماء المندفع من النوفرة كأداة مهمة في العلاج من ناحية

استخدامها لبث الطمأنينة في نفس المريض.

كانت دار الشفاء تعالج كل أنواع المرضى في سنوات افتتاحها الأولى ، وفي السنوات اللاحقة تخصصت بمعالجة الأمراض العقلية فقط. كان كادر دار الشفاء في البداية يتألف من كبير أطباء ، وطبيبَيْنِ ، وأخصائي عيون ، وجراحين ، وصيدلي. إلى جانب هؤلاء كان يعمل ثلاثة عشر شخصاً بين موظف صحي ، وإداري. والمتوقع أن يكون عدد الأسرة اثنين وثلاثين. الراتب الأعلى في دار الشفاء يقبضه كبير الأطباء إذ تبلغ يوميته ثلاثين فضية. وهذا يشير إلى الأهمية التي كانت توليها المرحلة العثمانية للمشافي.

كانت المعالجة مجانية في دار الشفاء ، ويؤمن الدواء للمحتاجين في المدينة مجاناً مرتين في الأسبوع.

كان الأوروبيون يرون العلاج النفسي التركي بواسطة تغريد الطيور ، وخرير الماء ، والموسيقى ، وروائح الأزهار بشكل خاص نموذجاً فريداً في عصر النهضة وتاريخ المشافي.

أجمل الأعمال الخيرية التي أمر ببنائها بيازيد خان الثاني له جماليات لا تحصى. وبحسب تعبير عالم الدين سعد الدين أفندي: «إنه مسجد يشبه الجنة ، وفريد بجمعه الراحة والطمأنينة. هو مثال بالوساعة وبث الانشراح ، وبهذا يشير إلى نوايا مؤسسه الطيبة. ولأنه وسط المدينة ، فلا يهدأ من الظهر إلى المساء بتدفق الناس إليه. وقد طرز بالرخام الملون بشكل يثير دهشة حتى فناني العمارة الخبراء. وصُقل رخام جدرانه العالية بحيث تعكس صورة المصلين وكأنها مرآة.

إذا حاولت وصف البركة والنافورة التي في باحته فسيتدفق الماء من رأس القلم السكري. وصنابير الماء السلسبيل الشبيه بالكوثر هي شفاء لعطاش من الحسرة.

أما المطعم الخيري الذي بني بجواره فيتناول أكثر من ألف شخص من طعامه المنوع والكثير يومياً. تعجز الكلمات عن وصف الأطعمة المثيرة للشهية التي تملأ الموائد والمواعين.

أما مدرسته فهي مكان مبارك يجمع العلم ، وينقل المعلومات. كانت نخبة علماء ذلك الوقت الناضجة والموهوبة تعطي الدروس فيها للطلبة103.

ولبيازيد خان الثاني غير هذه الآثار كثير من المساجد والقلاع والجسور والنُزل والحمامات ومواقع الرباط بعضها أنشأها من أُسسها ، وبعضها أصلحها ، وأنقذها من الهدم.

الشاعر بيازيد

استمر الشعراء الذين نشأوا في عهد الفاتح بشهرتهم في عهد بيازيد الثاني أيضاً ، وانضم إليهم شعراء جدد. من شعراء هذا العهد المشاهير أحمد باشا ، ونجاتي إضافة إلى ذاتي ، وجعفر جلبي ، وصافي ، وبهيشتي ، وسنان بيك ، تشاكري ، وبصيري104.

كتب بيازيد خان شعراً باسم «عدلي» الفني ، وجمعه لاحقاً في ديوان. الأربع نسخ من مخطوط ديوانه الذي يروى أنه دُوِّن بأمر من ابنه سليم خان مسجلة في مكتبة الفاتح الوطنية. تحمل أشعاره خصوصيات التصوف التي تعكس طبيعته. قصائده الصادقة حول العشق والمحبة بأسلوب الغزل مكتوبة بلغة بسيطة وطبيعية.

انظر إلى بريق الأزهار وحيويتها وافهم قدرة الحق

وشاهد زينة الأشجار بثمراتها واستيقظ من الغفلة105

يعكس بيازيد خان من خلال هذا البيت تفكيره وشعوره عندما ينظر إلى الطبيعة بإيمان وقلب ناضج.

أما في مطلع إحدى قصائده يمكن استشعار تعبير الحاكم بوضوح:

يا فارس الجواد المدلل لا تتردد بالضغط على الركاب

ساحة الجمال لك ، فدس على الأرض بقوة106

كتب بيازيد خان الثاني معارضات شعرية لرباعيات مليحي وأحمد باشا والسلطان محمد الفاتح وخماسياتها.

تروّي يا صاحبة الحاجبين الفاتنين القوسيين

واه من عيني إذا لم تحتمِ من سهامك القاتلة

أما قلت لكِ لا تنظري إليّ واخ يا عيني

واخ يا عيني ، واه يا عيني ، أواه يا عيني[107]

كان بيازيد خان يحضر مجالس الشعراء ، ويبادلهم الحديث ، ويرعاهم. ذات يوم أقدم بهيشتي على عمل خاطئ ، فهرب إلى إيران خشية من غضب سلطان السلاطين. وهناك دخل بخدمة نوائي ومولانا جامي.

بعد فترة سُلم السلطان رسالة قادمة منهما تتوسل منه العفو والمسامحة ، وتبين بأن الإنسان خطاء ، وأن الغفور من صفات جناب الحق تعالى.

وتروى كثير من النكات حول السلطان وعفوه بعد تبيان العذر بالإشارة إلى الآية الكريمة: {... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ... }[108].

بالعفو يتحول الحر إلى عبد	اعف عن المخطئ
ولكن عفو الكبار إحسان[109]	ذنب الصغار خطأ

عندما قرأ بيازيد خان الرسالة المرسلة من العالمين ، عفا عن بهيشتي ، وتكرم عليه ، ومنحه وظيفة.

كان يروي النكات ، ويمازح الشعراء أحياناً. يروى أن شاعر تلك المرحلة تشاكري أصيب ببردية في صغره تسببت ببياض شعر لحيته المبكر. فكان حزيناً من هذا الأمر ،

وكان يصبغ لحيته دائماً.

ذات يوم سأله بغضب: «لماذا تصبغ النور بالأسود، وتغيّر لونه، وتحوّل لحيتك البيضاء إلى السواد، وتفضحها مثل المذنبين؟».

رد عليه تشاكري: «دولة سلطاني! لا شك أنكم تعرفون حياة عبدكم. أما لحيتي فهي تكذب. تبدو ذات مظهر موثوق، ولكنها تكذب بالتأكيد. لهذا السبب لونتها بالأسود، وفضحتها، هزئت بها، وانتقمت منها».

وإثر هذا الجواب الطريف، امتدح سلطان السلاطين تشاكري، وأغدق عليه العطاء110.

كانت رعايته للعلماء والشعراء كبيرة إلى درجة أنه إذا سمع قصيدة غزل جميلة، ولم يعرف صاحبها، أمرَ بإيجاده، ومكافأته. ومن هؤلاء الشاعر سائي. كان غزل سائي الذي أمر السلطان بإيجاده، ومنحه الأعطيات السلطانية هو:

حين ترسم عيناي وجهك برسالة القلب

يسيل الدم من قلم رموش عينيك

من لا يرفع عينيه وينظر إلى وجهك

كيف يعرف سطراً في كتاب العشق

لأن زغب خديك كتب في شمس علية

قالوا عن رسالتك نسخة حب وحديث

ذات الوجه القمري سروة فضية بقفطان

لتكن الشمس وردة ذهبية على ثوبك111

كان بيازيد خان الثاني عادلاً ، ورحيماً ، وعالماً ، وتقياً ، وحليماً. وبخصاله هذه عرف بلقب: «الولي بيازيد». اكتسب عادة في الحروب وهي أنه كان كلما عاد من حملةٍ جمع الغبار الذي على ثيابه في مرطبان. عاد ذات مرة من الحرب ، وحاول أن يجمع الغبار بعناية فائقة. سألته زوجته الخاتون غولبهار بفضول:

«سيدي ، العفو منكم ، هل يمكنني أن أسألكم عن سبب جمعكم الغبار كلما عدتم من الجهاد ؟».

فردّ عليها سلطان السلاطين مبتسماً:

«أنا لا أخفي عنك شيئاً يا خاتون غولبهار. سأوصي بوضع هذا الغبار في قبري. لأن الرسول يقول في حديثه الشريف: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار). لهذا السبب أجمع الغبار التي تعلق بي وأنا أجاهد في سبيل الله. وصيتي أن يوضع هذا الغبار في قبري عندما أموت».

وقد صنع بيازيد خان طوبة بتلك الغبار ، ووضعت تلك الطوبة في قبره عندما مات بناء على وصيته[112].

وهناك حادثة عيشت أثناء افتتاح مسجده في حي بيازيد تنير الجانب الديني لبيازيد خان. يوم الافتتاح طلب أن يؤم المصلين من لم يترك سنّة صلاة العصر منذ سن البلوغ حتى ذلك اليوم. عندما أعلن هذا على الجماعة ، فلم يتقدم أحد. اضطر سلطان السلاطين للقول: «الحمد لله أننا لم نفوت صلاة طوال عمرنا» ، ووقف إماماً[113].

وهذه القصيدة تشرح كيف حظي بيازيد خان بلقب «ولي»:

ولكن الفقر لله يليق بي	يا إلهي! القداسة تليق بك

يتسابق الجميع باللجوء إليك
بما أنك ملجأ العالم وحدك

ويليق الفقر بمن لا يخدمك
السلطان من يقوم بخدمتك

والذكر يليق بك للشفاء
القلب عليل بمرض الغم

الاعتياد يليق ببحر الغم
البعض يتوسل لؤلؤ الغفران

يليق بنا الكلام الرباني
مهما بلغ عصياننا من مبلغ

ولكن يليق بنا الأمل والخوف
أمرنا ليس أملاً ، ولا خوفاً

إذا سألتم المدعو عدلي
فلا تليق به النعمة بل الجزاء

افعلها أنت فهي تليق بك
أنا فعلتها ، وهذا يليق بي

يليق به إمداد المصطفى114
يوم لا يكون للجميع حيلة

ماذا قالوا

الشيخ سعد الدين أفندي: يطأطئ القلم خجلاً من شرح عطاء السلطان الوفير ، وجمال أخلاقه وخصوصياته التي تستحق المديح ، وسعة كرمه. لو تحولت أوراق الأشجار إلى قرطاس ، والبحار إلى حبر لما كفت لشرح خصاله. ظله آمن ، وهو أساس الطمأنينة. وصل عطاؤه وإكرامه ، واهتمامه بالفقراء وعابري السبيل إلى درجة عدم ذكر التسول لغيابه. كان يبحث بواسطة جواسيسه المأجورين عن الذين اختاروا العزلة للطاعة ، ويجدهم. وكل يوم يستفيد الألوف من هداياه115.

أندريا غريتي: لا يبدو على وجهه المكتنز أي علامة على أنه رجل ظالم أو مخيف. وتبدو عليه تعابير الحزن دائماً. يحب الصناعات الآلية كثيراً. يحب العقيق الأحمر المقطوع بشكل جيد ، والفضة المصاغة بمهارة ، والأشياء المصنوعة بشكل جميل. لديه معلومات

عميقة بالفلك والإلهيات، ويطالع بهذه العلوم بشكل دائم. لا أحد يرمي النبال أفضل منه116.

ويقول سهي بيك: كان عالماً، وفاضلاً، وكاملاً، وغزير الشعر، وموهوباً، وماهراً في كل الأمور. كان نخبة من يرمي السهام. لا أحد في زمانه يستطيع شد القوس الذي يشده. كان سلطان سلاطين صالحاً، ومتديناً، وصديق الصدوقين والعلماء، ومهتماً بأهل المعارف، وفريداً بعدالته وكرمه، وخيّراً117.

يقول نجاتي بيك:

اسم السلطان ابن السلطان بيازيد شمس

كامي دلالة الشرك، واللمع نور اليقين

إن حضرت أو كنت مسافراً فالحمد لله

فاتح نصير، ويدير الدولة إن جلس

هيبتك لا تترك العدو براحة فأنت جمر

في الليل يبدو نمراً وفي النهار أسداً

يريد أن ينظم دولته وشعبه في العالم

هكذا تكون دولة السلطان متفوقة

الولي السلطان ابن السلطان المهاب

وأمير المؤمنين بزهدك وتقواك

لطفك دائماً يا رب العالمين لجنده

ودولة حضرته وشخصه وأولاده[118]

القِسْمُ الثَاني

السلطان سليم خان الجبار

عندما جعلني الله سلطان سلاطين في مأوى أجدادي ،

ناجيت حضرة الحق تعالى الذي لا شريك له ،

وتضرعت له وتوسلت. يا خالق الأرض والسماء ، ورازق

الأنس والجان والحيوان ربي الرحيم الكريم. اجعل

من نصيبي كنس حرمك بيت الله الكعبة في مكة

المكرمة ملجأ السعادة ، ومرقد حبيبك قبر محمد

المصطفى المبارك في المدينة المنورة.

الفوضى في الأناضول

جلس سليم خان على العرش في 24 نيسان/أبريل 1512 ، وكان أخوه الكبير قورقود في مانيسا والياً ، وأخوه الأكبر أحمد في قونية قد أعلن سلطنته.

وبالفعل عندما علم الأمير أحمد بوفاة والده بيازيد خان ، لم يُضِع الوقت ، وأعلن نفسه حاكمَ الأناضول. أمر بقراءة خطب الجمعة ، وصك النقود باسمه. ودفع ابنه علاء الدين على رأس جيش إلى بورصة. تحرك علاء الدين بسرعة ، وحاصر بورصة ، ثم دخل المدينة ، وقتل قائد الحرس ، والحراس الموالين لسليم. وبدأ يجمع الضريبة من الناس. وحاول جعل الخطباء يقرؤون الخطب ، وصك العملة باسم والده. ولكنه عندما تعرض لهجوم البورصيين ، اضطر لترك المدينة. أرسل علاء الدين رجالاً إلى غمليك وبيغا ، وكتب أحكاماً إلى سادة قرامان ، ولكنه عندما علم بوجهة سليم خان نحوه ، انسحب إلى جانب والده في أفيون حصار.

في هذه الأثناء داهم تاج الدين بيك من الأمراء التابعين لأحمد إسكي شهير ، وداهم قرة إسكندر طوقاط ، ونهبوا أموال الناس. وأحرق رجل الشاه إسماعيل نور علي نواحي قاظووا ، وقال: «هذه الولاية للشاه إسماعيل» ، وبث الرعب في نفوس الناس. بدأت المذكرات تنهال على الديون من أهل الأناضول تطلب العون.

ترك سليم خان ابنه سليمان القادم من كفة إلى إسطنبول لحضور مراسم البيعة ، واتجه إلى الأناضول على رأس قوة مؤلفة من سبعة آلاف رجل. وكلف أسطولاً مؤلفاً من خمس وعشرين سفينة قادس لمراقبة شواطئ الأناضول لمنع الأمراء من العبور إلى روملي.

أثناء توجه سليم خان إلى بورصة ، أرسل قوة بقيادة علي بيك ابن القائد الطليعي الشهير بالي بيك مالكوتش أوغلو باتجاه أخيه أحمد. إزاء هذا الوضع أراد الأمير أحمد أن يتجه من سيفري حصار إلى تشيكوروفا عن طريق قونية ، ولكنه لم يجرؤ على هذا بسبب

سيد سادة قرامان حمدم باشا المرتبط بسليم. وانسحب إلى نواحي أماصيا التي يحكم فيها أستاذه سنان باشا يولارقصدِ.

ومن أجل اتخاذ سليم إجراء احتياطياً جديداً عين مصطفى باشا داوود باشا أوغلو سيد سنجق أماصيا ، وتوجه نحو أنقرة ، فانسحب أحمد من هنا أيضاً ، وعاد إلى قونية. ونصح ابنه الأمير مراد باللجوء إلى الشاه إسماعيل ، وكان مراد يخاطب سلطان المماليك قانصو غوري «أبي» ، وهو أقرب إليه. لهذا السبب أرسل ابنيه سليمان وعلاء الدين إلى المماليك لطلب المساعدة. وذهب هو إلى آل دوالقادر للتفاوض معهم. كان يأمل بالحصول على السلطنة بالاتفاق مع المماليك ودوالقادر. ولكن قانصو غوري رفض عرض الأمير خشية من الاصطدام بسليم.

بقي سليم خان في أنقرة ما يزيد عن شهرين لفرض الاستقرار ، ثم عاد إلى بورصة نتيجة عدم خروج أحمد إلى الساحة ، واقتناعه بنصيحة الوزير الأعظم قوجا مصطفى باشا بالعودة إليها بسبب اقتراب الشتاء.

جاء سليم إلى بورصة في 23 تشرين الثاني /أكتوبر ، ومن أجل معرفة حقيقة موقف قورقود الذي أقسم على طاعته ، والالتزام بالإخلاص له ، طلب من بعض رجال الدولة أن يكتبوا له رسائل يبلغونه بها أن ولاءهم له. اعتقد الأمير قورقود أن الأمر صحيح ، وتجاوب معهم نتيجة طموحه للسلطنة. وهكذا أدرك سليم أن قلبه طافح بعشق السلطنة. خرج سليم خان من بورصة بذريعة الصيد ، واتجه نحو مانيسا ، وداهم قصره بغتة. على الرغم من هذا نجح قورقود وبيالة أقرب رجاله إليه وحافظ أسراره بالهرب. اختبأ الاثنان أياماً طويلة في إحدى المغاور القريبة من برغاما[119].

فكر سليم باحتمال هرب أخيه إلى رودوس أو مصر ، فأمر بمراقبة كل المحيط ، وعاد إلى بورصة. وبسبب الجواسيس الكثيرين والقبائل الحدودية لم يعد بإمكان الطير أن يغادر الأناضول.

أما قورقود وأستاذه فقد كانا يريدان الخروج من حيث يختبئان ، ويذهبان إلى تكة ، ويهربان من هناك إلى الخارج بواسطة السفن. لهذا الهدف أخذ بيالة حصان قورقود ، وخرج ، واتفق مع قروي التقاه في الطريق. سيؤمن القروي لهما مؤونة وسفينة ، مقابل حصان قورقود. وجود حصان قورقود الجميل جداً مع قروي ، وخروج هذا القروي كثيراً وهو يحمل المؤن لفت نظر أهل القرية. أبلغوا رجال سليم الجبار فوراً. جاؤوا ، وأخذوا القروي ، وجعلوه يعترف على مكان قورقود وبيالة بالقوة. إثر هذا اعتقل قاسم بيك سيد تكة الأمير قورقود ونديمه من حيث يختبئان ، وأرسل خبراً إلى سليم خان.

كلف سليم خان قراتشين أوغلو بجلب الأمير فوراً. عندما سمع بأنهم وصلوا إلى مكان قريب ، كلف رئيس حرس القصر سنان بيك بمهمة ، وقال له: «اذهب ، وحرر قلب الأمير من قيوده».

بالنتيجة ، قتل الأمير قورقود في 9 آذار/مارس 1513 عندما كان في إيريغوز وهو نائم على يد رئيس حرس القصر سنان بيك خنقاً بشريط قوس النبل.

وقد دفن جسده بعد أربعة أيام في مقبرة أورخان غازي في بورصة. أما صديقه المخلص بيالة فلم يطلب العمل في أي موقع ، وبقي مقيماً بجانب القبر حتى مات120.

ظهرت أمامنا ثلاثة طرق

لم يعد هناك من يدّعي بحق السلطنة سوى الأمير أحمد وأولاده. كان أحمد ينتظر في نواحي ملاطية ، ويتواصل مع أنصاره في الأناضول والمركز ، ويتحين الفرصة المناسبة. كان الصدر الأعظم مصطفى باشا أكبر المؤيدين لأحمد. كان هذا الرجل يعمل على إبعاد سليم عن الأناضول بمختلف الذرائع ، وفي الوقت نفسه يسرب المعلومات لأحمد سراً. وإثر انكشاف هذا الوضع ، أُعدم قوجا مصطفى باشا في بورصة ، وعُين مكانه أحمد باشا هرسك زادة.

كتب سليم هذه المرة رسائل عن لسان رجال الدولة من حوله ، وأمر بإرسالها إلى أحمد. يقول في الرسائل:

«السلطان سليم في بورصة ، والجنود توزعوا على المشاتي ، والإنكشاريون ذهبوا إلى إسطنبول. إنها الفرصة المناسبة بالضبط ، ولا يجوز تفويتها. لا يمكن أن يجتمع العسكر العثمانيون بشهر أو شهرين. أمر سليم بقتل الوزير مصطفى باشا والأمراء جميعاً. الكل بردوا ناحيته. لم يبق غيرك من نسل آل عثمان. أنت المحظي لدى الروم الآن. وجهاء الروم ، وسادة السناجق ، وحرس القصر ، والباشوات ، والإنكشاريون يريدونك ، وينتظرونك».

عندما وصلت هذه الرسائل للأمير أحمد ، سُر سروراً عظيماً ، وبدأ التحضيرات فوراً. قال له بعض الرجال الذين معه: «يمكن أن تكون هذه الرسائل فخاً من أجل جذبك إلى الساحة. من الأصوب ألا نذهب».

فكر الأمير فترة ، ثم قال: «من الممكن أن تكون صحيحة أو غير صحيحة. لأننا أصبنا بالغرور ، وعمتْ أعيننا. بالنتيجة فقد سرنا مع بعض الأشخاص الأغرار الذين لا يعرفون الحذر والحيطة ، ويعتبرون كل طريق مباح من أجل مصالحهم دون تفكير ، ودخلنا في حفرة مظلمة. ووقعنا في التأوه والحسرة. والآن وصلنا إلى هذا الوضع. لم يصادق أخي سليم هذا النوع من الرجال ، وكسب كل العلماء والناضجين ، ورافقهم. بالنتيجة أوصلوه إلى هذه الدرجة. أنا أفكر بوضعي الآن.

وضع النقطة الأخيرة عبر جوابه الآتي: «يبدو لي هناك ثلاث حالات. الأولى: هي الذهاب إلى مصر ، والعيش عبداً لدى شركسي. والأخرى: التشيع ، والبعد عن الدين ، والطرد منه. والأخيرة هي أن أصبح حافياً فقيراً متسولاً. إذا كانت هذه الرسائل صحيحة ، فالدولة لنا... وإذا لم تكن كذلك فالاستشهاد على يد أخي أفضل من خدمة الشركسي ، والتشيع أو التسول والذل ، وهكذا أتخلص من الخجل ، وخاصة الذنوب التي ارتكبتها بسبب الجهل ، والتسبب بكل هذه الفتن والهزائم. وهكذا أتخلص ولو قليلاً من عذاب الآخرة ، وآمل بأن أحظى برحمة الحق»[121].

أكمل الأمير أحمد استعداداته ، وسار من ملاطية إلى أماصيا. هزم قوات محمد آغا بيكلي المكلف بمراقبته في نواحي طوصيا. وفي الوقت نفسه كان مستمراً بجمع قوات من حوله. عندما وصل إلى أنقرة بلغ عدد قواته العشرين ألفاً. رأى الأمير أنه امتلك القوة الكافية ، فتوجه نحو بورصة عن طريق إسكي شهير — سيد غازي ، وقرر أن يخوض معركة حاسمة ضد أخيه سليم.

بدا أنه ليس لدى سليم المعلومات الكافية حول شجاعة أخيه وفطنته ، فأرسل محمد آغا بيكلي وسيد سادة الأناضول مصطفى باشا لمواجهة أحمد دون أن ينتظر وصول القوات الإنكشارية التي في إسطنبول للمشاركة في المعركة. ولكن قوات الطليعة هذه تعرضت لهزيمة ساحقة ، وانسحبت. وعدم ملاحقة هذه القوات لم يكن لصالح أحمد. لأن سليم خان وجد فرصة لملمة الوضع.

قوّى سليم نفسه بالقوات التي أرسلها خان القرم ودوقاكين أوغلو ، وجابه أخيه في يني شهير. قاتل أحمد بهمة عالية ، وانتظر دون جدوى انضمام رجال الدولة إلى طرفه. وإذا كانت قوات أحمد قد بدت أنها تفوقت في بداية المعركة التي اندلعت بشدة ، فإن التفاف قوات خان القرم ودوقاكين أوغلو عليه ، وضربه من الجانبين غيّر سير المعركة. رأى الأمير أحمد أن قواته قد هزمت ، وتشتتت ، فأراد أن يهرب إلى إزميت. ولكن انهيار حصانه في نواحي هندك أوقعه في الأسر.

رجا الأمير دوقاكين أوغلو أن يأخذه إلى أخيه ، ولكنه لم ينفّذ رغبته هذه. استشهد الأمير أحمد على يد سنان آغا الذي قتل قورقود سابقاً. دفنت جثته داخل مقبرة مراد خان الثاني في بورصة إلى جانب قبر شهنشاه.

حزن سليم كثيراً على موت أخويه ، ووزع على الفقراء في بورصة سبعة آلاف فضية عن روحيهما.

لجأ مراد ابن الأمير أحمد إلى الشاه إسماعيل ، وهرب علاء الدين وقاسم إلى

سلطان المماليك.

إثر إنهاء قضية أخويه ، تحرك سليم من بورصة باعتباره الوارث الوحيد للسلطنة العثمانية ، وانتقل إلى إسطنبول عن طريق غليبولو بداية ، ثم إلى أدرنة ، وفيهما استقبل السفراء الذين ينتظرونه لتقديم التهنئة.

الدول التي لم تعترف حتى ذلك الوقت بسلطنة سليم ، بدأت تتسابق فيما بينها لكسب صداقته بعد أن زال أي شك لديها حول الوارث الحقيقي للعرش.

قدم السفراء القادمون من مصر رسالة السلطان قانصوه غوري التي تنقل مباركته بالسلطنة ومعها هدايا صنع مصر والهند لا تقدر بثمن.

حظي سفير البندقية أنطونيو جيوستنياني بمديح سليم. وقدم إضافة إلى الضريبة هدايا ثمينة جداً.

كان سيد بوغدان سيفان سيل مارة قبل وفاته (1504) قد أوصى ابنه بوغدان أن يبقى مرتبطاً دائماً بالأتراك لأنهم أقوى وأشد سيطرة من الأمم الأخرى. والتزم بوغدان بهذه الوصية ، وقدم جزيته وهداياه. وقد تبعه سفير الأفلاك بالطريقة نفسها.

بين الذين قدموا احترامهم لسليم ، وارتباطهم به ، وقدموا له الهدايا سفير القيصر الروسي فاسيليج. ورد سليم إيجابياً على عرضهم تطوير التجارة ، وسيستمر التمثيل المتبادل على مستوى السفراء بينهما.

وبينما جدد سليم خان الاتفاقيات مع سفير المجر ، ولكنه لم يتوان عند تهديدهم بضرورة الإبقاء على الحدود ساكنة.

كان عدم مجيء سفير من عند الصفويين ملفتاً أكثر من هَرَعِ سفراء البندقية والمجر والمماليك وروسيا لتقديم التهاني باسم دولهم. منذ تلك اللحظة أدرك الجميع أن صراعاً فظيعاً على الأبواب بين السلطان سليم ومنافسه الرهيب الشاه إسماعيل. ولكن بداية

كيف وصلت الدولة الصفوية إلى هذا الوضع ؟

الطريقة الصفوية

مؤسس الطريقة الشيخ صفي الدين المولود في قرية كولهوران قرب أردبيل (1252) ، واسمه الأصلي إسحاق. ويروى أن والده هو ابن الشيخ كمال الدين عربشاه. توفي والده وهو صغير. شُغِفَ بدراسة علوم الدين في سن مبكرة. ذهب إلى شيراز ، ودرس علوم النقل والعقل على يد ركن الدين بيداوي ، وأمير عبد الله. وبتوجيه أمير عبد الله فيما بعد ، ذهب إلى غيلان من أجل أن يتتلمذ على يد الزاهد إبراهيم الغيلاني. بقي يدرس علوم الدين على يد هذا المتصوف الكبير ، وينصقل خمسة وعشرين عاماً. وتزوج من ابنة أستاذه بيبي فاطمة خاتون. وقد أخذ مكان الزاهد الغيلاني عندما توفي عن عمر خمسة وثمانين عاماً. وسكن في أردبيل. كان يتوافد عليه الطلبة من كل مكان لينهلوا من علمه. واشتهر في أذربيجان والقوقاز والأناضول.

كان من بين طلابه أولجايتو وأبو سعيد بهادر خان أحد حكام الأسرة الإلهانية ، ومن سادة الأسرة الإلهانية أمير جوبان والمؤرخ المشهور رشد الدين. وتوفي أثناء عودته من الحج عام 1334.

حل محله ابنه الذي وكله عند ذهابه إلى الحج. في عهد صفي الدين (1334–1392) ، وابنه علاء الدين علي (1392–1429) انتشر نفوذ الطريقة الصفوية خارج إيران. بدأ أردبيل تفيض بالقادمين من العراق وسورية والأناضول ومناطق إيران الأخرى ومناطق بعيدة مثل بلخ وبخارى.

كان الشيخ حميد أقسراي المشهور بلقب صمونجو بابا أكبر الممثلين للطريقة السائرين على نهج صفي الدين الأردبيلي.

وأصبحت أردبيل مهوى أفئدة حكام تلك الفترة. أبدى تيمور خان وسلاطين دولة الغنم الأبيض اهتماماً كبيراً بهؤلاء الشيوخ ، وتقربوا منهم ، وكسبوا دعاءهم. منح تيمور خان

الشيخ علي الذي يكن له احتراماً جليلاً مدينة أردبيل ، واعترف له بصلاحية التصرف بشكل مستقل فيها.

كان الحاكم العثماني مراد الثاني يرسل كل سنة مساعدات إلى متصوفي أردبيل باسم فضيات الإنارة.

من جهة أخرى فقد بدأ الشيخ علي وابنه الشيخ إبراهيم (1429—1447) يتصرفان كأنهما سلطانين ، واتخذت الطريقة طابعاً سياسياً ، وهذا ما لم يعط لمنتسبي الطريقة الصفوية نتائج خيّرة. وقد بدأت المجموعات الباطنية بشكل خاص التسلل إليها للاستفادة من نفوذها.

وقد ظهر أول تأثير كبير لها لدى جنيد ابن الشيخ إبراهيم. تحت تأثير المجموعات الباطنية المعادية للصحابة الكرام ، اختار الشيخ جنيد المذهب الشيعي ، وبرز شقاق بينه وبين عمه الشيخ جعفر الذي جلس على فراء زعامة الطريقة مكان عمه. كان الشيخ جعفر قلقاً من أفكاره المتطرفة. غير هذا فقد زاد قلقه ازدياد عدد مريدي ابن أخيه المؤمنين به ، والتابعين له بشكل أعمى. لأن جنيداً بدأ يحلم بالسيطرة على العالم.

اكتسابه القوة بهذا الشكل ، وتحركه منفرداً أخاف حاكم دولة الغنم الأسود جيهان شاه أيضاً. كتب رسالة إلى الشيخ جعفر الذي زوجه ابنته ، وطلب منه إبعاد جنيد عن المنطقة. واضطر جنيد لترك أردبيل إزاء تهديد عمه وحاكم دولة الغنم الأسود.

كان جنيد يعرف بأن الحكام العثمانيين يرسلون الهدايا لشيوخ الصفوية ، وأراد أن يستخدم قوة الطريقة المنتشرة في الأناضول ، فجاء إليها عن طريق قرة باغ وأرمينيا. أرسل أحد مريديه إلى مراد خان الثاني بهدايا مثل مصحف وتسبيح وسجادة صلاة ، وطلب منهم مكان سجادة صلاة للتعبد في قورطبلي.

كان مراد الثاني يعرف جيداً معنى هذا الطلب. ومن المحتمل أن يكون على علم بأفكار جنيد أيضاً. لهذا السبب رد على المريد القادم إليه رداً سلبياً بقوله: «ينام سبعة

دراويش على فراء واحد ، ولكن سلطانيين لا ينامان على عرش واحد». وأرسل إلى جنيد مائتي ليرة ذهبية ، ولمريديه هدايا ، وطلب منه أن يغادر بلده.

إثر هذا الموقف توجه جنيد نحو دولة القرامانيين ، ووصل إلى قونية ، ونزل ضيفاً على تكية صدر الدين القونوي. أثناء النقاش الفكري امتعض شيخ التكية من آراء جنيد المتناقضة مع عقيدة أهل السنة. وخاف من كثرة محبيه ، فأبلغ سيد قرامان فوراً. إثر هذا التطور ذهب جنيد إلى أنطاكية.

اشترى من حاكم المنطقة ابن بلال قلعة مهدمة من بقايا الصليبين في جبل العروس في خليج الإسكندرونة. وقد أصلحها خلال فترة قصيرة ، وبدأ باستخدامها تكية. ونتيجة دعاية مكثفة ، نجح بجمع مجموعة كبرى من المريدين حوله. وبدأ تلاميذ الشيخ بدر الدين في الأناضول بالانضمام إليه.

أبلغ شيوخ السنة في المنطقة سلطان المماليك مالك جقمق بنشاط جنيد. لم يستطع جنيد الصمود أمام القوات التي أرسلها والي حلب ، فانتقل إلى منطقة جانيك.

كان الشيخ الصفوي ماكراً ، ولديه قوة خطابة ، وهو في الوقت نفسه شخصية نشيطة ، لهذا السبب جمع حوله عدداً غير قليل من المريدين من قرى التُرك وقبائلهم الرحّل التي جاب عليها مستخدماً نفوذ أجداده. يقول إنه منحدر من نسل سيدنا علي ، ولا يخفي الجانب السياسي لنشاطه. ومن المحتمل أنه قدّم مختلف الوعود الاقتصادية للقرويين والرحّل الترك ، ولهذا لم يصعب جمعهم حوله.

بعد فترة تمكن من جمع قوة مسلحة مؤلفة من عشرة أو خمسة عشر ألف رجل.

سيطر عليه حلم إسقاط دولة طرابظون الرومية ، وتأسيس دولته مكانها. لهذا السبب ، بعد أن قام بمختلف عمليات النهب في قرى أرض الروم ، حاصر طرابظون (1456). القتال العنيف يبين أنه بحاجة إلى زمن طويل من أجل إسقاط القلعة. ولكن السلطان محمد الفاتح في تلك الأثناء لم يتسامح مع أي جهة تهاجمها غير قواته ، فأمر قوات أمير

أماصيا خضر بيك بالتوجه نحو جنيد. إزاء هذا الوضع فك الشيخ جنيد الحصار ، وانسحب إلى بلده.

من جهة أخرى بدأ يلمع نجم حسن بيك الطويل الذي أصبح على رأس دولة الغنم الأبيض. ذهب إليه جنيد ، وعرض عليه الولاء. حسن استقبال حسن بيك الطويل له. وتزويجه أخته خديجة بغوم زاد من شهرته ، وعدد أنصاره.

من المرجح أن تصرف حاكم دولة الغنم الأبيض السني على هذا النحو هو تفكيره بالاستفادة من قوات جنيد ضد جيهان شاه حاكم دولة الغنم الأسود. إلى جانب هذا ، من الممكن أن يكون جنيد قد أخفى أفكاره في تلك الفترة ، أو أنه قدم نفسه باعتباره شيعي معتدل.

بعد ذلك بدأ جنيد يتحرك براحة أكبر ، وقد نشط بالدعاية بشكل خاص في منطقة ديار بكر. وقد انتصر مع مريديه في معارك كثيرة لصالح حسن الطويل. بعد الانتصارات التي حققها على حاكم دولة الغنم الأسود جيهان شاه ، عاد إلى أردبيل.

عاد إلى الحياة السياسية ، وحبك المكائد بالجرأة التي استمدها من قرابته بحسن الطويل. جمع مريديه من حوله بذريعة الجهاد ضد غير المسلمين ، وخرج في حملة. ولكنه لم يتوجه نحو المسيحيين بل نحو الشمال حيث بدأ التركي المسلم خليل شاه شيروان يستولي على أرض شاه شيروان بقواته المؤلفة من اثني عشر ألف مقاتل ، وينهبها. ولكنه أصيب بسهم أثناء القتال مع قوات خليل حاكم شيروان ، وفَقَدَ حياته (1460). هَرَّب مريدوه جثته ، ودفنوها في مكان يدعى قومال ، وعملوا له مزاراً.

إثر هذا التم مريدوه حول ابنه حيدر المولود من أخت حسن الطويل. وقد أولى حسن الطويل أهمية أكبر لحماية ابن أخته هذا. وقد زوجه من ابنته حليمة بغوم عالم شاه.

بقي حيدر هادئاً طوال مدة بقاء حسن الطويل على قيد الحياة. ولكن وفاته ، وانتشار الصراع على السلطنة في أجزاء البلد كلها ، أخرجه عن عطالته ، وسار في طريق

والده جنيد. مع مرور الأيام كان يزداد عدد الملتفين حوله. إزاء هذا الوضع ، بدأ يُلْبسُ أنصاره لفات حمراء مقسمة إلى اثني عشر فصاً من أجل تمييزهم. لهذا السبب بدأ يطلق عليه ، وعلى أتباع طريقته «الرؤوس الحمر».

آمن الشيخ حيدر أن زمن الانتقام لوالده قد حل. فخرج مع ستة آلاف فارس مرتبطين به حتى الموت في حملة إلى القوقاز. فور عبوره نهر قور تقدم نحو محمود أباد في سهل موقان حيث انتصر جده حسن الطويل قبل تسع سنوات أمام أبو سعيد ابن تيمور (كانون الثاني /1469). عندما قاوم الأهالي نهب ذوي الرؤوس الحمر ، أمر الشيخ حيدر بقتلهم. وفي الوقت ذاته أرسل رجلاً إلى شاه شيروان ، وطلب منه أن يمنحه إذن العبور الحر من دربنت بموجب أحكام فرمان السلطان يعقوب لأنه أعلن الجهاد ضد الشركس.

كان فروخ يسار شاه شيروان في تلك الأثناء مشغولاً بعرس بعض أبنائه. وكان جنوده مشتتين لعدم وجود أي فوضى في بلده. بعد تلقي حيدر هذه المعلومات من رجله ، دخل بسرعة إلى دولة شيروان. كان ينهب كل مكان يمر فيه ، ويرتكب المجازر.

بصعوبة تمكن فروخ يسار وحرمه أن يلقوا بأنفسهم إلى قلعة غولستان. لم تكن مدن شيروان تستطيع مقاومة الشيخ ومريديه.

عندما بدأت المدافع والمنجنيقات تدق قلعته ، طرق فروخ يسار باب حميه يعقوب سلطان دولة الغنم الأبيض. عندما علم شاه الصفويين أن قوات الغنم الأبيض تسير نحوه ، فك الحصار ، وحاول الانسحاب نحو دربند. ذهل أهل دولة الغنم الأبيض أمام المظالم التي شاهدوها في القرى والأراضي التي أحرقها ذوو الرؤوس الحمر وراءهم.

عندما تواجهت قوات الغنم الأبيض وقوات الشيخ حيدر ، جاء فروخ يسار أيضاً من الخلف ، والتحق بقوات الغنم الأبيض. خاض مريدو الصفوية معركة حامية الوطيس ضد قوات الغنم الأبيض والشاه شيروان المتحالفة. ولكن نهاية حيدر كانت تشبه نهاية والده. أصيب بسهم ، وفقد حياته (1488). استمر مريدوه بالقتال بيأس ، ولكن هذا لم يغير

النتيجة.

وأولاده الذين من بينهم إسماعيل سجنهم خالهم السلطان يعقوب مع والدتهم في قلعة إصطخر في فارس.

من شيخ علي شاه

ولد إسماعيل من زواج والده الشيخ حيدر من ابنة حسن الطويل حليمة بيغوم. عاش في السجن سنتين بعد مقتل والده في الحرب التي شنها على أهل شيروان. عندما أطلق سراحه عام 1490 كان مريدوه الصفويون قد تحلقوا حول السلطان علي الذي تزعم الطريقة. وقبل مرور زمن طويل تدخل الشاه علي بالخلاف الذي نشب بين أولاد سلطان الغنم الأبيض. وقد فقد حياته في ساحة الحرب مثل أجداده. وقد أشار إلى تعيين إسماعيل الذي بلغ تواً السادسة من عمره خلفاً له قبل موته.

خشي المريدون الصفويون من أن يحدث مكروه لإسماعيل ، فهربوه ، وخبأوه في مكان آمن. بقي إسماعيل أكثر من ستة أعوام في غيلان ، وقد قضى غالبية هذا الوقت في مدينة لاهيجان. ولكن الصفويين لم ينسوه في أي وقت. وكان غالبية زواره من الأناضول ، وبعضهم من أذربيجان يحملون إليه الهدايا والنذور.

وقد دار الزمان لصالح إسماعيل. لأن الصراع على السلطنة في أسرة الغنم الأبيض الحاكمة استمر بشكل دموي. بموت حاكم دولة الغنم الأبيض رستم عام 1497 ، دخل إلواند بيك بصراع مع مراد بيك ابن يعقوب بيك ، وانقسمت المقاطعة إلى قسمين ، وفي هذه الأثناء خرج إسماعيل من غيلان باعتباره شيخ الطريقة الصفوية الجديد. كان حينئذ في الثانية عشرة من عمره. وعلى الرغم من هذا فإن حكام دولة الغنم الأبيض ليسوا أكبر منه. فقد كان عمر السلطان مراد عشر سنوات.

عندما خرج إسماعيل من غيلان ، ووصل إلى طاروم كان قد جمع عدة مئات من المريدين من الأناضول والشاملويين. وإذا كان قد ذهب من هناك إلى بلد أجداده أردبيل ،

فقد انسحب منها إلى أرجوان في منطقة أستارا على شاطئ بحر الخزر إثر تحذير والي المدينة سلطان علي بيك. قضى الشيخ إسماعيل الشتاء هناك ، وأرسل خبراً إلى كل الأرجاء بأنه سيلتقي بمحبيه في مدينة أرزنجان في الربيع.

عاد إسماعيل ثانية إلى أردبيل في ربيع عام 1500 ، وقام ببعض الزيارات ، ثم تحرك باتجاه أرزنجان. ظهور شيخ الصفويين بعد عيشة سرية طويلة ، ومجيؤه إلى أرزنجان ولَّد فرحاً عارماً لدى صفويي الأناضول بشكل خاص. لقد وصل الأمر إلى أن أحد الشباب في ولاية دوالقادر تلقى الدعوة وهو على وشك الدخول إلى الخلوة مع عروسه ، فنسي الخلوة ، وانطلق في طريق أرزنجان. الأتراك القادمون جماعات كانوا من أوصطاجا ، وشاملو ، وروم ، وتكة (نواحي أنطاليا) ، ودوالقادر ، وقرامان ، وورصاق (منطقة طرسوس). وكان محمد بيك ابن ميرزا سيد أوصطاجا ، وعبدي بيك الشاملو بين السادة القادمين برفقة حاشية كبيرة. كانت الغالبية المطلقة لهؤلاء الأتراك القادمين من مناطق وسط الأناضول وجنوبه.

تجول الشيخ إسماعيل كما يريد في دولة الغنم الأبيض دون أن يواجه أي صعوبة بسبب الصراع الداخلي ، وجاء إلى أرزنجان التابعة لهذه الدولة ، وجمع مريديه بسهولة من حوله.

في هذه الأثناء كان السلطان العثماني بيازيد خان الثاني في شبه جزيرة مورة مشغولاً بفتح مودو وكورون. وكان كل طرف من أطراف البلد خاوياً بسبب ذهاب جيش الأناضول إلى الحرب. لهذا السبب تمكن الآلاف من التابعية العثمانية من عبور الحدود دون صعوبة ، وذهبوا إلى إسماعيل. في هذه الأثناء تبين أن علاء الدين بيك سيد مقاطعة دوالقادر قد اتخذ موقفاً حيادياً إزاء مغادرة مجموعة كبيرة من مقاطعته للمثول بين يدي الشيخ الصفوي. لقد حل زمن التحرك بالنسبة إلى إسماعيل.

غادر أرزنجان في تموز/يوليو من عام 1500. كانت تحت أمره قوة مؤلفة من حوالي سبعة آلاف رجل من الترك والعجم. هدفه الأول هو دولة شيروان حيث قتل والده وجده. عندما علم شاه شيروان فروخ يسار بأن مريدي إسماعيل يتجهون نحوه ، جمع جنوده فوراً.

كان لديه عشرون ألف فارس ، وحوالي ستة آلاف جندي مشاة ، وأسلحتهم وعتادهم بأفضل حال.

على الرغم من هذا فقد تعرض لهزيمة ماحقة في المعركة التي نشبت قرب قلعة غولستان في الموقع المسمى جباني. وأثناء محاولته الهرب ، قتل على يد أحد المريدين من ذوي الرؤوس الحمراء دون أن يعرفه. وفيما بعد تم التعرف عليه ، وأُحرق جسده.

بعد تحقيق الشيخ إسماعيل هذا الانتصار الأول ، دخل إلى شماهي عاصمة شيروان. وأرسل من قادته محمود بيك أوصاجولو وإلياس بيك آيغوضولو لفتح باكو. وقد أدى هذان الشخصان مهمتهما بنجاح.

قضى إسماعيل الشتاء في محمود آباد ، وعندما حل الربيع ، بدأ بعملية فتح قلعة غولستان. في هذه الأثناء علم إلوند بيك حاكم دولة الغنم الأبيض بالتحرك نحوه ، فتحرك من أجل مواجهته. التقى الشاه إسماعيل وإلوند بيك في موقع شرور القريب من نهجيوان (1501) ، وعلى الرغم من تفوق إلوند عدداً وعدة ، فقد هزم أمام الشيخ الصفوي. وسقط قسم مهم من جيش الغنم الأبيض ، وغالبية السادة الكبار في أرض المعركة. وقد أكسبت هذه المعركة إسماعيل أذربيجان122.

وهكذا دخل شيخ الصفوية إلى تبريز منتصراً ، وجلس فيها على عرش الشاه. أمر بقراءة الخطب باسم الأئمة الاثني عشر ، وصك النقود. وأجرى بعض التعيينات ، وتأسست رسمياً الدولة الصفوية (1501).

بعد حكم الشاه إسماعيل ، أعلن على كل أرجاء البلد بأن تقرأ الخطبة باسم الأئمة الاثني عشر. إضافة إلى ذلك طلب الإساءة إلى السادة أبي بكر وعمر وعثمان ، ولعنهم في السوق والأمكنة العامة ، وأمر بقطع رأس من يعترض على هذا الأمر123.

الشاه إسماعيل

باءت بالفشل كل محاولات إلوند بيك لاستعادة بلده. قضى الشاه إسماعيل الشتاء في تبريز ، واتجه بجيشه نحو العراق عام 1502. وانتصر في المعركة التي خاضها ضد مراد بيك ابن السلطان يعقوب. هرب مراد بيك إلى شيراز ، فلاحقه ، واحتل شيراز ، بعدئذ سيطر على كازرون. وقتل علماء السنة في هاتين المدينتين جميعهم.

وفي عام 1505 سار باتجاه يزد. كان يحكم هذه المدينة محمد كرة. قصف الصفويون القلعة بالمنجنيقات مدة طويلة. وفي النهاية حوصر محمد كرة وجنوده في الأبراج. ولكن الصفويين كوموا كثيراً من الحطب تحت الأبراج ، وأضرموا فيها النار. لم يكن أمام المدافعين سوى الاحتراق بالنار أو الاختناق بالدخان ، فاختاروا طريق الاستسلام. على الرغم من هذا فقد عذبوا «كَرَةَ» ورجاله بمختلف أساليب التعذيب ، وفي النهاية قتلوهم حرقاً في ساحة أصفهان124.

أثناء وجود الشاه إسماعيل في أصفهان ، وصل سفراء سلطان السلاطين العثماني بيازيد خان الثاني. أنذره بيازيد خان لكي يوقف المجازر التي يرتكبها بحق السنة. بالمقابل أقدم الشاه إسماعيل على إحراق أحد علماء السنة أمام السفراء مما أدى إلى تخريب العلاقة مع العثمانيين مع مرور الأيام.

جاء الشاه إسماعيل إلى قزوين عام 1505 ، وقتل الخالديين المنحدرين من نسل خالد بن الوليد القاطنين هناك جميعاً.

في عام 1507 سار باتجاه دولة أبناء دوالقادر. طلب علاء الدولة حاكم دوالقادر من سيد بوزكرد ابنته الخاتون بنلو ، ولكنه تلقى جواباً بالرفض. بقي قرابة شهر في أرزنجان ، وانتظر أن تلتحق به القوات الجديدة القادمة من الأناضول. ولكن بيازيد خان الثاني اتخذ احتياطاته ، وملأ ما بين أماصيا وطوقاط بالجنود. رأى الشاه إسماعيل أن أنصاره لن يستطيعوا المجيء من الأناضول ، فالتف من سيواس وقيصري في الدولة العثمانية ، ودخل إلى دولة دوالقادر. وبهذا التصرف أرسل رسالة إلى أنصاره في الأناضول يقول لهم فيها إنه قوي ، و«نحن إلى جانبكم».

وعندما سأله بيازيد الثاني عن سبب تصرفه الوقح ، قدم بعض الأعذار ، بقوله: «سلطان السلاطين والدي. لا عين لي بدولته. مشكلتي مع أبناء دوالقادر الذين لجأ إليهم حاكم فارس والعراق مراد بيك».

لم يكن إلى جانب علاء الدولة سوى أربعة آلاف رجل. لم يغامر بالصدام مع الشاه ، وانسحب إلى جبل طورنا ، وطلب العون من المماليك والعثمانيين. أما هجوم الشاه فقد كان عنيفاً جداً.

أحرقت الوحدات الصفوية بلد دوالقادر ، وحولته إلى خرابة. وسيطر الشاه على قلعة خربوط ، وضمها إلى بلده ، ولكنه انسحب منها نتيجة ظروف الشتاء القاسية هناك أو علمه بقدوم الوحدات العسكرية العثمانية نحوه. أخذ الشاه إسماعيل ديار بكر في طريق العودة ، وعين فيها محمد خان أوصطاجالو أوغلو والياً. محمود خان قائد جريء وخبير ، وعلى الرغم من وجود قوة صغيرة تحت أمره ، فقد تمكن من هزيمة الجيش الذي أرسله علاء الدولة بيك بقيادة ابنيه قاسم وإردوان. وقد سقط في هذه المعركة ابن علاء الدولة قاسم الملقب «نمر صارو» بسبب شجاعته ، وابنه الثاني إردوان وكثير من مشاهير دوالقادر.

الهدف اللاحق للشاه إسماعيل هو عرب العراق. ظهر أمام بغداد عام 1508. وسلم والي بغداد المدينة للصفويين دون أية مقاومة. خرب الشاه إسماعيل كثيراً من مقابر الشخصيات السنيّة الشهيرة ، وقتل كثيراً من أهل المدينة.

سار باتجاه الأوزبك عام 1509. في المعركة التي اندلعت قرب مرو تعرض خان الأوزبك شيبك خان لهزيمة ساحقة. وقد كان هو من بين القتلى. كان حاداً جداً مع الأوزبك ، وقتل حتى الذين استسلموا. قتل حوالي عشرة آلاف أوزبكي من بينهم أميرهم وكبار شخصياتهم. عندما وجدت جثة شيبك خان ، فصلوا رأسه عن بدنه ، وسلخوا جلده ، وملؤوه بالتبن ، ثم أرسلوه إلى سلطان السلاطين العثماني السلطان بيازيد. وقد غطوا رأسه بالذهب ، وجعلوه كالكأس ، وملأوه بالنبيذ ، وجولوه على المجتمعين في اجتماع «جنة عين»[125]. وبطلب الأوزبك الصلح ، عادوا إلى العراق بعد أن أخذوا بلخ ، وعدة ولايات

أخرى.

كان الشاه إسماعيل يهرع من نصر إلى نصر، ويمحق من يقاومه بالدم والنار. في الحقيقة أنه عندما جلس على العرش كانت غالبية الناس من المذهب السني. وإذا كان الناس قد قاوموا اعتناق المذهب الشيعي بالقوة في حيث يحكم في مناطق أصفهان، وفارس، ويزد، وكيرمان، وروستمدار، وشاعر، فقد قتلهم دون رحمة بشكل جماعي[126]. ويروى أن أمه حليمة بيغوم (ابنة حسن الطويل، وهي سنية) حذرته ألاّ يرتكب كل هذا الظلم، فقتلها[127].

قضى الشاه إسماعيل على دولة الغنم الأبيض، ووسع حدوده بالسيطرة على شرق الأناضول، وأذربيجان، وعراق العجم، وعراق العرب، ووصل إلى نهر جيحان، وبعد أن أنزل ضربة قوية بالأوزبك، وألغى تأثيرهم، أصبح رأس دولة كبرى وقوية. أصبح يمكنه التوجه نحو هدفه الأساسي.

في الحقيقة أنه أثناء استمراره بفتوحاته، لم يتوانَ عن الاهتمام بالدولة العثمانية. أولاً، كانت هذه الدولة تمثل له مصدر جند. ولهذا السبب كان مستمراً بإرسال خلفائه «الداعين»، وتغذيتهم عسكرياً. ثانياً، كان يسعى إلى إنهاك أقوى أعدائه المستقبليين عن طريق تأجيج التمردات. وبدا الشاه إسماعيل أنه حقق كثيراً من آماله نتيجة نهج بيازيد خان الثاني سياسة سلمية.

وكانت هناك علاقة قوية أساساً، ومنذ فترة طويلة بين الباطنيين في الأناضول، والصوفيين في أردبيل. آلاف الرحّل والفلاحين الأتراك تركوا محاريثم وبوَّروا أرضهم، وتركوا كل شيء، ورحلوا إلى هذه الدولة. وقد صور هذا الوضع في المصادر في بيت الشعر الآتي:

وباعوا بالبخس دورهم	ترك الأتراك ديارهم

كان داعو الشاه يقولون: «لحظة وصولكم تصبحون سادة»، وجعلوا الشريحة الكبرى المرتبطة بالصفويين تتوق للذهاب إلى ذلك البلد.

استشعر بيازيد خان الثاني خطورة الأمر ، فمنع الذهاب من الأناضول إلى إيران ، والمجيء من إيران إلى الأناضول ، ونقل جزءاً كبيراً من شيعة تكة إلى مودون وكرونا. هذا المنع حال دون تواصل الشاه إسماعيل مع أنصاره في الأناضول ، كما حرمه من مصدر دخل كبير. غير هذا ، ونتيجة الرغبة بوجود حاكم قوي في تكة ، فقد نُقل الأمير قورقود من ولاية صاروخان ، وعُين والياً على أنطاليا.

عندما رأى الشاه إسماعيل أن زيارات مريديه إليه قد مُنعت ، أرسل رسالة إلى بيازيد خان يطلب فيها منه أن يلغي هذا الحظر. وقد رد بيازيد خان بأن الذاهبين إلى إيران لا يذهبون بهدف زيارته ، بل بهدف الهرب من الجندية ، ورفض طلبه.

من جهة أخرى فإن عبوره الحدود العثمانية في طريق حملته إلى دوالقادر رفع معنويات الشيعة كثيراً. وقد بدأ وضع أسس التمرد ، وانتظار الزمن المناسب.

وبالفعل فإن نشوب الصراع بين الأمراء في الدولة العثمانية أعطى الشاه الفرصة المنتظرة. بداية سرعان ما توسع التمرد الذي أججه شاه قولو بابا التكلي في منطقة أنطاليا. وقد كان سبباً لفوضى عارمة. فقد آلاف الناس حياتهم. وقد استشهد الصدر الأعظم علي باشا المخصي أثناء القتال ضدهم. بعد ذلك فإن الفوضى التي أحدثها الخليفة نور علي سيطرت على الأناضول. أصبحت الأناضول فاقدة الأمن ، وبدأ جواسيس الشاه (الداعين) ينادون الناس إلى التمرد قائلين: «حل اليوم المنتظر!». لقد بلغ الأمر مبلغاً فقد فيه خمسون ألف شخصاً حياتهم في الأناضول أثناء تلك الحرب. كانت الأناضول تغلي... لقد جلس سليم خان على العرش في زمن كهذا.

سليم خان

أثناء فتوحات الشاه إسماعيل ونشاطات رجاله في الأناضول كان سليم ولياً في طرابظون. ولأن سنجقه مجاوراً لدولة الغنم الأبيض ، فقد كان يتابع التطورات في ذلك البلد بانتباه.

وقد شهد على خراب شؤون السلطنة ، وهجرها لسنين طويلة ، وعرف عن قرب إلى أي درجة يمكن أن تصل الأمور في وضع كهذا.

عندما لا يكون في السلطنة أشخاص على دراية ، يتدخل كثير من الأشخاص الذين يتحينون الفرصة في شؤون الدولة ، ويخرب القانون والنظام ، وتنتشر الفوضى والخراب.

التطورات في إيران ، أثرت على الأناضول أيضاً. لأن التركمان القادمين من إيران يعملون دعاية بقولهم: «تلك الجماعة تعدل بين الناس. والضريبة تنفق بشكل مفيد ، وتمنح لرجال شهوم». وبهذا يحاولون جذبهم إلى ذلك الطرف.

رأى الأمير سليم أن سير الأمور فترة طويلة على هذا النحو ينمي فتنة وخراباً من غير الممكن استدراكه في المستقبل ، وهذا ما جعله يتوتر بنار الغيرة والحميّة.

أرسل فوراً رجاله الخلّص إلى الأناضول والروم (سيواس ، طوقاط ، أماصيا) ، وقرامان. وقال: «فليأتِ إليّ من يقول لدي حملة طليعية في جورجيا ، والشباب والشهوم الذين يريدون الحصول على الغنائم!» ونشر الخبر في الأرجاء. وحينئذ انطلق محبو الغزو في طريق طرابظون من مدن الدولة العثمانية وقصباتها وقراها وخيام رحلها.

لقد شكل شباب الأناضول الشجعان في طرابظون وحدة عسكرية كبيرة. ركب السلطان سليم فرسه بمهابته ووقاره ، وقاد هذا الجيش النخبوي.

كان الهدف جورجيا ، ويصف كمال باشا زادة هذه الولاية على النحو الآتي: «تُسمّى ديار الكفار المجاورة لطرابظون جورجيا. داخلها غابات وأحراش ، وأطرافها جبال ، طرقها ومعابرها صعبة وضيقة. أحد أطرافها جبال صعبة العبور ، لا يمكن للطير فوقها أن يطير ، ولا للقافلة فيها أن تسير. الغيم لا يغيب عن ذراها. وطرفها الآخر وديان كأنها آبار زنزانات لا يستطيع دخولها الجان والشياطين. لا تعطي فكرة عن عمقها. ولم يهاجم ذلك المكان أحد في الزمن القريب. أما الذين هاجموا في العصور القديمة ، فلم يحصلوا على شيء.

يلفظ روحه إذا لم يهرب وينقذها الفارس الداخل يتلمس طريقه ماشيا

كان جيرانهم الأذربيجانيون يسنون أسنانهم لنهب تلك الدولة. ينظرون من بعيد فيسيل لعابهم. أحياناً يأخذون قطعة أرض ، ولكنهم يعيدونها مع جزء آخر غيرها. من قتلوهم أكثر ممن ضحوا بهم. وقتلى الثلوج أكثر من قتلى ساحة الحرب. كثيراً ما هاجم الجورجيون تبريز وما حولها ، وأحرقوها وهدموها. وحاول سادة الغنم الأبيض والغنم الأسود أن يحافظوا على السلام مع هؤلاء القوم. ورضوا بما لديهم ، وكانوا يقولون مالكم لكم ، ومالنا لنا.

وبهذا يغلقون باب الحرب كانوا يدارون بعضهم بعضا

ثم أفل عهد التركمان ، ودخلوا تلك الدولة كما سنرى. لم تترك يد الظلم والتعذيب مكاناً لم تمتد إليه. ولكن جورجيا لم تهاجم. لم تفتح فمها ، وتصك أسنانها إزاء كل هذه الهجمات ، ولم تشبع ألمها حيث هي ، ولم تسمع بخروجها طرفاً.

لم يسألوا ما إن كان إنساناً أو كلباً[128] يعانون من الغم ، ويخرجون منه فوراً

هجم الأمير سليم على هذه الدولة الصعبة بقواته كالسيل. داسوا بحوافر خيلهم الصافية السريعة هذه الدولة الواسعة من أولها إلى آخرها ، وخرجوا. أخذُ أكثر من عشرة آلاف أسير يشير إلى فظاعة الهجمة الطليعية وقدرة سليم.

عندما عادوا ، وزع الأسرى كلهم على الغازين ، ولم يلتزم بالتقليد العثماني الثابت الذي يقضي بحق القائد بخمسهم ، وإدخال هذا الخمس إلى الخزينة. لم يمد يده إلى ذرة من الغنائم. لهذا السبب زاد احترام المحاربين للأمير ، وحبهم له ، وانفعلوا ، وتحمسوا ، ودعوا له بأن يكون مستقبله منيراً ، والسلطنة من نصيبه.

دعا الأمير شجعان الأناضول والروم وقرامان للمثول في حضرته ، وقال لهم:

«منذ أجدادنا القدماء لا تُمنح المواقع في قصرنا سوى للمفيدين ونخبة الأقوياء والشجعان ، وأسمع بأن هذا ما يجعل أهل الولاية والدولة المفيدين يتوجهون إلى جماعة الشيعة ، ويرغبون بأن يكونوا مع تلك الأسرة المالكة. لهذا السبب أردتُ شن هجمة طليعية خاطفة على جورجيا ، وهذا هو هدفي من اصطحابكم. أنا أرعاكم. منذ زمن أجدادي ، وأقدم النصيحة على النحو الآتي:

«عبيدنا الحقيقيون في القصر هم الذين يخدموننا ويفدوننا بدمائهم وأرواحهم ، ويخلصون بصداقتهم لنا. المواقع العليا والأعطيات لهؤلاء الأشخاص. إذا وهب الحق سبحانه وتعالى لعبده الذي هو أنا دولة ، فإن رعايتي ستكون لشجعاني. مجاملاتي الأفضل ستكون من نصيب الأبطال أفضل من يضرب بالسيف. لماذا نمنُّ على عبيدنا ؟ لأنهم عبيد صادقين. يجب أن يُبرز منهم المسلم العادل وصاحب الإيمان الصافي ، والمتدين ، والمعطاء ، ويُرقى. وإلا فليس من علامات السلطنة أن يُعطى الفاشل والخسيس والسافل قيمة ، ويُرفع شأن التافه. لا يجوز أن تشيح الدولة ويشيح الشعب بوجهه عن الشجعان. وأنا عازم على هذا إن شاء الله.

ليذهب كل منكم إلى بلده ، وينقل تصوري هذا ، ونيتي هذه للشهوم والمحاربين والأبطال في ولايته. عليهم أن يتراجعوا عن التوجه نحو الشيعة ، وحبهم ، والانضمام إليهم». وودعهم بعد هذا.

استمع الشهوم إلى هذا ، وتوزعوا في أرجاء الأناضول كلها ، وشرحوا ملحمة سليم الأسطورية ، وغزوته في جورجيا ، وعطائه اللائق بالحكام لهم ، ونواياه الصافية والصادقة. من يسمع هذا يطفح قلبه بمحبة سليم. لفت الأناضول موجة من الحماس الجديد الآن ، وبدأ الشعراء الشعبيون يغنون في المجالس: (امش يا سلطان سليم ، فالعهد عهدك!) لم يكن أتراك الأناضول فقط يريدون أن يهاجم سليمٌ الشاهَ إسماعيل. لقد كلَّ مسلمو خراسان ، وخوارزم ، وإيران ، وأذربيجان ، وملوا من ظلم الصفويين وقمعهم. لأن فساد الشاه إسماعيل ، وتعذيبه حوّل المنطقة إلى خرابة ، وهذا ما جعل المسلمين السنة

وعلماءهم بشكل خاص يتطلعون نحو الديار العثمانية. ويرون الخلاص الوحيد بالمساعدة التي تأتي من هناك ، ويدعون سليماً برسائل وأشعار تثير العواطف. وقد أورد المؤرخ مصطفى جلبي جلال زادة في كتابه شِعر عالم يدعى أمين بهذا المعنى كمثال على هذا الطرح:

يا سلطان عرش الخلافة! يا قمر سماء العدالة!

يا قائد دولة الكرم العام! يا مركز ديار الشهامة!

يا سلطان عالم الدين ، وسلطان العهد ابن السلطان!

فرح الناس واستبشروا بمجيئك إلى هذا العالم المزركش.

اكتفى المتقون براحة الأمل حين قرع طبل البشارة في العالم.

ملجأ الدين السلطان سليم خان كلؤلؤة بين طرفي صدفة العالم.

ضع المسلمين على الطريق الصحيح ، واتبع أوامر الإسلام ورسوله!

لتعلم أنك عادل ، وليكن الخلفاء الأربعة أحباءك.

مئة أَمَة وحاتم وأنو شروان معجبون بعدالتك وكرمك.

اعلم أن النصر والفتح لديك هي قدرة الحق ، وليس عمل العبد.

يا سلطان السلاطين أشكو إليك حالي ، تلطف ولبِّ طلبي.

أيد عدالتك ، أوصل عدالتك إليّ.

أنا عبد أهل السنة النظيف المواظب على علوم الدين ومدارسها.

لهذا السبب جافاني أصحاب البدع ، وطاردوني بسيف الحقد.

لم يطلني وحدي هذا البلاء والجفاء والظلم والمصائب.

كل أهل السنة رأوا هذا الظلم والتعذيب من أهل البدعة.

العالم والإنسان في هذه الدنيا يعلّق الأمل عليك.

اسحب جناح الكفر ، واكسره ، وأصلح دولة الإسلام بسرعة.

أهل خراسان ينتظرونك ، أسس سلطنة في خراسان أيضاً.

وكما تحب روحك بشرتك ، يحبك العراقيون.

سلاطين ما وراء النهر وفقراؤه يدعون لك دائماً.

أطال الله عمر سلطنتك ، وليئن عدوك ، ويطأطئ.

تعال بالدولة والنصر ، وابذل جهدك لإزالة الكفر.

أنقذ المسلمين من الحزن والهم والبدع والحداد.

تلطف بالدواء للمرضى ، وبلسم مَنْ يئن هماً.

لأنك أمل العالم وأهل الدين.

يا صاحب المظهر السعيد ، تحية لك من هذا العاجز.

فرّق مجلس النمامين على صحابة الرسول.

عندما يرون رأس رمحك ، سيبحثون عن جحر يختبئون فيه.

تعال ونوّر العالم بنور عدالتك... 129.

الإجراءات الاحتياطية التي اتخذها سليم

في الحقيقة أن الأحداث التي بدأت بجلوس سليم خان على العرش بتاريخ 24 نيسان/أبريل 1512 تشير بوضوح إلى أن زمن المحاسبة النهائية بين هاتين الدولتين قد حل. بعد أن استفاد الشاه إسماعيل من الصراع الناجم بين الأمراء في سنوات عهد بيازيد خان الثاني الأخيرة ، وتسبب بمقتل آلاف البشر نتيجة الفوضى التي سببها ، استمر بتحريضه بعد جلوس سليم على العرش أيضاً.

لم يرسل سفيراً لتهنئة سليم بجلوسه على العرش ، وبهذا أشار بوضوح إلى عدم امتنانه من هذا التغيير. وكان مراد ابن الأمير أحمد قد لجأ إلى الشاه إسماعيل عندما قضى سليم خان على أخويه ، فأعلنه الشاه الوارث الوحيد للعرش العثماني ، وبهذا تدخل مباشرة بالشؤون العثمانية الداخلية.

هذه التطورات كلها تضغط على سليم من أجل أن يتحرك بأسرع وقت ممكن. ولكن سليماً أراد أن يعطي الأولوية لقطع العلاقة التي قويت كثيراً بين الشيعة والصفويين ، ويُنزل ضربة قوية بشيعة الأناضول. لهذا السبب كلف علماء زمانه بالشرح للناس أن أهل السنة يرفضون المذهب الشيعي[130].

كانت غالبية الفتاوى والرسائل التي كتبها العلماء السنة بهذا الخصوص تبرز إلى حد ما أهمية هذه القضية. الفتاوى والرسائل التي قدمها مولانا حمزة أفندي نور الدين غورز الأصفر وكمال باشا زادة مهمة جداً على صعيد تقديم الفكر العثماني.

تناول حمزة أفندي فتواه باختصار على النحو الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم وهو المعين.

الحمد لله تعالى الذي يعين عباده ، ويقهر أعداءه. الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد عليه السلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها المسلمون! اسمعوا وعوا أن رئيس الرافضة أعداء الصحابة الكرام هو الشاه

إسماعيل أردبيل أوغلو. لا تعجبهم شريعة سيدنا الرسول وسنته. يسخرون من القرآن الكريم. يحللون ما حرمه الله تعالى. يستخفون بالقرآن الكريم والكتب الدينية الأخرى ، ويحرقونها. يقتلون العلماء والصالحين. يشتمون سادتنا أبو بكر وعمر ، وينكرون خلافتهما. ويفترون على أمنا السيدة عائشة ، ويطلقون عنها الكلام القبيح. إنهم يسعون لهدم الإسلام.

هناك كثير من العقائد والحركات الفاسدة المنحرفة عن الإسلام ، وهي معروفة لي شخصياً ، ولبقية العلماء بشكل صريح وواضح. إن تصرفاتهم هذه التي يظهرونها تجعلهم ملحدين بحسب أحكام ديننا وكتبنا. وكل من يعجب بدينهم الباطل ويقبل به يعتبر ملحداً. قتل هؤلاء ، وتشتيت جماعتهم واجب على المسلمين جميعاً ، وفرض. ومن يُقتل في سبيل هذا من المسلمين سيكون سعيداً وشهيداً مثواه الجنة. ومن يُقتل منهم سيكون تافهاً وحقيراً في قعر جهنم. وحالهم ستكون أسوأ من حال الكفار.

يا رب! أعن من يعين دينك. واخسف من يثير الفتنة بين المسلمين»131.

وفي فتوى كمال باشا زادة يبرز أن الحرب ضد الشاه إسماعيل وجنوده مثل الحرب مع أعداء الدين ، ويعد جهاداً. وعموماً فإن قتل الشيعة جائز ، وأموالهم حلال علينا ، وزواجهم باطل132.

إثر كتابة هذه الفتاوى ، قرر سليم خان أن يُنزل ضربة بشيعة وسط الأناضول وجنوبه الذين يحدثون الفوضى منذ عهد والده قبل أن يتحرك ضد الشاه إسماعيل. لأنه من الواضح أنه لن يستطيع التحرك ضد الشاه طالما لم يتم إبعاد هذا الخطر من داخل البلد. من الممكن لهؤلاء أن يتمردوا خلف الجبهة أثناء الحرب ، وفي هذه الحال ستكون هناك هزيمة من الصعب تصور نتائجها.

إثر هذا القرار أبلغ قضاة الأناضول أوامر بأن تدوّن أسماء المتورطين بأعمال الشيعة فرادى ، وترسل. ونتيجة التحقيق والتدقيق أوقف زعيمهم ، وقتل بعضهم ، وسجن أو نفي آخرون. ويروى أن عدد المعاقبين هؤلاء بلغ أربعين ألفاً133.

فيما بعد اعتبر بعض الكتاب أن سليم خان ارتكب مجزرة في الأناضول، وقتل حوالي أربعين ألف شيعي، وانتقدوه كثيراً. ولكن كثيراً من الكتب التي تروي حملة تشالدران والمعركة مع الصفويين، والمكتوبة في عهد سليم الجبار، لا تورد أي معلومة حول ارتكاب مجزرة واسعة النطاق كهذه. يقدم فاروق سومر — المعروف بدراساته القيّمة حول دور أتراك الأناضول بتأسيس الدولة الصفوية وتطورها — المطالعة الآتية في هذا الموضوع:

«من المؤكد أن كلام المؤرخين العثمانيين الذي يتحدث بأن سليم الجبار قتل قسماً من الشيعة وسجن قسماً آخر قبل خروجه في حملته الشهيرة فيه مبالغة. قتل هذا العدد الكبير من الناس وسجنهم يسبب مشكلة كبرى. وبحسب وثائق الأرشيف اللاحقة، فإن الناشطين من بين هؤلاء قد قتلوا، أو سجنوا، أو أرسلوا إلى المنفى»134.

ويبين جين لويس باكو غرامونت الذي قدم أبحاثاً مستفيضة حول صراع سليم الجبار مع الصفويين بأنه لا يوجد أي دليل يشير إلى قتل السلطان أربعين ألف شيعي بالسيف135.

أخيراً، في الأبحاث المعتمدة على دفاتر سندات التمليك وتحرير الملكيات باعتبارها أهم مصادر البحث الديموغرافي في التاريخ العثماني لا يلاحظ أي دليل على نقص بعدد السكان كهذا. إذا وضعنا بعين الاعتبار أن عدد سكان مدن كبيرة مثل سيواس وطوقاط يبلغ ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف في مطلع القرن السادس عشر، فذلك الرقم يعني إزالة ثماني أو عشر مدن عن الوجود136.

الباحث المهم وله أعمال قيّمة في قضية الواردات السيد إرهان أفيونجو أيضاً يبين بأن القرية تتألف في تلك الفترة من عشر إلى خمسين خانة، ولكي يقتل أربعين ألف شخص يجب إزالة ألف إلى ألفي قرية، ولم يكن في الأناضول نقصاً كهذا بعدد السكان، ويبين جباة الضرائب العثمانيين بأنه لم يحدث وضع كهذا137.

بالنتيجة ، إن الأرقام التي تبرزها بعض المصادر حول تحديد سليم خان الشيعة المشاركين بالأحداث والمتمردين ومعاقبتهم فيها مبالغة كبيرة جداً.

من جهة أخرى فإن إرسال سليم خان أوامر للقضاة بتحديد المسؤولين عن الأحداث ، وتسجيلهم في الدفاتر قبل أن يقوم بعمله هذا أفضل دليل على أنه نفذ العقوبات والتحقيقات ضمن إطار القواعد القانونية. غير هذا فإن هدفه الأساسي من فتاوى العلماء ورسائلهم هو حماية شعب الأناضول من التوجه نحو الصفويين ، وعدم تخريب وحدة الدولة والأمة.

وفي الوقت نفسه يتفق الباحثون العثمانيون الجديون على أن المسؤول الأول عن قيام سليم خان بعمليته هو الشاه إسماعيل الذي أوصل الأناضول إلى عتبة الانقسام عن طريق «الداعين» الذين أرسلهم ، فتسببوا بموت عشرات آلاف الأبرياء ، وهناك مسؤولون كثيرون في الدولة وعلى رأسهم الصدر الأعظم[138]. وبالفعل فقد قدم المؤرخ صاحب الأبحاث القيّمة في التاريخ العثماني السيد إسماعيل حقي أوزون تشارشي طرحاً ملفتاً في تلخيصه لهذا الموضوع:

«مصدرو الأحكام دون اعتماد الوثائق التاريخية والتدقيق فيها يعتبرون أن السلطان سليم الجبار بعد أن أصبح حاكماً ، وحل قضية أخويه الأميرين ، وقبل أن يحارب الشاه إسماعيل قد أعدم أو سجن أربعين ألفاً من الشيعة دون سبب ، ويدينونه. ولكننا إذا أخذنا الوثائق التاريخية بعين الاعتبار ، سنجد أن سلطان السلاطين قد تحرك بشكل غاية في الصواب ، وأنه أراد أن يزيل تأثير الخطر الكامن وراء الجيش أثناء توجهه لقتال الشاه إسماعيل صاحب الدور الأساسي بهذه الأحداث»[139].

الحركة من أدرنة

وضَّح السلطان سليم خان أفكار الشاه إسماعيل وأنصاره لشعب الأناضول عبر الفتاوى والرسائل التي كتبها العلماء ، وبث الرعب بينهم في الوقت نفسه. والآن حان

الوقت من أجل إنزال ضربة قوية على الشاه.

لهذا الهدف جمع الديوان في أدرنة فوراً. عدد ما قام به الشاه إسماعيل بالتفصيل ، وأبلغ عبر هذا الكلمات بأنه يريد أن يقضي عليه:

«كنت قريباً منهم أثناء جلوسي على عرش طرابظون ، وعرفت وضعهم. لو أعطاهم الزمن الفرصة ، وساعد دولتهم فإنهم سيزيلون الإسلام كأسلوب ونظام عن سطح الأرض ، ويبعدون المؤمنين بالحق. سيتركون دين محمد الشديد الوضوح ، وسيدخلون طريقاً أسوأ من طريق الكفر.

دين الكفار المنحرف جلي. ذنب الكفار هو الشرك فقط ، أما هدف هؤلاء فهو تدنيس أبناء هذا الدين الصافي.

ذنب الكفار الأكبر هو إنكار الرسول سيد العالمين ، ولكن هؤلاء يعادون رفيق الرسول في الغار ، وشركاء همه من الصحابة الكبار.

ذنب الكفار هو مخالفة القرآن الكريم ، ولكن هدف هؤلاء هو مخالفة الدين كله الذي هو دين السعادة. أعمق رغبة للكافرين هي نشر أحكام الإنجيل ، ولكن هدف هؤلاء الأكبر هو تخريب مبادئ القرآن. أمل الكفار هو رعاية الصليب ، ورغبتهم هي تخريب دين رسولنا الحبيب ، والاستخفاف به. بما أن هؤلاء لا يدخلون الطريق الصواب ، ويعلنون التوبة ويستمرون بإحداث الفوضى وبث الفتنة ، يجب علينا شن حملة ضدهم»140.

إثر كلام سليم خان هذا طلب بعض الوزراء التفكير ، وعدم إصدار قرار مستعجل بعمل كبير كهذا ، وطلبوا الإذن من أجل إجراء الاستعدادات اللازمة بموجب القانون القديم. ولكن السلطان سليم يعلم أن التأخير يعطي العدو فرصة ، والتهاون بالأمر سيولد نتائج خطيرة جداً. لذلك فرض ثقله بشكل حاسم ، ولم يعد لأحد القوة أو الجرأة لقول شيء عندما قال هذا:

ليست كلام منزل من السماء	القانون والقواعد والسبل هذه
ولا تخالف ما يشاع هنا وهناك	ولا تخالف سنة رسول الله
لا شك أنه بناء على قانونه	كل فعل للشاه في عهده
البحر والبر والصحراء تمرد	إنه زمن تمرد وقانونه تمرد
لم يعد يفيد طرق ما مضى[141]	كل زمن يفرض شكلاً

أبلغ سادة الأناضول وروملي وسناجقها والقضاة المحليين وكل من يهمهم الأمر بالاستعداد للحملة. وأخيراً انتهت الاستعدادات يوم الثلاثاء بتاريخ 21 آذار/مارس 1514[142] وانطلق الجيش من أدرنة[143].

نزل رجال الدين والمتصوفون ، والأغنياء والفقراء ، الشباب والشياب وعموم أهل أدرنة في ذلك اليوم إلى الطرق لوداع سليم خان والجيش ، والدعاء لهم.

أنت منصور أيها المصطفى

وناصرك هو الدين المبين

رفعنا الراية لأجل الصحابة

صحابة محمد المصطفى

نَصَرك الهدى وخلّد ذكرك

حمى الله نظامك من الأخطاء

أعزك الله وسرك في دولتك

ولتفرح بفتوحاتك وانتصاراتك

انشر العدل ولتحكم العالم

وبلاد العجم كلها والروم [العثمانيين]144

وصل سليم خان إلى أمام إسطنبول في 31 آذار/مارس بعد أن وُدِّع بالدعاء. ونزل في خيمته السلطانية المنصوبة في موقع فيلتشايرِ قرب أيوب سلطان. الخيام البيض فوق العشب الأخضر تشبه أشجاراً مزهرة.

أثناء إقامته في فيلتشايرِ زار قبور حضرة أبي أيوب الأنصاري وجده الفاتح ووالده بيازيد خان الثاني عدة مرات، وذبح القرابين، ووزع كثيراً من الصدقات على الفقراء. كان يستدعي علماء الدين أحياناً، ويستمع لآرائهم وأفكارهم. أصدر أمراً باستدعاء الأمير سليمان والي صاروخان إلى أدرنة لتكليفه بحماية روملي. وفي هذه الأثناء كانت الوحدات الروملية تعبر بشكل مستمر إلى الطرف الأناضولي من ميناء غليبولو.

والوحدات المرافقة لسليم أيضاً تنقل عتادها وأحمالها من ميناءَي أيوب وكاغتهانة إلى شاطئ أسكودار. وأخيراً تحرك سليم خان أيضاً إلى أسكودار يوم الخميس المصادف 20 نيسان/أبريل. كان الرقباء والعرفاء على صهوات جيادهم الأصيلة يهتفون لسليم خان وهو يتقدم نحو سفينته القادس برفقة التصفيق: «يا من حركك الله».

رفعت الأعلام العثمانية المظفرة، وبدأت تقرع الطبول الكبيرة والصغيرة لسلطان السلاطين بشكل خاص. أطلق الإنكشاريون بنادقهم، وأحدثوا صخباً في المنطقة كلها.

وأهل إسطنبول المتحمسون نتيجة فتاوى علماء الدين السنة بشكل خاص ملأوا أيوب، وغطت زوارقهم الخليج لكي يتمكنوا من رؤية سليم خان وهو ذاهب في الحملة. وعندما يحيّي سليم الذين يحيطون به تحية تحمل حسن المجاملة، ترتفع أدعيتهم وتمنياتهم له بالنصر.

مع ركوب سليم خان سفينته القادس، وتحركه بدأت تطلق المدفعية من السفن

الحربية الممتدة من أسوار إسطنبول إلى غلاطة، وصولاً إلى بشكطاش كالرعد والبرق. امتلأ كل مكان بالدخان والغيم.

بعد أن انتقل سليم إلى جهة أسكودار، ذهب إلى مقر قيادة الجيش المؤسسة في مالتبة. وهناك عيّن سنان باشا المخصي سيد سنجق البوسنة سيد سادة الأناضول.

استدعى الدفتر دار الأكبر بير محمد جلبي للمثول بين يديه، وحدثه حول الدعم اللوجستي للحملة. وعبر له عن قلقه بالقول: «أعاننا الله تعالى وأيدنا بمعجزات سيدنا الرسول المحمود لأنني دخلت بعمل صعب. آمل أن يخرج الشاه إسماعيل إلى الساحة، ويحاربنا عندما نخرج من مدن الروم المتطرفة، وندخل بلاد العجم. يمكن أن يخاف، وينسحب إلى الخلف. إذا لاحقناه كما يمليه علينا شرف السلطنة، خطر ببالي بأننا يمكن أن نعاني من نقص طعام الجنود وشرابهم وملبسهم». وقد اتخذت مختلف الاحتياطات في هذا الموضوع.

انطلق الجيش من المقر العام في مالتبة، وعبر منازل رابية تكفور، وغبزة، وهركة، وتشنارلِ، ووصل إلى إزميت في 23 نيسان/أبريل. ومن هنا كتبت أولى الرسائل للشاه إسماعيل.

في الرسالة التي كتبها جعفر تشلبي تاج زادة النيشانجي، وتقدم كنموذج على فن التعبير والإنشاء العثماني يخاطب سليم خان الشاه إسماعيل على النحو الآتي:

أزيل اسمك ووسمك!

«يقول الله تعالى ملك الملك العليم بكل شيء: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ... }، {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

هذه الرسالة أمر من ملجأ المسلمين الكبير قاتل المشركين والكفار، وقاهر أعداء الدين، ومسوي أبراجهم وممرغ أنوفهم بالأرض، خوذة السلاطين، وسلطان الغازين

والمجاهدين صاحب عدالة كيخسرو السلطان سليم خان ابن السلطان بيازيد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد الجارح كالإسكندر ، والشريف كفريدون إلى إسماعيل.

كل شيء بأمر الله. السلطان والسلطنة ذريعة فارغة. علّم جناب الحق عباده بواسطة الأنبياء سادة العالمين التمييز بين الخير والشر. في عهودهم لمعت العدالة والحقيقة في العالم. بعد ذلك يختار منهم وبناء على رغبته من يطبق القانون بيده. يحمي من الآفات والكفر والبدعة وكل أنواع الانحراف ، ويجلب إلى الطريق الصحيح بالسيف كل من يخرج عنه.

لقد سلبتَ إماراتِ دولٍ تسير على الحق ، وتجاوزتَ حدودك بهذا وفق مقولة: (إذا غاب الأسد ، ظنت الفئران أنها ملوك الغابة) فتحت باب الظلم والأذية في وجوه المسلمين. وجُبلت بكل أنواع الزندقة والإلحاد. ورفرفت بأعلام ظلمك في سماء الشاهية والحكم. تبعت هواك ، وخدعت برغباتك الطبيعية ، وقطعت روابطك بالشريعة. وأخذت على عاتقك قضية هدم عقيدة الشعب النظيفة. لقد وَصَلنا بالتواتر أنك حلّلت الزنا ، وسفكت الدماء دون وجه حق ، وهدمت المساجد والمآذن ، وأحرقت القبور والمزارات ، واستخففت بالعلماء ، وأهنتهم ، ورميت المصاحف بين القاذورات ، وشتمت الشيخين الكريمين.

أفتى علماء الدين أدلاؤنا وقادتنا بأنك ومن معك ومن تبعك قد خرجت عن الدين ، ووقعت في الكفر.

وهكذا وقع على عاتقنا الدفاع عن الدين ، ومساعدة المظلومين ، وإنقاذ الذين في خطر ، وشرف السلطان هو التزام بالأوامر الإلهية. لهذا السبب ارتديت قميصاً من الفولاذ درعاً بدلاً من قميص قماشي وحريري. ورفعت رايات النصر بعون جناب الحق وتوفيقه. تحرك الجنودُ المعتادون على النصر سباع ساحات الحروب ، والشجعان طعانو الخناجر. وأمرتُ بعبور البحر الذي سينتهي بالنصر والخير في شهر صفر.

إذا أعاننا الخالق العزيز الكريم ، سأرفع يد ظلمك بيدي يد الدولة. سنزيل شرورك

ومساوءك وفوضاك عن المساكين العاجزين. سننقذ تلك البيوت من نار كارثتك. ويقول المثل من يزرع الريح يجني العاصفة.

من مبادئ رسولنا العظيم محمد المصطفى عرض الإسلام قبل السيف. وكتبت هذه الرسالة لهذا الهدف.

لا شك أن الناس مختلفون بطبيعتهم. النفس جوهر ، ومنها ذهب ومنها فضة. العادات السيئة بالنسبة إلى البعض طبع ، ومن غير الممكن تغيير الطبع. يقال: (الزنجي لا يبيض بالغسيل). بعض السلوكيات ناجمة من تموجات الشهوة ، وكبح المشاعر أو تركها على عواهنها. والقضاء عليها ممكن.

فإذا ذكرت الله ، وتوسلت العفو عن ذنوبك ، يوجهك الله تعالى إلى طريق الجماعة ، وتتمسك به ، وتندم على عمل السوء والمعصية والسير في طريق السوء ، وتتوب من كل قلبك وتستغفر.

حينئذ سيكون هناك احتمال ترك الدخول من باب المناطق والأقاليم وعدم وطئها بأقدام جيشنا المظفر وبنعال خيولنا من كل جانب.

لا يفيد القول فيما بعد لم أكن أعرف ، وخُدعت. سيكون الأمر حينئذ صعباً. وقع على عاتقنا المجيء مع جندنا ، والدخول إلى بلدك ، وإشعال النار فوق رأسك. أنت وأمثالك فخر لهم أن يأتوا ويمرغوا وجوههم على عتبتي. اعمل ما قلته لك بأسرع ما يمكن. وإلا فإن عذرك لن يقبل فيما بعد. إذا أردت أن تواجه ، فتعال إلى الميدان. وليقدِّر الله ما شاء. ارفع ظلمك عن المظلومين ، وإلا سأزيل اسمك ووسمك وكأنك لم تأتِ إلى هذه الدنيا»145.

أُرْسِلَت هذه الرسالة مع أحد قادة الشيعة المدعو قلتش ، وكان قد قبض عليه وهو يعمل داعية شيعية إلى الشاه إسماعيل.

المتسول أصبح غنياً

وصلوا إلى سهل يني شهير يوم الثلاثاء في 24 نيسان/أبريل 1514. وانضم هنا إلى الجيش جند روملي الذين عبروا من غليبولو مع سيد سادة روملي حسن باشا.

في 2 أيار/مايو حطوا الرحال بجوار تربة سيد غازي قرب كوتاهية. يعرف جلال زادة هذا المكان بأنه مركز النور الإلهي، وبيت الأسرار غير المتناهية، ومنبع المغفرة[146]. بعد أن زار سليم خان تربة حضرة سيد غازي، وزرع آلاف الصدقات للقائمين على خدمة تكيته والفقراء.

أثناء وجوده في موقع أورفت أوزو، أرسل الوزير أحمد باشا دوقاكين أوغلو بقواته المؤلفة من عشرين ألف فارس مرتبطين بالأعطيات إلى سيواس.

كان يسير كل يوم إلى نُزل حتى وصل إلى نواحي قونية، ونصب الخيمة السلطانية في مكان يدعى فيلاباد.

يقول جلال زادة عن هذا المكان مادحاً إنه خيمة السلطان، ومقام الولاية، وموقع الهداية، وقائد الحكماء، ومكان النظافة المعنوية، ومركز ارتباط الطيبين، وبيت مولانا جلال الدين الرومي المنير مصدر البركة صاحب المثنويات[147].

زار سلطان السلاطين قبور العظماء مثل مولانا جلال الدين الرومي، وشمس التبريزي، وصدر الدين قونوي، واغتنم فرصة الدعاء متوسلاً أرواحهم. وأوصل لفقراء المدينة شيئاً من كرمه احتراماً لهؤلاء الأنقياء. أصبح الفقراء والمتسولون أغنياء. أُنعم بمئة فضية على كل من الفرسان المرتبطين بالأعطيات.

عندما وصل إلى قيصري دخل بمفاوضات مع علاء الدولة بوظقورت بيك دوالقادر أوغلو. قال له في الرسالة التي أرسلها:

«يفرض علينا الانتماء إلى مذهب واحد أن ترافق سلطان السلاطين المتقلد سيف الجهاد للنزول فوق رأس أهل البدعة وقطع عرق الفساد».

لا تتأخر ساعة إن كنت شهماً　　　إذا كنت مع المسلمين وهمك همهم

وشارك بحسن الإسلام معنا[148]　　　تعال وضع روحك معنا في الطريق

أما علاء الدولة بيك ، فرد سلباً على هذه الدعوة بذريعة التقدم بالسن قائلاً: «إنه في الأربعينات من عمره. أما أنا في التسعين من عمري». ولكن يفهم أن السبب الحقيقي هو اتخاذ علاء الدولة موقفاً سياسياً مؤيداً للماليك ضد العثمانيين بسبب لجوء علي بيك شهسوار أوغلو إلى العثمانيين في عهد بيازيد الثاني ، والآن يشارك في المعركة مع سليم.

في هذه الأثناء ، بدأ يظهر شح في مؤن الجيش. فحسب سليم خان أن الانشغال بمقاطعة دوالقادر سيفقده زمناً ، وأن الأنسب ترك ما يفكر فيه نحو علاء الدولة إلى ما بعد. وتابع طريقه إلى سيواس.

تفقد جيشه أثناء وجوده هنا. نتيجة الانضمام إليه في كل منزل ، فقد أصبح تعداد الجيش مائة وأربعين ألفاً ، وخمسة آلاف طباخ ورجل إمداد.

بعد التفقد ، فصل سليم خان قوة مؤلفة من أربعين ألف رجل بقيادة إسكندر باشا ، وجعلها تتمترس ما بين قيصري وسيواس للحيولة دون أي تمرد شيعي محتمل.

وستمسك هذه القوة في الوقت نفسه خط الرجعة في حال حدوث هزيمة. من المحتمل أن السلطان سليم خان قد تصرف هذا التصرف ليحول دون الخوف من خوض المعركة عندما يرون كثرة جيش الشاه إسماعيل.

غير هذا ستعمل هذه الوحدات على تأمين المؤن والتبن إذا حدث شح بها نتيجة التخريب الذي قام به محمد خان أوسطاجالو أوغلو. لأن أوسطاجالو أوغلو منذ لحظة سماعه بتحرك الجيش التركي ، سحب أهل المنطقة من سيواس إلى مناطق داخلية أبعد ، وأحرق كل ما تبقى خلفهم[149].

لم يُستطع تأمين الطعام سوى من تلك المؤن التي تجلب على ظهور البغال من

طرابظون. ولحل هذه المشكلة أرسل سليم خان ممثلاً إلى ميرزا تشوبوق من السادة الجورجيين الذين يحكمون مناطق أردهان ، وأولطو ، وإسبر ، وطلب مؤناً.

الرسائل المتبادلة

بتحرك سليم خان من سيواس ، تنتهي الأراضي العثمانية ، ويعبر الحدود الأذربيجانية. ليس ثمة خبر أو أثر من العدو حتى تلك اللحظة. إثر هذا أرسل رسالة أخرى إلى إسماعيل. ولم يخشَ سليم خان من إبلاغه بوجود قوة احتياطية بين قيصري وسيواس ، وقد جاء في الرسالة باختصار:

«الشهم إسماعيل!

عندما يصلك هذا الأمر الذي يجب أن تلتزم به ، فاعلم أنه حل وقت إزالتك بالخناجر والسهام باعتبارك مصدر السوء والفتنة بطبيعتك ، ولأنك تنشط من أجل تمزيق ستارة الإسلام. وهذا الأمر واجب على المسلمين جميعاً بشكل عام ، وعلى السلاطين بشكل خاص. وقد أصدر العلماء فتوى بهذا الشأن.

لهذا السبب فقد توجهنا بتوجه مهيب بجنود لا يحصى عددهم إلى دولتك الشرقية لصيد العدو ، وإحياء دين سيدنا محمد النظيف.

عند عبورنا البحر أرسلنا رسالة تحظى بالإعجاب ، وقلنا فيها بأن المناطق التي تشهد الظلم والقمع تحت حكمك ستكون قريباً سعيدة في ظل سلطاني. وأمرت قائلاً:)إذا كنت شجاعاً ، فتعال إلى الميدان. وليظهر جلياً من يسير في طريق الحق سبحانه وتعالى ، ويلتزم بأوامره(.

كان هدفي من هذا إبلاغك قبل عدة أشهر من أجل أن تتخذ استعداداتك ، وهذا لكي لا تتذرع بالقول: (أخذت على حين غرة ، لم يتح لي الوقت لجمع الجنود).

ولكن زمناً طويلاً مر بحيث أن الأرض غُطيت بالحديد لكثرة حدوات الخيل

المتساقطة ، وصمت آذان الدنيا من قرقعة مقاودها. وأخيراً دخلنا أذربيجان التي تشبه السماء ، وأصبحت سماء مزينة بحدوات خيولنا وأهلّة راياتنا ، ولكن لم يصدر عنك صوت ، أو يُرى لك أثر. لقد اختبأت بشكل أصبح وجودك من عدمه واحد.

يجب على أصحاب القضية أن يحملوا السيف وألا يختبئوا من البلاء ، بل يواجهونه ، ومن يتوق للقيادة العامة عليه ألا يخاف من جرح الرمح أو السيف. إذا احتضن أحدهم عروس السلطنة ، فهذا يفرض تقبيل حد السيف البارق.

من الخطأ إطلاق اسم شهم على من يجلس مختبئاً خلف ستارة نتيجة خوفه على سلامته. لا يليق بمن يهاب الموت أن يركب الخيل ، ويتقلد السيف. من المحتمل أن يكون اختباؤك إلى هذه الدرجة ، وانزواؤك في زاوية ساكنة إلى هذه الدرجة هو الخوف والقلق من كثرة جندي الذين لا يمكنك أن تواجههم.

من أجل أن أخفف عنك هذا الخوف فقد فصلت أربعين ألف جندي من جيشي دليل النصر ، وتركتهم ما بين قيصري وسيواس.

لا يمكن أن تعطى فرصة أكبر من هذه للعدو من أجل أن يتحرك بحصانه ، ويجد ساحة خاوية. لا يوجد أكثر من هذا. إذا كان في جوهرك أي نوع أو أثر للشهامة ، تعال واجه جنودي الباحثين عن نصر.

ما كتب منذ الأزل سيظهر ذات يوم. ليكن السلام لمن يسير في طريق الصواب إن شاء الله!»[150].

لم يهمل سليم خان اتخاذ الاحتياطات إزاء أي هجوم مفاجئ عند وداعه أرض الأناضول ، ودخوله أرض العدو. ولكي يكون الجيش مستعداً لخوض المعركة في كل لحظة ، أمر أمير العتاد بتوزيع أدوات الحرب. أخرجت الدروع اللائقة بالأبطال الضخام الأقوياء ، والقمصان الفولاذية ، والقفطانات المذهبة ، والأقواس ذات المقابض الذهبية ، والرماح التي تلمع كالبرق ، والسيوف الرومية والهندية ، والبلطات ، والهراوات ، والتروس البارقة

كالشمس ، والتيجان اللائقة بالسلاطين ، وآلات الحرب الأخرى ، ووُزعت.

فجأة امتلأ مقر القيادة برجال مقدامين مهابين يفرضون احترامهم ، ضخام الهيئة ذوي هيبة كالأسود ، ويلتفون بألبسة جميلة متنوعة وملونة.

كأن بدن كل جندي من الحديد ، ويديه آلة تكسر الخصم وتسقطه ، وأرواحهم كالطيور متوفزة للطيران في كل لحظة في سبيل الله ، وشهوم كالسيوف المجردة151.

يوم الخميس في 13 تموز يوليو وصلوا إلى نزل آقتبة مقابل كماه ، فجاء القائم مقام أرزنجان ، وعبر عن طاعته لسليم ، وقال راجياً:

«لقد تم تحضير المؤن من أجلكم. لنجلبها ، ونقدمها لحضرتكم. يكفينا ألا يؤذينا عسكركم».

قال سليم خان: «أعطي الأمان لأهل المدينة بالشروط المقدمة ، ولا تؤذى البلد». وعين هناك حراساً.

حين وصل الجيش إلى ربوة حسن بيه في ياصّة تشمان التابعة إلى أرزنجان (18 تموز/يوليو) جاء أقاي بفي شاه قولو رسول الشاه إسماعيل إلى مقر القيادة برسالة إلى سليم خان ، وقدم له صندوقاً ذهبياً مليئاً بالأفيون.

يقول الشاه إسماعيل في رسالته:

«إلى السلطان سليم شاه ؛

وصلت رسائلك. كان مسيرنا في زمن والدك أسكنه الله فسيح جنانه بسبب صفاقة علاء الدولة دوالقادر. ولم يُر من أحد الطرفين سوى الصداقة والتعاون. كانت غالبية سكان تلك البلدان غالين على أجدادنا.

وهناك ود بين العائلتين المالكتين منذ القدم. لم نكن نرغب بحدوث صراع كما

حدث في زمن تيمور.

لا ضرورة للكلام غير اللائق. كل هذه الكلمات تلفيق من بنات عقول الكتاب. إنها كلمات نابعة من دماغ سكران بالأفيون.

لهذا السبب أرسل عبوة ذهبية ممهورة بمهرنا مع شاه قولو آغا.

أنا أصيد في نواحي أصفهان الآن. كتبنا هذا الرد بود فوراً. وبدأنا بالاستعداد لمواجهتكم. نحن لا نخاف أحداً.

رغبتك هذه جربها كثيرون.

من يحارب أبناء علي محكوم عليه بالزوال.

إذا كان الأمر سينتهي بالحرب ، فلا ضرورة لتأخير الأمر. ولكن يجب التفكير بنهايته أيضاً. والسلام»[152].

شعر سليم خان بالضيق من رسالة الشاه ، ومن حركات الرسول ، والهدية التي قدمها ، وتأثر كثيراً ، فأمر بقتل الرسول فوراً[153].

من جهة أخرى يفهم من فرماناته التي أرسلها لقائم مقامات البلدان وحكامها أن الشاه إسماعيل في أصفهان ، وقد استكمل استعداداته بسرعة. في الأماكن التي مر فيها عبد الله آغا المرسل إلى أذربيجان ، هناك فرمان بعنوان «وعدنا للبطل أبو المظفر إسماعيل» تؤكد على هذا الأمر.

يصف شكري البتليسي الثقة بالنفس أثناء استعراضه ألوية الجيش العظيم بهذه الكلمات:

أنا أسد يشق صفوف العدو	قال إسماعيل بن حيدر
صدق لم أتراجع أمام أحد	مقاتل أسد في الميدان

وضممت غيلان بالحرب	أخذت مُلك خراسان بجلاء
رأوا سيف مجاهديَّ الحاد	لم تبق لورستان أو شيروان
ولا شك بهذا لدى الكائنات	وصلت حتى ضفة الفرات
صاحب العقل لا يعاديني	المناطق الثلاث أحكمها
لا أتعذب يا لسعادتي وزهوتي[154]	لو لم يأت لكنت ذهبت أنا

لا فرق بين موتك أو عيشك

معاناة الجنود العثمانيين لقطعهم مسافة طويلة في أرض قاحلة ، قدمت لمعارضي الحرب ضد الشاه إسماعيل الفرصة التي ينتظرونها. بدأ هؤلاء بتحريض الجنود تدريجياً. أما سليم خان فقد قسَّم المسافة بين أرزنجان وتبريز مركز الصفويين إلى أربعين مرحلة ، فزاد القلق تحركه ، وثباته على موقفه. رأى الوزراء وبعض سادة السناجق أن التقدم في أرض الصفويين ليست لصالحهم ، ولكنهم يخشون قول هذا. تذرعوا بقلق الجنود ، وأقنعوا همدم باشا سيد سادة قرامان بالذهاب إلى سليم خان ليشرح محاذير التقدم أكثر.

كان همدم باشا رجل دولة عظيم تربى في مدرسة القصر. وهو وزير عظيم أيضاً حظي بتقدير سلطان السلاطين بخدمته في واقعة أحمد. يستمع إلى كلامه وأفكاره بتسامح ، وتلقى القبول في أغلب الأحيان. لهذا السبب اختاره رجال الدولة من أجل أن يكون وسيطاً بشرح هذه القضية الخطيرة لسليم خان ، ومحذراً.

وَثِقَ همدم باشا بمحبة سليم خان له ، وأثناء لحظة سعادة ومرح في أحد الاجتماعات ، اشتكى من موقف الجنود وأحاديثهم.

قال: «هؤلاء حزانى من التجوال في منعرجات طرق إيران ، وأنهك تعب الطريق قوة مقاومتهم». ثم ضرب مثالاً من جده السلطان محمد الفاتح ، عندما انتصر على حسن

الطويل في أطراف ترجان (أوطلوقبلي)، فلم يشن حملته على أعماق ديار العجم، وكبح جماح حصانه، وأداره خلفاً نحو مدينة العرش. وأشار بإصرار إلى أن هذا هو التصرف الأصح اليوم أيضاً.

ولا تثق بهذا الطريق والحظ   عد أنت أيضاً إلى العرش كجدك

لم يفكر همدم باشا أن عرضه سيولد كثيراً من المشاكل في الإجراءات. العمل الذي تم البدء به من أجل تجنب خطر عظيم يتهدد الأناضول، سيبوء بالفشل، وسينهار شرف السلطنة، ويسقط. وسيكون من الخيال الدخول بمشاريع كبرى كهذه.

وبالفعل، فور سماع سلطان السلاطين هذه الكلمات، اضطر للتضحية بهمدم باشا الذي يحبه كثيراً.

إذا أردت أن يبقى الرأس مكانه

فلا تتجاوز بقدمك حدودك

جلب إلى موقع سيد سادة قرامان زينل باشا155. كان هذا من أجل الحيلولة دون قرار سليم خان الذي اتخذ قراراً حاسماً. هذا الوضع أسس لهدوء في الجيش، وتمت متابعة التقدم.

قطع الجيش بسرعة منزل تشوبوك، وبنارباشِ، وقاغظمان، ونزل قوافل ماما خاتون، وألجالر على ضفة الفرات، ووصل إلى تشرموك. أرسل سليم خان من هنا رسالة مكتوبة بالتركية إلى الشاه إسماعيل مع اثنين من الشيعة أسرهما بالي بيك.

يقول سليم خان في هذه الرسالة التي تحمل رداً على رسالة الشاه:

الشجاع إسماعيل!

عندما وصلتك رسالتي الفصيحة والبليغة التي يطأطئ لها العالم، أرسلت رسالة،

وطلبت بجرأة أن نسرع ، ولنتخلص نحن أيضاً من الانتظار.

أصبح من الواضح والجلي أن وضعنا والجرأة الموجودة في طبيعتنا تدفعنا للمجيء من مكان بعيد ، وقد دخلت البلد الواقع تحت أمرك قاطعاً منازل مع جيشي حامل راية النصر.

في تقاليد السلاطين أصحاب القرار ، ولدى الخاقانات أصحاب القدرة ، فإن الأرض التي تحت إدارة السلاطين مثل زوجتهم الشرعية. من لديه جزء من الشهامة ، وحصة من الشباب ، ومن لديه ولو قليل من الجرأة لا يحتمل هجوم الآخرين عليه. مع أن جنودي المشغولين بالانتصارات منذ زمن طويل قد دخلوا بلدك ، وتذوقوا طعمه قليلاً. ولم يصدر منك صوت أو صدى ، ولا أثر حتى لوجودك. عيشك وموتك واحد. الوضع الذي نعيشه يبين من هو بحاجة الجرأة المؤقتة بوضوح.

الحقيقة هي أنه لم يصدر عنك حتى الآن أي حركة تظهر شهامة وشجاعة. وما حدث في أرض الواقع من أوله إلى آخره هو حيلة وتزوير. لا شك أن ناتج جرأتك المؤقتة ليست سوى حيلة وخدعة. لا يمكن أن تكون شيئاً آخر. المخرج من المشكلة التي تعيشها معروف بالنسبة إليك. استمر باستخدامه. لعلك إذا بقيت على هذا النحو تستمد القوة ، وتجد الجرأة للمجابهة.

من أجل أن أداوي ضعف قلبك ، فصلت أربعين ألف جندي من جيشي الذي يأخذني إلى النصر ، وتركتهم ما بين سيواس وقيصري. هذا أقصى ما يمكن منحه من جرأة للعدو. إذا انزويت في زاوية الخوف والهرب السابقة بعد الآن ، فتحرَّم عليك صفة الشجاعة.

البس غطاء رأس بدلاً من الخوذة ، والتف بملاءة بدلاً من الدرع ، وتنازل عن ادعاء الشاهية.

لا يمكن أن تقوم بهذا الأمر   لم يصدر عنك شيء

يذكر المؤلفون بأن سلطان السلاطين أرسل إلى الشاه إسماعيل مع الرسالة لباس امرأة. وفي هذه الأثناء أرسل سليم خان رسالتين ، إحداهما إلى عبيد حاكم سمرقند ، والأخرى لسلطان المماليك قانصوه غوري يبلغهما فيهما أنه في أرض العدو.

سأذهب حتى لو بقيت وحدي

تحرك الجيش العثماني من تشرموك ، ووصل إلى ترجان. أمر سليم خان هنا سيد سنجق يانيا مصطفى بيك وسيد سنجق طرابظون مصطفى بيك بأن يسيطرا على بايبورط. في اليوم التالي ، استقبل مبعوثي ميرزا تشابوق أحد سادة جورجيا في نزل سوكمن. جلب المبعوثون ألفي رأس غنم ، وكمية من المؤن. ولكي يشكر سليم ميرزا تشابوق على هذه المساعدة ، أرسل أمير الاسطبلات الثاني إلى جورجيا.

في الحقيقة أن الجيش كان يعاني من نقص المؤن ، والمؤن القادمة من طرابظون لا تكفي. وقبل مرور زمن طويل يعود التشاؤم ليحل محل الراحة المؤقتة. عدم خروج الشاه إسماعيل إلى الميدان على الرغم من الوعد الذي وعده ، مع شح المؤن ووعورة الأرض سببت تململاً بين الجنود مرة أخرى. بعض المتقدمين في الجيش بدأوا يتحدثون بشكل ما بين الإشارة والوضوح ، ويحرضون الإنكشارية هذه المرة ، فقالوا:

«ملاحقة ما يسمى عدواً غير معروف ، والسير دون هدف في بلد غير معروف لا يمكن أن يؤدي سوى إلى بلية الشح والجوع. لو كان لديه شرف أو ناموس ، لما انزوى في مكان كأنه غط بالطين ، وغض الطرف عن خرق حرمة أرضه. مع أنه لو ظهر أثر للعدو لضحينا برؤوسنا وأرواحنا في سبيل سلطان سلاطيننا الذي يظلل ظله العوالم كلها. ولكن العدو اختبأ في حفرة المهانة ، وانتظار خروجه من هذه الحال إلى الميدان ، يعني استدعاء كثير من الصعوبات لتحل علينا».

بالنتيجة ، عندما وصل الجيش إلى نُزل قرة صَقللو في إلشكيرد بعد غولة ، بدأت تظهر مؤشرات التمرد. وضعت رسائل بجوار خيمة السلطان مبطنة بالتهديد تطالب بالعودة.

في النهاية جاءت مجموعة الإنكشاريين إلى أمام خيمة سلطان السلاطين ، وبدأوا يصرخون بصوت واحد:

«انقلبت أحوالنا رأساً على عقب من المسير مدة ثلاثة أشهر دون توقف قاطعين الجبال والسهول ، ومتجولين في الصحارى. أنهكنا تعب الطريق. لو لم يكن العدو بعيداً عن الشرف والناموس ، لما اختبأ في زاوية كهذه.

إذا لم ينوِ سلطان سلاطيننا العادل صاحب القلب الواسع العودة ، سيكون وضعنا صعباً جداً نتيجة حمل الهموم وأشواك الضيق ، وتوشك قوة تحملنا على النفاد. رجاؤنا من لطافة سلطان سلاطيننا أن يرحم عبيده ، وألا يرمينا في ضباب أحلام لن تتحقق ، وألا يحملنا أحمالاً لن نستطيع حملها. لا تأخذ عبيدك الذين خارت قواهم وتحولوا إلى خرابات ، وتذهب بهم إلى إيران... ».

سمع سليم خان هذا النداء ، ورأى علامات التمرد التي لا يُعرف إلى أين يمكن أن تؤدي ، فركب حصانه على وجه السرعة ، وتقدم وسط الجنود بجرأة:

«نحن لم نصل بعد إلى المكان الذي نقصده. ولم نقابل العدو. وليس هناك احتمال العودة ، وحتى مجرد التفكير فيه هو حلم فاسد.

المصادفة أن معية الشاه تقدم روحها بحماس في سبيله وعلى طريق الباطل. يدخلون السيل العارم ، والنار المتأججة وهم يطلقون صيحات الفرح. يخنقون أبناءهم وبناتهم بأيديهم في سبيل شاههم.

أما نحن فقد جئنا إلى هنا بهدف خدمة دين سيدنا الرسول سيد الكائنات الناصع ، ولكن انظروا إلى تخاذلكم وكسلكم. هل هذه تقاليد الخدم ؟ هل قضية الطاعة والالتزام هي بالكلام فقط ؟ يعرف أنفسهم من ترتبط أيديهم وأرجلهم بهموم الأولاد ، والمتطلعين لفرش مريحة ، والمتذرعين بمشاق السفر ، وضعاف القلوب. إذا عادوا ، فهم يعودون عن طريق الدين المبين.

أنا لا أستطيع العودة عن هذا الهدف ، فقد وهبت نفسي.

لا يمكن الحصول على الراحة الحقيقية دون مشقة. من لا ينام في زنزانة الرغبة ، لا يدرك شروق الشمس. ليرافقني مجاهدون يتحملون ملح اليوم ومشقته بكل أنواعها. لا يفيد في هذا الطريق من ينظر إلى الخلف. من لا يحتمل تورم قدميه ، ومن لا يحتمل لهيب النار ، لا يمكنه أن يقطع منزلاً على طريق الهدف.

إذا كانت الذريعة عدم مجيء العدو ، فالعدو إلى الأمام أكثر. من يريدنا يجب أن يكون فدائياً سيفه على خصره. هؤلاء من نريدهم أن يأتوا. من يهرب من تجرع السم وتحمل الألم ، ويتعلق براحته ، فهو حر ، فليعد. أنا ذاهب حتى لو بقيت وحدي!».

بخطبة قصيرة وحادة ومؤلمة كهذه داعب سليم خان كرامة الإنكشاريين ، وأجج عزة نفوسهم ، ثم أدار مقود حصانه نحو الصفويين ، وقدماه في الركاب. رأى الإنكشاريون تصميم سلطان السلاطين هذا ، وانطلقوا في الطريق مطأطئي الرؤوس من جديد.

في هذه الأثناء استدعى سليم خان البطل المشهور علي بيك شهسوار أوغلو ليمثل بين يديه ، وأمره:

«انظر يا علي بيك! العدو مفقود ، وبعيد عن العيون. وفي الحقيقة أن وضعه مجهول. وطريق معرفة وضعه عن طريق الجواسيس يكاد يكون مغلقاً. قم بهجمات طليعية تليق باسمك مع شهومك المرتبطين بك هذه الليلة ، وحاول أن تجلب لي خبراً أكيداً من العدو. خدمتك هذه تستحق الشكر».

قال علي بيك شهسوار: «الفرمان فرمان حاكمي العظيم» ، واختار مائة من شهوم ولاية دوالقادر ، وانفصل عن الجيش بسرعة.

بعد يومين عاد علي بيك شهسوار أوغلو وقائد قوات الطليعة محمد بيك ميخال أوغلو مع رجالهما ، وأعطوا خبراً بأن العدو يتجه نحو تشالدران. هذا الخبر أراح الجنود

العثمانيين كثيراً. لقد ظهر أمامهم عدو يحاربونه ، ووصلوا إلى نهاية سفر بدا أنه لا نهاية له.

قطعوا منازل نهر بزرغان وضاناصاظِ ، وقرة كوي التابعة لإلشكيرد ، ووصلوا إلى صحراء أوفاجق. أثناء نصب الخيمة السلطانية هنا ، اتخذت الاحتياطات فوراً نتيجة شائعة تقول إن الشاه سيقوم بهجمة مفاجئة إلى هنا. حُملت الخيام ، واستمر المسير يوماً كاملاً إلى أن وصلوا إلى مكان يدعى قاظلِ غول في ماكو. أصبحت وحدات الطليعة العثمانية منتشرة حتى صحراء تشالدران ، واقتربت من مخافر الشاه إسماعيل ، وطلائع قواته. كانت تظهر خيام جيش الشاه إسماعيل على التلال المطلة على الوادي في الشرق. جاء إسماعيل في وقت أبكر ، ووضع قواته في المكان الأنسب. الواضح أن المعركة ستدور في سهل تشالدران.

اتخذ سليم خان ترتيبات جديدة في هذا الموقع ، وجمع المجلس الحربي فوراً. سأل سليم خان ما إذا كان الأفضل تأخير المعركة أربعاً وعشرين ساعة من أجل استراحة الجنود أم بدءها مع الفجر.

رجال الدولة جميعاً أبدوا رأيهم بأن الجيش قطع طريقاً طوال ستة أشهر بصعوبات ومشقة ، وهو منهك ، أما العدو فهو في حالة نشاط كامل ، لهذا السبب فإن دخول المعركة بشكل فوري سيكون خطيراً ، ومن الأنسب أن يُعطى الجيش يوماً استراحة.

تحدث في الاجتماع محمد جلبي بيري الدفتر دار الأكبر الذي كان في تلك الأثناء أصغر رتبة في الديوان ، وأفاد بإمكانية وجود مؤيدين للشيعة بين جند الجيش ، ويمكن لهؤلاء أن يتواصلوا مع الطرف الآخر في حال الانتظار ، ومرور الزمن ، ومن الأفضل خوض المعركة في الفجر.

فور إنهاء محمد جلبي بيري كلامه ، لم يستطع سليم خان الذي يبدو أنه متفق معه بالرأي ، ولكن صبره نفد لأن هذا الرأي لم يناقش حتى تلك اللحظة ضبط نفسه ، وقال بصوت مرتفع:

«ها هو الرجل صاحب الرأي الصائب الوحيد! مع الأسف أنه لم يستطع أن يكون

وزيراً!»156.

من هؤلاء

أثناء تقدم الوحدات العثمانية المظفرة بانتظام وانضباط كبيرين نحو السهل ، كان الشاه إسماعيل قد نصب خيمته على قمة تطل على الممر والسهل ، ويراقب العدو من على صهوة جواده. وكان يأخذ معلومات حول الوحدات العثمانية وقادتها من السيد العثماني الذي عفا عنه سابقاً ويدعى مالكوتش حاجيسي.

شوهدت كتيبة في البداية. وقد حمل من على أطرافها رايات حمراء ممتدة إلى الأفق ، وراياتهم الحمراء تغطي السماء الحديدية. عندما سأل الشاه: «من هؤلاء ؟» أجاب مالكوتش حاجيسي: «هذه كتيبة فرسان نيبولو من ولاية روملي. قائدهم محمد بيك ميخال أوغلو.

أرواحهم فداء آل عثمان قائدهم هو مخال أوغلو

بعدها ظهرت كتيبة كبيرة يرتدي أفرادها جميعاً لباساً أبيض ، ويحملون الرايات الخضراء ، وتقدموا نحو الساحة. قال الشاه: «من أي بلد يأتي كل هذا العدد من الجنود ، وراية من هذه الخضراء ؟».

«ميرزا إسفنديار أوغلو. موقعهم قصامونو وبلو. إنهم من مريدي آل عثمان ومحبيهم منذ أجدادهم. هاتان الكتيبتان هما طليعة القوات العثمانية».

أثناء قول مالكوتش حاجيسي هذه الكلمات ، ظهرت غمامة غبار هائلة ، كأن الديار كلها غرقت في الظلمة. بعد تبدد غمامة الغبار ، ظهرت قوة مشاة كبرى يرتدي أفرادها جميعاً الأحمر كأنهم بحراً من دم. كان بينهم رايات تتماوج بألوان مختلفة. قال الشاه: «وماذا عن هذا العدد الذي لا يحصى من الجنود ؟».

قال: «يطلق الأتراك على هؤلاء اسم (عذاب) ، وهم أقدم ثكنة عسكرية لدى

العثمانيين. وهي مشكّلة من شباب الأناضول». وما إن هبطت غمامة الغبار التي أججتها أقدام جنود العذاب ، حتى ظهرت وحدة عسكرية لا تظهر نهايتها. دروع أطراف الوحدة وجواشنها تبرق مبهرة الأبصار ، وتحمل رايات كثيرة جداً ذات رؤوس مذهبة. تحت كل راية هناك قائد. أعجب الشاه بالمشهد ، وقال: «لابد أن السلطان سليم وسط هؤلاء الجنود».

هؤلاء الذين تشبههم به جنود	قال إنهم الروم يا فريد زمانك الشاه
هؤلاء فقراء تكية المساكين	إنه سيد ، وهو شاه الحكماء المتقين
إنهم الروم أصحاب الأناضول	هذه الأبهة وهؤلاء الجنود اكتملوا
قائدهم البطل هود سنان باشا	إنهم سادةُ السادة أعيان مهابون

بعد هؤلاء ظهر جنود لم ير مثل هيبتهم وعزمهم. انفعل الشاه مرة أخرى ، وقال:

«لا شك أن سليماً بين هؤلاء الجنود. هذه المهابة والزينة له. لا يمكن أن تكون لغيره». ولكن جواب مالكوتش حاجيسي كان مدهشاً أيضاً: «لا ، هؤلاء الجند الذين تراهم هم جند ولاية قرامان. سيد سادة هؤلاء هو أحد عبيد سليم... ».

بعد ذلك بدأت قوة حازمة يعجز اللسان عن وصفها وإحصائها تملأ الجبل والصخور والوديان والتلال وهي تنزل إلى الميدان. قال الشاه: «نعم ، سليم بين هؤلاء الجنود ، فهو يأتي مباشرة ودون خوف».

قال مالكوتش حاجيسي: «أيها الشاه ، الجند الذين تراهم الآن هم من ولاية الروم. ويقودهم سيد سادة سيواس وأماصيا الشهير قاسم باشا». وما إن دخلا الحديث ثانية ، حتى أقلعت غمامة غبار ، وغطت الدنيا من أولها إلى آخرها. كأنها حولت النهار المنير إلى ليل.

وداس الجبل الجميع وحدهم | رجف الجبل كله من هيبته

خر الوجه أرضاً واستمد القوة | أبرقت الجواشن كالشمس

جاءت لعرض قوتها بالهجوم	قال الشاه عن قوة الروم
إنهم مصيبتك في دورة الأيام	إنهم الروم أيها المحترم

«أيها الشاه ، هذه الوحدات التي تلمع دروعها وجواشنها ولا تحصى راياتها وجنودها هي من جند ولايات روملي. وهي تحارب الكفار ليلاً نهاراً. وسيد سادة هؤلاء هو حسن باشا».

وقبل أن تزول دهشة الشاه ، ظهرت غمامة أخرى لا توصف عظمتها. تتداخل أصوات فرقة المهتر الموسيقية ، وقرقعة الأسلحة ، ووقع الأقدام ، ويصعد الصوت نحو السماء كالرعد ، واللمعان كالبرق ، مما يفقد كثيرين البصر والسمع. بريق الرماح تبهر الأبصار ، والمدافع تتقدم كالتنانين فاتحة أفواهها. انفعل مالكوتش حاجيسي أيضاً: «يسمون هؤلاء الجنود الذين لا يحصون الإنكشارية. كلهم مشاة ، ولا يتذمرون من المشي نهائياً. عمل هؤلاء هو إطلاق المدافع والبنادق والمدافع الصغيرة المحمولة ليلاً نهاراً. لا يفوقهم أحد بإطلاق السهام والتلويح بالسيوف. بالنتيجة ، لديهم مهارات الدنيا كلها. الراية الحمراء والصفراء لهم». انزلقت عينا الشاه إلى ما وراء الإنكشارية لأنه سأله عما تمثله الرايتان الحمراء العريضة كالنار والبيضاء كالثلج المرفوعتان في الوسط والفرسان الذين تصهل خيولهم وتحفر الأرض بحدواتها وقد اجتمعت وعلى يمينها أعلام خضراء ، وعلى يسارها أعلام حمراء.

صرخ الأسير العثماني بانفعال: «ها هو سلطان السلاطين. السلطان ذو الشوكة. ما تراها هي راياته. الراية الحمراء على يمينه للفرسان. أما الراية الصفراء التي على يساره فهي لحملة السلاح. وخلفهم الفرسان المرتبطين برواتب ، ولواء الحراس ، وهؤلاء جنود السلطان الخاصين». كل هذه الهيبة ، والانتظام لدى الجنود ، والتوزيع الخالي من النقص جعل الشاه يتأوه[157].

على الرغم من هذا ، لم يفقد جرأته. وإذا كان قد خشي كبر عدد القوات العثمانية ،

وجرأتها ، ولكن الثقة بالنفس حلت محل القلق عندما تجلت أمام عينيه قواته التي حاربت معه لسنين ، وهي مرتبطة به حتى الموت.

طرفان

كان جنود الشاه إسماعيل كلهم من وحدات الفرسان ، ومجموع عدد جنود جيشه الذي يشكل تركمان أوسطاجا أوغلو ، الورسق ، دوالقادر ، الأناضول ، شاملو ، والقاتشار ، والقرامانيين غالبيته ثمانين ألفاً. وكان العثمانيون متعبون ، بينما وحدات العجم مرتاحة وبصحة جيدة. خيولها أيضاً لم تتعب ، ومعلوفة جيداً.

كانت القوة الضاربة المؤلفة من ستين ألفاً على الأقل ، والمعتادة على الحرب ملفتة للانتباه. كانت خوذات جندها من الفولاذ المجلي ، وقبعاتهم الحمراء مزركشة ، أسلحتهم صولجانات ذات كرات حديدية ، وأقواسهم ورماحهم مصنوعة من شجر المران. يمسكون الرماح من الوسط عند استخدامها. وقد أسرجت الخيول السريعة والمتوفزة بسروج من الفولاذ.

كان انتظام الجنود ، واختبار إخلاصهم في كثير من المعارك يعطي الشاه إسماعيل أملاً كبيراً بنتيجة المعركة. من قادة جيشه المحاربين الذين هرموا على صهوات الجياد محمد بيك أوسطاجا أوغلو والي ديار بكر ، وخليفة بيك حاكم بغداد ، وسيد محمد حاكم مشهد ، البير بوداق بيك قائد قوات عراق العجم ، درموش خان شاملو ، الخليفة نور علي الرومي ، خليل سلطان دوالقادر ، الأمير شرف الدين علي ، أبناء البابا إلياس جاووش ، واليا خراسان ودامغان ، ووكيل السلطنة نعمة الله زادة مير عبد الباقي.

ومثلما لا يوجد في جيش الصفويين مشاة ، ليس لديهم مدافع تواجه المدافع العثمانية المدهشة. كان إسماعيل على علم بتصورات سليم وترتيباته ومدافعه من الجواسيس والأسرى الذين قبض عليهم. لهذا السبب فصل الجيش إلى ذراعين كل منهما أربعين ألفاً.

أخذ على عاتقه قيادة الجناح الأيمن ، وكلف القائد الشهير أوسطاجا أوغلو بقيادة الجناح الأيسر. كانت خطة الشاه أن يقوم أوسطاجا أوغلو بحركة التفاف أثناء القتال ، وشق جنود العذاب ، وتطويق الإنكشاريين من الخلف ، ووضعهم بين فكي كماشة ، وإنزال ضربة كبرى أساسية بهم.

في هذه الأثناء اتخذ الجيش العثماني الذي دخل السهل مواقعه بانتظام وسرعة كما هو مخطط له. واتخذ السلطان مكانه كما تقتضي التقاليد في مركز الجيش وسط الإنكشاريين ، والمدفعيين ، والفنيين ، وفرسان القصر. بجوار سلطان السلاطين الوزير الأعظم أحمد باشا هرسك زادة ، والوزير الثاني أحمد باشا دوقاكين أوغلو ، والوزير الثالث

مصطفى باشا ، ومن رجال الدولة فرهاد باشا ، وقرجا باشا ، والقاضي عسكر ، وبقية رجال الدين.

يتألف جناح الجيش العثماني الأيمن من قوات الأناضول وقرامان بقيادة سنان باشا وزينل باشا ، أما الجناح الأيسر فمؤلف من قوات روملي بقيادة سيد سادة تلك المنطقة حسان باشا.

في نهاية الجناحين الأيسر والأيمن اصطف جنود العذاب على مجموعتين إحداهما مؤلفة من عشرة آلاف ، والأخرى من ثمانية آلاف أمام خمسمائة مدفع قادر على التسديد لمسافة ميل ، وقد ربطت فيما بينها بالسلاسل.

قوات الطليعة التي يشكل غالبيتها تركمان دوالقادر يقودها علي بيك شهسوار أوغلو ، ووحدات الدعم يقودها شادي باشا.

قبل بدء المعركة ، تفقد الجميع بعضهم بعضاً ، وجاءوا إلى أمام السلطان الذي يجلس على حصانه المدعو «قرة بولوط» [السحاب الأسود] مثل جمشيد. بعدها دعا الوزير الأعظم أحمد هرسك زادة للسلطان:

أعانك إله الأرض والسماء — يا سلطان سلاطين البر والبحر

وجعلك قيّماً على دين أحمد — نصرك الله على الأعداء دائماً

وليهلكوا جميعاً بسيفك البتار — ظهر جند الخارجين عن الحق

ويخفون أحكام الشرع أيضاً — إنهم يشتمون سلطان القلوب

وتمنى من الحق رعاية جندك — ادع لعبيدك أيها السلطان

واجعل اسمك يدور في الدنيا — اقطع رؤوس أهل الفساد

امش الآن وليكن الهدى بعونك لأنك سلطان أهل الدين

بعد أن ألقى هرسك زادة هذه الأبيات ، خطب سليم خان بوزرائه وأغواته وسادته وأبطاله المحظيين:

«يا عبيدي ومقاتلي الأبطال! أنتم تخدموننا منذ جدي الكبير الشاه عثمان ، وأجدادي ووالدي ، وتضحون بأرواحكم وتضعون رؤوسكم في سبيل دين الإسلام ، وتقطعون رؤوس أهل الشرك ، وتلقونها في القنوات ، وتأخذون الولايات ، وتنيرون مشعل الإسلام. أنتم اليوم تغزون في سبيل الله مجموعة ألوية من العجم لا يعرفون الدين والإسلام ، ولا ينتهي حقدهم على الصحابة الكرام. وأنا سأضع روحي ورأسي أمامكم». بعد أن قال هذا ، هتف مقاتلو الأناضول وروملي معاً: «سلّم الله لنا سلطان السلاطين في الدنيا ، وجعله راعينا ورفيقنا. ليروا زمن من هذا ، وبعون الله نفعل بهؤلاء الذين اعتقدوا أن أحكام الإسلام ضعيفة أفعالاً تبقى ملحمة حتى يوم القيامة»158.

إثر هذا قال سيلم خان: «يا غيرة الإسلام ، وحميّة سيد الأنام ، هذا وقت الفعل. من يشيح بوجهه عن العدو اليوم ، فهو أقل من امرأة». وأمر فرقة المهتر بعزف معزوفة الهجوم.

معركة تشالدران

بدأت المعركة صباح 23 آب/أغسطس 1514 بهجوم الشاه إسماعيل كالصاعقة على الجناح العثماني الأيسر حيث الوحدات الروملية. كأن بحرين لا حدود بينهما دخل أحدهما بالآخر.

لقد تحرك الشاه إسماعيل بشكل مفاجئ إلى درجة أن جنود عذاب الجناح العثماني الأيسر لم يجدوا الفرصة لشد نبال أقواسهم. خلال لحظة سقط البعض تحت حوافر الخيل ، وسقط كثيرون أثناء القتال بالسيف. بعد ذلك انهالت وحدة الفرسان الصفويين الملتفين بالحديد من قمة رؤوسهم إلى أقدامهم على شجعان روملي خلال لحظة

واحدة.

لم يجد مقاتلو روملي فرصة لاستخدام المدافع ، فلم يدركوا ما تعرضوا له. استجمعوا قوتهم فوراً ، وبدأوا يقاتلون بتضحية كبرى من أجل عرض بطولاتهم. وبسيوفهم البارقة نثروا دماء أعدائهم الملتفين بالحديد على الأرض. على الرغم من هذا لم يستطيعوا إيقاف مريدي الشاه.

شعر ابنا القائد الطليعي الشهير بالي بيك مالكوتش أوغلو علي بيك سيد سنجق صوفيا ، وعلي بيك طور حاكم لواء سيسليسترة أن الهزيمة تُلحق بهذا الجناح من الجيش ، فهبا كالعاصفة. ينقل كمال باشا زادة السير باتجاه الشاه شخصياً على النحو الآتي:

واشتبك الكبش مع العجم	هب بلوائه ابن مالكوتش على الشاه
مد الذئب رأسه لكي يأكل	دخل الذئب الأصفر قطيع الغنم
بضربة واحدة يقطعه قطعتين	من يأتِ أمامه يهوي عليه ضرباً
والعجم كلهم يهتفون للشاه	انتبه فصيحة «الله» كانت فصيحة
تقول الرواية أنهم لحقوا بالشاه	جموع جند العجم الكثيرة تفرقت
حل الأجل ، وأخذ الشاه من يده	لا تتحسر إنه التقدير الإلهي

بعد أن سحب العجم ابني مالكوتش أوغلو نحو الشاه ، حاصروهم فجأة ، وقتلوهم بالسيوف والرماح159.

نسوا همّ الدنيا وراحوا160	شربوا من شراب الشهادة

هذا الوضع أدى إلى تخلخل وضع الوحدات الروملية أكثر. والآن تذوق طعم الشهادة على التوالي كل من حسن آغا سيد سنجق مورة ، سليمان بيك سيد بريزرن ،

ومحمد بيك يوغوتش أوغلو ، وأخيراً قائد قوات روملي حسن باشا. ولم يبق إلا قليلاً لكي يلتقي الشاه إسماعيل بأوسطاجا أوغلو.

من الجهة الأخرى لم تسر حركة الجناح الأيسر للشاه التي يقودها أوسطاجا أوغلو كما خطط لها. عندما توجه أوسطاجا أوغلو بكل قوته إلى الذراع العثماني الأيمن ، أبدى جنود الأناضول الذين يقودهم سيد سادتهم سنان باشا مقاومة مدهشة دون أن يخربوا صفوفهم ، وانتشروا بمهارة على شكل قوس. اعتقد أوسطاجا أوغلو وقواته أنهم يسيرون نحو تحقيق النصر ، ولم ينتبهوا إلى مأزقهم حتى أصبحوا وجهاً لوجه مع المدافع العثمانية التي بدا كل منها تنين فاغر فمه.

حذر سنان باشا مدفعييه بألا يطلقوا مدافعهم إذا لم يأمرهم ، وألا يتدخلوا دون إذن. عندما تحرك الصفويون كموجة عارمة باعتقاد أنهم انتصروا في المعركة ، وضع سنان باشا العدو بمواجهة المدافع ، وبدأت تنفث عليهم موتاً. مع انفجار القذائف ، تناثرت رؤوس الشيعة وأحشاؤهم على تراب الموت. تمزق أبناء وأحفاد أوسطاجا أوغلو الذين يثق بهم ، ويعتمد عليه بقذائف المدفعية وشظايا الهاون. عندما رأى أوسطاجا أوغلو أجسام معاونيه المحاربين أشباه العمالقة تنهار ، وشن هجمة في محاولة أخيرة للبقاء واقفاً ، اصطدم بأجسام شهوم الأناضول القوية كالمدافع. وبحركة كالبرق فصل أحد الأبطال العثمانيين رأس أوسطاجا أوغلو عن جذعه ، ورفعه على رأس الرمح... أثناء إرساله إلى موقع سلطان السلاطين ، بات خط الصفويين هذا يتعرض إلى هزيمة ، ويقترب من نهايته.

من جهة أخرى كان سليم خان يرى أن وحدات روملي تُهزم ، وأن قسماً من الجنود على هذا الخط ينسحبون نحو المركز ، وقسماً آخر خارج ساحة المعركة. لحظة رؤيته نجاح الجناح الأيمن ، أرسل عدة فصائل إنكشارية من ذات الدروع الفولاذية نحو الشاه إسماعيل بسرعة.

توجه الذراع الصفوي الذي يقوده الشاه إسماعيل المغرور بشق صفوف قوات روملي نحو مركز القوات العثمانية ، رأى صفوف أبطال ساحات الجهاد وسمادل نار الحرب

الخرافية الإنكشاريين في مواجهته. أفرغ الإنكشاريون بنادقهم بداية مطلقين الحديد والحجر ، فأدخلوا الوحدات الصفوية في بعضها بعضاً.

وعندما انخرطوا وسطهم بسيوفهم التي تقدح شرراً ، كانوا يطرحون صفوياً أرضاً في كل حركة من حركاتهم. كثير من سادة الصفويين وسلاطينهم احترقوا بشرر السيوف ، وصبغوهم بالدم الأحمر صباغ ماهري ضرب السيف. بدخول شهوم الروم الذين استجمعوا أنفسهم ، أصبحوا على وشك إرسال الشاه إلى نهايته.

هرع الشاه إسماعيل في الأنحاء كلها من أجل رفع معنويات جنده الهاربين ، وجمعهم ، وغيّر حصانه عدة مرات ، وقد أصابت إحدى الرصاصات ذراعه وعضلته ، وتدحرج عن حصانه ذات لحظة.

أثناء هجوم فارس عثماني برمحه على الشاه ، غامر السلطان ميرزا علي أفشار أقرب الرجال إليه وشبيهه في كل شيء بحياته ، وقال: «أنا الشاه» ، وقفز إلى الأمام ، وتقدم خضر أقا أوسطاجا الذي لُقب فيما بعد «ساحب الحصان» ، وأعطاه حصانه مغامراً بحياته ، مما أنقذ الشاه إسماعيل من الأسر. ولكنه رأى أن كل شيء قد انتهى ، فهرب بسرعة كبيرة إلى تبريز. ركض حصانه طوال الليل ، ووصل إلى أسوار تبريز عند الفجر. خرج أهل المدينة بدافع الفضول أكثر من دافع الارتباط الشعوري من أجل رؤيته.

ولكن إسماعيل لم يشعر بالأمن في عاصمته ، لهذا استمر في طريقه نحو درغوزين.

إثر هروب الشاه إسماعيل ، وتركه ميدان المعركة ، تخلى الجنود ذوي الدروع الثقيلة عن المقاومة. أُسر بعضهم ، وقُتِل بعضهم الآخر. أطلقت المصادر على معركة تشالدران التي تعرض فيها الشيعة إلى هزيمة ماحقة اسم «مقتلة الصوفية»[161].

ذهبٌ بأكياس. لؤلؤ بشوالات!

انتهت المعركة ، وتفرّق زحامها. ومثلما بدأ المجاهدون المعركة بقول: «عيد مبارك» ، والآن يهنئون بعضهم بعضاً بعبارة: «غزوتك مباركة». نُصبت خيمةُ سلطان السلاطين الصيفية مكان جيش العدو. وكانت تُقرأ آية: «نصر من الله» في كل مكان.

كثير من القادة والإداريين المشاهير فقدوا حياتهم في المعركة الحامية الوطيس ، ومن الطرفين. من بين شهداء العثمانيين كان سيد سادة روملي حسن باشا ، علي بيك ابن مالكوتش أوغلو وأخوه طور علي بيك ، سيد قيصري أويس بيك ، وسيد نيدة إسكندر بيك يوغوتش أوغلو ، قاضي قارِسي محمد بيك سلطان زادة ، وقاضي بيه شهير سنان بيه قارلِ أوغلو ، وسيد اللاذقية أياس بيك ، وسيد سنجق مورة حسن آغا ، وكثير من الزعماء وقادة الفرسان والوجهاء.

أما من الطرف الآخر فقد كان من بين القتلى والي ديار بكر محمد بيك الذي يعتبر الذراع الأيمن للشاه ، القاضي عسكر ووكيل السلطنة عبد الباقي ، والي مشهد الشريف محمد كمانة ، قاضي بغداد وابن حمي الشاه خلفا بيك ، قاضي هيرات وخراسان لالة بيك ، قاضي همدان التكلي بيك ، قاضي غنجة سردار بيك ، قاضي رماحية محمد غومونا ، السلطان علي بيك ، وقائد الحرس صارِ بيري ، وكثير من المشاهير.

أما الغنائم التي تم الحصول عليها من سهل تشالدران فلا تعد ولا تحصى. لقد تم الحصول على خيمة الشاه المغطاة بالأطلس المطرز والأخاذ مع كل ما فيها من كنوز. صودرت خيوله الأصيلة. حصل كل جندي من المشاركين في المعركة على شيء مما تركه العجم من مال. لم تكن الذهبيات والفضيات في كييسات ، بل في أكياس ، وكانت اللآلئ في شوالات ، وقسِّمت بين المجاهدين بواسطة المكيال.

يصف جلال زادة هذا الأمر على النحو الآتي:

أخذوا ما شاءوا إحساناً وأعطيات — شبع الجنود من المال والملك

الأكياس مليئة باللؤلؤ والمجوهرات — زُينت الخيام بالذهب والفضة

وأباريق وكؤوس أيضاً بالمجوهرات　　سيوف وخناجر مرصعة كلها

وخيول عربية ملأت السهل والجبل　　قماش أصفهان وكشان بخس

مؤن أغنت كل فقير عن الحاجة[162]　　لكل مسكين حمل جمل غنائم

عندما جاء الشاه إسماعيل إلى المعركة ، جلب معه عائلات الجنود من أجل أن يرفع معنوياتهم ، ويقوي قلوبهم. ووقعت كلها في الأسر. من بين الأسرى امرأة الشاه ، ومحظيته المحببة ، والتي لا مثيل لها بالجمال الخاتون المتوجة. وقد زوجها سلطان السلاطين لجعفر جلبي تاج زادة حامل الخاتم الماهر بفن التعبير والعارف قواعد الدبلوماسية جيداً[163].

في اليوم التالي للمعركة (الخميس) ، عقد الديوان العلي في سهل تشالدران. جاء الوزراء وأركان الدولة إلى الديوان ، واصطفوا كصف السرو على ضفة نهر ، وهنأوا بعضهم بعضاً بالجهاد والعيد ، وتصافحوا ، وتعانقوا. الطبول الكبيرة والصغيرة تُقرع ، والجنود محتفلين كأنهم في عيد ، ويُرى الفرح واللهو في كل طرف.

بموجب الأمر الصادر عن الديوان جلب كل شخص أسراه دون أن يخفيها. فصل الأولاد والنساء. أطلق سراح علماء الدين والفنانين ورجال الدولة الذين أوقفهم الشاه إسماعيل لأنهم سنة. وكان مولانا قاضي زادة الأردبيلي من بين هؤلاء. رجا إدريس البتليسي سلطان السلاطين أن يعفو عنه واصفاً إياه بأنه «ابنه وتلميذه». وقد عفا عنه سليم خان ، وربط له راتباً مقداره ثماني عشرة فضية.

كان بديع الزمان ميرزا من أحفاد تيمور خان بين الأسرى المشاهير. بديع الزمان ميرزا هو ابن السلطان حسين بايقرا ، وكان لدى الشاه إسماعيل.

أطلق سراح النساء كي لا يوسخن الجيش ، ويخربن انضباطه. بعدئذ أجريت الترفيعات. عُيّن سيد سادة الأناضول سنان باشا مكان سيد سادة روملي حسين باشا الذي

استشهد، وعُيّن سيد سادة قرامان زينل باشا مكان سنان باشا، وعُيّن خسروف بيك مكان زينل باشا.

من جهة أخرى، تابع سليم خان دفن الشهداء. حُضِّر مكان واسع قليلاً، ودفن الشهداء هناك. ونصب عمود ضخم عند جزء الرأس، وسجلت عليه أسماء الشهداء، وتاريخ استشهادهم. وابتهل بالدعاء لهم.

أثناء وجود سليم خان هناك، كتبَ رسائل فتح ونصر إلى الجهات كلها. من أجل نشر هذا الخبر أرسل مراسلون بسرعة الريح إلى ابنه سليمان، وسلطان مصر قانصوه غوري، وخان القرم محمد غيراي، وقضاة إسطنبول وأضنة وبورصة، وسادة سناجق قلاع الإسلام الحدودية مورة والبوسنة وسمندرة وهرسك، وسيدي أفلاك وبوغدان اللذين يدفعان ضريبة للعثمانيين، وإلى ملوك بولونيا وروسيا والمجر والتشيك وسادة البندقية وخيوس.

في اليوم التالي أرسل سليم خان سنجقه الذي يوزع العدالة إلى تبريز عاصمة أذربيجان.

سليم خان في تبريز

عندما وصلوا إلى سهل خوي، أرسل أمامه الوزير أحمد باشا دوقاكين أوغلو، ودفتر دار روملي بير محمد جلبي، وقائد حرس الحدود عثمان آغا باليماز، والعالم الجليل إدريس بتليسي الذي شغل سابقاً منصباً مهماً في ديوان دولة الغنم الأبيض، وخمسمائة إنكشاري من أجل إعطاء الأمان لسكان المدينة، وحمايتها، ومصادرة أموال الشاه.

من جهة أخرى، كلف الشاه عند هربه من تبريز والي المدينة حسين بيك حلوجي أوغلو بالبحث عن زوجته المتوجة، وجمع أمواله التي تركها خلفه. لم يكن حسين بيك متأكداً من مجيء سليم وجيشه. وضع مراقبين على الطرق. فور تلقيه خبر مجيء الهيئة العثمانية، هرب من المدينة بسرعة بما استطاع جمعه من مال.

أما سليم خان فقد جاء مع جيشه في 6 أيلول /سبتمبر 1514 إلى مكان يدعى سورهاب ، ويعد من ضواحي تبريز ، وحط الرحال. خرج في ذلك اليوم علماء تبريز ، ورجالها الصالحين ، وكبارها وصغارها ، وفقراؤها وأغنياؤها ، واستقبلوا سليماً. سار سليم على السجاد القيّم الممدود على الأرض ، ودخل مدينة تبريز في موكب مهيب.

أول عمل له كان إلغاء البدع التي فرضت في البلد بعد مرحلة دولة الغنم الأبيض ، ورسخ من جديد قواعد أهل السنة. كان الجامع الكبير الذي أمر ببنائه السلطان حسن الطويل قد ملئ بالأسلحة والعتاد. وبأمر من السلطان سليم ، تم تحضيره للعبادة.

سيقيم سلطان السلاطين صلاة الجمعة هناك ، وتُقرأ الخطبة باسمه. التف الوزراء والعلماء والأمراء حول سلطان السلاطين كهالة النور حول القمر. سار الإنكشاريون أمامه بكامل أسلحتهم وتجهيزاتهم. كأن بريق الحراب يبهر عين الشمس ، ويغطي السماء.

ورأى وجوههم يصاب بالذهول   لو وقفوا بيدهم الحراب

سار جنود العذاب خلفهم. كانوا يتماوجون مثل حديقة زنبق تتماوج بهواء الربيع.

فكانوا حديقة زنبق في الربيع   سار العذاب جماعات جماعات

أثناء ذهاب سليم خان إلى المسجد بهذه المراسم الفخمة كان أهل تبريز شباباً وشياباً ، رجالاً ونساء قد تدفقوا إلى الطرقات جماعات للفرجة على هيبة سلطان السلاطين وجنده. وقد ذهلوا إلى درجة أنهم لم يتكلموا فيما بينهم ، وحبسوا أنفاسهم.

حمد سليم خان جناب الحق ، وشكره كثيراً ، ودخل مسجد السلطان حسن الطويل. وتلا الحافظون ما تيسر من القرآن الكريم. وبدأت الصلاة. بعد أن حمد الخطيب الله ، وصلى على الرسول ، ذكر أسماء الصحابة الأربعة ، وامتدحهم وأعلى من شأنهم: «حضرة أبي بكر ، وحضرة عمر ، وحضرة عثمان ، وحضرة علي رضوان الله عنهم» فتدفقت دموع المصلين كالسيل. لأنهم لم يسمعوا أسماء هؤلاء الخلفاء الأربعة منذ زمن طويل.

بعد الصلاة ، تجول سليم خان في مدينة تبريز ، وعلى آثارها. وأعجب كثيراً بالقصر المسمى هشت بهيشت (الجنان الثمانية). وكان لجماله يُشبَّه بجنة الأرض. كان على سطح الأرض كشامة على خد عروس صبية. حديقة الصفا كأنها طاووس فتح ذيله. حدائقه مغطاة بالأزهار ، ورائحة تربة حواف الأنهار طيبة تنثر المسك والعنبر ، وفي كل زاوية منها حسناء. بعد أن جابها سلطان السلاطين ، عاد إلى خيمته.

بعد فترة أبلغ بأن هيئة كبيرة تريد زيارة سليم خان. سأل سلطان السلاطين عن هؤلاء. فقالوا: «هؤلاء علماء ومشاهير. وعلى رأسهم بديع الزمان ميرزا بن حسين بايقرا. ومعهم حافظ محمد أصفهاني من وجهاء أصفهان وابنه حسن جان».

كان بديع الزمان ميرزا سلطان هرات وخراسان. فَقَدَ دولته ، ولجأ إلى الشاه إسماعيل. وكان الشاه إسماعيل يحتقره ويهينه لأنه سني ، ولم يكن يسمح له حتى بركوب الخيل في المدينة. فاعتكف بعيداً عن الأعين. وعندما أبلغوا سليم خان بأنه يطلب زيارته ، قال:

«هذا ابن سلطان جلس على العرش ، وأدار سلطنة. اجلبوه لي بمراسم الاستقبال الكاملة».

أبلغوا بديع الزمان ميرزا بالوضع. في اليوم التالي جلبوه بمراسم عظيمة ، وأجلسوه على عرش بجوار عرش سليم الجبار. واستقبله الجبار واقفاً. وأرضاه ، وخلع عليه خلعة ، وقدم له الهدايا ، وخصص له راتباً.

الشخص الثاني كان الحافظ محمد أفندي. كان في حضرة سليم خان مع ابنه حسن. كان الحافظ محمد تربية سلطان الغنم الأبيض يعقوب ، وحافظه الخاص المحبوب. وكان صوته جميلاً جداً. عندما يبدأ بقراءة القرآن تدب الحياة في القلوب الميتة. بعد وفاة

السلطان يعقوب، وجلوس ابنه السلطان رستم على العرش في سنٍّ صغيرة، حافظ على موقعه في القصر. أعزه السلطان رستم، وقدره. وعندما وقعت شاهية العجم بيد إسماعيل، أصبحت حالته صعبة. وقد أخفوا أنفسهم، وعقيدتهم من أجل المحافظة على حياتهم.

عندما علم بأن سليم خان خرج في حملة إلى تبريز، اصطحب ابنه حسن جان، وذهب إلى الملا كمال الدين أدربيلي من علماء تبريز المشاهير، وطلب منه أن يدعو له بالخلاص من جو الفتنة.

لنستمع لبقية القصة من حفيده الشيخ سعد الدين: «أدينا صلاة العصر مع الملا. وقُرئ جزء عمّ الشريف. قال الملا: «ليحفظكم الله تعالى وأولادكم. وأنتم تحفظون كلام الله كما أنزل».

فرد الحافظ محمد على الشيخ قائلاً: «سلطان العثمانيين على وشك الوصول إلى هذه المنطقة. هل نهاية هذا الأمر ظاهرة؟».

«هذا القادم شجاع لا يأتي من تلقاء نفسه. إنه لا يأتي إلا بتقدير الله تعالى، وتكليفه. الملائكة معه. وهو أيضاً صاحب رتبة ومقام.

قال الحافظ محمد: «يفهم من كلمة العقوبة أنه لن يقتل الشاه إسماعيل».

«العلم عند الله تعالى أن هذه هزيمة ماحقة. ولكنه سينقذ روحه في هذه الأثناء».

وقد تحققت كلمات الملا الأربيلي. والآن يمثل الحافظ محمد وابنه حسن جان في حضرة سليم خان.

عندما قرأ الحافظ محمد بنبرته القوية وأدائه الجميل، وصوته العذب ما تيسر له من آيات القرآن الكريم، شعر سليم خان بسرور عظيم. وتبين أنه يسمع بوالدنا منذ كان أميراً. سأله: «كنا نسمع بالحافظ محمد يعقوبي. وهو تربية السلطان يعقوب. هل هو أنت؟» وعندما حصل على إجابة بالإيجاب، ازدادت المجاملات الموجهة له. وأدخله مع ابنه حسن

جان زمرة خدمه الخاصة. وكان من بين الذين يمنحون شرف الكلام في المجالس الخاصة. وأخذ ابنه حسن مكانه بين ندماء سليم خان الخاصين ، وبقي معه ، وفي خدمته حتى توفي. وسيكون ابن حسن جان الشيخ سعد الدين أفندي شيخ الإسلام في المستقبل ، ومؤرخاً شهيراً سيدون وقائع الأحداث في عهد سليم خان.

بقي السلطان سليم الجبار ثمانية أو تسعة أيام في تبريز. ونقل من علمائها وأرباب الفنون فيها ، وتجارها ، وبقية المفيدين بأعمالهم مئة عائلة إلى إسطنبول.

استفزاز خطير

على الرغم من إنزال سليم خان ضربة قوية بالصفويين في معركة تشالدران ، إلا أنه لم ير أن هذا كافياً. الهدف هو عدم ترك الشاه إسماعيل ، وسحقه. لهذا السبب قضى شتاء ذلك العام في أذربيجان بنيّة الاستمرار بالحركة في العام التالي. بناء على هذه الفكرة قصد قراباغ مركز الإلهانيين القديم. ولكنهم عندما وصلوا إلى ضفة نهر أراس ، ونتيجة تحريض بعض رجال الدولة ، تحلق الإنكشاريون حول سلطان السلاطين ، وعرضوا ألبستهم المفتتة على رماحهم ، وطلبوا العودة. إزاء هذا الوضع وجد سليم خان أن الأنسب هو قضاء الشتاء في أماصيا.

ولكنه لم يتوان في الطريق عن معاقبة محرضي الجنود. وبالفعل ، أثناء وجود الجيش في نهجيوان ، عزل الوزير مصطفى باشا بتهمة «عدم ضبط الجيش» نتيجة إحراق الجنود بعض بيوت القرى ، وعين مكانه بيري باشا.

عند وصول سليم خان إلى أرض روم تلقى خبر فتح بايبورت مع قلعتها قلعة كيغ ، وارتاح. ولتقديره الشديد لمحمد باشا بيقلِ نتيجة هذه النجاحات ، منحه ولاية سناجق قرة حصار ، جانيك ، طرابظون.

في هذه الأثناء تلقى خبراً بأن بعض قطاع الطرق ارتدوا ألبسة جنود ، ونهبوا بعض القرى. أمر سليم خان بإيجاد الفاعلين ، وقطع رؤوسهم فوراً. بعد ذلك استدعى الوزير

الأعظم هرسك زادة والوزير الثاني دوقاكين زادة ليمثلا بين يديه ، وقال لهما: «لماذا قصرتما بالحيطة ؟ سبب هذه الحادثة هو النقص لديكما بالفهم والعقل». وهدم خيمتهما فوق رأسيهما ، وعزلهما.

كل من يقول هذا الكلام محق

قمع الكبار أفضل من شنق الصغار

وغير هذا فقد منع منعاً باتاً وضع القبعة الصوفية البيضاء لغير الإنكشاريين وحراسه ، وخدمه.

وصل إلى أماصيا في 24 تشرين الثاني /نوفمبر 1514. استقبله أهل المدينة ، ودخلها برفقة دعائهم واحتفالاتهم. كان سليم خان يريد أن يمضي الشتاء هنا ، ويعاود الحملة على الشاه إسماعيل في الصيف. لهذا السبب منح الإذن للجنود جميعاً ما عدا جنود الأناضول وقرامان والروم (سيواس ، طوقاط ، أماصيا) وألفي إنكشاري. ذهب الإنكشاريون مع أياس آغا والقادمين من تبريز إلى إسطنبول. وأُرسل سيد سادة روملي سنان باشا إلى أنقرة.

لم ينس سليم خان علاء الدولة بوظقورد الذي أرسل له سفراء من أجل المؤن ، وعادوا خاوي الوفاض ، وقد اتخذ موقفاً معارضاً له. منح سنجقي قيصري وبوظوق لعلي بيك شهسوار أوغلو من عشيرة دوالقادر أيضاً ، ولكنه قدم فوائد كبرى في معركة تشالدران ، وأرسله إلى المنطقة.

عين سلطان السلاطين في هذه الأثناء أحمد باشا دوقاكين أوغلو الذي عزله من الوزارة وزيراً أعظمَ ، وبيري باشا وزيراً ثالثاً.

بعد شهرين من وصول دوقاكين أوغلو إلى منصب الوزير الأعظم (شباط 1515) ، ونتيجة تحريض بعض أركان الدولة أيضاً بدأ الإنكشاريون بإظهار بعض المواقف التي تشير

إلى عدم موافقتهم على بعض إجراءات سلطان السلاطين ، وحملته الجديدة على إيران. ووصلوا إلى حيث يتشكل الديوان السلطاني ، وأطلقوا كلمات غير مناسبة ، وحتى إن بعضهم تمادى أكثر إلى درجة الجرأة على محاولة نهب بيت الوزير محمد باشا بيري ، وبيت أستاذ سلطان السلاطين حليمي جلبي.

شعر سليم خان بالضيق الشديد من هذه الحال ، وأمر بقطع رؤوس المتسببين بهذا الأمر فوراً. عندما فهم أن أحمد باشا دوقاكين أوغلو محرض على الأحداث ، وهو متحالف مع عشيرة دوالقادر ، ويراسلها ، طلبه للمثول بين يديه ، وبعد أن أصابه بخنجره ، أمر خدمه البيض بقطع رأسه164. ولم يعين أحداً في منصب الوزير الأعظم مدة نتيجة حزنه.

في هذه الأثناء جاءت إلى أماصيا هيئة سفراء صفوية برئاسة مير عبد الوهاب من نخبة السادة وعلماء تبريز ، وتتألف من القاضي إسحاق المشهور بلقب القاضي باشا ، والملا شكر الله موغاني والشيخ حمزة تحمل رسالة من الشاه إسماعيل وكثيراً من الهدايا.

في رسالة الشاه إسماعيل المكتوبة باحترام بالغ ، يطلب الصلح ، ويبين أنه تجرأ على الرجاء من سلطان السلاطين الصلح لتجنب كارثة كبرى في المستقبل ، ويتوسل إليه أن يسمح له بالحكم في إيران باسمه ، ويُطلق سراح زوجته التي سبيت في الحرب. وهكذا يريد أن يحول دفق سيل سلطان السلاطين القاهر نحو جهة أخرى. ولهذا السبب أرسل هيئة مشكلة من علماء وأفاضل يمكن أن يكونوا مؤثرين في مجلس سليم الجبار.

على الرغم من استخدام الشاه في رسالته أسلوباً مهذباً ومحترماً جداً ، فإن سليم خان لم يولِ أهمية لهذا الأمر. لأنه لا يثق به نهائياً. ولم يقبل لقاء هيئة السفراء ، وأمر بنقل تأنيبه للهيئة التي تطلب امرأة الشاه. وأرسل السيد عبد الوهاب والقاضي باشا إلى السجن في الحصن الجديد (حصن روملي) ، وأما الآخرون فقد أرسلوا إلى قلعة ديمتروكا ليسجنوا.

من جهة أخرى كُلف محمد باشا بيقلي بفتح قلعة كماخ التي كان حراسها يستعدون للهجوم على نواحي أرزنجان. بعض السادة أصحاب الخبرة قدموا رؤية مفادها بأن

قلعة كماخ طالما بقيت بيد الشيعة ، فلن يستتب الأمن في بايبورت وكيغ وأرزنجان ، ولابد من السيطرة على هذه القلعة. إثر هذا خرج سلطان السلاطين من أماصيا في نيسان 1515 ، وسار باتجاه كماخ. بعد قطعه المسافة منزلاً تلو منزلٍ ، ونزوله من قارلِبل إلى سهل قراجا بيك ، وصل سفير سلطان مصر قانصوه غوري حاملاً رسالته.

عندما عين سليم خان علي بيك سيداً على سنجقي قيصري وبوظوق شكا علاء الدولة دوالقادر أمره إلى سلطان المماليك قانصوه غوري ، وطلب دعمه. ولهذا السبب أرسل قانصوه غوري فوراً هيئة سفراء إلى سليم.

بعد حديث قانصوه غوري عن الصداقة والمودة في رسالته ، ينتقد تعيين علي بيك شهسوار أوغلو سيداً على سنجقي قيصري وبوظوق. وبعد تذكيره بأن والد علي بيك شهسوار كان يؤجج العداء بين السلاطين العرب والترك (يذكر بمرحلة الفاتح)، ولهذا السبب اعتقل ، وشنق في باب زويلة في القاهرة ، وبما أن هذين السنجقين تابعين له ، فيجب أن تصك العملة وتقرأ خطب الجمعة باسمه.

جرح قلب سليم خان لهذا النوع من الإنذار والتذكير ، فقال للسفير: «إذا كان رجلاً فليستمر بصك العملة والأمر بإلقاء الخطب باسمه في مصر». بعد ذلك أسرع ، ووصل إلى أمام كماخ في 19 أيار/مايو.

تقع قلعة كماخ على رأس جبل تحيط فيها الكروم والبساتين ، وتبدو متينة تشبه قصر. ويكمل جلال زادة وصف القلعة بقوله: «لها أبراج كالجبال ، وجدرانها تذكر بقلعة السماء ، أسفلها وأعلاها مغطيان بالأبراج ، وداخلها مليء بالمخربين الشيعة ، وخنادقها عصية ، وأبراجها مقترنة بالسماء ، وهي صديقة لقبة السماء ، وعالية يصعب عبورها ، وهي برج شامخ يصعب تجاوزه»165.

لهذا السبب اعتقد المدافعون بقيادة محمد بيك بأن السيطرة عليها مستحيلة ، فأبدوا مقاومة شديدة لا تتزعزع أمام محمد باشا بيقلي.

ولكن المدافعين داخل القلعة قطعوا أملهم بالخروج أحياء من القلعة عندما رأوا الجيش المتجانس كالبحار يهب كعاصفة شديدة. بدأت المدافع الشبيهة بالتنانين تخلط الأسوار والحصون فيما بينها ، وشجعان الإنكشارية لا يسمحون لأحد بأن يمد رأسه من الأبراج بواسطة طلقات بنادقهم. بعدئذ بدأوا يصعدون الجدران التي قيل إنها عصية على التسلق ، ويزينونها برايات سلطان السلاطين.

بدأت الوحدات العثمانية بحصار القلعة ظهراً ، وأنهت الأمر عصراً. قطعت رؤوس قادة القلعة. وعندما دخل سليم خان إلى القلعة ، تلا الآية الكريمة: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ... } ، وشكر ربه. وأمر بإصلاح الصدوع التي أحدثتها طلقات المدافع الحارقة. وبعد أن ترك فيها ما يكفي من الحراس والمؤن ، سلَّم إدارتها لأحمد بيك قراتشين أوغلو من السادة المقربين له.

نهاية مقاطعة دوالقادر

بعد أن أمَّن سليم خان الانضباط في كماخ ، ذهب إلى سيواس. لقد جاء دور مقاطعة دوالقادر. كان حاكم دوالقادر علاء الدولة بوظقورد بيك تربية السلطان محمد الفاتح ، وحصل على المقاطعة بقوته ، ولكنه انفصل عن العثمانيين في عهد بيازيد خان ، ومال نحو المماليك.

عندما رفع سليم خان راياته للسيطرة على دولة العجم ، أرسل خبراً إلى علاء الدولة عندما مر بقرب مقاطعته ، وطلب منه دعمه ولو بإرسال مؤن. ولكنه تذرع بشيخوخته ، وخشي من مساعدة سليم خان ، ولم يتوانَ عن مهاجمة الأراضي العثمانية أثناء توجه جيشها إلى تشالدران.

بعد معركة تشالدران قلق سيد دوالقادر أكثر ، وكان يحرّض المماليك ضد العثمانيين من جهة ، ويرسل فرسانه لضرب القوافل التي تنقل المؤن إلى الجيش أثناء توجه سليم خان إلى كماخ من جهة أخرى.

سلوك علاء الدولة الأخير حرَّك سليماً بسرعة. أرسل سليم خان سنان باشا المخصي الذي عيّنه سيد سادة روملي بعد استشهاد سلفه حسن باشا في تشالدران مع أربعين ألف مقاتل إلى مقاطعة دوالقادر كقوة طليعية. وعُين علي بيك شهسوار أوغلو دليلاً وطليعياً لهذه القوات. وقد نزل بعد ذلك عند نهر إنجة بين أورغوب وقيصري.

أخذ علاء الدولة بيك خبراً بأن سنان باشا انتفض ، وجاء كسهم يخطف الروح ، فأرسل أموال أهل الإعالة والخزينة إلى جبل طورنا (نور حق) حيث المخبأ في الوقت الصعب.

واعتمد على ثلاثين ألفاً من جنوده المنتخبين ، واستعد للمعركة قائلاً: «لدي معاناتي من العثمانيين ، وإذا كانوا سيأتون ، فلابد لهم أن يروا ما يواجههم».

التقى الجيشان في موقع أوردكلي ما بين غوكصون وأندران (في 13 حزيران/يونيو 1515).

نادى علي بيك شهسوار أوغلو بصوته الجهوري: «أين الذين حصلوا على أعطيات وكرم والدي شهسوار في عهده! والذين ترقوا بمنحه الكثيرة! ليدخل تحت رايتي من يتحدث بمحبة عن والدي ، والمخلص لأقواله ، ورفاقه ومحبوه. ليكونوا آمنين على أرواحهم ورؤوسهم».

خلقت هذه الكلمات تردداً بين تركمان دوالقادر. ومال جزء منهم إلى طرف شهسوار أوغلو166.

مع هجوم الطرفين بعد ذلك ، ارتفع غبار المعركة إلى السماء. السهام المنطلقة من الأقواس تسقط في كل زاوية مسكيناً دون روح. هجوم العثمانيين الكاسح أذهل تركمان دوالقادر خلال فترة قصيرة ، واستدارت وجوههم.

وسقط علاء الدولة بيك بوظقورد وأربعة من أبنائه وحوالي ثلاثين من سادة

مناطقه المشاهير وكثير من المقربين. ألقي القبض على أخيه عبد الرزاق بيك مع أولاده ، وقدموا لسليم خان.

وهكذا منحت إدارة مقاطعة دوالقادر التي تمت السيطرة عليها تماماً لعلي بيك شهسوار أوغلو تحت الحاكمية العثمانية العليا.

ومقابل خدمات سنان باشا المخصي بإزالة عائلة دوالقادر بحملة واحدة ، فقد عيّنه سليم خان وزيراً أعظم إذ كان هذا المنصب شاغراً منذ فترة ، ودون أن يكون وزيراً من قبل.

فتح دوالقادر أدخل نواحي حلب ودمشق المملوكيتين تحت التهديد. قلق السلطان المملوكي هذه المرة بشكل خطير. ووجه الأمراء المماليك للسلطان كلمات ثقيلة ، وأدانوه لاتخاذه موقفاً متراخياً.

من جهة أخرى ، أرسل سليم خان لسلطان المماليك قانصوه غوري رسالة فتح مع رأس علاء الدولة المقطوع لأنه حاول حماية عائلة دوالقادر ، وتسبب بمد اليد على أرضه ونهبها من أجل أن يخيفه.

قدم سفير العثمانيين المدعو سيف الدين بيك في القاهرة لقانصوه غوري رسالة سليم خان ورأس علاء الدولة المقطوع في صندوق (921/1515).

عندما رأى السلطان المملوكي هذه الحال ، خاف ، وقال للسفير: «لماذا يرسل إليّ هذا ؟ وهل هذا رأس إفرنجي ليرسله لي كدليل على نجاحه ؟» ومرض نتيجة تأثره.

ونتيجة امتنان سليم خان من فتح مقاطعة دوالقادر منح كل فارس ألف فضية. عندما وصل إلى قيصري أعطى إذناً لجنود الأناضول وقرامان. بعدئذ انطلق في طريق إسطنبول.

التحقيق

مضت مدة خمسة عشر شهراً على انطلاق السلطان سليم الجبار من إسطنبول في الحملة على الدولة الصفوية. وصل إلى سهل تكفور في غبزة في تموز 1515 ، وانتقل من مرسى ديل بزورق إلى قصر طوب قابِ.

وقد جُرِح قلب سلطان السلاطين بشكل عميق من رجال الدولة الذين حرضوا الجنود أثناء الحملة. ولهذا السبب بدأ التحقيق بالأمر بعد عودته بشهر.

قبل كل شيء استدعى الوزراء فرادى إلى غرفة الطلب ، وحقق معهم. استدعى بعضهم مرات عديدة ، وضغط عليهم بأسئلة: «من تدخل بهذه الأحداث ، ولماذا ؟» بعد ذلك استدعى كبار مجموعة الإنكشاريين ، وأخضعهم لمساءلة صعبة: «من شجعكم على العودة من حملة العجم ؟ من حرضكم على نهب بيتي بيري باشا وحليمي جلبي في أماصيا ؟» وعندما لم يجيبوا عليه ، قال لهم: «إذا لم تخبروني بالحقيقة سأنسحب من السلطنة» ، قال الإنكشاريون طالبين العفو: «كلنا مذنبون». ولكن سليم خان لم يقتنع بهذا ، وعمّق التحقيق. قابل هذه المرة القادة من العساكر فرادى ، وحاول إقناعهم بالكلام.

«كما تعرفون ، يجب عيكم إطاعة أولي الأمر. وإذا لم تطيعوهم فأنتم تخالفون القرآن. أنتم تجعلونني سلطان سلاطين ، ولكنكم تختلفون في أوامري. هل سأكون عليكم سلطاناً على هذا النحو! اعرفوا جيداً أنني لست راغباً في هذا المستقبل ، والعرش. تكفيني زاوية من هذه الدنيا الفانية. من أخذ معه شيئاً من هذه المهنة ؟».

قال النافذون من الإنكشارية: «يا سيدنا! ليسعدك جناب الحق ويفتحها بوجهك دائماً. نحن لسنا النمل الذي يمتحنه سليمان زماننا. أطعنا كل أمر أمرتنا به ، ووضعنا رؤوسنا في سبيل كل أمر.

لم يسحب أحد من سلاطين آل عثمان قبلكم جنداً إلى تبريز. يا دولة سلطان السلاطين! نحن خربنا ملك أذربيجان بأمرك. ومرغنا وجه شاه الشرق بالتراب ، وسرنا حتى تبريز. لو أمرتنا أيضاً لسرنا حتى هرات»[167].

أخيراً لم يصمد البعض أمام إلحاح سليم خان ، فرووا ما حدث. وشوا بالقاضي عسكر المشهور جعفر جلبي تاجي زادة ، والوزير الثاني إسكندر باشا ، وكبير حراس قلاع الحدود عثمان بيك.

استدعى سليم خان إسكندر باشا وعثمان آغا فوراً ، وروى لهما ما فعلاه ، وما قيل. لم يجيبا ، وصمتا. إثر هذا أمر بضرب عنقيهما.

بعدئذ دعا القاضي عسكر جعفر جلبي تاجي زادة. قال له طالباً فتوى: «ما عقوبة من يحرض جند الإسلام على عدم الطاعة ، والتمرد ؟» قال جعفر جلبي: «إذا ثبت الأمر ، فعقوبته الإعدام». قال له: «فسادك ثابت بما شهدناه من قبل ، والآن بإفادة الشهود. أعطيت فتوى بحق نفسك». وأمر بإعدامه (18 آب/أغسطس 1515).

بعد هذه الحادثة ، أنهى السلطان سيلم الجبار طريقة تعيين آغا الإنكشارية من الذين يترعرعون في الثكنة خوفاً من تمردهم ، وأحل محله أسلوب اختيار أحد المتربين في القصر ، والذين يمكن الوثوق بهم أكثر. وهكذا عين يعقوب مير علم أول آغا بهذه الطريقة.

كانت نشاطات سليم خان مستمرة دون توقف. فهو يعمل على تأمين تأثيره على الجند وتقوية روابط الانضباط الإدارية من جهة ، ويبذل الجهد ما استطاع من أجل إصلاح القوات البحرية التي أصبحت لا تلبي حاجة الدولة من جهة أخرى.

وكان يحضّر للسير باتجاه الشاه للمرة الثانية في الربيع القادم من جهة ، ويراقب التطورات في الشرق عن قرب ، ويقوي نفوذه في المنطقة من جهة أخرى.

لماذا تصرف على هذا النحو ؟

تعرضت مواقف سليم خان الحادة من الصفويين ، وبعض ممارساته إلى انتقادات المؤرخين أحياناً. في الحقيقة أن هذا الأمر ليس نابعاً من أفكار اليوم. فقد كان هناك تردد إزاء ما فعله في عهده ، وبعد عهده.

وبالفعل فقد نقل المؤرخ الشهير الشيخ سعد الدين أفندي عن والده حسن جان حديثاً جرى مع السلطان سليمان شهده شخصياً ، وهو مهم إلى أبعد الحدود على صعيد إبراز طريقة تفكير سليم خان ، وغايته.

«روى لنا المرحوم والدي: التفت إليّ إبراهيم باشا في حضرة السلطان سليمان خان الشهير والكريم ، وقال:

(كنت رفيق المرحوم السلطان سليم ، وحافظ أسراره. ولا شك أن لديك معلومات مؤكدة حول السبب الحقيقي لما فعله. كانت هناك بعض الاعتراضات على مواقف المرحوم والد حضرة سلطاننا. إذا كان لديك تفسير لهذه التصرفات ، فيريد سماعه).

تدخل سلطان السلاطين في هذه النقطة من الكلام: (لا يبلغ بنا المقام الاعتراض على ما فعله المرحوم والدنا. حاشانا من الاعتراض على أفعاله. أبلغنا أنت بشكوكك). فتابع إبراهيم باشا بالسؤال: (في البداية ، تفرض القواعد بأن ينقل الرسول ما يحمله من كلام ، وبما أن كل شيء واضح ، ومعروف ، وهناك مقولة ناقل الكفر ليس بكافر ، كيف تفسر إلقاء سفراء الشيعة في السجن؟ وهل من المناسب سجن سيد مثل المير عبد الوهاب الرجل المبارك الذي أفنى عمره بالعلم؟) وأنا قلت: «يا لما تحمله حضرة سليم خان ليجذب الشيعة إلى ساحة الحرب ، وقد ابتلع دماً كثيراً من أجل هذا. كان على علم بأن تأجيل السيطرة على إيران إلى السنة التالية نتيجة معارضة الوزراء والجنود ستجعل الشاه إسماعيل يختار طريق الهرب ، وإسدال ستارة الاختباء عند الوصول إلى هناك. ما زال يشعر بألم ضربة القبضة الحديدية الشوكية في رئتيه ، وبأثر الركلة على رأسه في ذاكرته ، وهذا ماثل أمام عينيه. ومجيؤه إلى الميدان هو نتيجة الغفلة والغرور. بعد أن رأى السقوط والانكسار في نفسه ، والقوة والقدرة في هذا الطرف ، وندم على المجابهة السابقة ، فهل سيفكر بالمواجهة ثانية؟

لقد عامله سليم خان معاملة تُسقط الحقد في قلبه ، لكي يتسرب سم الحزن إلى فؤاده ، ويخرج إلى الساحة باندفاع الجاهل ، ويهلك. وسينشب الخلاف بين أولاده الصغار ،

وبهذا يفتح الطريق لفتح إيران. حتى إن سليم خان كان يقول: (ليس لدى هذا اندفاع حسن الطويل. لم يصبر حسن الطويل كل هذا على الحزن والكدر ، ولم يستطع احتماله. أما هذا فسيقضي وقته بشرب الكحول ، ويحتمل الآلام التي تحرق قلبه وتكويه).

وفي الحقيقة أن الشاه إسماعيل كان يملأ الكؤوس ، ويفرغها ليلاً نهاراً من أجل أن ينسى. وكان يبقى ثملاً على الدوام بحيث لا يستطيع استخدام عقله. لقد بدا وكأنه نسي أحوال الدنيا. ولم يحتمل جسمه المشروب في النهاية ، وثقب كثيراً من أحشائه ، وهكذا أغمض عينيه على الحياة.

(لهذا السبب كان السلطان سليم يعذبه عذاباً معنوياً من أجل جره إلى ميدان الحرب ثانية. أما السيد مير عبد الوهاب فقد وعد الشاه بجلب السلام له ، وقد جرح منه لأنه مثل بين يديه بلباس أعداء الصحابة).

قال له إبراهيم باشا هذه المرة: (أنت تعرف أن العرف والقانون هو التصرف على شاكلة مواقف السلاطين السابقين. هل كان تزويج زوجة الشاه لرجل آخر تصرفاً مناسباً ؟).

حسن جان: (اتخذ قراره هذا بعد استشارة العلماء. وهل من الممكن الاعتراض على ما أباحه الشرع الشريف ؟ وخاصة أن الذي تزوجها هو أحد كبار العلماء. لو لم يكن الأمر متوافقاً مع الشريعة ، كيف يعقد عليها ؟ والمعروف أنه ليس لدى أولئك عقد إسلامي. يتزوجون زواج متعة. ويعيشون في أغلب الأحيان دون عقد. وهناك روايات شائعة تقول إن الشاه كان يدخل بيت الكبير والصغير ، ويتعدى على محارمهم بشكل قبيح. وقد أعجب بالخاتون المتوجة وهي زوجة أحد السادة ، وأخذها. وغالبية النساء جمعهن بطرق شبيهة. وفي هذه الحال ، لماذا سيتعارض زواج الخاتون المتوجة من عالِمٍ ناضج وحكيم مع التقاليد والقوانين!)

سأله إبراهيم باشا هذه المرة: (وما ذنب التجار ليجمع أموالهم ؟)

ردَّ حسن جان على هذا السؤال أيضاً: (بواسطة هؤلاء التجار الملاعين كانت

أدوات الحرب ومعداتها تنقل إلى الأناضول لتغرقه في الدم والنار. كان هناك حديد وفضة وأسلحة إلى جانب البضاعة التجارية التي يحملونها. عندما عرف سليم خان بهذا، اتخذ التدابير اللازمة فوراً. وأعلن أحكاماً صارمة ومؤلمة. وحتى إنه منع التجارة مع الديار العربية لأنها تعمل بالتجارة مع إيران. وبهذا أخرج من رؤوس التجار حب الربح السهل، وسوَّد شغفهم بالغنى. ولم يعطِ التجارَ إذنَ نقل البضائع إلى الديار العربية إلا بعد ما ضم هذه الديار إلى الديار العثمانية بإذن الحق تعالى.

على الرغم من هذا فإن الكتّاب لعبوا على عدم ذكر البضائع بوضوح في وثائق التخصيص، وبدأوا يملؤون البيانات بحسب أحكام إخراج البضائع. وهكذا فإن التجار الذين يخربون البيوت، بدأوا يأخذون القماش إلى ديار الشيعة. غضب سليم خان من إعادة فتح الباب الذي أغلقه في سبيل المنافع الدنيوية. وضع أصحاب النظرة القصيرة المبتلين بالسفاهة أموالهم في خزائن الطمع، فأخذها، وجمعها في مخزن سليم بحسب ما تقوله الآية: {وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ... }. وقرر أن يختم أكياس الأمل العائدة لتجار الروم بخاتم (الحارس المحروم)، ويبعدها عنهم فترة. وبقي الأمر على هذا النحو حتى لا يؤذى أحد نتيجة البيع والشراء، ولا تؤذى الدولة باسم العمل في التجارة...

على الرغم من هذا فإن البضائع المصادرة والأقمشة الحريرية سجلت كلها في دفتر الحقوق لتعطى لأصحابها عندما يحين الزمن المناسب. العدالة لدى بنو عثمان تعتمد على مبدأ الدفاع عن حقوق الشعب، وكان قد وضع في عقله الذي يفكر بأدق التفاصيل بأن البضائع المجموعة لن تنتهك. إيمانه بأن من سيحل محله بإدارة الدولة سيجد حلاً لهذا الموضوع إذا لم تُردّ قيمة البضاعة في حياته، وثقته بحضرة سلطان السلاطين الذي سيكون ظل العالم (ابنه سليمان) كاملة. لهذا السبب لم يتسرع كثيراً في الموضوع المذكور»168.

أعجب سليمان خان بإجابات حسن جان كثيراً، وقال معرباً عن امتنانه: «إنه تطبيق مذهل، وبمكانه»، وقد خَلَعَ عليه خلعة وأحسَنَ عليه بكثير من الفضيات169.

ضم شرق الأناضول

كانت ديار بكر أهم المدن وقلعتها أهم القلاع الواقعة على حدود الدولة الصفوية وبيدها. لا يمكن للعثمانيين أن يهددوا الدولة الصفوية إلا إذا أخذوا هذه المنطقة. ونتيجة إدراك الأهمية الاستراتيجية الكبرى لأن تكون الحدود في الشمال كماخ وإرزنجان وبايبورت ، وفي الجنوب ديار بكر ، فقد تقررت السيطرة على هذه المناطق.

كلف سليم خان إدريس البتليسي بمهمة ربط شعب هذه المنطقة الكردي بالدولة العثمانية لأنه سني يؤمن بالعقيدة نفسها ، ولمعرفته بتفاصيلها وعاداتها وتقاليدها.

يُذْكر إدريس البتليسي في المصادر بأنه يرتبط بأبناء عثمان بحب شديد ، وصاحب ورع وتقوى ، ويتحدث بتأثير جميل ، ويؤسس عرشاً في القلوب بكلامه وحديثه ، وهو كريم وعالم170 ، وهو ابن حسام الدين علي الفاضل العالم الذي عمل كاتباً في قصر دولة الغنم الأبيض في عهد حسن بيك الطويل. وعلَّم ابنه تعليماً جيداً ، ورباه تربية ممتازة. وبدأ إدريس البتليسي يعمل كاتباً للقصر في زمن ابن حسن الطويل يعقوب بيك. وكان يعقوب بيك يعزه ويكرمه بسبب علمه وعرفانه ، ويصطحبه معه في أسفاره. واستمر السلطان رستم وإلوند بيك باحترام إدريس البتليسي وتقدير بالشكل نفسه بعد وفاة يعقوب بيك.

عندما أنهى الشاه إسماعيل دولة الغنم الأبيض عام 1501 ، وضم إلى حاكميته الدولة التابعة لها ، اضطر إدريس البتليسي لترك تبريز. فعل هذا لأنه على علم بأنه لن يستطيع الاستمرار مع الشاه إسماعيل الذي أعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة. لأنه كتب عن حركة الشاه إسماعيل بأنها تتبع مذهباً باطلاً.

لهذا السبب جاء إلى معية السلطان العثماني بيازيد خان الثاني. واحترمه بيازيد خان ، وأدخله قصره ، وخصص له راتباً ، وطلب منه أن يكتب تاريخَ العثمانيين. وقد التزم بهذا الأمر ، وألّف كتاباً منظوماً يتألف من ثمانين ألف بيت بالفارسية بعنوان هشت

بهيشت.

شارك إدريس بتليسي الذي نال التفات السلطان سليم خان بحملة تشالدران.

وها هو سليم خان يكلّف هذا العالم الكبير بمهمة عظيمة وهي الذهاب إلى الأماكن التي يسكنها الكرد في جنوب شرق الأناضول ، ويكسبهم للدولة العثمانية.

من جهة أخرى فإن السنة الشافعيين الذين يشكلون غالبية أكراد جنوب شرق الأناضول قد فرحوا جداً بانتصار سلطان سلاطين العثمانيين على الشاه إسماعيل. فلم يكونوا يؤدون طقوس دينهم كما يريدون نتيجة قمع الصفويين وظلمهم. والآن حانت لهم الفرصة التي انتظروها منذ سنين. وكان أهالي ديار بكر قد طردوا القائم مقام الذي عينه أوسطاجا أوغلو عندما ذهب إلى معركة تشالدران ، وأبلغوا السلطان سليم بولائهم له. أما في بتلس فقد انطلق أشرف بيك ضد أخيه خالد بيك الذي أنزل الراية العثمانية في سنجقه ، وبدأ يحكم باسم الشاه. ألقي القبض على خالد بيك ، وأعدم في مرند. ومالك خليل أيضاً المنحدر من نسب الأيوبيين ، وحاكم قلعتي حسن كيف وسعرت ، رفع رايته لصالح سلطان السلاطين العثماني.

إزاء هذه التطورات ، أدرك الشاه إسماعيل أنه على وشك أن يفقد المنطقة كلها. فدفع قوة كبيرة إلى المنطقة بقيادة قرة خان شقيق أوسطاجا أوغلو. وصل قرة خان بسرعة إلى تشاباقتشور ، وانتظر بداية قادة ماردين ، والرها ، وحسن كيف التابعين للشاه إسماعيل أن ينضموا إليه. وهكذا لم يسر إلى ديار بكر إلا بعد أن قوي أكثر. كان أهل ديار بكر يستعدون للدفاع عن أنفسهم ، وفي الوقت نفسه أرسلوا هيئة إلى سليم خان الموجود في أماصيا طالبين المساعدة. وقد أرسل سليم خان وحدة منتخبة من الإنكشاريين بقيادة البطل أحمد الشجاع الذي هو من ديار بكر أصلاً.

انطلق أحمد الشجاع بهذه الوحدة الضاربة من أماصيا ، ووصل إلى أمام ديار بكر خلال فترة قصيرة. وانقضّ على الأعداء في ليلة ليلاء كالكابوس. شق صفوفهم ، ودخل

المدينة من باب الروم.

دبت حمية جديدة في نفوس أهل ديار بكر عندما شاهدوا أبطال سلطان السلاطين الشجعان. وأثناء فتح السلطان سليم كماخ والسيطرة على مقاطعة دوالقادر دافعوا عن مذهبهم وبلدهم ببطولة فترة طويلة أمام القرامانيين. ولكن خسائرهم وهمومهم وصلت إلى مستوى غير محتمل ، وخيم عليهم الحزن.

إثر هذا أرسلوا إدريس بتليسي مرة أخرى إلى سلطان السلاطين طالبين المساعدة. عندما وصل إدريس بتليسي إلى حسن كيف ، قابل المراسل القادم من عند السلطان سليم. يقول سليم خان في رسالته بأن قضية دوالقادر قد حُلت ، وأن الجنود عائدون إلى العاصمة من أجل الراحة ، وقد كلف محمد باشا بيقلي بإنقاذ ديار بكر. وأوصل إدريس البتليسي هذه البشارة بواسطة حمامة زاجلة إلى المدافعين الغيورين عن المدينة.

التقى إدريس بتليسي في هذه الأثناء سادة تشمشكزك ، بالو ، بتليس ، حيزان ، حرير ، وحسن كيف وحاصون ، وأبلغهم بنوايا سليم خان الطيبة نحوهم. وأكد عليهم ضرورة الوقوف إلى جانب جيش سلطان السلاطين في سبيل الدفاع عن دينهم ومذهبهم. تحمس سادة الكرد بخطاب البتليسي ، واستقبلوا جنرال سلطان السلاطين المقتدر محمد باشا بيقلي في حسن كيف بعشرة آلاف متطوع.

سُرَّ محمد باشا بيقلي بهذا الاستقبال أكثر من اللازم ، وسار باتجاه ديار بكر دون إضاعة للوقت. لم يستطع جنود قراخان المواجهة ، فانسحبوا إلى نواحي ماردين.

في 10 أيلول /سبتمبر 1515 دخلت رايات سلطان السلاطين التي ترفرف بالنصر إلى ديار بكر وسط دموع فرح أهل ديار بكر.

السياسة الدقيقة

لم تكن العلاقات جيدة بين دولة المماليك مركز الخلافة والعثمانيين منذ مرحلة

الفتح. من المحتمل أن آخر حملة عزم عليها الفاتح كانت على المماليك. ولكن وفاة سلطان السلاطين حالت دون نشوب صراع واسع. بعد ذلك احتضن المماليك السلطان جم في صراعه على السلطنة مع أخيه بيازيد الثاني خان ، وحتى إنهم أطلقوه في الأرض العثمانية مما أدى إلى تأجج الصراع. لهذه الأسباب وأسباب أخرى فإن الحروب التي بدأت بين العثمانيين والمماليك عام 1484 استمرت حتى عام 1491 ، وتسببت بخسائر بشرية ومادية كثيرة.

بعد ذلك عقدت هدنة مؤقتة نتيجة تطورات الأندلس ووساطة بعض الدول الإسلامية. ثم سارت العلاقات بين الدولتين بجو من الود حتى عهد سليم خان.

كانت دولة الصفويين منافسة أخرى للدولة المملوكية إلى جانب الدولة العثمانية. أصبح الصفويون كابوساً على الدول الإسلامية السنية مع تسلم الشاه إسماعيل الحكم ، وبالتالي فهي تهديد محدق بالمماليك أيضاً. بعد أن أخذ الصفويون العراق وشرق الأناضول من دولة الغنم الأبيض ، ودخلوا مقاطعة دوالقادر التابعة للماليك ، وهزموها ، وقاموا بالعمل الدعائي عن طريق الخلفاء الذين يرسلونهم ، وقطعوا أوصال العالم الإسلامي ، بدأ المماليك يرونهم أشد خطراً من العثمانيين.

لهذا السبب فإن الصراع بين العثمانيين والصفويين ، وانتهاءه بانتصار العثمانيين في تشالدران أسعد سلطنة المماليك السنية ، وأقيمت الاحتفالات بمناسبته في سورية ومصر.

من جهة أخرى فقد أقلق المماليك كثيراً إنزال سليم خان ضربة قوية بالصفويين ، وبعدها إزالته لمقاطعة دوالقادر.

هذا ما فتح الآن الباب أمام الصراع بين القوتين الكبيرتين في العالم السني بعد أن كانتا تتجنبان الصراع في عهدي الفاتح وبيازيد الثاني.

كان رد سليم خان حاداً على إرسال السلطان المملوكي قانصوه غوري هيئة سفراء

للإبلاغ والتحذير بأن أي حركة ضد مقاطعة دوالقادر ستعد حركة ضده. ولم يكتف سليم خان بهذا، وعندما أزال مقاطعة دوالقادر، أرسل رأس الحاكم المقتول إلى سلطان المماليك الذي يعتبره عنصر تهديد.

من جهة أخرى فإن فشل هيئات النوايا الحسنة التي أرسلها الشاه إسماعيل إلى العثمانيين من أجل عقد سلام، أدهشته، ولم يعد لديه أي شك بأن سليم خان سيهاجمه مرة أخرى. وكمخرج أخير، أرسل هيئة سفراء إلى المماليك. وقال في رسالته:

«إذا هاجم سليم خان العجم مرة أخرى، فليس هناك من يستطيع الوقوف في وجهه. وبعد أن يأخذ العجم، سيكون العرب هدفه. لأن الصراع بينكم وبينهم في عهد والده السلطان بيازيد معروف. فقد هزمتم الجيش العثماني مرات عديدة، وأهنتموه. ونهبتم مدنهم. كان سليم حينئذ في طرابظون، ومن المؤكد أنه على علم بهذه الأمور. ولا يمكن له أن ينساها، ويتركها دون رد. عندما يهاجمنا، هاجموه أنتم أيضاً من الخلف، ولنعمل معاً على القضاء عليه. لم يعد لدينا حل آخر»171.

إثر هذا العرض، أرسل قانصوه غوري أحد رجاله المدعو تشانقجي العجمي إلى الشاه بسرعة على الرغم من اعتراض العلماء السنة بعد أن كان متردداً بالتدخل في شؤون سورية. وهكذا وجد المماليك في الشاه إسماعيل حليفاً جديداً على الرغم من اختلاف المذهب بينهما.

يقول قانصوه غوري في رسالته متمادياً: «بعد القضاء على سليم خان، ليكن ملكه لك. لا يلزمني شيئاً منه» سُرَّ الشاه إسماعيل كثيراً من هذه الرسالة، وأرسل قرة خان إلى منطقة ديار بكر، وأعلن له بأنه سيقف إلى جانبه في مواجهته مع سليم في حال تحركه ضده.

كتب سليم خان: «أنت والدي. أريد دعاءك لي. أنا دخلت بلد علاء الدولة لأنه تمرد عليّ. وهذا الرجل هو الذي أوقع الفتنة بين المرحوم والدي والسلطان قايتباي. وحسن

أنه مات. وإذا أعجبكم شهسوار زادة الذي عين مكانه ، فاتركوه ، وإذا لم يعجبكم ، فغيروه. هذا الأمر يعود إليكم. أنا أعيد إليكم الأرض التي أخذتها من علاء الدولة. ومستعد لفعل ما يريده السلطان». وأرسل لقانصوه غوري فراء سمور ، ومخملاً ، وأقمشة صوفية ثمينة جداً مع الرسالة.

ويقول في رسالة أخرى أرسلها مع كثير من الهدايا أيضاً: «السلطان والدي. أريده أن يدعو لي. ولكنه يجب ألا يتوسط بيني وبين الشاه إسماعيل. أنا لن أعود قبل أن أزيل خيمة الشاه من الدنيا. يجب ألا يتدخل بيننا من أجل الصلح»172.

كان سليم خان يتلقى أخباراً عن ترتيباته في سورية ومصر بشكل منتظم. علم بأن العلاقة سيئة بين السلطان المملوكي ووالي حلب خاير بيك. لهذا السبب تمكن من جذب خاير بيك إلى طرفه بمختلف الوعود. كان خاير بيك يرسل كل أنواع المعلومات إلى الطرف العثماني. وإذا كان والي دمشق قد أبلغ السلطان المملوكي بموقف خاير بيك المؤيد للعثمانيين ، فإن قانصوه غوري لم يعر هذا الأمر اهتماماً. واعتبر كلام سيباي افتراء نتيجة التنافس بينهما.

من جهة أخرى ، كان غوري مسروراً من الصراع بين العثمانيين والشاه إسماعيل. هذا الوضع يحمي بلده من المخاطر على الأقل. لهذا السبب ، على الرغم من امتنانه من رسائل سليم خان ، لم يكن يتوانى عن اتخاذ التدابير اللازمة. ومن هذه الاحتياطات أنه أخذ قاسم ابن الأمير أحمد البالغ الخامسة عشرة من عمره عندما لجأ مع والده وأستاذ والده إلى حلب ، ووضعه في القاهرة من أجل الاستفادة منه عند اللزوم.

قضى سليم خان الشتاء في أدرنة ، وفي ربيع 1516 حرك الوزير الأول سنان باشا المخصي مع أربعين ألف جندي من مرعش باتجاه الفرات. بدت الحملة ضد الشاه إسماعيل. وقد أرسل رسالة إلى المماليك مرة أخرى حول هذا الوضع.

كان سنان باشا سيأخذ القوات المجتمعة في قيصري ، ويطلب الإذن من

المماليك ليذهب إلى ملاطيا عبر ديار بكر. وإذا اعترضته صعوبة أو عائق في الطريق ، سيبلغ سلطان السلاطين بالأمر فوراً. وهكذا سيستطلع سلطان السلاطين موقف المماليك المحتمل.

إثر الأمر الذي تلقاه سنان باشا المخصي ، فإنه مكلفٌ بعبور الفرات ، والذهاب إلى ديار بكر ، وإبلاغ قادة حرس الحدود المماليك بالأمر ، وطلب الإذن منهم. ولكن قادة حرس الحدود المماليك الذين أرسلوا قوة إلى حدود سورية ، رفضوا طلب سنان باشا بأسلوب جاف.

وإزاء تلقي قانصوه غوري خبر اتجاه سنان باشا نحو حدوده ، حرك قوة مؤلفة من خمسين ألف مقاتل مع الأمير قاسم نحو دمشق. وترك في مصر مكانه ابن أخيه طومان باي.

إزاء هذا الوضع أبلغ سنان باشا المخصي السلطان سليم بهذه التطورات كلها. كان سليم خان على علم بأن مجيء قانصوه غوري نحو حلب هو التزام باتفاقه مع الشاه إسماعيل. لهذا السبب ، غضب كثيراً عندما علم بالأمر. جمع العلماء ، وأخذ آراءهم.

أخذ حق الكلام محمد باشا خوجا زادة الذي ترفع من حامل خاتم السلطان إلى وزير ، وهو في الوقت نفسه من رجال العلم ، وقال مبيناً ضرورة التوجه نحو المماليك: «ما يلزمنا هو ضرب من يريد شراً ببلدنا بالسيف ، والوقوف في وجه العدو حيث يكون». ويعبّر الشيخ سعد الدين أفندي عن أفكاره بهذه الأبيات:

من الشيعة كان أو الشركس	لا نعطي مجالاً للعدو ولو لحظة
ويضرب بقوة بكل إحساس	منهم من يستل سيفه في المعارك
نحن نشهر الساطور بوجههم	لأن الشركس وقفوا مع الشيعة
من يقف مع عدوك هو عدوك[173]	كل من يحب أولئك القوم منهم

غير هذا، سأل سلطان السلاطين شيخَ الإسلام علي أفندي الزنبيلي: «تبين أن سلطان مصر نهض، وجاء ليقطع الطريق أمام جند الإسلام مع تحركهم إلى دول المشرق في سبيل الدين المبين. هل يتوافق مع شرع الرسول الأصيل الحرب والقتال مع سلطان سلاطين العرب، ويبدو عليهم أنهم مسلمون؟».

وقد رد علي أفندي الزنبيلي بالفتوى التالية التي تشجع على التوجه نحوهم: «بحسب ما ذكرتم فإن الهجوم على قاطع الطريق مناسب. قتالهم والحرب ضدهم جهاد وغزو. ومن يموت من المجاهدين المقاتلين هو شهيد»[174].

لم نستطع التشبه بهم!

إضافة إلى الأسباب الظاهرية هذه، فقد رأى سليم خان إشارة تفيد بأنه عُين خادماً للحرمين. الحدث كما رواه الشيخ سعد الدين أفندي نقلاً عن والده حسن جان الذي عاشه بنفسه جرى على النحو الآتي:

يروي نديمُ سليم الجبار حسن جان:

«كان حضرة سلطان السلاطين أسكنه الله فسيح جنانه لا ينام في أكثر الليالي، ويسلي نفسه بقراءة الكتب. أحياناً يطلب مني أن أقرأ، وهو يستمع. وأحياناً يفتح موضوعاً حول نظام العالم، ويناقش ما يمكن عمله. ذات ليلة لم أذهب إلى خدمته نتيجة وعكة صحية، وتمددت في الفراش محاولاً النوم. ونتيجة بقائي عدة أيام مؤرقاً، لم أستطع الاستيقاظ حتى الفجر. أديت الصلاة فوراً، وهرعت إلى خدمته. سألني: لم تظهر هذه الليلة، ماذا كنت تفعل؟

اعتذرت منه، وقلت له إنني غفوت نتيجة بقائي عدة ليال مؤرقاً، فبقيت بعيداً عن الخدمة. فقال لي سليم خان: اروِ لي الحلم الذي حلمت به إذاً.

أجبته بأنني لم أرَ حلماً يستحق الرواية. فقال: ما هذا الكلام؟ تمضي ليلة كاملة

بالنوم ، ولا ترى حلماً! لابد أنك رأيت. لا تخفِ الأمر ، هيا اروِ.

فكرتُ كثيراً ، ولكن شيئاً لم يخطر ببالي. بعد أن تبادلنا الحديث بمواضيع أخرى فترة ، عاد سلطان السلاطين إلى القضية نفسها ، وقال: إيه ، هيا لماذا تصمت ؟ لا تتحدث بكلام عبثي. اروِ حلمك! ونتيجة إصراره ، أجبته: فكرت كثيراً ، ولكنني لم أتذكر شيئاً ، وأقسم لك أنني لم أرَ شيئاً ذي قيمة. هز برأسه المبارك إلى الطرفين ، واستغرب كثيراً. كأنه حزن لاعتقاده أنني أرفض رواية الحلم. وأنا أيضاً استغربت إلحاح سلطان السلاطين إلى هذه الدرجة. دهشتُ قائلاً لنفسي لابد أن هناك حكمة في الأمر.

لم يلح بعد ذلك. بعد فترة ، أرسلوني إلى بابه بقصد الخدمة. عندما وصلت وجدت آغا الباب حسن ، ومحمد آغا مسؤول الخزينة ، ومسؤول المؤونة وآغا القصر يجلسون بهدوء ، ويتحدثون. ولكن آغا الباب حسن كان مطرقاً يفكر ، ومندهشاً ، وعيناه مغرورقتان بالدموع.

في الحقيقة أن حسن آغا قليل الكلام ، وهادئ ، وحسن الطباع ، ويؤدي التهجد. عندما رأيته بهذه الحال ، اعتقدت بأن أحد المقربين منه قد توفي ، وقلت: يا حضرة الآغا ، يبدو أن قلبك مقبوض ، وعينيك دامعتان. ما السبب ؟ حاول إخفاء حالته بقول لا يوجد شيء. كانت علاقتي بمحمد آغا مسؤول الخزينة أخوية. التفت إلي ، وقال: «يا أخي ، وقع أمر ما في حلمه ، وما زال تحت تأثيره.

فضغطت على الآغا قائلاً: «اروه كرمى لله. لأن سلطان سلاطيننا يلح عليّ من الصباح لكي أروي له حلمي. لابد أن هناك سبباً وراء ضغطه ، وهو هدية جيدة.

قال: «تكرم عليّ ، ولا تطلب أمراً كهذا ، أي حلم يمكن أن يكون لدي يستحق الرواية لسلطان السلاطين. أما محمد آغا فقد قال: «لماذا لا ترويه ؟ عندما رويته لنا ، قلت بأنك مأمور بنقل ما قيل. ألن يكون إخفاؤك له خيانة ؟ فباح الآغا بسره: طرقوا هذه الليلة الباب الذي نجلس على عتبته بقوة في حلمي. اندفعت لأعرف ماذا يجري. ماذا رأيت عندما

فتحت الباب! المكان مليء برجال حاملين الرايات والأسلحة ، وعلى رؤوسهم لفات ، ووجوههم منيرة. وأمام الباب أربعة أشخاص نورانيين يحملون الرايات. أحد أولئك النورايين يحمل راية السلطان البيضاء ، ويبدو أنه هو الذي طرق الباب ، قال: هل تعرف لماذا جئنا إلى هنا ؟ قلت: تفضلوا.

قال: هؤلاء الذين رأيتهم هم صحابة رسول الله. أرسلنا سيدنا رسول الله. سلَّم على سليم خان. لقد أمره بخدمه الحرمين. أنت ترى هؤلاء الأربعة ، هذا أبو بكر الصديق ، وهذا عمر الفاروق ، وهذا عثمان ذو النورين ، وأنا عليٌّ بن أبي طالب. اذهب ، وأبلغ سليم خان... بعد ذلك ، اختفوا من أمام عينيه.

هاجمتني الدهشة ، وفقدت وعيي ، وتصببت عرقاً ، وبقيت فاقدَ الوعي حتى الصباح. عندما جاء الشباب على العادة ، ورأوا أنني لم أنهض على صلاة التهجد ، اعتقدوا أنني مريض. يبدو أن موعد صلاة الفجر يكاد يفوتني ، فأمسكوني من ذراعي ، وأنهضوني. نهضت وأنا أتصبب عرقاً. عاد عقلي إلى رأسي ، ولحقت موعد الصلاة. ولكنني لم أصح إلى نفسي بعد... وكان يبكي وهو يروي.

عدت إلى سليم خان بعد أن أنهيت عملي. فتح الموضوع نفسه قائلاً: غريب جداً أن تنهض هذه الليلة قرب الصباح ، ولم تر حلماً! هل نمت ، واستيقظت مثل الحيوان ؟ قلت: يا سلطان سلاطيني ، إذا لم ير عبدكم حسن هذا حلماً ، فلابد أن حسناً آخر من عبيدكم قد رآه. لأشرح لكم إن أمرتموني. أمرني بالشرح. مع روايتي للأمر كان وجهه المبارك يمتقع بالحمرة. وفي النهاية ذرف الدمع من عينيه. عندما انتهيت ، قال: «يا حسن جان ، أما قلنا لك إننا لن نتجه نحو جهة ما في حملة دون تكليف ؟ حظي والدنا وأجدادنا بشيء من الولاية. ولكل منا كراماته الظاهرة. لم نتمكن أن نكون مثلهم فوراً.

لقد رأى الحلم نفسه سليم خان ، وفي حلمه قالوا له: رأى عبدك حسن هذا الحلم أيضاً. ولهذا السبب قال سليم خان لنفسه: لن يكون هذا سوى حسن جان! لهذا السبب كان يضغط ، ويستغرب من عدم شرحي له. عندما رويت له الحلم ، قال عن آغا الباب: هذا

يعني أن قلبه صافٍ. وأنت عندما تمتدحه لنا ، نسخر منك قائلين: عندما ترى أحدهم يتعبد ربه ، تعتقد أنه ولي. هذا يعني أنك لم تكن تمتدحه دون سبب»175.

أبلغ سيدك بأن يواجهني!

في محاولة البحث عن آخر طريق للسلام ، أرسل سليم خان خبير الكلام الملا ركن الدين زيبق قاضي عسكر روملي وأحمد بيك المعروف باسم قراجا باشا أحد سادة السناجق إلى سلطان مصر ، وحملهما رسالة.

يقول سليم خان في رسالته بعد العطف على أسس الدين الطاهر بأنه ينوي التحرك من أجل القضاء على الشيعة ، وتشتيت شملهم ، وتطهير البدعة المترسخة في ديار العجم بماء من سيوف ، ويطلب منه الدعاء إلى الله ليمكنه من نيل شرف خدمة الحرمين. وأرسل مع هيئة السفراء هدايا قيمة جداً.

أرسل سليم خان السفراء في 4 حزيران /يونيو 1516 ، وفي اليوم التالي انتقل إلى أسكودار. أمر بتجميع القوات في قيصري. عيّن سليم خان ابنه الأمير سليمان محافظاً على أدرنة ، ومحمد باشا بيري على إسطنبول ، وهرسك زادة على بورصة ، وتحرك بسرعة. وفي هذه الأثناء تحرك الأسطول العثماني إلى شواطئ سورية.

وصل سليم خان إلى قيصري في 13 حزيران /يونيو ، واستقبله هناك سادة الأناضول ، وسيد سادته ، وجنوده ، وآغا الإنكشارية. بعدئذ جاء سيد سادة روملي ، واتخذ مكانه.

من جهة أخرى ، عندما وصل قانصوه غوري إلى حلب قادماً من دمشق ، وجد هيئة السفراء تنتظره. استقبلهم فوراً ، وأطلق كلاماً قاسياً وثقيلاً بسبب السيطرة على بلاد دوالقادر. أراد الذين حوله أن يقتلوا السفراء ، ولكنه منعهم ، وأمر بحبسهم.

جاء سليم خان إلى قونية في 26 حزيران /يونيو ، وزار هنا قبور العلماء والأولياء.

واستغل مناسبة زيارتهم وتوسل إلى الله النصر والنجاح. وجعل من الدراويش الساكنين التكيات أصحاب مال وملك.

وأثناء وجوده هنا جاءه خبر انتصار سيد سادة ديار بكر محمد باشا بيقلي مع كثير من رؤوس سادة الصفويين المقطوعة وعلى رأسهم قراخان. الأخبار حول السيطرة التامة على شرق الأناضول ، وتأمين الحاكمية أفرحت سليم خان كثيراً. أرسل رأس قراخان وبقية السادة الصفويين إلى سلطان المماليك. منح الترفيعات والمكافآت اللازمة لمحمد باشا بيقلي وخسرف باشا سيد سادة قرامان باعتبار أن هذا النصر نجاحاً كبيراً لهما إضافة إلى الأمراء والجنود المشاركين بالحرب.

تحرك سليم خان مرة أخرى ، والتقى في 23 تموز/يوليو بقوات سنان باشا ، وتوحد الجيشان في صحراء ألبستان. بقي سليم خان يعلن بأن حملته متجهة نحو الشرق حيث الصفويين حتى وصل إلى هنا. كانت تبريز تعيش حالة من الذعر. لأن الصفويين يمكن أن يُمحوا من صفحة التاريخ بحملة ثانية.

ولكنه ليس من العقلانية ترك المماليك في الخلف بعد أن سجنوا السفراء العثمانيين ، وظهرت علاقتهم مع الصفويين إلى العلن. في 29 تموز/يوليو ، دعا سادة روملي والأناضول وقرامان ، وشكّل ديواناً موسعاً. بعد المناقشات ، تقرر السير باتجاه المماليك. وهكذا فإن نزول سليم خان من ألبستان إلى الجنوب بسرعة قطعَ الطريق أمام الاتفاق الصفوي المملوكي. لم يتحرك الصفويون بأدنى حركة على الرغم من نداءات المماليك بطلب المساعدة ، ومن المحتمل أن يكون السبب هو فرحهم الشديد لتوجه سليم نحو مصر ، وقد نجوا حالياً.

عندما علم قانصوه غوري بأن الجيش العثماني قد اقترب منه ، أطلق سراح السفراء ، وحمَّلهم هدايا عديدة ، وأرسلهم. وقد أرسل سفيراً يدعى الأمير موغول باي دوادار. كان السفير قد أخذ على عاتقه مهمة التوسط بين سليم والصفويين. وصل السفراء في 9 آب/أغسطس عندما كان سلطان السلاطين في بوجاق درة. مثل زيرك زادة هنا بين يدَي سلطان

السلاطين ، وروى له المعاملة المهينة التي تعرضوا لها. كما روى له ، وأثبت بالدليل أن هدف المماليك هو العدوان. وأبلغه أنه اصطحب معه قاسم ابن الأمير أحمد من حماة إلى حلب.

غضب سليم خان كثيراً من سوء معاملة السفراء. بعد ذلك قال لسفير المماليك القادم بأسلحة غاية بالجمال ، ومواقف المحارب مؤنباً: أما وُجد عالم دين يفي حق هؤلاء السفراء ؟ وأنقذت شفاعة رجال الدولة مغول باي من الموت.

أمر سليم خان بحلق رأس مغول باي ، وإلباسه خيشاً مغطوطاً بالزيت ، ووضعه على حمار مصاب بالجرب. وقال: (قل لسيدك أن يواجهني في مرج دابق!) ، وأعاده إلى مقر قيادة جيش المماليك.

انتقد سليم خان هذه المرة قانصوه غوري صراحة في رسالته ، وأبلغه بأنه قادم للهجوم عليه ، وأنه يدعوه إلى ساحة القتال:

«قانصوه غوري! أصلح الله شأنك. عندما يقع بيدك حكمي الشريف الذي يساوي الدنيا ، وإطاعته واجب ، اعرف أن طريقي السامي هو السمو بدين سيدنا رسول الله الطاهر. وقد ظهرت بعض حركاتك المفسدة والظالمة في تلك الأحوال التي تثبت أنك أسفل منهم ، ولذلك حولت وجهتي نحوك.

سأقطع المنازل والمسافات بسرعة بجنودي الذين لا يُقهرون وراياتهم المزينة بأوسمة النصر ، وأدخلُ بلدك. اليوم هو الحادي عشر من شهر رجب (10 آب/أغسطس 1516). وصلت إلى المكان المدعو طوجان درة بسعادة. وإذا كان لديك ولو ذرة من حس الر- أو الشهامة والحمية يجب عليك ألا تختبئ في إحدى الزوايا.

جهّز كل أتباعك ، ولا تقصِّر بعمل ما يناسبك دون أن تدير ظهرك إلى قانون السيف والترس. اسع ما استطعت وكما ترغب وحدد الموقع ، واخرج لمواجهة جندي! وليظهر ما خلف ستارة القدر»176.

أخذ سليم خان بَسْنَةَ في 18 آب/أغسطس. وأثناء وجوده هنا جاء يونس بيك والي عينتاب المملوكي، ومثل في حضرة سلطان السلاطين، وعرض الرغبة بالتبعية له. وأخذ على عاتقه أن يكون دليل الجيش العثماني إلى حلب.

وخرج السلطان المملوكي قانصوه غوري ومعه خليفة بجيشه من حلب، وجاء إلى مرج دابق، ونصب مقر قيادته. في رسالته الأخيرة اعتذر من سليم، وبيَّن أن قدومه إلى حلب لم يكن بيده، وقد تم بناء على إصرار الأمراء. ولكن وصوله إلى مرج دابق في الوقت نفسه يشير إلى أن كل شيء قد انتهى، وأن الكلمة الفصل أصبحت للسيوف.

عندما وصل الجيش العثماني في 23 آب/أغسطس إلى المكان المدعو تل حبش، نشر على الجيش خبراً مفاده: «غداً يوم الحرب!». وأمضوا ليلة مفعمة بالخوف من احتمال مداهمة الجنود الشركس. نام الجنود بسلاحهم وعتادهم، وتركت الخيول دون أن تنزل عنها السروج بحالة استعداد.

معركة مرج دابق

تقابل الجيشان في سهل يدعى «مرج دابق» بتاريخ 24 آب/أغسطس. في هذا المكان يوجد قبر داوود عليه السلام. لقد مضت سنتان بالضبط على نصر سليم خان في تشالدران.

كان قانصوه غوري في مركز الجيش المملوكي. ووضع من حوله أكثر من عشرين ألف جندي من مقاتليه الخاصين، وقوات الإسكندرية، وفرسان الحجاز البدو، وجنود القدس ونابلس وبعلبك، ورماة السهام الطرابلسيين. وفي الميمنة أمير أمراء حلب خاير باي مع فرسان العرب والتركمان، وعلى جبهة الميسرة والي الشام سيباي مع وحداته العسكرية.

فور دخول الوحدات العثمانية إلى الميدان، اتخذت وضعية الحرب بشكل هلال كما اعتادت.

يشكل الجناح الأيمن من الجيش سيد سادة الأناضول زينل باشا ، وسيد سادة قرامان خسرف باشا ، وعلي بيك شهسوار أوغلو دوالقادرلي ، ومحمد بيك رمضان أوغلو ؛ والجناح الأيسر سيد سادة روملي سنان باشا الصغير ، ومحمد باشا بيقلي سيد سادة ديار بكر. أما سلطان السلاطين فقد اتخذ المركز مع الجند النظاميين والمشاة والفرسان. وفي مقدمة الجيش وضعت المدافع المربوطة فيما بينها بواسطة جنزير.

مع شروق الشمس ، سار الجيشان أحدهما باتجاه الآخر وسط صيحات: «الله أكبر كبيراً» ، وتداخلا كبحرين هائجين. الدخان والغبار المتأجج من الطرفين تداخل ، وغطى وجه الدنيا.

مع دخول الجيشين أحدهما بالآخر ، أصبح اليوم كيوم القيامة. هاجم أبطال كل طرف الطرف الآخر بشجاعة. والآن كل يطبق مهاراته بفن القتال.

رماح الشركس تُصوَّب على آباطهم وأوراكهم ، ولا تترك لهم مجالاً كالطاعون.

التي تثنّت بالتصادم		جرح كثيرون بالرماح

رأى سليم خان أن الجناحين يتزعزعان ، فأرسل فوراً الوزير سنان باشا إلى الميمنة ، ويونس باشا إلى الميسرة باثاً القوة بأذرع الجند وقلوبهم. وبدخول نيران المدفعية والبنادق العثمانية من الوسط ، تغير سير المعركة فجأة.

تدفق الجند من اليسار واليمين		بنظرة سلطان تساوي الدنيا

فتضيق الدنيا بعينيه الاثنتين		يصعد الغبار والدخان ببطء

فسكرت السماء ببخار الدماء		سقط فرسان كثيرون أرضاً

اهتز جناح المماليك الأيمن بداية كأنه وسط عاصفة ، ثم بدأ بالتشتت. لم يعد خاير باي يستطيع فتح عينيه من الرصاص والسهام التي يطلقها الجيش العثماني كالمطر ،

فأخذ قواته التي على وشك الانهيار ، وانسحب بسرعة إلى حلب.

رأى قانصوه غوري أن قسماً كبيراً من جيشه قد انهار ، واعتقد أنه تعرض للخيانة ، ولكنه بدا مصمماً على عدم ترك السيف من يده إلى النهاية. وفي الوقت نفسه شجّع جنوده صارخاً: «أيها الأغوات! اصمدوا! هذا هو وقت إظهار الشجاعة. اصبروا ، وكونوا شجعاناً».

في هذه الأثناء بالضبط ، ومع إطلاق مدافع وبنادق قوات المركز ، مرت قذيفة من فوهة مدفع حامٍ كأنها صاعقة قرب أذن قانصوه غوري ، فأذهلت عقله ، وجعلت حالته بالويل. انفجر غشاء الطبل في إذنه. وانهارت قوى رئتيه ، ولم تستطع خفقات قلبه أن تثبته في مكانه ، فألقى بنفسه مع أحد رجاله بصعوبة شديدة خارج ساحة المعركة. فتح سجادة الصلاة على ضفة نهر ، وتمدد. في تلك اللحظة وطأ ديار الحرمان177.

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون إذا جاء أجلهم كائناً من كانوا

بدأ الانهيار العام ، والهلع ، والهزيمة في الجيش المملوكي. عند بقائهم دون قائد ، ارتخت أحزمة بذل الجهد لديهم ، ووقع الجميع بشغف إنقاذ أرواحهم خوفاً من السيوف التي تبتلع الدم. أما الوحدات العثمانية فقد تحولت إلى صيادين يلاحقون طرائدهم. المعركة التي بدأت مع شروق الشمس ، لم تستمر سوى إلى الظهيرة. وتمت السيطرة على مقر قيادة المماليك بما فيه من أشياء178.

بحسب ما نقله صولاق زادة فإن السلطان غوري خرج مغروراً من مصر ، وكان يفكر بالسير إلى إسطنبول ، والسيطرة عليها بعد هزيمة السلطان سليم. لهذا السبب حمل خزينته الممتلئة بالذهب والفضة معه من أجل أن يُكرم جنده. وقد جلب معه مئة قنطار من الذهب الخالص ، ومئتي قنطار من الفضة ، وكانت كلها من نصيب سليم خان179.

بعد المعركة طلب سليم خان التحقيق بوضع قانصوه غوري. كان هناك أسير من أركان السلطان اعترف بمكانه. أرسل سلطان السلاطين أحد رقبائه. وصل الرقيب إلى هناك ، وقطع رأس السلطان المتوفى ، وجلبه إلى الحضرة السلطانية. أثناء انتظار الرقيب

مكافأة مقابل خدمته ، استغرب سلطان السلاطين اعتبار قطع رأس سلطان مهارة. غضب ، وأمر بقطع رأس الرقيب. ولكن نتيجة رجاء الوزراء ، عزله من وظيفته ، وطرده من الحضرة180. بعد ذلك أمر بدفن السلطان وبقية كبار رجال المماليك باهتمام كل حسب رتبته.

كان هناك كثير من الأمراء المماليك المشاهير إضافة إلى السلطان المملوكي بين القتلى. أُسِرَ الخليفة المتوكل على الله الثالث مع قضاة المذاهب الإسلامية جميعاً عدا القاضي الحنفي. بهذا النصر فتح الطريق أمام العثمانيين حتى غزة في فلسطين التي تعتبر عقدة طرق سورية ولبنان ومصر181.

خادم الحرمين الشريفين

قامت الوحدات العثمانية بملاحقة الهاربين من الحرب ملاحقة حثيثة. تحرك الوزير يونس باشا مع قواته بسرعة ، ولاحق خاير باي المنسحب إلى حلب. قطعت الخيول العثمانية الجارية كالريح السهول والجبال. دخلت حلب في اليوم التالي للمعركة. قتلوا من وقف بوجههم ، وجرت المقتلة ، وأُجج غبار الحرب. انسحب خاير باي إلى حماة عندما أدرك أنه لن يستطيع الصمود ، ومنها إلى حمص ، وأخيراً إلى دمشق. ولكن المقاتلين العثمانيين الذين يعملون بأمر يونس باشا استمروا بملاحقته.

في النهاية أدرك خاير باي أن كارثة ستحدث ، فأرسل أحد رجاله إلى يونس باشا ، ورجاه أن يساعده ويتوسط له لدى حضرة سلطان السلاطين بأنه يرغب بأن يكون مخلصاً له ، ويخدمه.

ولأن يونس باشا يعرف معاملته السابقة الجيدة مع السفراء العثمانيين ، فقد أعطاه الأمان بأنه سيقدم ما استطاع من مساعدة بهذا الموضوع.

وهكذا اصطحبه إلى سليم خان. قبَّل خاير باي عتبة سلطان السلاطين ، وقدَّم له ولاءه ، وحظي بالمقابل بمجاملته. بعد نصر مرج دابق بأربعة أيام ، وفي 28 آب/أغسطس ،

دخل السلطان سليم الجبار إلى إحدى أكبر وأغنى مدن العالم حلب. قدم ضباط القلعة مفاتيحها له ، وأعلنوا له ولاءهم.

عين السلطان سليم القائد الطليعي الذي قام بمهمة السفير إلى المماليك أحمد باشا قراجا سيد سادة حلب ، وكمال جلبي تشوملكتشي زادة قاضياً. الذهب والفضة وسائر الأشياء التي تم الحصول عليها من سادة العرب والشركس في حلب وأماناتهم التي كانت لديهم من مال ونقود وخزينة عامرة بسبب قرب المدينة من ساحة المعركة لا تقدر ولا تحصى. سجلت هذه بالواحدة على الدفاتر. وفرَّح سلطان السلاطين جنوده بإكراميات سخية182.

استُقبل الخليفة المتوكل على الله الثالث وقضاته المأسورون في المعركة ، وعوملوا معاملة حسنة. ويروى أن سليم خان أخذ من الخليفة علامات الخلافة ، وما يثبت هذا الأمر هو إلقاء أول خطبة بعد ذلك باسمه183.

لم يذكر خطيب صلاة الجمعة في جامع حلب الكبير اسم الخليفة ، بل ذكر اسم سليم خان. وعندما ذكر الخطيب لقب «حاكم الحرمين الشريفين» الخاص بالخلفاء عن سليم خان ، تدخل بحماس ديني وتواضع قائلاً:

«لا ، نحن لسنا حكام ذلك المكان ، بل خدمه. ولقبُنا خادم الحرمين الشريفين».

بإشارة السلطان التركي العظيم هذه ، ذكر جده السلطان محمد الفاتح ، وقدم الرؤية العثمانية للدين.

لأن السلطان محمد الفاتح لقّب سلطان مصر في رسالة له بلقب خادم الحرمين الشريفين ، واعتبرها السلطان إهانة.

اعتبر سليم خان هذا اللقب تاجاً على رأسه ، وتبناه السلاطين العثمانيون الذين أتوا من بعده جميعاً بوصفه شرفاً عظيماً. وعندما ذكر اسم سليم خان بهذا اللقب ، لم

يستطع ضبط دموعه من الانفعال ، وسجد شاكراً الله. أدى هذا الوضع إلى انفعال الجماعة ، وتعلقها قلبياً بسليم خان. بعد الصلاة ، خلع سلطان السلاطين قفطانه القيّم جداً ، ومنحه للخطيب184.

بقي سلطان السلاطين ثمانية عشر يوماً في حلب ، وفي 15 أيلول /سبتمبر تحرك من جديد. في 19 أيلول /سبتمبر دخل حماة الواقعة على ضفة العاصي ، والشهيرة بكرومها وبساتينها. اعتبرها سنجقاً ، وعين في إدارتها قاسم بيك غوزالجة. وعين سلطان السلاطين في حمص التي دخلها بتاريخ 21 أيلول سبتمبر قاسم بيك اختمان أوغلو. وزار سليم خان في المدينة المقام المنسوب إلى سيدنا خالد بن الوليد فاتح سورية ، وانطلق في طريق دمشق185.

في 27 أيلول /سبتمبر بدأت رايات سلطان السلاطين المظفرة ترفرف فوق عاصمة الأمويين الشهيرة.

عندما يدخل السين في الشين

يطلق الجغرافيون الإسلاميون على مدينة دمشق إحدى أقدم المدن المأهولة في التاريخ اسم «رياض الجنة» ، وهي مبنية في سهل الغوطة. بعد فتحها أصبحت خامس أهم مدينة بالنسبة للعثمانيين. وقد أطلق العثمانيون على دمشق اسم «جنة مشم» [ذات رائحة الجنة].

قضى سلطان السلاطين أربعة أشهر الشتاء في هذه المدينة المحظية ، وقضى أوقاته الخمسة بزيارة أوابد المدينة التي أقام فيها الخلفاء الأمويون وكثير من الحكام الكبار ، ومزارات أكبر شيوخ الإسلام.

أحد أهم الأحداث الملفتة للانتباه هو إيجاد قبر محي الدين بن عربي. ولد محي الدين بن عربي في قصبة مرسية في الأندلس ، وهو ينتمي إلى قبيلة طي الشهيرة ، ومن نسل

عبد الله بن حاتم شقيق عدي بن حاتم الشهير بكرمه. وقد أقام في الأندلس وفاس وتونس ومصر ومكة المكرمة ، وأصبح عالماً كبيراً في ميادين التفسير والحديث والفقه والقراءة وكثير من العلوم الأخرى. وقد تربى وسط أحاديث المتصوفة. وقد علّم آلاف الطلاب في دمشق وقونية ، وله كتب قيمة كثيرة.

لم يفهم ابن عربي بسبب بعض كلماته الغريبة ، وأعدم على يد حكام زمانه. قال لمجموعة التقته في دمشق: «ما تعبدونه تحت قدمي» ، وكانت هذه العبارة القطرة التي طفح بها الكيل.

ضاع قبره لأن أهل الشام حولوه إلى مزبلة. وقد قدم مناهضو التصوف رؤى خاطئة بحق هذا الولي العظيم.

ما قاله بأسلوبه الملغز بقي يدور على الألسن: «دخل السين في الشين ، ظهر قبر محي الدين»186.

بعد وفاته بمائتين وخمس وسبعين سنة ، جاء سليم خان إلى دمشق ، وأمر بإيجاد قبره حضرة محي الدين بن عربي ، وبهذا فك لغز تلك المقولة. لقد فهم أن قصد هذا الولي العظيم بالسين سليم ، وبالشين شام.

لم يبق سليم خان عند هذا الأمر. أراد أن يتحقق من معنى عبارته التي أدت إلى قتله ، وفهمه بشكل خاطئ على مدى سنين طويلة.

عندما حفر تحت مكان قدمه في القبر ، وجد جرة من الذهب. وبهذا ظهر أنه قال للناس: «أنتم تقولون إنكم تعبدون الله تعالى ، ولكن حب الذهب والفضة والنقود في قلوبكم».

أمر سليم خان بتنظيف قبر هذا الولي العظيم ، وبنى فوقه مزاراً جميلاً ، وبجانبه جامعاً ، ومطعماً خيرياً.

زار سليم خان في دمشق الجامع الأموي أعظم أثر معماري إسلامي. كان أثراً مذهلاً بكل معنى الكلمة من حيث روعة أعمدته ، وكثرة قبابه ، وظرافة خطوطه ، وغنى محاريبه ، وعدد مآذنه ومنابره. أخذ الجامع حالته الراهنة في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وهو يعود إلى المذاهب الأربعة ، وقسم إلى أربعة طبقات ، ويعمل فيه ستة عشر إماماً ، ويرفع من مآذنه الثلاث خمسة وسبعين مؤذناً الأذان المحمدي.

وفي الوقت نفسه كان الجامع أحد أكبر المراكز العلمية. يوجد فيه إحدى عشرة حلقة علمية ، وخمس حلقات حديث ، ومائة وعشرين حلقة لتعليم قراءة القرآن ، ويتلقى مئات الأشخاص العلم في تلك الحلقات. واستمر الجامع الأموي بهذه الخصوصية إلى أواخر فترة الدولة العثمانية.

عندما دخل سليم خان إلى دمشق ، كان حضرة محمد بدخشي من العلماء المشاهير يدرّس في هذا الجامع ، ويقيم فيه. ذهب سلطان السلاطين لزيارته ، وجلس في حضرته بتهذيب. وعلى الرغم من جلوسهما مدة ساعة متقابلين ، لم يتكلما بشيء. أخيراً فتح المصاحب وكبير الأطباء آخي جلبي الحديث ، وتحدث حول جو دمشق ومائها.

تعكر صفو سلطان السلاطين. قاطع كلام كبير الأطباء ، وتمنى من الشيخ الدعاء. فقال الشيخ محمد بدخشي: «أنتم لطف جناب الحق وإحسانه. وأنتم حامي المسلمين ، وسندهم. دعاؤكم دائماً مقبول. نحن نأمل بالدعاء منكم».

أعاد سليم خان بتواضع كبير طلب الدعاء. فقال حضرة الشيخ: «يا سلطاني ، كلانا نتحمل مسؤولية كبرى ، وفي رقبتينا حلقة العباد. نحن تحملنا المسؤولية التي تتهرب السماء والأرض من حملها.

أما أنتم يا سلطاني ، فقد أثقلتم حملكم قليلاً. بحملكم الخلافة فوق حمل السلطنة أثقلتم الحمل على أنفسكم. ولتكن كلمات سيدنا رسول الله (ص): (كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته). وعليكم أن تعلموا الرعية الإسلام ، وأنتم مسؤولون عن تعليمها.

أنتم على طريق صعب ذي مشقة. ليكن الحق بعونكم»[187].

عندما غادر سليم خان هذا الرجل المبارك الذي يحبه كثيراً سأل أحد الحاضرين في المجلس: «سلطاني، استمعتم دائماً، ولم تتكلموا». فقال: «في مجلس الأولياء الكبار ومحافلهم على الآخرين أن يصمتوا عندما يتكلمون أو يصمتون، ويعد الكلام في هذا الموقف قلة أدب. المكان الذي وجدنا فيه، هو مكان الأدب. ولا يقع علينا سوى الصمت. وهذا ما فعلناه تماماً. أنا لا أُعد أكثر من ذرة في مجلس الأسرار والحكمة ذاك. لو وجد أنني يجب أن أتكلم، فمن المؤكد أنه سيشير عليّ بالكلام». ويُفهم من كلام سلطان السلاطين أنه كان مسروراً جداً من الحديث في المجلس الذي أسماه مجلس الأسرار والحكمة.

بعد أن سيطر سليم خان على أرض المماليك حتى غزة، شاور وزراءه وكبار رجال دولته فيما يجب عمله. بدأ الكلام الأمير المملوكي الشهير خاير باي:

«دولة سلطان سلاطيني صاحب الشوكة! تشرفتم بالسيطرة على حلب ودمشق. غياب مصر عن نظركم المبارك لا يليق بشرف السلطنة وسمعتها. خاصة أنكم تطلبون أن تكونوا أصحاب عرش خدمة الحرمين الشريفين بكل جوارحكم، وهذا جلي كالشمس». وبهذا أيد الاستمرار بالحملة.

التفت سليم خان إلى الوزير الأعظم يونس باشا، وإثر سؤاله: «ما رأيك أنت؟» قال: «الأمر والفرمان أمر وفرمان سلطان سلاطيني. أنتم أعرف. ما يخطر ببال عبيدكم هؤلاء أنكم أدخلتم تحت تصرفكم كثيراً من البلدان من قرامان إلى دمشق. يُرى أن تحافظوا على ما حصلتم عليه، وتؤجلوا فتح مصر فترة. لأن مصر بلد واسع جداً. وسيكون من الصعب المحافظة عليه بعد فتحه. ومن جهة أخرى فقد ابتعدتم كثيراً عن بلدكم المحروسة. إذا وقعت واقعة تفرض علينا العودة، فسنتجشم عناء شديداً. يمكن أن تبث القبائل العربية وجند الشركس الفتنة، ويصعبون الأمور علينا كثيراً». وبهذا عرض صعوبات التقدم أكثر[188].

على الرغم من هذا فإن سليم خان كان يؤمن بأن الحملة إذا لم تنته بأخذ مصر،

فلن تعتبر منتصرة.

ليطأطئ أمام فرماني!

أثناء دخول سليم خان إلى دمشق ، اجتمع أمراء المماليك الهاربون إثر معركة مرج دابق في القاهرة ، وبعد نقاشات عديدة ، أعلنوا طومان باي سلطاناً (10 تشرين الأول/ أكتوبر)189. إثر هذا الوضع أرسل سليم خان رسالة إلى طومان باي قبل توجهه نحو مصر ، وأبلغه بأنه يريد أن يترك للمماليك الأرض ما بعد غزة في حال صك النقود باسمه ، وقرأ الخطب باسمه.

يقول سليم خان في الرسالة التي أرسلها مع الزعيم الشركسي مراد بيك:

«بعون جناب الحق وهدي نور حبيبنا الرسول ، وبنيّة تشتيت شمل أعداء الله ورسوله ، انطلقنا على صهوات جيادنا من أجل إزالة أشواك البدعة من طريق الإسلام الأساسي. كان هدفي الأساسي هو سحق الشاه إسماعيل زعيم الرافضة الأردبيلي الذي غرق بالتحلل ، وجعل ديار العجم دياراً لأهل السنة ، والإيفاء بتقليد نشر مبادئ المذهب الحق في الدول.

لهذا السبب انطلقت بتلك الجهة مع جندي المظفرين. لقد وضعت نصب عيني اقتلاع شجرة وجوده من جذورها ، وجعله يدفع ثمن ما ارتكبه. ولكن عندما حاول قليل العقل غوري قطع طريق جندي المكللين بالنصر بدافع الطمع الذي سيطر عليه ، التزمنا بالحكمة القائلة: (بداية تزال العوائق من الطريق) ، وأوصلت له ولرفاقه شرر السيوف نحو باب الزوال ، ولقنته درساً لا يُنسى.

لم يتح الزمان فرصة للأمان	ضاق الوقت في دفق الزمان

وقد أصبحتُ صاحب الأرض وحاكمها مع رفاق خالق الكون. وبموجب المثل القائل: (من أراد شراً بجاره ، أهداه الله شراً) ، أخذتُ مع رجالي الديار التي بيد زعيم قليلي

الأدب الذي يريد شراً بجاره ، وبدأت أحكمها بالعدل. اعتباراً من الآن أصبح تأمين تنظيم أعمال الناس واستقرارهم ، وتحضير محفل الحرم الشريف ديناً برقبتي ورثته عن أجدادي.

الآن عليك الابتعاد عن طريق السوء أيضاً ، وعن محاولة ركوب حصانك ، وأخذ عبرة مما وقع ، وتقبُّل النصح!

احسب ما يمكن أن يقع لك مما حدث!

صك نقودك باسمنا العظيم! ولتخطب الخطب على المنابر باسمنا تعبيراً عن مشاعر الولاء! وتعال إلى بابي الذي ينثر السعادة ، ومرغ وجهك!

وإذا لم تطعني ، سأذهب إلى مصر. وهذا سيجلب لك ولجندك موتاً مؤلماً».

نترك لك العرش والتاج	إذا طأطأت رأسك لفرماني
تنال عقابك بسيوف جندي	إذا قارعت بأمل دون جدوى
ولا مصر ولا شام أيضا	لا شركس يصمد بوجهي
بالأحمر لون الدم[190]	فأنا أصبغ ماء نهر النيل

إذا كان طومان باي قد تأثر بالرسالة ، وأراد أن يقبل شروط سليم ، ويعقد صلحاً ، فإن الأمراء الذين معه عارضوا بشدة ، وقتلوا السفير.

بعد ذلك منح طومان باي نيابة الشام للأمير جانبردي غزالي ، وأرسل معه خمسة آلاف رام سهم ورمح إلى غزة. بقهقرة سلطان السلاطين سيكون جانبردي غزالي واليَ دمشق ، ويحكم من جديد بالقوانين القديمة.

يبدو أن سلطان المماليك وسادة مصر كانوا يرون أن السيطرة على سورية وكيليكيا مؤقتة ، وأن سليم الجبار لن يأتي إلى مصر مثله مثل جنكيز خان وتيمور خان ،

ويعود من فلسطين وسورية.

وصل جانبردي غزالي إلى منطقة العريش ، وعندما تلقى خبراً بأن سنان باشا في الرملة ، لم يستطع التقدم أكثر. نظَّمَ القبائل العربية ، وأرسلها لنصب الكمائن. وخطط لهزيمة سنان باشا بالضربات الخاطفة بدلاً من الهجوم عليه في معركة مواجهة.

وانطلاقاً من فكرة «بالتأخير كارثة» ، كان سنان باشا يخطط لتشتيت جانبردي غزالي قبل أن يعطيه الفرصة لجمع قواته.

أوحت قوات العدو أنها خائفة ، وتوجهت بشكل مفاجئ إلى غزة في الخلف. لم يستشعر جانبردي غزالي الخطة. ووضع القوات العثمانية في حالة الملاحقة المستمرة. عندما وصل إلى جوار قصبة خان يونس ، رأى سنان باشا القوات أمامه. المعركة التي بدأت صباحاً ، وانتهت عند العصر ، انتصر فيها العثمانيون. وقدم المماليك حوالي تسعة آلاف قتيل ، وتمكن جانبردي غزالي من الهرب بحالة يرثى لها إلى القاهرة مع حوالي ألف فارس[191].

الجيش في صحراء سيناء...

من جهة أخرى ، غضب سليم خان غضباً شديداً من قتل طومان باي السفراء. وكانت هذه الحادثة إحدى أهم أسباب تسريع حملة مصر. كان سليم خان يشرف بشكل شخصي على الاستعدادات من أجل عبور صحراء سيناء التي تفصل بين الشام ومصر ، ولم يستطع أحد عبورها منذ العصور الأولى. اشتريت عدة آلاف من الجمال لتأمين حاجة الجند للماء. ووزع على كل من جنده ألفي فضية لتشجيعه على فتح مصر.

أنهى سلطان سلاطين العثمانيين وغالبية الكون استعداداته ، وتحرك من دمشق في 20 كانون الأول/ديسمبر على نية فتح مصر. أرسل جيشه المظفر من غزة إلى الرملة ، واصطحب معه بعض محارمه ، وحسن جان ، والعالم الكبير إدريس البتليسي ، وذهب إلى القدس. لم تعد الطرقات آمنة ، ووسط حالة خطيرة يهدد كل طرف من أطراف الصحراء

البدو ، قطعها من الفجر حتى الغروب ، ووصل في يوم واحد إلى بيت المقدس. أدى في المسجد الأقصى المنار باثني عشر ألف قنديل صلاة الحاجة. وقبل انتظار الصباح زار قبور الأنبياء ، وصخرة الله التي ذبح عليها إبراهيم عليه السلام أول أضحية.

صباح اليوم التالي ، ذهب سليم خان إلى خليل الرحمن من أجل زيارة قبر إبراهيم عليه السلام ، والتقى بجيشه من جديد عن طريق عسقلان192.

عندما وصل سليم خان إلى موقع عين الصفا شرق غزة ، استقبله الوزير الأعظم سنان باشا. كافأ سلطان السلاطين وزيره الأعظم سنان باشا بسيف مرصع نتيجة انتصاراته التي سرته جداً. وأغرق جنوده بالإحسان.

توزيع سليم خان الكنوز التي حصل عليها من حلب ودمشق وإنفاقها على الجنود فتح الباب لاعتراض الوزير حسين باشا. إضافة إلى الحاجات التي تتطلبها هذه النقود ، شرح الصعوبات التي يمكن أن تعترضهم بالانتقال من غزة إلى مصر.

أضرارها كبرى وهي برقبة السلطان	صعب عبورك الرمال من غزة
وينهك العسكر بقطع هذا الطريق	سينقص الشعب الكثير بالحملة
سيهلك الجند يا علامة السلاطين	لا يخرج الرومي من الرمل
وأدر الوطن الذي تركته بالسعادة193	لا تحمل دم الجمع وعد إلى الشام

تضايق سلطانُ سلاطين العالم الذي قرر هذه الحملة في دمشق ، وتحرك في هذا السبيل ، وتأجج غضبه.

أرسل مشرف الحجَّاب إلى خيمة الباشا ، ونقله من النعيم إلى ليل الحرمان194.

في الحقيقة أن الصحراء التي تقلق رجال الدولة وتخيفهم تشكل عائقاً كبيراً أمام الجيش العثماني الذي وضع مصر هدفاً له. لم تكن الصعوبات الطبيعية التي تذكرها

المصادر الجغرافية فقط تكتنف صحراء سيناء الشهيرة المسماة رمال كاتيا ، إذ يشكّل البدو العرب خطراً محدقاً. بحسب تعبير الشيخ سعد الدين أفندي:

«هناك ثمانية منازل بين غزة والصالحية. إنها صحراء مخيفة مليئة بالعرب. صحراء تمتد وكأنها لا تنتهي وتتداخل فيها انعكاسات السراب ، وحتى الجمال الفتية تغوص في رمالها إلى سنامها. إنها بحر من رمال لا تصمد حتى الحيوانات التي تشبه بنيتها الفيلة لا تستطيع عمل شيء أمام النمل والجراد. من غير المنطق عبور طرق كهذه بجنود لا يحصون. أما الالتفاف وعبور الطرق البعيدة من أجل تجاوز المنطقة الصعبة فيحتاج إلى تحضيرات كبرى»195.

وفي الحقيقة أن هذه الصحراء لم يغامر بقطعها المغول وتيمور خان والذين قطعوا العالم. في الفصل الذي عبرها فيه سليم خان كانت درجة الحرارة في النهار 40 درجة ، وتنخفض في الليل إلى الصفر ، وتكاد تجمّد الإنسان. وهذا وضع ينهك الإنسان. على الرغم من أن أغلب رجال الدولة يعتقدون بأنهم لا يستطيعون عبورها ، لم ينبسوا بعد أن رأوا ما حل بحسين باشا.

خلال الأسبوع الذي قضاه سليم خان في غزة كان يتابع الاستعدادات من أجل عبور الصحراء ، ويقيم مراسم عيد الأضحى في آن واحد. أمر بتحميل المؤن التي غنمها من جيش قانصوه غوري على الجمال ، وتجهيز آلاف قرب الماء ، ولف حوافر الخيل بلباد مقاوم للحرارة.

يتصدى للصعوبات الطارئة بصبر   من يريد أن يكون حاكماً للدول

أنهى سليم خان استعداداته أخيراً ، وفور انتهاء أيام العيد ، تحرك نحو رمال كاتيا ، وبدأ يقطع المنازل والمواقف. يقطع الجيش المنزلين بمنزل واحد ، ولكن رمال الصحراء الناعمة الحامية تربط الطرق. بينما كانت الشمس تجعل أدمغتهم تغلي ، لم تحل الغيوم ضيفة عليهم نهائياً. كل ما قابلوه أمامهم على أنه ماء يتبين أنه سراب. وعندما تهب الريح

عليهم تغدو كأنها عاصفة رملية.

نفد ماؤهم عندما وصلوا العريش. كأن رئاتهم شويت نتيجة العطش. كانوا يسيرون في بعض المنازل من المساء إلى السحر ، ومن السحر إلى العشاء بشكل مستمر. عندما وقفوا لصلاة المغرب في مكان يدعى قبر الساعي ، حاصرهم بدو الصحراء ، وداهموهم ، وسلبوا منهم كثيراً من الأغنام والمؤن. وقد تضرع سلطان السلاطين وتوسل إلى الله في تلك الليلة.

في اليوم التالي (الخميس 21 ذي الحجة/15 كانون الثاني/أكتوبر) ، وعندما وصلوا إلى موقع كاتيا ، هطل مطر لم يُر مثله من قبل. غرقت الصحراء بالماء. انفرجت أسارير الجند ، واعتبروا الأمر شارة للنصر196.

مع وصول السلطان إلى كاتيا

رأى الأرض كأنها شاطئ بحر

بسبب الجفاف والحاجة إلى الماء في الصحراء

سلاطين كثيرون شاحوا بوجوههم عنها

ما وهبه الله لملجأ العالم الحاكم:

أنزل لؤلؤاً من غيم أسود

نثرت السماء فوقه ذهباً

ونبتت الأعشاب تحت قدميه[197]

استمروا بالطريق ، وقطعوا بير الدويدار ، والصالحية ، وبلبيس ، وحطوا رحالهم في خانكي. ازدادت هجمات البدو العرب في الليل ، ومن الجهات كافة. لأن سلطان المماليك طومان باي وعد بأن يمنح من يأتي له برأس جندي تركي بوزنه ذهباً. أخيراً كمن سنان باشا وعلي بيك شهسوار أوغلو وخاير باي مع مجموعة من القوات. عندما اقتربوا ليلاً لشنِّ مداهمة ، تذوقوا طعم السيف العثماني. لم يفهموا ما جرى لهم. ضربت أعناق أغلبهم بالسيوف ، ولكن بعضهم استفادوا من ظلمة الليل ، ونجوا. ولم يتجرؤوا على الهجوم مرة أخرى[198].

طومان باي

من جهة أخرى كان سلطان مصر طومان باي يبذل جهداً كبيراً من أجل إعادة تنظيم الجيش المملوكي وتجهيزه بعد أن تلقى هزيمتين ساحقتين في مرج دابق وخان يونس ، وقد انهار من الناحيتين المعنوية والمادية. دفع المماليك جميعاً إلى الجبهة دون تمييز بين شاب وشيخ ، وجمع عدداً كبيراً من أهل المدينة ، والعرب البدو ، والزنوج ، والمغاربة ، واتخذ إجراءات الدفاع داخل المدينة وخارجها.

بالنتيجة جهز قواته المؤلفة من خمسين ألف مقاتل بشكل جيد جداً ، وأصبحت في حالة استعداد. واختير موقع جبهة المعركة من جبل المقطم شمال شرق القاهرة إلى نهر النيل ، وتُعدُّ هذه المنطقة ضاحية المدينة ، وتسمى الريدانية. جلب من أوروبا مائتا مدفع تقريباً ، ومدفعيون يستخدمونها. وضعت المدافع في نقطة دخول الجيش العثماني الوحيدة والتي تسمى العادلية. ولكن تلك المدافع مثبتة على الأرض ، وليس لديها قابلية الحركة. حُفرت الخنادق وأنشئت المتاريس ، ووضع فيها مجموعات رماة البنادق. المعركة التي ستدور هنا أصعب من معركة مرج دابق. لا يمكن دخول القاهرة دون تجاوز هذا الموقع.

بحسب التموضع الحربي ، يبدو أن طومان باي يخطط لدخول معركة ميدان من

الشرق. سيزعزع الجيش العثماني بقصف المدافع وتسديد مجموعات البنادق بداية ، ثم يهزمه بتكتيك الهجمات الخاطفة ، وإذا تمكن من إجباره على الانسحاب ، سيقضي عليه في صحراء سيناء. وحقيقة يمكن أن يقدِّم الجيش العثماني خسائر كبيرة أو يتشتت بقتاله عبر جبهة محصنة بهذه الطريقة199.

يبدو أن المماليك مصممون على الدفاع عن أهم جزء من الأرض التي يمسكونها منذ قرون إلى النهاية. كانوا واعين بأن الهزيمة في هذه المعركة تعني نهاية كل شيء. لم يكن فرسان المماليك أقل شجاعة وجرأة من العثمانيين. وطومان باي الذي يقودهم قائد بطل وقوي ومحبوب جداً. من جهة أخرى ، فإن الأرض لصالح المماليك تماماً ، وهذه هي المرة الأولى التي يتحرك فيها العثمانيون.

لهذا السبب كان سليم خان يتحرك بحذر شديد ، ويعمل للحصول على أخبار خطط العدو ومشاريعه كل يوم. وعندما حطوا الرحال في قصبة الصالحية القريبة من القاهرة بتاريخ 17 كانون الثاني /يناير ، جاء سنان باشا ، وقدم لسليم خان تقريراً رائعاً حول وضع المماليك. أصبح سليم خان على علم تام بالوضع العسكري لطومان باي ، وتموضعه.

إثر هذا تم إعداد خطة لا يمكن أن تخطر ببال المماليك. مساء 21 كانون الثاني / يناير وضعت عدة وحدات عسكرية مقابل القوات المملوكية في الريدانية. أما هو فقد اتجه جنوباً مع قواته الأساسية ، ودار حول جبل المقطم ، ووقف خلف الجيش المملوكي. هذه المناورة البالغة الذكاء أفقدت الجيش المملوكي إمكانية الاستفادة من المدفعية والمتاريس والخنادق التي حضَّرها ، واستغرق أياماً طويلة بتحضيرها. انتبه المماليك لوجود الجيش العثماني خلفهم بذهول200. لأن المدافع المملوكية مغروزة بالأرض نحو الاتجاه المعاكس ، فلم يستطيعوا إطلاق قذيفة واحدة. وارتبط الأمر بالمواجهة العسكرية في الميدان.

معركة الريدانية

في 25 كانون الثاني /يناير 1517 كان الوزير الأعظم سنان باشا في مركز الجيش

العثماني. في ميمنة الجيش مصطفى باشا سيد سادة الأناضول ، وعلي بيك شهسوار أوغلو مع وحدات دوالقادر ، وسيد الغنم الأبيض فروح شاد بيك. أما في الميسرة ، فقد كان الوزير الثاني يونس باشا على رأس جنود روملي201.

الجهة التي جاء منها الجيش العثماني ، وتكتيك حركته أزال إمكانية استخدام المماليك للمدافع. على الرغم من هذا فقد بدأوا المعركة باندفاع شديد. كانت مقذوفات البنادق والسهام تهطل على كل طرف كأنها مطر شديد الغزارة. غطى الجو دخان البارود. بعد ذلك تداخلت الخطوط كلها.

تثقب السهام البشرة ، وتفتح الطريق إلى الرئة ، ويتدفق الدم.

أصبحت وجوه السيوف مدماة ، وتبدو أشكال الغيم عبر طبقة الدم. بريق السيوف كاللهب ، وكل منها كأفعى. كثيرون كسفت شمس حياتهم ، وأصبحوا أسرى سجن الأجل. تساوى الأمير والمتسول ، ولم تتوقف روح تحت السيف أو الصولجان ذي الست شوكات.

سال دم الناس نهراً ، كأن المتدفق نيلاً ثانياً ، والأجساد ملأت الأمكنة والزوايا كلها ، والجرحى في كل مكان202.

لم يتأخر طومان باي بإدراك أن المعركة لا تسير لصالحه. لا يمكنه كسب المعركة إلا بالقضاء على سليم خان. لهذا السبب اصطحب معه الجنرالين النخبويين ألان باي وقورت باي ، وارتدوا الدروع الكاملة ، وساروا بقوة ضاربة إلى حيث راية العثمانيين المركزية بسرعة. كانوا يريدون سليم خان حياً أو ميتاً من أجل تحقيق نتيجة لصالحهم.

في الحقيقة أن هجوم طومان باي بالوحدة التي يقودها كانت مفاجئة وقوية جداً. عبرت من بين الوحدات العثمانية كأنها صاعقة أو عاصفة ، وواجهت جنود سنان باشا المتجهين نحو المركز. كان محمد بيك رمضان أوغلو والخزندار علي آغا مع سنان باشا.

انخرط سنان باشا في الميدان بعد أن شمر عن ساعديه وهو يقول: «فخرنا أن نضحي بأرواحنا في سبيل سلطان سلاطيننا الذي يظلل ظله العالم، وخجلنا هو أن نشيح بوجوهنا أمام السيف». بكلمات مشجعة قوى القلوب. وبدأ على هذا الخط صراع حتى الموت.

أصيب سنان باشا بسهم، وجُرح في هذا الصراع حتى الموت. أنزلوه عن حصانه فوراً، ومددوه على نقالة. ولكنه قال: «أنا لا تلزمني الأشياء»، ولم يترك ساحة المعركة، وقدم نصائح جديدة. منع وقوع انهيار عام.

سمع سلطان السلاطين بإصابة سنان باشا، فأمر وحدات فرسانه، وقائدها بالي آغا بالتوجه نحو ذلك الخط.

والآن بدأ هجوم المقاتلين العثمانيين الساحق. وهبَّ الشجعان تحت أمر مصطفى باشا سيد سادة الأناضول كالعاصفة بحملاتهم، ودهسوا المماليك تحت أقدامهم، وعبروا[203].

قطع طومان باي أمله بالنصر، فهرب من ساحة المعركة ناجياً بحياته. وتمت السيطرة على مقر قيادة الجيش في الريدانية، والمدافع كلها، والعتاد.

وقد خاض المماليك حقيقة آخر معاركهم في سبيل الوجود بشغف وعزيمة شديدة. وتقديمهم خمسة وعشرين ألف مقاتل في ميدان المعركة يشرح هذا الأمر بوضوح. وكان بين القتلى من رجال المماليك ووجهائهم الأمير صلاح إرقناص، مير بخش باي، ميراهور الكبير أنس باي، وأمير العلماء أصت باي، وطولا باي، وجانبولاط باي، قايرا باي، وكثير من السادة المشاهير[204]. وقد هرب ألان باي مصاباً إصابة بليغة، ومات بعد ذلك بقليل. وسيقتل قورت باي الذي وقع بالأسر.

واستشهد من الجيش العثماني الوزير الأعظم سنان باشا المخصي، ومحمد بيك رمضان أوغلو، والخزندار السابق علي آغا، ويونس بيك سيد عينتاب السابق الذي هرب من

المماليك ، ودخل بخدمة العثمانيين.

قضى سليم خان الليل في سهل الريدانية. في اليوم التالي أقيمت مراسم جنازات الشهداء العثمانيين وعلى رأسهم الوزير الأعظم سنان باشا. وقد كان سليم خان متأثراً جداً في مراسم الجنازة. قال لمن حوله معبراً عن حزنه عليه ، ومشيراً إلى قيمته: «نلت عرش يوسف عليه السلام ، ولكنني خسرت مقاتلاً جريئاً مخلصاً مثل سنان. لا يوجد دولة تعوّض عنه»205.

سليم خان على عرش النبي يوسف

نزل سليم خان في خيمته السلطانية الفخمة المنصوبة في العادلية المجاورة للريدانية ، وأمر رجال الدولة بالقبض على طومان باي واستلام القاهرة. إثر هذا دخل العثمانيون القاهرة التي تعد إحدى أكبر مدن العالم وأغناها في 24 كانون الثاني/يناير ، وقتلوا جنود المماليك الذين قاوموا. وفي اليوم نفسه ألقيت الخطب في مساجد القاهرة باسم سليم خان. وكانت الاشتباكات في أزقة القاهرة مستمرة دون توقف.

بعد أن أقام سليم خان أربعة أيام في الريدانية ، نقل مركز قيادته إلى موقع بولاق على ضفة النيل.

جلب المخبرون في تلك الليلة خبراً بأن طومان باي سيشن هجمة مفاجئة قوية على مقر قيادة الجيش. كان الجيش العثماني في حالة استعداد قصوى. عندما فهم طومان باي بأن العثمانيين على علم بالوضع ، وهم ينتظرون باستعداد ، دخل مع عشرة آلاف جندي من جند المماليك والعرب إلى القاهرة فجأة. سيطر على قسم مهم من المدينة ، وأمسك بمداخل الأزقة ومخارجها ، وأمر بحفر خنادق. ولعدم انتظار مداهمة كهذه ، ولعدم الرغبة بأن يقع أذى للأهالي ، فقد تركت وحدة عثمانية صغيرة في المدينة. وقد قتل المماليك أفراد هذه الوحدة جميعاً تقريباً206.

فاض غضب سليم خان كفيضان نهر النيل عندما علم صباحاً بعملية المماليك ،

وقتل الجنود العثمانيين. أرسل فوراً الوزير يونس باشا ، وسيد السادة مصطفى باشا ، وآغا الإنكشارية أياس آغا مع الوحدات الأكثر نخبوية إلى القاهرة.

وهكذا بدأ صراع شديد داخل المدينة. وبمشاركة نساء مصر التركيات بالدفاع عن المدينة التي لم تشهد احتلالاً خارجياً منذ قرون ، خيض دفاع شديد. ومقابل بقاء العرب على الحياد إلى حد ما ، كان الأتراك والشركس يدافعون عن بيوتهم طابقاً طابقاً ، وغرفة غرفة. على مدى يومين حدثت اشتباكات دامية كثيرة في الأزقة. أصيب يونس باشا. كان يُمطر الجنود العثمانيين مواد قاتلة مثل الماء المغلي والحجارة وغيرها.

في اليوم الثالث ، ارتدى سليم خان درعه ، ودخل المدينة ، وأشرف شخصياً على المعارك. وهكذا دخلت أقوى وحدات سلطان السلاطين المعركة. انخرط الرماة الإنكشاريون وقد وضعوا على رؤوسهم الخوذات ، ودخلوا الأزقة كما السمادل عندما تدخل النار ، وبدأوا يطلقون النار. وهكذا جعلوا الشركس الذين يطلون من الأسطح والنوافذ ويلقون النار على الجنود ، لا يستطيعون أن يمدوا رؤوسهم. لأن من يمد رأسه مرة ، لن يستطيع مده مرة أخرى ، فسيتلقى الرصاصة ، ويسقط حيث هو. وهدمت القصور التي يختبئ بها المماليك بقذائف الهاون والمدافع. وهكذا أعاد العثمانيون فتح القاهرة زقاقاً زقاقاً ، وبيتاً بيتاً[207].

لم يعد لدى طومان باي القوة للمواجهة ، واستطاع الهرب من المدينة بزي امرأة. لم يؤد هذا النجاح المؤقت الذي حققه طومان باي بهجومه المفاجئ إلا إلى قراءة خطبة الجمعة في بعض مساجد القاهرة باسمه آخر مرة بتاريخ 30 كانون الثاني/يناير.

اتخذ سليم خان التدابير اللازمة من أجل حماية المدينة ، وعين الموظفين ، وعاد من جديد إلى خيمته في جزيرة بولاق. في هجوم طومان باي الآخر هذا خسر أربعة آلاف عنصر ، وكثيراً من الأسرى. وقدمت القوات العثمانية أيضاً كثيراً من الضحايا.

أدرك أمراء المماليك الذين قطعوا أملهم من المقاومة بأن المقاومة لن تؤدي إلا

إلى مزيد من سفك الدماء ، فجاؤوا إلى سليم خان ، وتوسلوا العفو. كان بين هؤلاء الأمير الشهير جانبردي غزالي أيضاً. وقد حظي الجميع بالعفو ، وحازوا إحسان سليم خان.

أخيراً دخل سليم خان الجبار القاهرة بموكب نصر لامع في 15 شباط /فبراير 1517 ، وجلس على عرش النبي يوسف في القلعة. اعتباراً من تلك اللحظة اعتُبر سليم خان سلطان مصر. وصكت النقود باسمه. وقرئت خطب الجمعة في مساجد القاهرة كلها بتاريخ 20 شباط /فبراير باسمه. ونظمت الاحتفالات بمناسبة دخول سلطان السلاطين إلى المدينة. وهرع إليه الأمراء والعلماء من الداخل والخارج لتهنئته. وكان بين هؤلاء الأمير طراباي بن قرجا أحد مشايخ نابلس.

أما طومان باي فقد كانت روحه مقاتلة بطبيعتها. انسحب إلى الصعيد ، وجمع هناك حوله أكثر من عشرة آلاف جندي من المماليك والعرب. بعدئذ أرسل قاضي البهنسا عبد السلام أفندي إلى سليم خان من أجل الصلح. قال طومان باي في رسالته بأن الخطبة في مصر ستقرأ باسم سلطان السلاطين ، وتصك النقود باسمه ، ويدفع له مبلغاً سنوياً يتم الاتفاق عليه ، ولكن لديه شرط واحد هو انسحاب الجيش العثماني إلى الصالحية. وإن لم يحدث هذا ، فهو يدعوه إلى ميدان الحرب في الجيزة على الضفة الغربية للنيل208.

تشير هذه الرسالة إلى انكسار المقاومة المملوكية. ولكن وضعَ طومان باي شرطاً على سليم خان على الرغم من تعبه وإنهاكه نتيجة الحرب المستمرة نقطة مهمة تشير إلى استعداده للصراع. من جهة أخرى فإن تفكيره بإمكانية انسحاب العثمانيين بعد وصولهم إلى هذه النقطة ، إما أن يكون نابعاً من عدم فهم شخصية سليم خان واندفاعه وبذله وبنيته العالمية ، أو أن موهبته السياسية والدبلوماسية ضعيفة مقارنة بشخصيته المقاتلة والشجاعة.

القبض على طومان باي ، ونهايته

مقابل هذا العرض ، كتب سليم خان مسودة اتفاق ، ووقعها ، وأرسلها إلى طومان

باي مع هيئة تضم دفتر دار الأناضول السابق مصطفى جلبي ، وقضاة المذاهب الأربعة في 5 آذار/مارس 1517. في رسالة سليم خان يبلغه بأنه يمنحه الأمان ، ولن يمسه أحد ، ويدعوه للمثول بين يديه بنصح مفيد. ويمكن تفسير اختيار سليم خان لهيئة علماء كسفراء من أجل إثبات حسن نيته ، وجديته بالطرح ، وإقناع طومان باي. على الرغم من هذا لم يثق طومان باي بالنصح والوعود ، وأمر بقتل اثنين من القضاة مع أعضاء الهيئة العثمانية209.

حزن سليم خان كثيراً عندما عرف بقتل سفرائه ، وثار غضبه أيضاً. وأراد أن يحل قضية طومان باي ، فجهز وحدات النخبة مع أربعين ألف مقاتل بقيادة الوزير الأعظم يونس باشا ، واجتمعوا في بركة الحبش من أجل الانتقال إلى الضفة الغربية من النيل. بدأ سلطان السلاطين بنقل قواته بالسفن إلى الضفة الثانية من نهر النيل في 24 آذار/مارس. كان يدير الحركة بنفسه. نجح العثمانيون بالعبور إلى الضفة المقابلة على الرغم من تدخل المماليك ، وقابلوا قوات طومان باي الأساسية في موقع وردان من الجيزة.

إذا كان طومان باي قد شجع جنوده الشركس ، ودفعهم إلى الحرب بعبارة: «دعونا نُري العثمانيين ماذا تعني الشجاعة ، وكيف تكون!» فإن انضباط شجعان الأناضول ومقاتلي روملي لم يعطهم الفرصة لالتقاط أنفاسهم. رأى طومان باي أنه خسر المعركة ، فقال لمن حوله بأن كل شيء قد انتهى ، وانسحب إلى منطقة تروجة في دلتا النيل التي رآها ملجأ آمناً له.

أصدر سليم خان أمراً جازماً بعدم إفلاته والقبض عليه مهما كلف الأمر. ولتحقيق هذا الهدف انطلق طلائع جند العثمانيين على خيولهم التي تطير كالريح في ملاحقته. فكر طومان باي في هذا الوضع بقطع النيل ثانية ، والانتقال إلى ضفة القدس ودمشق. أثناء عبوره النيل قرب البحيرة ، لحقت به وحدات علي بيك شهسوار أوغلو. ألقى بنفسه إلى الماء ، ولكنهم أخرجوه بواسطة الحبال ، وأسروه ، وأحضروه إلى الديوان (30 آذار/مارس)210.

فور معرفة سليم خان بإلقاء القبض على طومان باي ، عاد في اليوم نفسه من

الجيزة إلى بولاق حيث مقر قيادته. كان عموماً يعامل الحكام والشخصيات الاستثنائية معاملة جيدة.

وبالفعل فقد استقبل الحاكم التركي المملوكي الأخير هذا في 31 آذار/مارس واقفاً بمراسم عظيمة كأنه ما زال إمبراطوراً على عرشه. أجلسه على عرش جديد أمر بتحضيره بجوار عرشه. في هذه الأثناء دار حديث طويل بين طومان باي وسليم خان.

بداية اعتبره سليم خان مذنباً بقتل السفراء، ثم امتدح جرأته وشجاعته معبراً عن تقديره له. وقال طومان باي بأن هذا الأمر تم على يد سادته مخالفاً لرغبته. قال سليم خان بأن قانصوه غوري أيضاً قدم الدفاع نفسه، وأضاف متحسراً: «وهل يمكن أن يكون الحاكم حاكماً إذا لم يفرض كلمته على أمرائه؟» أما رداً على سؤاله: «ما سبب مقاومتك وسفكك كل هذه الدماء؟» فقال طومان باي بأن هناك بلد مؤتمن لديه، وهو ينطلق من المحافظة على المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة.

رداً على سؤال طومان باي: «كيف ستبررون يوم الحشر توجهكم إلى هنا، وتسببكم بكل هذه الآلام؟» قال سليم خان: «كان هدفي التوجه نحو الصفويين. ولكن المرحوم قانصوه غوري تذرع بدوالقادر، وتآمر، وظهر الاتفاق السري الذي عقده مع الشاه إسماعيل، فتوجهت نحوه بعد أن حصلت على فتوى من العلماء». وحاز على موافقة الجميع بهذا الأمر.

في هذا الحديث أيضاً اتهم طومان باي سليماً بأنه لم يتغلب على الجيش المملوكي نتيجة بطولته، بل بأسلحته النارية من مدافع وبنادق. سأله سليم خان عن سبب عدم حصوله على هذا النوع من الأسلحة وهو يتحمل مسؤولية دولة كبرى، وقرأ عليه من القرآن الكريم الآية التي تحث على الإعداد من أجل العدو، وأسكت طومان باي.

في نهاية الحديث المتبادل أبلغه بأسلوب لبق أنه يريد أن يستفيد منه بإدخاله في خدمة العثمانيين211.

على الرغم من تسببه بكثير من العناء للسلطان سليم الجبار ، فقد أراد حقيقة أن يعفو عنه لجرأته وشجاعته ونباهته وإقدامه. وقد تم تداول أنه كان سيُمنح سنجقاً في روملي.

ولكن خاير باي وجانبردي غزالي اعتبرا بقاء طومان باي على قيد الحياة يعرض فرض العثمانيين حاكميتهم على مصر للخطر. لأن المماليك والعرب المتوزعين على أربع أرجاء القاهرة لم يصدقوا أن طومان باي قد ألقي القبض عليه ، ومن عرف نزل إلى أزقة القاهرة ، ودعا: «اللهم أعن طومان باي». وفي حال تركه حياً ، سيتمرد حتى ولو كان تحت سابع أرض فور مغادرة سليم مصر ، وستذهب كل هذه الإنجازات التي تحققت بتضحيات جسيمة هباء. لهذا فقد طرحا بأن تقبل الإدارة العثمانية لا يمكن أن يتم إلا إذا رأى الخاصة والعامة جثته212.

من المحتمل أيضاً أن رجلي المماليك السابقين يخشيان من انتقام طومان باي فيما إذا دخل في خدمة الدولة العثمانية. في الحقيقة أن رجال الدولة العثمانية أيضاً يشاركون الأميرين المملوكيين بهذا الرأي. بالنتيجة رأى سليم خان أن إطلاق رجل جريء غير موثوق ليس صحيحاً ، فسلّمه بعد أربعة عشر يوماً إلى علي بيك شهسوار أوغلو.

وبعد أن جوَّله في شوارع المدينة ، شنقه حيث شنق السلطان المملوكي والده شهسوار في باب الزويلة213. وبقي معلقاً على الحبل ثلاثة أيام لكي يراه الجميع ميتاً. بعدئذ دُفن بمراسم خاصة بالحكام. وقد صلى سليم خان أيضاً صلاة الجنازة التي أمها قاضي مصر الأكبر. غير هذا فقد أطعم الفقراء ووزع الذهبيات عن روحه مدة ثلاثة أيام214.

بقتل طومان باي انتهت الحاكمية المملوكية التي استمرت مائتين وسبعة وستين عاماً على مصر وسورية ، وقد حققت نجاحاً في صد المغول ، ودخلت هذه البلدان تحت الإدارة العثمانية.

وقد دخلت التاريخ عبارة: «فتح ممالك العرب» التي دوّنها العالم الكبير قاضي عسكر الحملة كمال باشا زادة.

مع تأمين الاستقرار في مصر ، أرسل سليم خان لحكام البلدان والحكومات الأجنبية رسائل النصر والفتح. وهكذا اجتاحت موجة الفرح الدول العثمانية ، وأقيمت الاحتفالات في كل مكان منها.

بعد هذا بدأ سليمان خان بتنظيم الشؤون المالية والإدارية ، والعمل على تنشيط العمران. أصدر أمراً بتحديد واردات مصر كلها. وكلَّف السلطان الجبار كمال باشا زادة الذي سيكون شيخ الإسلام فيما بعد بتنفيذ الأمر ، وعين خاير باي مستشاراً له.

وفي هذه الأثناء رُفِّع يونس باشا إلى رتبة وزير أعظم لما قدمه في معركة الريدانية وفي عملية السيطرة على القاهرة. وبعد مدة كلف بمهمة والي مصر. غير هذا فقد أثنى على كثير من أعيان المماليك بسبب مساعدتهم أثناء السيطرة على مصر ، وإظهارهم الولاء ، وكافأهم. ترك قضاة المذاهب الأربعة مكانهم. وأعلن أن كل من في المدينة ومالهم تحت الحماية.

وفي هذه الأثناء وجد فرصة التجول على آثار مصر الشهيرة ، وأمكنتها التاريخية. بداية ذهب إلى مسجد عمر بن العاص والي مصر عند الفتح في زمن الخليفة عمر بن الخطاب. كان الحكام المماليك قد زينوا المسجد الواقع في مصر القديمة (الفسطاط) بالقناديل والثريات الذهبية والفضية ، ولوحات الرخام الأسود ، ونسخ القرآن الكريم القيّمة جداً.

كان الوالي التركي أحمد بن طولون قد أنفق ثروة (مائة وعشرون ألف دينارٍ) على المسجد المبني في أواخر القرن الرابع عشر ، وهو حقيقة غاية في الروعة. أبعاد الجامع 220 × 129 ذراعاً ، وله ثلاث مآذن ، وستة أبواب ، وتسعين عموداً. وهناك جمال محرابه الخشبي المحفور فوق الوصف.

من الأبنية التي لفتت نظر سليم خان في القاهرة جامع الأزهر ومدرسته. المجمع

الذي أنشأه الفاطميون سنة 969 (358هـ.) أصبح عبر الإصلاحات والتوسعات المملوكية منشأة عظيمة. في الجامع مائة وعشرون عموداً أبيضَ، وأربعة محاريب من أجل المذاهب الأربعة. ومدرسته تضم أكبر عدد من الطلاب في العالم الإسلامي. تسمى الصفوف التي في الصالات الجانبية «أروقة». في المدرسة خمسون رواقاً. وقد قسمت الأروقة بحسب القوميات. هناك طلاب مسلمون يتكلمون كل اللغات ومن كل الأجناس والألوان. وخزائن المدرسة مليئة بالمخطوطات والكتب القيّمة.

أولى سليم خان مجمع المسجد والمدرسة الذي أدى فيه أول صلاة جمعة له هناك اهتماماً خاصاً. وكثيراً ما زار هذا المكان خلال فترة إقامته في المدينة، وقدّم في كل زيارة للمؤسسة والأساتذة والطلاب إحساناً بمبالغ كبيرة215. وقد أدى هذا الوضع إلى بث الحيوية في حياة القاهرة العلمية.

لم يتوان سليم خان عن الاهتمام بالأهرامات الآيلة من العهد الفرعوني أيضاً. أثناء تجواله في منطقتها، قال لأحد أمرائه: «لو أن أحداً من أهل المعرفة الشاملة أبلغنا بخبر هذه الصروح». إثر هذا وجد عالم مسنٌّ، وقدم المعلومات لسليم خان. ويذكر لطفي باشا في تاريخه أن رجل المعرفة قال:

بنيت هذه واسمها أهرامات	اسمع يا سعادة الشاه المحترم
حَولها أيها الشاه سليم	على لساني قصص متنوعة

وقدّم معلومات حول مصر القديمة والحديثة، ووضع النيل في الشتاء والصيف، وفيضانه216.

تابعية الريس أوروتش

أحد أول مهنئي سليم خان بسلطنة مصر هو البحار التركي الكبير الريّس أوروتش. كان الريس أوروتش سلطان الجزائر، ويلقب بابا، ويكنُّ حباً وإخلاصاً خاصاً للسلاطين

العثمانيين. لهذا السبب فور علمه بأن سليم خان أصبح فاتح مصر أرسل مصلح الدين قورد أوغلو من قباطنته إلى سلطان السلاطين. وصل الريس مصلح الدين مع أسطول صغير إلى ميناء الإسكندرية ، وأبلغ سيد المدينة بأنه يريد أن يلتقي سليم خان. عندما نقل الخبر إلى سليم خان الموجود في القاهرة ، طلبه سلطان السلاطين إلى القاهرة على عجل.

إثر هذا انتقل قورد أوغلو من الإسكندرية إلى الرشيد ، ومنها عن طريق نهر النيل إلى حيث يوجد سلطان السلاطين. وفور ظهور قصر سلطان السلاطين ، أمر بإنزال الأشرعة ، وهتف بالتكبير.

مثل مصلح الدين قورد أوغلو بين يدي سلطان السلاطين باحترام وتقدير ، وقبّل يده. نقل له سلام أوروتش بابا وأخيه خضر ، وأبلغه بولائهم له. وقدم له الهدايا القيّمة التي جلبها معه. وطرِح سلطان السلاطين على قورد أوغلو أسئلة حول أسطولهم ، والإخوة بربروس. وحدثه قورد أوغلو عما فعله الأخوين أوروتش وخضر ، والغزوات التي خاضاها ، والانتصارات التي حققاها. وسُر سليم خان سروراً عظيماً بهذه الزيارة.

بعد عدة أيام قام سليم خان بجولة في نهر النيل بواسطة سفينة الريس مصلح الدين قورقود أوغلو ، وذهب إلى جزيرة الروضة حيث مقياس النيل[217] أول مرة ، وجاب القصر والحدائق هناك ، وعاد ليلاً إلى مقر قيادة الجيش. وقد لفتت جزيرة الروضة الأنظار بموقعها وجمالها الطبيعي منذ الفتح العربي لها. وفي عهود الطولونيين والإخشيديين والمماليك بني فيها قصور ومسجد ومستشفى ، ونظمت فيها حدائق جميلة جداً.

وبعد ذلك زار سلطان السلاطين جزيرة الروضة إذ أعجب بها كثيراً ، وقرر أن ينزل بها عندما تشتد درجة الحرارة. وأمر سلطان السلاطين ببناء قصر جميل له ، وحفر بيتين من الشعر كتبهما هو ، ومعناهما على النحو الآتي:

«الملك لله وحده. من يحصل على ذلك الملك يُبتلى. ومن يستولي على هذا الملك ، يبتلى به. وفي النهاية يعيده إلى صاحبه الأصلي (الله) رغماً عنه. وبهذا يرمي نفسه

إلى التهلكة. إذا كانت هناك قيمة ولو بمقدار أنملة فوق الأرض لي أو لغيري فهي مشتركة».

وكان يوقع تحت أبيات شعره: «خادم الفقراء».

تعرض السلطان أثناء وجوده هناك لعملية اغتيال. ركب قانصوه عادلي من أمراء المماليك النخبويين مع بعض رفاقه الجريئين زورقاً، وذهبوا إلى جزيرة الروضة، وتمكنوا من صعود البناء الذي يقيم فيه سلطان السلاطين دون أن يراه أحد. ولكنه لم يتمكن من إيجاد الجناح الذي يقيم فيه سلطان السلاطين بأي شكل، ولانكشاف الأمر في اللحظة الأخيرة، تمكن من القفز إلى نهر النيل، والهرب. وإذا كان سليم خان قد أمر سباحين مهرة من حراسه بإلقاء القبض عليهم، فإنهم لم ينجحوا بالمهمة218.

أرسل سليم خان إلى محمد باشا بيري الذي عينه قائمَ مقامٍ على إسطنبول عندما قرر التحرك من دمشق إلى مصر رسالة يطلب فيها منه بأن يجهز الأسطول، ويرسله إلى الإسكندرية بقيادة جعفر قابودان. وفي الأيام الأخيرة من شهر أيار/مايو وصل لسلطان السلاطين خبر وصول الأسطول إلى ميناء الإسكندرية. اصطحب سليم خان من وزرائه محمد باشا خوجا أوغلو، وأستاذه حليمي أفندي، وركب سفينة، وانطلق نحو الإسكندرية عبر نهر النيل في 28 أيار/مايو. كانت وحدة الحراس الخاصة المؤلفة من خمسمائة جندي تحرس سليم خان. ووصل إلى الإسكندرية وهو يتمتع برؤية المناظر الخلابة والقرى والمدن على ضفة النيل خلال يوم من السفر. عند دخول سليم خان الإسكندرية في 29 أيار/مايو 1517 أطلق الأسطول السلطاني مدفعيته كلها تحية لحاكم أغلب العالم، وأرسل المؤن القادمة من إسطنبول إلى القاهرة.

على مدى الأيام الأربعة التي قضاها في الإسكندرية زار أبنيتها العظيمة، ومعابدها، ومنارتها الشهيرة219 والأمكنة الغريبة فيها، وأخذ حولها معلومات. وفي طريق العودة زار سليم خان مدن الدلتا، ووصل القاهرة في 12 حزيران/يوليو.

بقي الأسطول العثماني سبعة وخمسين يوماً في الإسكندرية، وغادر في 15 تموز/

يونيو إلى إسطنبول. وكإجراء إداري أرسل مع الأسطول إلى إسطنبول بعض أبناء الحاكم الذين كانوا في القاهرة ، والخليفة السابق وأقربائه220 ، وقسم من العلماء والشيوخ المؤثرين ، والمهندسين وأرباب المهن ، وبعض الوجهاء ، وجزء من الكتب القيّمة التي في المكتبات.

انضمام الحجاز إلى الدولة العثمانية

في الأيام الأولى من شهر تموز جاءت إلى القاهرة هيئة سفراء في غاية الأهمية بالنسبة إلى العثمانيين وسليم خان. لأن هيئة السفراء قدمت للعثمانيين مفاتيح شبه جزيرة الحجاز كلها مع مكة والمدينة أهم مركزين إسلاميين.

أرسل الشريف أبو نمي ابن الشريف أبي البركات الثاني أمير مكة التابع للماليك وحاكم مكة المكرمة والمدينة المنورة مفاتيح المدينتين ، وطلب تبعيته للعثمانيين.

حملت رسالة الشريف أبي البركات مشاعر صادقة ، وبارك السلطنة. إضافة إلى ذلك فقد أرسل بعض الأغراض المباركة التي تعود لسيدنا الرسول. تشكل الأغراض التي جلبها الشريف أبو نمي من الحجاز القسم الأهم مما يُحفظ إلى اليوم في الغرفة الخاصة من جناح الأمانات المقدسة التي أمر بإعدادها السلطان سليم الجبار. أما بقية أشياء الأمانات المقدسة فقد وصلت إلى العثمانيين بطرق مختلفة من القاهرة وسورية.

فرح سليم خان كثيراً بتلك الرسالة والأمانات المرسلة من المكان المقدس ، وأبدى تقرباً من الشريف أبي نمي لم يكن يتوقعه على ما يبدو. فقد أعزه وأكرمه باستقباله ، وأخذ منه معلومات حول المنطقة.

عند عودته حمله براءة الإمارة لوالده مع خلعة إضافة لهدايا ثمينة له ولوالده.
وأرسل ليرات ذهبية وفضيات للفقراء الذين يعيشون في الحرمين إضافة إلى سفن محملة بالأغذية والحبوب. سُرَّ الشريف أبو نمي غاية السرور بهذا الاهتمام وتلك المساعدات ، وغادر إلى مكة بعد أن عبَّر عن عميق شكره لسليم خان.

وبما أن الحجاز قبلت الانضمام إلى الحاكمية العثمانية سلماً وتيمناً فقد منح سليم خان أمراء مكة الامتيازات التي كانوا يمتلكونها ، وحفظ لهم موقعهم[221].

تعتبر هذه الحادثة مؤشراً في غاية الأهمية على تعلق سليم خان بسيدنا الرسول ، ومحبته ، وقد انعكس هذا من خلال نظرته إلى الذين يديرون مكة والمدينة. ومنح بيري باشا موقع قاضي عسكر شبه الجزيرة العربية.

ذات يوم قال بعض كبار علماء الدين العثمانيين لبيري باشا: «من الأنسب إرسال حاكم لمكة والمدينة من إسطنبول». فأبلغ بيري باشا سليم خان بالأمر ، فأجاب سليم خان: «مضى أكثر من تسعة قرون على ظهور دين سيدنا محمد عليه السلام على الأرض. مكة المعظمة والمدينة المنورة هي عرش سيدنا الرسول. هل أرسل حتى الآن إليهما حكام من الخارج ؟ سلطنة مكة والمدينة بيد الأشراف أحفاد سيد الكائنات. أنا لم أسحب الجند إلى هناك لآخذها. هم عرضوا طاعتهم واحترامهم لي وارتباطهم بود ونضج وبطريقة جميلة ولطيفة. وأنا الذي حظيت بشرف هذه المكافأة.

من ألطاف الحق تعالى وأفضاله عليّ هو ذكر اسمي في خطب الجمعة والأعياد في مكة والمدينة. ولا أفي الله هذا الدين بشكره والثناء عليه ليلاً نهاراً. أنا لا أمنح هذه السعادة لسلاطين العالم كلهم.

لا تحرم أهل الحرمين الشريفين كل ما هو ممكن من البذل والعطاء والرحمة والرعاية ، وحذاري حذاري من التدخل في شؤون مكة والمدينة!»[222].

تعال يا أخي لنذهب

في هذه الأثناء جاء مراسل من محمد باشا بيقلي سيد سادة ديار بكر يبلغه بالسيطرة على ماردين وحسن كيف. وردَّ عليه سليم خان بامتنان كبير.

جاء قادة الصعيد ودمياط والمناطق الأخرى المحيطة بها ، ومثلوا بين يدي سليم

خان ، وأعلنوا ولاءهم له. قبلهم سليم خان مع الإطراء ، وأبلغهم أن الأمر الوحيد الذي يطلبه هو رفع راية الحق والعدالة ، وهدم بنية الظلم في ديار العرب. وأبلغهم سلطان السلاطين بأنه يطلب منهم طمأنينة وسعادة للرعية ، وأضاف محاولاً إخافتهم: «وإذا حدث عكس هذا فستتحملون النتيجة».

كانت جمهورية البندقية تدفع للمماليك كل سنة ثمانية آلاف دوكا ذهبية عن قبرص ، وإثر إنهاء العثمانيين هذه الدولة ، أرسلت جمهورية البندقية مندوبين إلى القاهرة يدعيان كونتاريني وموتشينغو. قبل المندوبان دفع المبلغ نفسه للعثمانيين. قويت الدولة العثمانية على الصعيد الاقتصادي كثيراً بضم سورية ومصر.

كان سليم خان يتابع من يكلفهم بالمسؤوليات ، وسلوك الرعية بعناية ، ويحرص كل الحرص على عدم وقوع الظلم. ولهذا كان يتابع حركات يونس باشا الذي عينه والياً على مصر بشكل مستمر. وإثر تداول أقوال حول طمعه وطموحه أثناء جمع المال ، ومحاولته جمع ثروة من خلال تهديد نساء سادة الشركس ، وفرضه ضرائب كبيرة على الشيوخ والوجهاء العرب ، عزله فوراً من منصبه. ولكن مهمته وزيراً أعظمَ بقيت مستمرة.

عُين الأمير الشركسي والي حلب السابق خاير باي والياً على مصر نتيجة دخوله بخدمة العثمانيين بعد معركة مرج دابق. خدم خاير باي العثمانيين منذ قبوله حاكميتهم بصدق ، وقد حظي بتقدير سليم خان نتيجة أفكاره الصائبة وتصرفاته الصادقة ، وطيب نواياه وطهارة قلبه[223].

طالت فترة إقامته في مصر كثيراً. بدأ موظفو الديوان والوجهاء وكبار رجال الدولة يتحرقون شوقاً لوصال أحبائهم ، واشتاقوا لجو الأناضول وإسطنبول ومائهما. الجميع مشتاقون ، ولكن من الذي سيفتح الموضوع لسليم خان ؟ أخيراً ذهبوا إلى كمال باشا زادة عالم عصره الفريد والوحيد والذي يتوق سلطان السلاطين دائماً لمصاحبته ، وقالوا: «نحن نعاني من الشوق في ديار الغربة. ألا يمكن أن تنظموا كلاماً يجعل سلطان السلاطين الذي يظلل العالم يتوجه نحو الأناضول ذلك البلد الجميل ؟».

من المحتمل أن كمال باشا زادة كان يحمل المشاعر نفسها. اكتفى بالابتسام، وقول: «إن شاء الله».

بعد عدة أيام من هذا الحديث، كان سليم خان وكمال باشا زادة يتحدثان وهما يسيران على حصانيهما. سأل سليم خان: «ماذا يجري في البلد، وما الذي يقال فيه؟».

إثر هذا السؤال، رد كمال باشا زادة:

«يا سلطان سلاطيني، أثناء قدومي للمثول بين يديك، سمعت حديثاً لفصيل من الجند يسقون خيولهم من النيل. أحدهم كان يردد هذه الكلمات الشبيهة بالأغنية:

ما الذي بقي لنا في ملك العرب

ماذا ننتظر أكثر من الشام وحلب

يستمتع الناس بعدل سلطاننا

تعال يا صديقي لنعد إلى الروم والأناضول ديارنا

أعجب سليم خان بهذه الرباعية، وأمر: «صحيح! لم يبق لنا بعد الآن عمل هنا. لنبدأ الاستعدادات»[224].

بعد هذه الحادثة الطريفة بيومين، وأثناء الاستعداد للعودة، سأل سليم خان أثناء الحديث مع كمال باشا زادة ثانية: «كان الملا لطفي الطوقاطي أستاذك. ما سبب مقتله على الرغم من معرفة الناس جميعاً بعلمه ونضجه؟».

قال كمال باشا زادة: «تعرض إلى بلية حسد زملاء مهنته. ولكن أستاذي كان مرحاً جداً. وأحياناً يسخر بكلماته بشكل خفيف من الآخرين. وأحياناً يؤلف الطرائف بنفسه، ويعتقد من يسمعه بأن هذا وقع حقيقة. كان رجلاً مرحاً بصخب. ووصلوا بالافتراء إلى سحقه».

رد عليه سليم خان: «وأنت؟ ألا تؤلف طرائف مثل أستاذك يعتقد بأنها حقيقة؟».

قال كمال باشا زادة: «حظينا بالدعم قبل أيام، وجاء الدور الآن على رفيقي، فليتكلم هو».

فقال سليم خان: «ألم تكن الرباعية في ذلك اليوم لك؟».

قال كمال باشا زادة: «شعور سلطان السلاطين بمكانه».

عندما وصل سليم خان إلى القصر، أرسل إلى كمال باشا زادة خمسمائة فلوري مكافأة له[225].

لئلا يصطدم رأسكم بالسياسة!

قبل مغادرة سليم خان القاهرة، ترك في المدينة قوة حراسة مؤلفة من خمسة آلاف فارس، وخمسمائة مشاة، وسلم قيادتهم لخير الدين آغا.

بعد ذلك استدعى والي مصر خاير باي وأشراف المدينة وأعيانها ليمثلوا بين يديه، وقدم لهم النصح. يقدم لطفي باشا هذه النصائح بمدخل منظوم على النحو الآتي:

تغدو بصورة وحشٍ تارة وملك تارة	اعلموا يا أهل مصر أن الدنيا
فيأتي يوم يغدون فيه محتاجين	يكونون متوجين بتاج شمسي
وتملأ الحقل والبستان بالنعم تارة	تكون الأرض حديقة زهر
ويغدو الحقل والبستان صخراً	يحل الشتاء على الألسن جبالاً
ويحل المرض وتجافيك العافية تارة	تعيش بالن.ع.مة والصحة ت.ارة
فلا تنقطعوا عن الشكر لما لديكم	اعل.موا أن هذه ح.ال ال.دن.يا

عليكم أن تطيعوا من أصدرت قراراً بتعيينه أميراً عليكم في غرفة الشريعة ، وتنفذوا أوامره. لتكن ألسنتكم في أفواهكم ، وأيديكم في زنانيركم. عليكم ألا تخرجوا ألسنتكم وأيديكم من أمكنتها كي لا تصطدم رؤوسكم بالسياسة. أنتم تعلمون أن الببغاء سجنه لسانه. لولا لسانه لكان طليقاً مثل سائر الطيور. الشريعة المستقيمة هي طريقكم. كونوا كذلك كي لا تخرجوا عن طريق الصواب ، وألا يكون دمكم سبباً لمسلك المفسدين226.

في 22 كانون الثاني /يناير كان سلطان سلاطينِ أغلب العالم قد قضى ثمانية أشهر إلا أربعة أيام بعد انتصاره في معركة الريدانية. فُسِّرَ انتظاره الطويل هذا بأنه سيقوم بحملة على السودان والحبشة. ولكن سلطان السلاطين كان يريد ترسيخ البنية العثمانية في الدولتين الكبيرتين سورية ومصر ، وإشعار الناس بعدالة الإدارة العثمانية بعد أن عاشوا قروناً تحت حكم المماليك. وسيُدرك إلى أي مدى كان سليم خان مصيباً بعد وفاته ، ولن يهتم الناس بحركات التمرد التي نشأت بعد أن تذوقوا ولو قليلاً طعم عدالة الإدارة العثمانية.

أكمل سليم خان الاستعدادات للعودة ، وودع القاهرة في 13 أيلول /سبتمبر 1517. بعد مغادرة سليم خان المدينة ، ومسيره فترة باتجاه الشمال ، استدعى الوزير الأعظم يونس باشا ، وبدأ يحدثه. نظر سليم خان إلى الخلف من تل تبدو منه القاهرة كظل ، وقال: «ها هي مصر بقيت خلفنا».

تأثر يونس باشا نتيجة سحب منصب سيد سادة مصر منه ، ومنحه لخاير باي ، فاستغل الفرصة ، وقال: «مع الأسف أننا بعد أن أخذنا مصر من الشركس بمزيد من العذاب والصعوبات ، وأجرينا دماً أغزر من مياه النيل ، منحناها لشركسي. لو عرف عبيدك بهذا مسبقاً لما خطوا خطوة».

إثر هذه الكلمات ، سحب سليم خان مقود الحصان ، وأوقفه ، وأمر قائد الميسرة

بقطع رأس الباشا. لم يستطع سلطان السلاطين التغلب على غضبه ، فأبقى على رأس يونس باشا مرفوعاً يومين قبل أن يأمر بدفنه في كاتيا227.

كان هناك من اعتبر بأن إعدام يونس باشا هو قرار ثقيل. ولكن لا يمكن التوقع من سليم خان تصرفاً آخر غير هذا مع من يعتبر فتح ثلاثة أقاليم كبيرة مثل سورية ومصر والحجاز أمراً تافهاً ، وأن تلك الدماء التي أريقت قد أريقت هدراً لمجرد تعيين شركسي والياً عليها.

وصل الجيش في 23 أيلول إلى غزة. وأصدر الديوان المنعقد في اليوم التالي أمراً بتوسعة سنجق القدس ليضم إليه غزة وصفد ونابلس ، ويعين جانبردي غزالي سيد سادة عليه228.

وصل سليم خان في 17 تشرين الأول/أكتوبر (21 رمضان) إلى قرب دمشق ، وبقي في خيمته خارجها فترة. أدى صلاة عيد الفطر في الجامع الأموي. أمضى سلطان السلاطين العيد في خيمته ، وفي 22 تشرين الأول/أكتوبر دخل المدينة ، ونزل في القصر الذي أقام فيه قبل ذهابه إلى مصر.

كانت القضية التي تشغل بال سليم خان في هذه الأثناء هي من سيعين في موقع الصدارة العظمى. كان المرشحان الأكثر احتمالاً للتعيين هما الوزير الثاني زينل باشا والوزير الثالث محمد باشا خوجا زادة. لم يكن سليم خان يرى أن زينل باشا لديه القوة للقيام بهذا المنصب. وعلى الرغم من احترامه لتفهم محمد باشا خوجا زادة وعلمه ، ولكنه لا يجده مناسباً لكونه شاباً لا يمتلك الخبرة اللازمة229. أخيراً قرر تعيين بيري باشا الذي كلفه بمنصب محافظ إسطنبول أثناء انطلاقه في حملة مصر ، وأرسل إليه حكم الدولة. دعوة بيري باشا إلى دمشق تشير إلى نية سلطان السلاطين البقاء فترة طويلة في هذه المدينة.

النشاطات في دمشق

عندما دخل سليم خان إلى دمشق ، وجد سفراء الشاه إسماعيل ينتظرونه. تلبّس

الشاه إسماعيل رعب شديد نتيجة تكلل حملة سلطان سلاطين العثمانيين إلى مصر بالنصر. اعتقد الشاه بأنه سيعود للهجوم عليه ، فأرسل رسالة مع هيئة سفراء ، وهدايا لم تر من قبل. كان الشاه إسماعيل مدركاً بأن سليم خان إذا هاجمه مرة ثانية فلن يبقي من دولته شيئاً. لهذا السبب كان يريد أن يبعد التهديد العثماني عن نفسه مهما كلف الأمر. تلقى سفراء الشاه خبر توجه سليم خان إلى دمشق ، فبدأوا ينتظرونه هناك.

في الرسالة التي أرسلها الشاه إسماعيل ، خاطب سليم خان بكلمات تعظمه. قال: «يا سلطان السلاطين! أصبحت تملك كثيراً من البلدان والتبعية. وقد حظيت بشرف لقب خادم الحرمين الشرفين بفتحك مصر. أنت الآن ألكسندر الأرض. جرى بيننا ما جرى. ولا يمكن أن يعود. تذهب إلى بلدك بسعادة ، وأنا ألبي ما تريده وتطلبه مني»230.

على الرغم من هذا لم يغيّر سليم خان موقفه من سفراء الصفويين. ولم يثق بالوعود التي وعد بها الشاه إسماعيل ، فأرسل السفراء إلى إسطنبول لكي يُسجنوا.

أثناء وجود سليم خان في الشام ، عمل على تنظيم أعمال الأرض والضريبة في سورية وما حولها. عين قاضي حلب كمال جلبي تشولمكتشي زادة دفتر دار الجزيرة العربية ، وكلفه بالإشراف على أعمال تحرير موجودات المناطق المفتوحة. وكلف أبو الفضل بن إدريس البتليسي بأعمال تحرير موجودات طرابلس وحماة وحمص ، ونوح جلبي فنار زادة بتحرير موجودات دمشق وما حولها ، وعبد الكريم جلبي عبد الله باشا زادة بتحرير موجودات حلب. سيدقق هؤلاء الرجال الثلاثة بسورية على أوسع نطاق ، ويحددون الملك الخاص ، ويفصلون القطع والأوقاف عن الأملاك من أجل الأعطيات231.

من جهة أخرى ، سيُعين بيري باشا القادم إلى دمشق في 24 كانون الثاني/يناير 1517 بمنصب الوزير الأعظم. اكتسب بيري باشا ثقة سليم خان من خلال استقامته ، وصراحـ وصواب رؤاه ، وقناعاته.

كان سليم خان قد وجد قبر الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي عندما دخل

دمشق أول مرة ، وأمر ببناء قبة له ، وبجواره مسجداً ، ومطعماً للفقراء232.

وقد أنجز المجمع عند عودة سليم خان ، وحضر سلطان السلاطين مراسم الافتتاح (الجمعة 5 شباط/فبراير). أدى سلطان السلاطين صلاة الجمعة هنا ، ونظم أوقاف المجمّع. وقد أعطت المصادر المعلومات الآتية حول المسجد والمطعم الخيري:

«أمر ببناء مسجد بجوار القبر المنار بالأضواء ، فكان بناء لا مثيل له بلطافته ، أضاف جمالاً لجمال دمشق. يشعر الداخل إليه بالصفاء وكأنه يخرج من الدنيا ، ويلج عالماً آخرَ. يعتقد الإنسان أنه جزء من المسجد ، فلا تطاوعه نفسه للخروج من هناك. وقد تأسس مطعمٌ خيري يمتع الأنظار بجوار المسجد. وبدأ يستفيد من نِعَمِ الموائد الكثيرة كالبحر الشباب والشياب ، والأقوياء والضعفاء ، والمهمومون ومرتاحو البال»233.

تنكر سليم خان أيام إقامته في دمشق ، واختفى من الوسط ، وزار خليل الرحمن ، وبيت لحم مسقط رأس عيسى عليه السلام الواقع جنوب القدس بعشرة كيلومترات.

من الحوادث التي وقعت في دمشق ، وأثرت كثيراً بسليم خان هي وفاة أستاذه الذي يحترمه ويقدره كثيراً العالم الكبير حليمي جلبي. وقد دفن هناك في تربة محي الدين بن عربي.

بعد تنفيذ الإجراءات التي طلبها سليم خان ، ودع دمشق بعد إقامة أربعة أشهر ، وجاء إلى حلب (3 آذار/مارس 1518). وبعد أن أقام فيها شهرين تقريباً ، انطلق باتجاه إسطنبول في 6 أيار/مارس. عندما وصل إلى سهل مرج دابق ، أرسل الوزير الأعظم محمد بيري باشا مع ألفين من الإنكشاريين وكثير من جنود الولايات باتجاه ديار بكر. أراد بهذه الحركة أن يضبط حركات الشاه إسماعيل ، ويخيفه. أخذ محمد باشا بيري قلعتي آني وهيك ، عاد إلى إسطنبول بعد أن لم يترك مجالاً لأي حركة يقوم بها الشاه.

أما سليم خان فقد سار على طريق عينتاب ، وقيصري ، وآق سراي ، وأفيون ، وبورصة ، ووصل إلى أسكودار يوم الأحد في 25 تموز/يوليو 1518.

لقد مضى على مغادرته إسطنبول (5 حزيران /يونيو 1516) سنتان وخمسون يوماً بالضبط. وقد قام رجال الدولة وأهل إسطنبول بإعداد استقبال عظيم لسلطان سلاطين العالم التركي العظيم هذا الذي نفذ إحدى الحملات الهامة في العالم، وأكسب الدولة العثمانية دولاً عظيمة، وعاد بلقب «خليفة المسلمين».

ولكن سليم خان الذي سخر كل المظاهر والقوة للدولة شعر بالضيق والخجل نتيجة المراسم والبهرجة التي أعدت لشخصه. لهذا فقد أجل دخوله إلى المدينة يوماً. بعد ذلك، ركب زورقاً مع بعض رجاله عندما حل الظلام، وعبر البوسفور، وذهب إلى قصر طوب قابِ. لهذا السبب، عندما علم الشعب ورجال الدولة أن سليم خان قد دخل قصره، لم ينفذ برنامج الاستقبال ومراسمه.

تذكرت أنني يجب أن أنهي أمورهم!

بعد وصول سليم خان إلى إسطنبول، بدأ بعملية زيادة عدد قطع الأسطول، ونشاطه. وقد وجد ضرورة لإنشاء حوض بناء سفن ضخم في إسطنبول منذ سيطرته على دولة دوالقادر. وفي لقاء له مع كمال باشا زادة العالم الكبير، وقاضي عسكر الأناضول، قال:

«أريد أن يكون حوض بناء السفن لثلاثمائة قطعة. وأن يمتد من الحصن إلى كاغتهانة. أنوي فتح بلاد الإفرنج (أوروبا) إن شاء الله».

فقال كمال باشا زادة لسلطان السلاطين: «يا سلطان سلاطيني! أنتم تقيمون في مدينة بحرية، ودون فتح البحر، ومجيء السفن، لا يمكن أن تزدهر إسطنبول».

لهذا السبب وسَّع بداية حوض بناء السفن القديم الذي في الخليج، وقد أنشأه جده الفاتح حيث كان البيزنطيون يبنون سفنهم بحيث يحتوي على ثلاثمائة ورشة، ويمتد إلى كاغتهانة. وقد صرف على كل ورشة من تلك الورش خمسين ألف فضية. أمر سليم خان ببناء مائة وخمسين سفينة تتحرك بالأشرعة والمجاديف، وأمن لها جدافين عرب من سورية

ومصر.

اكتمل بناء هذا الأسطول سنة 1516، وعرج على مرسيَي غزة والرملة أثناء حملة مصر بقيادة القبطان جعفر، ووصل إلى مياه الإسكندرية في 22 أيار/مايو 1517. وفتش السلطان سليم الأسطول هنا، وحصل على المعلومات اللازمة من القبطان جعفر، وأبدا امتنانه من الوضع.

بعد عودة سليم خان من حملة مصر، بدأ يهتم من جديد بالأسطول، وأمر ببناء سفنٍ جديدة في حوض بناء السفن العظيم الجديد.

بث سليم خان الهلع نتيجة إجراءاته تلك بالبندقيين بداية. ودخلوا عملية البحث عن حلفاء في أوروبا مع عودة طرح قضية دفع ضرائب جزيرة قبرص، وحصنوا الجزيرة.

اعتبر فرسان رودوس مع الريس فابريكا كاريتا بأن الاستعدادات القائمة في إسطنبول موجهة ضدهم، فاستدعوا الفرسان التابعين إليهم من أوروبا، وهكذا اتخذوا احتياطاتهم اللازمة إزاء أي هجوم.

أما البابوية فقد أرسلت كاردينالاً إلى كل من فرنسا وإنكلترا وإسبانيا، وعملت على تأسيس وحدة قوى ضد الدولة العثمانية، ولعلها بهذه الطريقة حاولت منع سليم خان من التوجه نحو روما.

لعل هذه المراسلة التي يقدمها الوزير الأعظم بيري محمد باشا تنير ما يفكر فيه سليم خان إلى حد ما:

استدعي بيري باشا للمثول في حضرة سلطان السلاطين ذات منتصف ليل. كان بيري باشا قلقاً. لأن سليم خان كان قلقاً جداً. سأل قائلاً:

«هناك مجموعة من دول الكفار فيها مدن كبيرة وقلاع قوية شامخة، وبحارها عامرة إلى أقصى الحدود، وفيها جزر مهوى للقلوب، وملوكها كفرة.

أيجوز أن يُجلس الكفار على العروش، وأن يضبطوا الدول، ويحكموا العالم، ويستمروا بسلطنتهم؟ أليس للإسلام هدف!

خطر ببالي أن أنهي أمورهم بسرعة. ما رأيك واستعداداتك في هذا الموضوع؟ ما الذي يجب فعله؟».

قال بيري باشا:

«بناء على أوامركم العلية فالسفن الشراعية والتي تعمل بالمجاديف على وشك الإنجاز». وعندما أضاف: «لننفذ أوامر سلطان سلاطيننا مهما كانت». أهال المدائح على الباشا قائلاً: «آمركم فوراً. اعملوا اللازم!»234.

أستاذاي خضر خير الدين ونصر الدين

في هذه الأثناء وقعت تطورات في الجزائر، فقد استشهد الريس أوروتش في معركة مع الإسبان، وحل محله شقيقه خضر. إثر هذا تحالف الإسبان مع أمير تلمسان من أجل إخراج الريس خضر من الجزائر نهائياً. صدَّ الريس خضر أول هجوم للحلفاء، ولكنه رأى حساسية الوضع. أثار فضوله الجميع وقوف حفنة من الأتراك ضد شارلمان والمحليين، ولهذا الأمر قرر طرق باب سليم خان.

حضَّر خضر باشا أربع قطع بحرية بهدايا كثيرة لسلطان السلاطين والباشوات وأصحاب الرتب الرفيعة. واختار الحاج حسين آغا قائداً لمشاة البحرية، وأرسله.

فرِح السلطان سليم الجبار كثيراً بهذه الزيارة. وقد حزن بالقدر نفسه لاستشهاد الريس أوروتش. عندما حضر إلى الحضرة الشريفة من أجل قراءة أسماء هدايا خضر بيك، قال:

«يا أستاذي خضر، ويا خير الدين ونصر الدين. كان أوروتش من أقرب عبيدي إليّ من قبل. لقد قبلت بكل ما قام به. نصره الله في معاركه كافة على الأعداء. لتبقى خطبه

تطلق باسمي في ولايته». وخلع خلعة على الحاج حسين. وأمر بفرش دور للآغا ومحاربي البحرية ، ومنحهم الأعطيات.

بقي الحاج حسين آغا في سعادة الأستانة حوالي أربعين يوماً. التقى بكبار رجال الدول خلال هذه الفترة ، وقدم لهم الهدايا. وبعد أن أنهى استعداداته من أجل العودة ، استقبله سليم خان مرة أخرى.

سلَّم سليم خان الرسالة التي كتبها بخطه للآغا. إضافة إلى ذلك فقد سلَّمه سيفاً مرصعاً بالجواهر ، وحلّةً فاخرة ، وسنجقاً ، وراية. ثم قال لحسين آغا:

«خذ هذا السيف لأستاذي خير الدين. وليكن دليلاً لفهمه لي. ليكن محاربي ضد أعداء ديني. عليه ألا يفصل بين رايتي وسنجقي. وليكن منصوراً كلما فتحهما. بيض الله وجهه في العالمين». ودعا له.

ودعه سليم خان بالسفن من القصر الشاطئي ، وحيّاه بطلقات المدفعية.

وحصل سليم خان من حاكم البندقية على رسالة يتعهد بموجبها عدم التعرض للحاج حسين آغا. وأرسل معه رجلاً من خواصه.

بعد أن أشرع الحاج حسين أشرعة سفنه مبحراً بعد أيام ، وصل إلى قرب قلعة كورون ، صادف مجموعة سفن بندقية. كانت كامنة أمام قلعة كورون. عرف خير الدين بموقع السفن ، وسعى لوضع اليد عليها ، ولكنها لم تبدِ أية إشارة حول الهرب ، ولم يستطع الحاج حسين آغا تفسير وجودها في مدخل الميناء ، ولكنه دخله بزورق ، وصعد إلى سفينة الجنرال مباشرة ، وعرض عليه أوراق الحاكم ، فظهرت عليه الدهشة. قال له:

«بما أنكم أتيتم إلى هنا ، وقابلتمونا ، يجب أن نرافقكم إلى مودانيا. لأننا نعرف بأنهم سيعتبروننا مسؤولين عن أي أذى يصيبكم». ورافقتهم القطع البحرية الثمانية فترة في البحر.

بعد مرور عدة أيام ، وصلوا إلى الجزائر باحتفالات عظيمة.

عقد خير الدين بيك اجتماعاً موسعاً للديوان حضره العلماء والصالحون والشيوخ والمحاربون.

ارتدى خير الدين الخلعة التي أهداه إياها حضرة سلطاه السلاطين كالحرز ، وتقبل رسالة السلطان وقوفاً ، وقبلها ثلاث مرات ، ومسح بها وجهه وعينيه ، وأمر بقراءتها بحضور أركانه جميعاً.

قال العلماء والأركان الذين استمعوا للأمر الشريف بمحبة كبرى:

«سمعنا ، وسعادتنا الكبرى أن نعمل بمقتضاها». ودعوا لسلطان السلاطين بأعظم الأدعية.

وسر سكان البلد جميعاً صغاراً وكباراً ، شباباً وشياباً ، نساء ورجالاً. أمر خير بيك بقراءة أول خطبة جمعة بعد هذا الحدث باسم سليم خان ، وأرسل مع رجل سلطان السلاطين إلى الأستانة هدايا كثيرة.

من جهة أخرى فقد أقلقت التطورات الأخيرة كثيراً كلاً من سيد تونس وتلمسان. وصل أمر سلطان السلاطين الشريف إلى ولاية الجزائر ، وتقبل الناس الأمر بامتنان عظيم ، وشعروا هم بالغم والغصة[235].

هل الاتجاه إلى رودوس ؟

الأهمية الكبرى التي أولاها سليم خان للبحرية ، جعلت أسطولاً مؤلفاً من مائتي قطعة بحرية مستعداً للحرب. كان هناك اعتقاد قوي بأن الحملة ستشن على المسيحيين ، ولكن أحداً لا يعرف ضد من. لعلها تُحضر من أجل صد الحملة الصليبية التي تحاول روما التحضير لها. ولكن القناعة السائدة بين رجال الدولة هي أن الحملة ستكون موجهة ضد رودوس.

في الحقيقة أن رجال الدولة كانوا مؤيدين لشن حملة ضد رودوس. لأن رودوس اشتهرت بأنها موقفاً للصوص والقراصنة ، وللسيطرة عليها أهمية أكبر بعد السيطرة على مصر. لأنها تقع على طريق التجارة بين إسطنبول والإسكندرية. أصبح الوزراء يقولون:

«يمكن أن يصبح البحر المتوسط هذا ميناء للدولة العلية فقط». وأقنعوا أنفسهم بأن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بفتح رودوس236. بعدئذ قدم الوزراء وكبار رجال الدولة بالتعاون فيما بينهم من أجل توجيه سلطان السلاطين إلى فتح رودوس. وحضروا ما رأوه مناسباً من أجل الفتح.

ذات يوم زار سليم خان أبا أيوب الأنصاري. لحظة خروجه من باب أبي أيوب إلى الخارج ، انطلقت أصوات المدفعية من جهة حوض بناء السفن. عندما سألوه عن السبب ، قالوا: «لقد أنزلوا سفينة إلى البحر ، وهذا الاحتفال بعملية إنزالها».

غضب ، وقال: «بأمر من أنزلوا السفينة ؟ منذ متى وهم يتحركون بمبادراتهم الذاتية ؟ لتقطع رقبة المسؤول فوراً». وبهذا أمر بإعدام القبطان جعفر بيك.

ولكن الوزير الأعظم محمد باشا بيري تدخل ، وشرح بأن هذه السفينة الشراعية وذات المجاديف من تلك السفن الجديدة ، وقد أنزلت لمجرد تجربتها ، وبهذا أمن له العفو ، والبقاء في مهمته. ولكن سليم خان كان مدركاً أن هذه الحركات كلها تهدف من أجل توجيهه نحو جزيرة رودوس. في اليوم التالي خاطب الوزراء في الديوان بكلمات ثقيلة. وعندما قال لهم: «تريدون دفعي إلى جزيرة كفار. وهل تستحق ذهابي إلى هناك حيث فتحها شديد الصعوبة! ومن الواضح أن استعدادات وزراء أمثالكم ليست مضمونة النتائج. كيف ستفتحونها قبل أن تنجزوا الاستعدادات الضرورية ؟ لأذهب شخصياً لفتح قطعة قلعة ، ولأتحمل أعباء شديدة في فتحها. ألا يجلب هذا صعوبة للسلطنة ؟ ويعتبر البارود من أهم أدوات الفتح. لكم شهر لديكم مؤن وبارود ؟ أخبروني!» لم يستطيعوا أن يقدموا إجابات صحيحة.

إثر هذا اشتد غضبه ، وقال: «وهل الذهاب لفتح قلعة بناء على استعداداتكم حركة ذكية ؟ اذهبوا ، وابحثوا بالأمر ، واعرضوه عليّ غداً» وأخرجهم من حضرته.

في اليوم التالي قدموا لسليم خان في الديوان المعلومة الآتية: «سلطان سلاطيننا ، هناك بارود يكفي لأربعة أشهر ونصف أو خمسة على الأكثر».

رد سليم خان: «أنتم لا تستطيعون السيطرة على الحصن بستة أشهر وليس بخمسة. يا لكم من رجال! لا يمكن الوصول إلى هناك بهذه الاستعدادات. في أثناء عملنا للسيطرة على الدول ، تحاولون أنتم إشغالي بقلعة لصوص. اذهبوا ، فأنا ليس لدي حملة!» بعدئذ أشاح بوجهه عن الوزراء ، وقال: «ظهر بأن الحملة إلى الآخرة!»237.

في طريق أدرنة

قرر السلطان سليم الجبار الذهاب إلى أدرنة في شهر شعبان من سنة 926 (تموز—آب/يوليو—أغسطس). أخرج إلى الطريق آمري الخزينة مع كثير من أحمال الجيش السلطاني والوزراء وأركان الديوان اللازمة.

قبل حركته بيوم ، خرج من القصر المقيم فيه ، ونزل إلى الحديقة التي تفتح القلوب ، وتنعشها ، وشرد بالفرجة عليها. أثناء تجواله في الحديقة ، التفت إلى حسن جان بشعور ألم شديد في ظهره ، وقال: «كأن شوكة تغوص في ظهري ، وتخرج ، وتزيد ألمي».

قال حسن جان: «يجب أن يكون قد تعلق فكرك بأشجار الحديقة ، اسمح لي أن أراها».

إثر قوله: «مناسب» ، جلب مسؤول الكرسي كرسياً مذهباً يحمله ، وأجلس سلطان السلاطين عليه..

جاب حسن جان بيده على ظهره من تحت ياقته ، ولم يجد شيئاً. ولكن سليم خان جدد شكواه بعد فترة.

فك حسن جان هذه المرة أزراره ، ونظر ، فرأى بقدر رأس شعرة قد ابيضّ ، واحمر ما حوله. حين لمسه ، قال سلطان السلاطين: «إنه هنا».

عندما سأل سليم خان: «ما نوع هذا الشيء ؟» وصفه حسن جان. إثر هذا طلب من حسن جان أن يعصره.

عندما ضغط حسن جان بأصبعي السبابة والوسطى على طرفي الدمّل الحديث ، وشعر بكتلة كبيرة قاسية ، استغرب ، وارتعد ، وقال بدهشة: «سعادة سلطان سلاطيني ، إنه دمل كبير. ما زال خاماً. ليس من الصواب شقه قبل أن ينضج. لا بد من إيجاد مرهم مناسب له».

كأن حسن جان لم يأتِ إلى خدمته قبل ثلاثة أيام لأنه طريح الفراش بسبب علة الدمل. ولأن هذه الحال تركت في نفسه أثراً ، قال بمزيج من العتاب والممازحة: «لسنا شديدي التأنق لنستدعي الجراحين من أجل دمل صغير». خرجوا بهذه الحال إلى قصر السعادة. وقضوا تلك الليلة قلقين متخبطين بالألم.

في اليوم التالي ، دخلوا الحمام من أجل أن ينضج الدمل. استغل غياب حسن جان ، وطلب من أحد خدمه أن يعصر الدمل بقوة. وعندما رأى حسن جان فيما بعد ، قال: «يا حسن جان! لم نسمع كلمتك ، ولكننا أهلكنا أنفسنا».

قال حسن جان الذي يحب سلطان السلاطين أكثر من نفسه: «فقدت صوابي عندما سمعت هذه العبارة. عندما نظرت ، وجدت الدمل قد خرج من وضعه الطبيعي ، واستشرس»238.

على الرغم من هذا انطلق سليم خان إلى أدرنة في تموز/يوليو 1520 برفقة جنود الخدمة وفرهاد باشا ، ولكن جرحه كبر مع مرور الأيام ، وفُتِح.

عندما وصل إلى قرية صرت قرب تشورلو ، سقط منهكاً لا يستطيع الحركة. لهذا

السبب أمر بنصب مقر قيادة الجيش هناك للاستراحة فترة ، والمعالجة. وتمكن الأطباء في هذه الأثناء من تشخيص المرض. لقد التقط سلطان السلاطين نوعاً من الورم القاتل يدعى «الجمرة الخبيثة»239.

بدأ العلاج اللازم فوراً. ولكن الجرح كبر بالتدريج على الرغم من الاهتمام الذي أبداه رئيس الأطباء مع بقية الأطباء. بقي سليم خان حوالي شهرين في مقر القيادة يزداد ألمه ، ويتناقص أمله ، فأمر باستدعاء الوزير الأعظم بيري محمد باشا الموجود في أدرنة ، والوزير مصطفى باشا ، وأحمد باشا سيد سادة روملي للمثول في حضرته. كتب وصيته. وبعدئذ انفرد مع محمد بيري باشا. أوضح أنه يعيش آخر لحظات حياته ، وطلب جلب الأمير سليمان والي مانيسا بأسرع ما يمكن.

انهار بيري باشا نتيجة مرض سلطان السلاطين الذي يحبه كثيراً ، وأمر بهذه الحال سليمان آغا من نخبة الضباط الخاصين حامل سلاح السلطان بإعطاء الخبر للأمير في مانيسا ، وتأمين مجيئه بأسرع ما يمكن.

وفاته

يروي حسن جان مصاحب سليم خان — المستمر بعد حملة إيران ، والباقي في خدمته بشكل دائم — ما عاشه سلطان السلاطين في أيامه الأخيرة على النحو الآتي:

«كنت في الفترة الأخيرة لا أقصّر لحظة بنيل شرف خدمة سليم خان ، وأقف على أهبة الاستعداد أمامه كالشمع من كل قلبي. عندما أتعب ، أجلس على طرف السرير ، ولم أتهرَّب من الخدمة ولو لحظة واحدة. وكانت يداه المباركتان تلمسان يدي تارة ، ويستند رأسه العظيم إلى كتفي تارة أخرى. عندما يتدخل الجراحون بصنع علاج ما له ، كنت أجلس معهم. لم يكن يثق بأحد غيري تقريباً».

كان هذا مساء 21 أيلول /سبتمبر 1520 (8 شوال 926) مساء يوم الجمعة. تطور مرضه كثيراً. وكان مع حسن جان أيضاً.

نادى ذات لحظة زاد فيها اضطراب سلطان السلاطين ، وسأل: «حسن جان ، ما هذه الحال ؟».

لم أستطع النظر إلى وجهه بحالة الحزن الشديد ، وأجبته: «يا سلطاني ، لقد وجه جناب الحق بأن هذا زمن الكينونة معه».

للحظة انتفض سلطان السلاطين المبارك بمزيج من الحزن ، ونادى: «حسن جان ، مع من رأيتنا طوال هذا الزمن ؟ هل رأيتنا مقصرين بالتوجه إلى الحق تعالى ؟».

رد حسن جان خجلاً وشاعراً بالضيق نتيجة تسببه بانزعاج سلطان السلاطين: «حاشاك يا سلطاني ، فلم أرك لحظة غافلاً عن ذكر الله تعالى. ولكنني قلت هذا كنوع من الاحتياط لأن هذا الزمن لا يشبه بقية الأزمنة».

في الحقيقة أن حسن جان لم يستطع القول إنه زمن الموت ، ولم يستطع القول إن جلاد الأجل ينتظر بالباب ، ووارب باستخدام تلك العبارة.

بعد أن صمت سليم خان فترة ، أمره هذه المرة بقراءة «سورة ياسين».

إثر الأمر بدأ حسن جان بتلاوة سورة ياسين من مطلعها بصوت خفيف وجميل. ورافقه سليم خان بقراءتها أيضاً.

ثم أمره بإعادتها ثانية. وكان يرافقه بقراءتها أيضاً.

وبعد قراءة آية {سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}240 ، عصر يده اليمنى بين أصابعه ، ورفع السبابة ، وأسلم روحه على هذا النحو.

ووجدت زمناً من أجل التخلي أغمضت عينك عن مراقبة الدنيا

كانت يداه القويتان بين يديّ. عندما جسست نبضه ، وأدركت أنه توقف ، بدأت بتقديم واجب الخدمات الأخيرة.

كان علي جلبي رئيس الأطباء بجوارنا في تلك الأثناء، وينظر إلى ما أفعله. استغرب الوضع، وعندما حذرني: «ما زال على قيد الحياة. ما هذه الأفعال العجيبة التي تفعلها؟».

أجبته قائلاً: «منذ أن مرغت جبهتي على عتبة هذا الباب لم أشح بوجهي عن خدمة سيدي ولو لحظة واحدة. وهذه هي خدمة اللحظة اللازمة. استمر عملك بالطب طويلاً، وفقدت الجوهر الذي يتاق إليه».

في هذه الأثناء أدرك بعض الخدم الصادقين وفاة سلطان السلاطين، وبدأوا بالبكاء. نتيجة بكائهم بصوت مرتفع، تدخلت لإسكاتهم كي لا ينتشر خبر وفاته في كل مكان، وتدب الفوضى. كنت أُسكت بعضهم من جهة، ولكن بعضهم الآخر يبكي في الجهة الأخرى. ترتفع أنفاسهم للحظة، ويبدؤون البكاء بصوت مرتفع.

رأيت أنني لن أستطيع إسكاتهم. أبلغت رئيس الخزينة سليمان آغا، ورجوته بأن يسكتهم.

رد سليمان آغا: «لو عرف الإنكشاريون بالوضع، فما الذي سيحدث للخزينة؟» واختار إبلاغ الوزراء. واعتقد أنه بهذا التصرف يخلي مسؤوليته.

عندما علمت بما فعله، هرعت إلى ذلك الطرف فوراً. رأيت البعض واقفين بالباب، ويتحدثون على ضوء المصباح. قلت لهم: «ماذا تفعلون هنا؟ لماذا لا تضبطون زملاءكم؟».

قال حتى سليمان آغا: «وما الذي يهمك أنت. يقع على عاتقي حماية كل هذه الخزينة. أنا أتحمل الذنب فيما لو تضررت. أرسلت كبير البوابين إلى الوزراء كي يأتوا ويتخذوا الإجراءات اللازمة. لا أريد أن أقع بمصيبة».

بسبب العناد أو التكبر ليس من الممكن شرح الخطأ الذي وقع فيه أو أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً. تركت هذا، وانطلقت خلف الذاهبين فوراً من أجل ألا أضيع الوقت،

أو أتسبب بكارثة لا يمكن تلافيها. عندما اقتربت ، ناديت حضرة الآغا قائلاً: «توقفوا قليلاً». كان كبير البوابين يعقوب الفيل شخصاً لماحاً يفهم الأمر في اللحظة ذاتها.

عندما وصل إلى قربنا ، قلت له: «إلى أين أنتم ذاهبون ؟» قال: «أرسلنا سليمان آغا إلى الوزير الأعظم ، ونحن ذاهبون إلى هناك».

«لقد تصرفوا دون استعداد وسط الحزن والشك ، ودخلوا بحركة من هذا النوع. أنتم أبناء دولة عشتم ما عشتموه. تعرفون كيف أن وصول رئيس البوابين في منتصف الليل بوجود العساكر الغاضبين يفتح الباب أمام الفتنة. لا يخفى على أصحاب العقل أن تدبيراً من هذا النوع يولد نتائج كهذه».

أما زعيم البوابين فقد قال: «تقولون الحقيقة. ولكننا عبيد خدمة. وأطرقنا برؤوسنا على هذا الأساس. ما العمل الذي يجب أن ينفذ لننفذه فوراً».

قلت: «البقاء هذه الليلة في حراسة باب السعادة ، والحفاظ على السر هو العمل الأذكى. مع الصباح يجلب الوزراء الكبار إلى الديوان بموجب القانون ، وتناقش القضية بكل تفاصيلها».

أعجب يعقوب الفيل بهذه الإجراءات المناسبة للمنطق ، ودعا لي. وعندما عاد كان سليمان آغا معانداً على فكرته السابقة ، وقد بدأ بدفع الأمور إلى الشجار.

أما حسن جان فقد اختار الليونة والطريق الملائم ، وتوسل إليهم كثيراً قائلاً: «يا حضرة الآغا! هذا ليس وقت الصراع والصدام. عليكم المحافظة على السر هذه الليلة مهما كان. وحاولوا ألا تسمعوا أحداً بالأمر. انظروا ، ها هو الصبح قريب. تكرموا علينا ، واصبروا ولو للحظة واحدة»241.

وقرأ الآية الحادية والثمانين من سورة هود التي ترد فيها عبارة {... أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} محاولاً إقناعهم.

عندما حل الصباح، وصل الوزراء بحسب تقاليد الديوان. عندما دخل الوزير الأعظم بيري باشا إلى الداخل، وعرف الوضع، سالت دموع كالسيل من عينيه. أمسك بيد حسن جان، وعبر له عن إعجابه بالاستعدادات التي اتخذها، ومنحه دعاءه بالخير، وكثيراً من المديح:

«لقد أرسلك الحق تعالى إلى هذا الباب من أجل هذه الخدمة. لولاك فإن الخطوات الخاطئة يمكن أن تؤدي بالبلد إلى الخراب». عقد اجتماع الديوان في ذلك اليوم وكأن شيئاً لم يكن. وزعت المهمات، والترقيات. وخلعت على الأطباء خلعٌ لما أبدوه من نجاح في معالجة سليم خان.

فيما بعد، بدأ العمل على تحنيط جسد سلطان السلاطين داخل الخيمة السلطانية بإدارة الحكيم شاه القزويني وعضوية الحكيمين عيسى وعثمان، وتغسيله وتكفينه لمنع فوحان رائحته برئاسة حسن جان. عندما كادت تظهر عورة سلطان السلاطين أثناء تغسيله، رأى الأطباء أنه ستر عورته بحركة حازمة، فانبهروا، وتحولت وجوههم إلى ما يشبه الشمع، وبدأوا برفع التكبير والصلوات. أكملوا مراسم الاغتسال عندما صحوا إلى أنفسهم ثانية. دفنت الأحشاء الداخلية لسلطان السلاطين في مكان من وسط الخيمة السلطانية 242.

بواسطة الإجراءات التي اتخذها محمد باشا بيري أخفي سر وفاة سليم خان حتى وصول الأمير سليمان إلى إسطنبول. أخيراً عندما وصل خبر وصول سليمان في الحادي عشر من شوال (24 أيلول/سبتمبر) إلى إسطنبول، أعلنت وفاة سليم خان، وجلوس السلطان الجديد على العرش.

بدأ جنود الميسرة بالبكاء وهم بحالة من اليأس والحزن الكبيرين. قطع الجنود في الجيش حبال الخيم، وأسقطوها على الأرض. أنّت الدنيا بصراخ يا ويلتاه. وأعلن الجنود الحداد وهم يتأوهون. جلب الوزير الأعظم والوزراء الجنود والجيش إلى إسطنبول عاملين على تهدئتهم.

على الرغم من وجود السلطان سليمان على رأس نعش سليم ، فقد استقبله رجال الدولة الذين في إسطنبول جميعاً في موقع باغلر خارج باب أدرنة. لقد وُضع في التابوت المحضّر بشكل خاص ، وحمل على الأكتاف باتجاه جامع الفاتح. مئات الآلاف من الناس نزلوا إلى الشوارع محاولين اللحاق بالجنازة. كانوا يقرؤون الفاتحة والأدعية ويهدونها إلى روحه.

حمل النعش على الأكتاف برفقة التكبير والتهليل

انقطع عن العالم برفقة الصيحات

قالوا يا شهريار السعيد

أدخلت الشرق والشام تحت رايتك

نورت ملك الإسلام

جعلت العصيان المقدس قدراً

ما الوجهة الآن يا شهريار

لمن سلمت النعش بعد الجنازة أيها الفارس

من دخل التابوت خفية عن الأنظار

في ذلك اليوم عندما كانت الغيمة السوداء

صرت نحيلاً غطيت بالسواد

من بقي لزينة الدنيا

أليس الأمر ربانياً لا جدوى منه243

أقيمت صلاة الجنازة في جامع الفاتح بحضور مئات الألوف. بعد ذلك دُفن في الحي المجاور اليوم لجامع السلطان سليم والذي كان يدعى يومئذ قصر ميرزا.

قبل وفاة السلطان سليم ، أراد أن يبني جامعاً في هذا الموقع الذي كان يحبه كثيراً ، ويقصده للنزهة ، وأمر بوضع أسسه. ولكن عمره لم يساعده على إكماله. سيكمل ابنه سليمان الجامع بأسلوب بسيط ومهيب بما يناسب شخصيته ، وينشئ فوق قبره تربة جميلة.

لا بقاء لغير الهدى

آخر الحياة الدنيا فناء

الخلود أمر مؤقت مألوف

والحياة والوجود مجرد قطرة

فعلى ماذا يتكبر الإنسان

ليس قرار العمر فقط ثابت

بل الربيع أيضاً يمر مسرعاً

لا يمكن أن تعيش الوردة ربيعاً

إذا انحنت لا تستقيم ثانية

قال العقل إن الدنيا مجرد ظل

لا ، إنها بناء من الحصى

الدنيا بيت محروق بحطب السوء

لا تغمض عينك على الغفلة يا يقظ

لا تفرح إذا فرح الزمان بوجهك

سيقدم لك العمر مهرك في النهاية

نهاية السرور غم بالتأكيد

بهجة السرور هي العالم كله

هل يعطي استمرار الدولة غير المرئية

العقل دون حساب من أجل منح القلب ؟

مألوف وهب القلب دون وفاء

لا يمكن أن يكون الليل مظلماً هكذا

اعلم أن لباس العمر سيسقط خلفك

لا خير من الغرور ، فهو الشر ذاته

لا تنس أن هناك أجل وهو حال القبر

احذر من نهر المظلوم فهو جبر

قل خيراً ، وابن ما استطعت

افرض على نفسك العمل

افعل خيراً ، وابن سبلاً

فهذه بشائر قبرك من الجنة العالية

شعلته تنور العالم

فإذا عدل كان العالم منوراً 244

شخصيته

والد السلطان سليم الجبار هو سلطان سلاطين العثمانيين التاسع السلطان بيازيد خان الثاني ، ووالدته الخاتون عائشة ابنة علاء الدولة دوالقادر أوغلو. (تذكر على أنها غولبهار خاتون أيضاً). وقد ولد في أماصيا بتاريخ 10 كانون الأول/أكتوبر 1470.

أرسل سليم إلى إسطنبول في سن صغيرة ، ونشأ برعاية جده السلطان محمد الفاتح. تعلم العلوم العامة العالية إلى جانب دروس القرآن الكريم والتفسير والحديث والفقه. تمكن من العلوم العربية والفارسية بشكل رفيع. كان سريعاً وذكياً. إذا قيل له أمراً ، فلا ينساه بسهولة. كان شغوفاً بالرياضة. وكانت لديه مهارة كبيرة بركوب الخيل والمصارعة والرماية واستخدام السيف.

بعد أن أصبح والده بيازيد خان الثاني سلطان سلاطين ، عينه والياً على طرابظون ليتعلم أمور السَّوق العسكرية وإدارة الدولة. تابع دراسة العلوم في طرابظون إلى جانب شؤون الدولة ، وكان يتابع دروس حضرة عبد الحليم. وفي هذه الأثناء كان مهتماً بالتاريخ والأدب. أدار سليم خان ولايته بشكل جيد جداً ، وأقام علاقات جيدة مع الولايات المجاورة.

شن ثلاث حملات على الجورجيين الذين لم يتركوا الطرابظونيين براحتهم. وكانت أشهر هذه الحملات هي حملة كوتاهية عام 1508. بهذه الفتوحات ضم قارص وأرضروم وأرتفين مع خمسة عشر مكاناً مسكوناً إلى الأرض العثمانية. واعتنق الجيورجيون الذين يعيشون في تلك الأرض الإسلام ، وأعجبوا بعدالته.

تابع نشاطات الشاه إسماعيل الذي يغذي آمالاً هدامة حول الأناضول بعد أن هدم دولة الغنم الأبيض ، وأسس الدولة الشيعية الصفوية ، وعمل على كبحه. هزم جيشاً صفوياً

قرب إرزنجان ، وأسر قائده إبراهيم ميرزا. نتيجة اندفاعه الناجح هذا غدا أسطورة على ألسن الأناضوليين وبطلاً بين الإنكشاريين ، وحظي بالحب والاحترام. ولعبت هذه الفعاليات دوراً مهماً بجلوسه على العرش.

جلس سليم خان ثماني سنوات على العرش ، وكان طويل القامة ، ضخم العظام ، وعريض المنكبين ، وجسمه في غاية التناسق. كان وجهه دائرياً. لديه كثير من المزايا محط الافتخار مثل الهمة العالية ، والعزم الجبار ، والوقار ، والتصور الواسع ، والذكاء الحاد ، والرؤية المستقبلية ، وسرعة الإدراك ، والإصابة بالتوقع ، والبطولة الفطرية ، واستخدام أنواع الأسلحة كلها ، وموهبته الكبرى بأساليب الحرب واستخدام التغييرات الكبرى ، وسرعة مناورته ، وقوته بالمقاومة ، وعدم يأسه من الصعوبات.

كانت همته وغيرته على الإسلام ، ونشر الدين وتخليصه من البدع عالية جداً. كان حلمه الأكبر جمع المسلمين في دولة واحدة تحت راية واحدة. عمل في هذا السبيل ليلاً نهاراً ، ووسع حدود الدولة التي ورثها عن والده إلى الضعفين. وقد نفذ تلك الفتوحات التي لم تدخل العقول خلال فترة قصيرة لم تتجاوز الأربع سنوات (1514–1518).

أخذ الأناضول الشرقي من الصفويين ، وإرزنجان وكماه وعينتاب وماردين وأورفة وديار بكر وما حولها وأضنة وما حولها التابعة لأبناء رمضان ، وطرسوس وما حولها والجزيرة وسورية وفلسطين ومصر والحجاز من المماليك ، وضمها إلى بلده. إضافة إلى هذا حظي بالخلافة الموقع المهم جداً بالنسبة إلى المسلمين ، ورفع فيه مكانة الحكام العثمانيين. دخلت مكة والمدينة حيث ظهر الإسلام تحت الإدارة العثمانية ، وحصل على لقب «خادم الحرمين الشريفين» المتواضع مما زاد احترام العالم الإسلامي لهذه الدولة.

كان هدفه الحقيقي هو إزالة الدولة الصفوية تماماً ، والوصول إلى وسط آسيا ، ووضع السنة هناك تحت نفوذه ، وتحقيق وحدة إسلامية حقيقية. لأنه رأى الكوارث التي تسبب بها الانقسام ، وعاشه شخصياً. التهديد الأكبر الذي كان يراه على دولته هو تخريب وحدة المسلمين وتعاونهم. ويفهم من هذه الرباعية المنسوبة لسليم خان الأهمية الكبرى

التي يعطيها للوحدة والتضامن:

يؤرقني حتى في قبري	القلق من الاختلاف والفرقة في بلدي
سأنام مكوياً بقضيب حديد إن لم أفعله	لا مفر من الوحدة لمجابهة الأعداء

رجل الدولة العظيم

يتحرك سليم الجبار وفق برنامج صارم في أمور الدولة ، ويستفيد من آراء الوزراء ورجال الدولة بمختلف الطرق قبل أن يطرح رأيه بشكل أكيد. يصدر قراره بعد تفكير طويل ، ولا يعود عنه بعد إصداره. وكان يعاقب بشدة المعترضين والذين يحاولون إرجاعه عنه.

وقد شوهد كيف أعدم المعتمدين على صباحة وجهه وتسامحه في مجالسه الخاصة ومديحه نتيجة الخدمات التي قدموها ، وقدموا رأياً معارضاً لرأيه.

إرادته وعزمه ، ورؤيته العميقة ، ودهاؤه العميق ، وإرادته الواصلة إلى الذروة في عهد والده جعلته سريع الحركة في فترة قصيرة. وقد قضى على من حاول منعه من عمل هذا.

كان لديه شبكة جواسيس عظيمة. وبفضلها كان يحصل على المعلومات في اللحظة نفسها من خارج البلد وداخله. وكان يتابع شخصياً أعمالاً مهمة. عندما يتلقى أخباراً غير مناسبة من الحدود ، يقول: «أنتم لا تتابعون الأمور!» ويعذّر الوزراء ، ويسجنهم. وقد تعرض لهذه المآزق كل من هرسك زادة أحمد باشا ، ودكاكين أوغلو ، وسنان باشا ، وبيري محمود باشا.

كان سليم خان سلطان سلاطين نزق ، ويطرق طرق العقاب فوراً بالنسبة لمن شهد على بعض الأحداث. على الرغم من هذا فإنه لم يكن يصدر حكماً قبل البحث والتفكير. كان يستمع لأصحاب الأفكار المخالفة لأفكاره ، ويعتبرها محقة إن وجدها على هذا

النحو.

جاء البعض إلى السلطان سليم الجبار ذات يوم من مانيسا ، وأبلغوه بأن الشيخ محمد غومشلو أوغلو حي (السلطان قورقود) ويعمل دعاية ، وجمع من حوله بعض الرجال. إثر هذا أمر سلطان السلاطين بجلب الشيخ ، وحبسه في إسطنبول.

كان الشيخ محمد أفندي مخلصاً قائلاً للحق ومحترماً. يعرف الوزير الأعظم هذا عنه ، فهرع إلى جوار سلطان السلاطين عارضاً التحقيق بالأمر لإثبات عدم صحته ، وتكليف معتمد للتحقق. فنبهه السلطان سليم خان حينئذ قائلاً: «أرسل لي أحد أهل العلم».

رأى جلال زادة مصطفى جلبي بيري باشا ، فأبلغه: «بعد مناقشة القضايا في الديوان ، ستذهب إلى سلطان السلاطين ، فلا تذهب إلى أي مكان». سيطر هلع شديد على جلال زادة عندما سمع بأنه سيمثل بين يدي سلطان السلاطين ، ودخل إلى غرفة الطلبات بعد انتهاء مناقشات الديوان.

كان السلطان سليم خان في تلك الأثناء مشغولاً بمطالعة كتاب. عندما رأى جلال زادة ، سأله: «هل أنت مصطفى بن جلال ؟» وإثر إجابته: «أنا عبدك يا سلطان سلاطيني» ، سأله: «كيف تعرف آنية الفضة ؟ هل هي جوهر أو تراب ؟ أنت واسع الإدراك. عندما أجابه مصطفى جلبي: «منبت الولاية وجوهرها ومنبعها هي الجهاد الخالص ضد النفس ، فأنا شخص رباني». كرر عبارة: «هل أنت رباني ؟ هل أنت رباني ؟ هل أنت رباني ؟» ثلاث مرات ، وأظهر حدّة ، وسأله ثانية:

ولكن مصطفى جلبي في كل مرة يجيب وقد تجاوز الحدة: «نعم يا سلطاني ، أنا رباني» ، وحدثه بنبرة لينة بعد هذا الجواب.

في هذه الأثناء سأل سليم خان جلال زادة عن يوميته ، وعندما سمع أنها عشرة فضيات ، وجدها قليلة جداً ، وأمر بزيادتها. ثم أضاف: «سلّم لنا على الشيخ ، وطيّب خاطره» ، وأرسل الوعاء الفضي إلى جلال زادة.

كان السلطان مصيباً للغاية في تنفيذ أعمال الدولة ، واختيار الرجال الذين يقومون بها. في أثناء معركة تشالدران ، قدّر أصغر أعضاء الديوان نتيجة آرائه الصائبة ، وخلال فترة يمكن اعتبارها قصيرة رفعه إلى موقع الوزير الأعظم. وقد حافظ على تقديره للرجال العظماء دائماً ، ولم يصغ للإشاعات حولهم.

توسُّع البلد ، وكثافة أعماله دفع الوزير الأعظم بيري باشا إلى طلب وزير معاون له ، ووافق سلطان السلاطين على هذا الطلب. وبعد عدة أيام عندما رغب بتعيين مصطفى باشا تشوبان سيد سادة روملي معاوناً له ، رفض سليم خان ، وقال: «أنا لم أفقد صوابي لأعين رجلاً كهذا».

بعد مرور شهرين على الحدث ، أعاد بيري باشا رجاءه السابق ، وإثر هذا رد عليه سلطان السلاطين: «بما أن لديك رغبة كبرى بأن يصبح وزيراً ، فخذه ليكون وزيرك» ، وقبل بتوزير مصطفى باشا على الرغم من عدم رغبته.

بعد خمسة أو ستة أشهر غاب بيري باشا عن أحد أيام العرض ، طرح مصطفى باشا بأن بيري باشا يعتبر أيام العرض تطبيقاً خاطئاً. قال سلطان السلاطين: «قل ما تريده بشكل ملائم» منحه الجرأة ، فاستمدها فوراً ، وبدأ يروي ما يود قوله حول الوزير الأعظم.

«أيها اللعين! ألا أعرف التركي الذي يعمل بخدمتي ما إن كان يقول الحق أم لا بعد خدمته لي طوال هذه السنين ؟ انهض ، أنت لست وزيري. أنت وكيل اللحظة ، وحصلت عليها بظروف لحظية». وإذا كان قد رغب بإعدامه ، فقد نجا نتيجة رجاء بيري باشا[245].

دقة سليم خان في أعمال الدولة ، وعدم عفوه عن المخطئ ، وبنيته العصبية كل ذلك أخاف الوزراء إلى أبعد الحدود ، وفتح الطريق أمامهم ليتابعوا أعمالهم بجدية كبرى. لم يكن يهتم بالباقين انطلاقاً من مقوله: «لا يموت منافس ، ولا يخلق عمل فجأة».

سيكون وزيراً لدى السلطان سليم ... لا حل لموت منافسك

وقد اشتهرت عبارته هذه. يقولون إذا عُين وزير لسليم خان ، فإن المنافس يذهب سريعاً ، وتفتح طرق المستقبل. ولكن القيام بواجبات الوزارة لسليم خان ليس سهلاً. فقد سئم محمد بيري باشا ذات يوم من غضب وعنف السلطان ، ومواجهته خطر الموت في كل لحظة ، فقال في الديوان:

«يا سلطاني ، ستقتلني في النهاية بذريعة ما. من المناسب أن تنهي هذا الأمر بأسرع ما يمكن». فضحك سليم خان كثيراً ، وقال: «هذا مرادي أيضاً. ولكن ليس هناك رجل يملأ مكانك. وإلا فمن السهل تحقيق ما تريده».

وهكذا قال سلطان السلاطين: «ليس هناك رجل يملأ مكانك» مظهراً قدر بيري باشا[246].

الأعمال التي أنجزها هذا الرجل العظيم خلال فترة سلطنته القصيرة البالغة ثمانية أعوام تجعل المتابع مذهولاً لعظمتها. لقد رفع مساحة الأرض التي استلمها والبالغة ما يقارب مليونين ونصف كيلومتر مربع إلى ستة ونصف مليون كيلومتر مربع خلال فترة زمنية لا تتعدى الأربعة أعوام (1514—1518). وبهذا اتخذ مكانه في التاريخ كأحد أكبر حكام العالم.

لقد اقتلع الدعاية الشيعية الهدامة من الأناضول ، ورماها جانباً ، وبضربة مذهلة أخرج إيران من كونها تهديداً محدقاً بتركيا.

لقد دفن الدولة المملوكية في التاريخ إثر معركتي ميدان بعد أن استمر الصراع معها على مدى مائتين وسبع وخمسين سنة ، ولم يتيسر للترك فتحها منذ عهد تيمور خان. حمل الخلافة الإسلامية ، وأكسب أبناء عثمان مكانة وقوة معنوية كبرى. وضع الجزائر تحت حمايته ، وقفز نحو المغرب ، وواجه إسبانيا.

يقول فاروق سومر بيك: «لم يفهم سليم خان صاحب المثل العليا أمراؤه أو علماؤه أو جنوده. عاش ذلك الحاكم المثالي العظيم من أجل تحقيق الإنجازات الكبرى ، والنجاح بها ، ومات قبل أن يحقق هدفه»[247]. ويعبر يحيى كمال عن حزنه على هذا الرجل

بقوله: «لو يستلمه الأجل في عمر مبكر ، لغطى مجد محمد عليه السلام العالم كله».

فتح العالم العظيم لمحمد248 لو لم يحظ الأجل بالسلطان سليم

وفي الحقيقة لم تعرف حملة سلطان العالم العظيم الأخيرة إلى أين. وردت في المصادر بأنها حملة إلى أوروبا. فهو مثلما لا يستطيع أحد تصور المكان الذي يمكن أن يتوقف فيه ، ليس هناك من يستطيع توقع ما يمكن له أن يفعله.

وهل تُهدم هذه الدولة ؟

كان سليم خان يفكر ، ويتخذ التدابير اللازمة من أجل بقاء هذه الإمبراطورية العظيمة ، وعدم تعرضها للفناء.

في أحد أيام جلوسه على عرش السلطنة ، كان يفكر بقدرة الولايات والدول التي فتحها وعظمتها ، ويرتاح ، ويطفو السرور على قلبه. وبهذه الحال يدعو بيري باشا ليمثل بين يديه ، ويقول له: «يا صديقي بيري! بإذن الله تعالى وعنايته فتحنا مصر. ودخل أهل الحرمين الشريفين تحت حكمنا. وكُرمنا بلقب خادم الحرمين الشرفين. وكلما اتجهنا إلى مكان حتى اليوم ، يسَّر الله تعالى لطفه وإحسانه بالفتح. لم تعد هناك اليوم قوة تعارض أوامرنا ، وتتحرك ضدنا. هل هناك احتمال فناء هذه الدولة بعد الآن ؟».

قال بيري باشا الرجل الذكي والمحتاط: «يا دولة سلطان سلاطيني! الحال الآن تظهر عدم وجود وضع يمكن أن يؤدي إلى فناء هذه الدولة. غير هذا فإن قاعدة وقانوناً وضع منذ عهد أجدادكم العظام يجعل من المستحيل زوال دولتكم. ولكن يا دولة سلطان سلاطيني! إذا حصلت ثلاثة أمور في زمن أولادكم بعد زمن ، فلا مفر من زوال الدولة».

تألم سليم خان ، وحزن كثيراً من هذا الجواب ، فقال بغضب: «أيها التركي الأسود! وهل تنقص خزينتي خزانة ؟ وهل ينقص عبيدي عبد ؟ وهل هناك عنصر ناقص من الخيل والبغال التي تجوب جهنم ، والجمال وبقية حيوانات السفر ؟ كل ما لدي قطعة كاملة

تقريباً، ولا حاجة لي بشيء، فما هذه الأمور الثلاثة التي ستودي بالدولة العلية؟».

رد عليه بيري باشا: «يا دولة سلطان سلاطيني! أطال الحق تعالى عمركم وأعز شوكة دولتكم. لديكم خزينة وعبيد وأدوات حرب وأسلحة من كل الأنواع، وعتاد، وهي بمجملها كاملة. ليس هناك أي نقص يمكن الإشارة إليه بالتحديد.

لا يمكن لحضرة الحق تعالى أن يري حضرتكم هذا في أيام سلطنتكم، ولكن فيما لو وقع مستقبلاً خلال سلطنة أولادكم أن اختاروا وزيراً أعظم أحمقَ، أو فتحوا باب الرشوة، ومنح المناصب لغير أهلها، أو تحرك أعضاء الحكومات وفق رغبات نسائهم، فاعلم بأن الدولة ستفنى».

أعجب سليم خان بتقييم بيري باشا وكلماته هذه، وفي الوقت نفسه غاص بتفكير عميق. في النهاية، بعد أن قال: «احفظنا يا رب العالمين!» تكرم على بيري باشا بخلعة فاخرة249.

كان سليم خان يعطي أهمية بالغة لنظام الجنود وانضباطهم. لا يمكن أن يتسامح بالتصرف المخالف للقوانين العسكرية. كان يطلب من العسكر أن يكونوا نظيفين بشكل جوهري وقليل. وكان يعطي أهمية كبرى للتكنولوجيا. وكان مؤمناً بأن عظمة الدولة وشوكتها تكمن في هذه العناصر.

نتيجة المعاناة من النقود السائلة أثناء حملة مصر، وجد المحاسبون قرضاً لدى تجار بقيمة ستين ألف ذهبية، وحلوا الأزمة به. عند جمع الضرائب فيما بعد، دعا الدفتر دار التاجر من أجل أن يدفع له دينه. عندما أراد التاجر أن يستلم ستين ألف ذهبية، قال:

حين قدم التاجر عرضه قائلاً: «أيها الأفندي! كما ترى في دولة سلطان السلاطين العلية المال وحدود المال زائدة عن الحاجة، وأنا ليس لدي في هذا العالم سوى ابني. لتكن الستين ألف ذهبية كلها لدولتي. وليمنح ابني عمل زارع ألغام في دولة سلطان السلاطين». نقل عرضه هذا إلى مقام سلطان السلاطين.

غضب سلطان السلاطين بشدة من الدفتر دار ، ومن الوزراء الذين نقلوا له هذه الرغبة:

«بإمكاني قتلكم جميعاً في سبيل روح جدي الأعلى. ولكن الإشاعة ستدور على العالم قائلة بأن حاكم الحرمين الشريفين السلطان سليم طمع بمال تاجر ، وقتله بذريعة ما ، وارتكب جرم قتل عدة محاسبين ووزراء لا ذنب لهم ، وهذا ما أخافني. ولكنني يمكن أن أخمد بشارة الغضب». وأعاد النقود إلى التاجر بسرعة ، ونبه بألا يجلبوا له أموراً سيئة كهذه. إذا حاول أحدكم دس أجانب بين جنودي النظاف ، فعليه ألا يظهر أمامي أبداً. وحينئذ أعادوا الستين ألف ذهبية للتاجر250.

كان يحترم العلم والعلماء

كان السلطان سليم مندفعاً جداً للتعلم ، ولا ينام أكثر من ثلاث ساعات أو أربع في الليلة ، ويمضي وقته بتلقي العلم. وكان يستمر بهذه الحال في الأوقات المناسبة أيضاً. كانت تدور المباحثات العلمية والأدبية في المجالس الخاصة ، ويشارك في تلك المجالس علماء وشعراء. وكان محباً جداً للقراءة إلى درجة أنه كان يصطحب المكتبة المتنقلة معه إلى الحرب. يقرأ بنفسه أحياناً من الكتب التي يختارها ، وأحياناً يُقرئها لندمائه ، ويستمع هو. وفي غالبية الأحيان يراجع معلوماتها مع الشيوخ والعلماء. أثناء عودته من حملة مصر في طريق عودته إلى إسطنبول أمر كمال باشا زادة بترجمة كتاب هجوم الظاهرة ، وقرأ الفصول المقدمة له على مراحل طريق العودة.

قراءة سليم خان كثير من الأعمال المكتوبة بلغة أدبية ، وأعمال التاريخ الوصفية تشير إلى ارتفاع سوية علمه باللغتين العربية والفارسية. وقد كتب كمال باشا زادة الأعمال التاريخية العثمانية بناء على أمره. أثناء إقامته في مصر ، كما أمر بإعداد خرائط هندية وصينية.

كان يحترم العلماء كثيراً. أثناء مسيره بصحبة كمال باشا زادة على الحصان وهما

يتحدثان، فانزلقت قائمة حصان كمال باشا زادة إلى حفرة، ومع سحب الحصان قائمته بسرعة نتيجة الخوف تطاير الطين على قفطان السلطان.

خجل كمال باشا زادة، ولم يعرف ما يقوله. رأى حالته سليم خان، فقال: «لا تخجل يا أستاذي. الطين المتناثر من قائمة حصان العالم، هو مصدر فخر لنا، وليس مصدر حزن». ثم استدعى رجاله، وسلمهم معلومة مفادها: «خذوا قفطاني الملوث بالطين هذا، وغطوني به عندما أموت»[251]. وما زال هذا القفطان منذ قرون في خزانة زجاجية فوق قبر سليم خان. تشير هذه الحادثة والقفطان المعروض في قبر سليم خان إلى الأهمية التي منحها سليم خان للعلم والعلماء، وهي تحمل رسالة هامة للشباب.

على الرغم من كون سليم خان غضوباً، فقد كان يتقبل منح حق الكلام للعلماء، ويتراجع عن قراراته. واشتهر بحواراته مع المفتي المشهور علي جمالي أفندي الزنبيلي في عهده.

غضب سليم خان ذات مرة من إهمال مئة وخمسين موظفاً في خزينة قصر طوب قابِ، وعدم قيامهم بواجبهم كما هو مفروض عليهم، وأصدر أمراً بإعدامهم.

عندما علم المفتي علي جمالي أفندي الزنبيلي بالأمر، جاء فوراً إلى الديوان السلطاني. استقبله وزراء القبة باحترام، وأجلسوه في صدر المجلس.

عندما سألوه عما يريد، أجاب المفتي أفندي: «لدي كلمة أود إيصالها إلى حافة عرش سعادة سلطان السلاطين».

وهم بدورهم أبلغوا سلطان السلاطين بالوضع. وإثر منح السلطان سليم إذناً بالكلام، دخل علي جمالي أفندي إلى غرفة الطلب، وحيّا سلطان السلاطين. وبعد أن حظي بإعزاز سليم خان وإكرامه، وجلس باحترام على الكرسي المشار إليه، قال: «يا دولة سلطان سلاطيني! واجب الداعي لكم هذا الجالس في موقع الفتوى هي حماية سلطان السلاطين من أعمال يمكن أن تكون وبالاً وحراماً عليه. فإذا كان هناك ما هو مخالف للشرع

الشريف، عليّ أن أمثل بين يديك، وإبلغك بما هو صحيح بشكل صريح، وهذا ثابت باتفاق العلماء.

بحسب ما سمعته، فقد أصدرتم فرماناً بقتل كثير من عبيدكم بسبب خطأ صغير. الواجب هو التراجع عن هذا الأمر غير المشروع، والتخلي عنه. وإذا لم تفعلوا هذا، ستكونون مسؤولين عند الله تعالى».

غضب سليم خان من موقف شيخ الإسلام المنبه هذا، وطالبه التراجع عنه بلغة حادة وصريحة، وقال: «هذا من أعمال السلطنة الضرورية. إذا تدخل العلماء بأعمال كهذه، تتعرض إدارة الدولة للفوضى. التغاضي عن الإهمال عمل غير مسؤول».

ردّ المفتي على هذه الكلمات: «أنا لا أتدخل بشؤون السلطنة. أقصى ما لدي هو تنبيهكم حول آخرتكم. لأن هذه هي وظيفتي. وإذا صمتُّ، ولم أتكلم فأقع بالحرام. ما يلزمني هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. عباد الحق تعالى متساوون بأوامر الإسلام ومحظوراته. الأمر لا يستثني هذا لأنه وزير، وذلك غني أو فقير، والآخر محترم وكبير. لقد وضع الحق تعالى عقوبة لكل ذنب أو مكافأة معينة لكل عمل. لم يأمر الله تعالى بالقتل على ذنب كهذا. وإلا فإنني سأحاسب يوم القيامة عن تصرف سلطان سلاطيني».

عرف سلطان السلاطين بأن هذه الكلمات حق، وقد قيلت في سبيل الله ومن أجل آخرته، فهدأ غضبه، وقال: «عفونا عنهم» متصرفاً بلطف مع علي جمالي أفندي[252]. وتبادلا الحديث بمتعة فترة طويلة.

بعد نهاية الحديث، وعندما أراد المفتي أفندي النهوض من أجل الذهاب، قال: «سلطان سلاطيني، لقد أوفيت بوظيفتي المتعلقة بآخرتكم. لدي كلمة تتعلق بالخلف أيضاً».

عندما أمر سلطان السلاطين قائلاً: «قلها أيضاً». فقال: «هل يليق بمكانة سلطان السلاطين أن ينفصل عبيده هؤلاء الذين أعفا عنهم من وظائفهم، ويجوبون في الشوارع

مفتوحي الأيدي؟ ما يفرضه عمل السلطنة هو إعادتهم من جديد إلى وظائفهم، وقيامهم بأعمالهم».

قبل سلطان السلاطين شفاعته هذه أيضاً، وجامله بمختلف المجاملات، وودعه إلى بيته253.

وقعت حادثة مشابهة لهذه أثناء رحلة سلطان السلاطين إلى أدرنة. كان شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيلي بين القادمين لوداع سليم خان أثناء ذهابه إلى أدرنة. بعد وداعه سلطان السلاطين، وأثناء عودته، رأى أربعمائة رجل مربطي الأيدي، ومقادين هناك. سأل عن سبب ربط أيدي هؤلاء، واصطحابهم، فقالوا: «منع سلطان السلاطين شراء الحرير من البلد، وبيعه. وقد قبض على هؤلاء لعدم التزامهم بالأمر، وعوقبوا».

لحق علي أفندي الزنبيلي بسليم خان، وأثناء سيرهما متجاورين على الحصانين أبلغه بأنه لا يوافق على عقوبة حوالي أربعمائة تاجر بشراء الحرير».

عبر سلطان السلاطين عن غضبه من هذا النقد، وسأله: «أليس مباحاً إزالة ثلثي الناس من أجل إخضاع ثلثهم؟».

أجاب المفتي: «هذا في حال فوضى عارمة فقط». إثر هذا الجواب، قال سلطان السلاطين: «وهل هناك فوضى أعظم من مخالفة فرمان السلطان. علماً أن معارضة فرمان سلطان في بلده يشير إلى أن بلده على وشك الانهيار».

قال علي جمالي أفندي: «لم يثبت بشكل قطعي أن هؤلاء عارضوا فرمان السلطان. لأن وجود أمين تجارة الحرير، وإعادة السماح بهذه التجارة دليل على منحها الإذن بالممارسة».

غضب سلطان السلاطين أكثر: «ليس من عملك أن تتدخل بخصوصيات الشؤون المتعلقة بالسلطة. انظر إلى عملك!» إزاء هذه الكلمات حزن علي أفندي الزنبيلي، وغضب،

وقال: «هذه الأمور من شؤون الآخرة ، ووظيفتي هي التدخل بها. لأنكم إذا قتلتم أولئك الرجال ترتكبون معصية كبرى» ، وابتعد عن سلطان السلاطين محتداً دون تحية.

أدى هذا التصرف إلى غليان سلطان السلاطين كثيراً على نار الغضب. سحب مقود فرسه محتداً ، ووقف. كانت أعين الجميع عليه ، وهم في حالة انتظار القرار الذي سيصدره. انتظر سلطان السلاطين فترة صامتاً على حصانه ، وكبت غضبه ، وعاد إلى المسير.

عندما وصل إلى القصر أعفى عن الموقوفين ، وأطلق سراحهم ، وبهذا أرى الجميع تعلقه بالدين الإسلامي.

وعندما وصل إلى أدرنة ، أرسل إلى علي أفندي جمالي الكتاب الممهور الذي يعينه قاضي عسكر روملي والأناضول معاً. يقول السلطان سليم في كتابه ما يلي:

«بما أنه لا يمكن أن يكون قاضي العسكر يجمع بين الاستقامة والمقاومة في القضايا الدينية ، فقد جمعت الموقعين في الطرفين ، وكلفتك به ، لقد أسمعتني الكلام الأصح».

أما علي أفندي الزنبيلي فقد رد على سلطان السلاطين حول تعيينه في منصبه الجديد نتيجة هذه الكلمات التي تفتح القلب على النحو الآتي: «يا سلطان السلاطين الذي لا مثيل له! المعروف أنه لا يمكن عدم تنفيذ أوامره ، وهكذا نقش في أذهان رجال العلم. ولكنني وعدت ربي أن أخرج كلمة (حكمة) من لغتي ولساني. وهذا من أجل المحافظة على عهدي بك ، لذلك فإن أكبر أمنية لعبدك المطيع هذا هو أن تعفو عنه. وأتمنى أن يكون رجائي بالعفو قد تحقق عند سلطاني».

اتخذ هذا العالم العظيم مبدأه بأن يتهرب من الموقع والمال من أجل حماية حقوق الدين ، وبهذا جذب ميل قلب سلطان السلاطين أكثر. ولقاء رجائه هذا أهداه سلطان السلاطين خمسمائة ذهبية ، ولم يحرمه من دعائه[254].

تشير هذه الحوادث من خلال شخصية سلطان السلاطين سليم المعروف بحدته وسرعة غضبه وبوضوح شديد إلى ارتباط السلاطين العثمانيين بالقوانين والدين الذي يؤمنون به.

أستاذي جاء لوداعي

لم يكن سليم خان يتوانى أحياناً عن ممازحة العلماء بحيث يعطيهم دروساً. ولكنها بقيت مجرد قصص عبرة لمفسري الأحلام على مدى التاريخ. وقد حفرت في العقول ضرورة عدم رواية الحلم لأحد لأنه فيما لو روي لأحد لما تحقق بحسب التفسير. لقد حدثت الحادثة على النحو الآتي:

كانت أيام فتح مصر. كان سليم خان كل صباح يقول لحسن جان وهو يفكر:

رأيت هذا الصباح في حلمي أنني قابلت حضرة محمد بدر الدين بدهشي. كان مرتدياً فراء أبيض، وربط فوقه حزاماً حريرياً. جاء بحالته تلك، وقال إنه سمع بأننا خارجين في حملة، وجاء ليودعني». تدخل حسن جان فوراً ليفسر الحلم:

«هذا الوضع يدل على هجرة شيخنا الجليل. وأضاف: «لأن سفر الشيخ إلى الآخرة، وسفر الفانين، ووداعهم تشير إليه تلك الهجرة، ونصوصها كلها». قلق سليم خان من هذا التفسير. وقال بقليل من الغضب:

«ألا تعرف أن نتيجة الرؤية ترتبط بالنهاية؟ إذا حدث شيء للشيخ، فإننا نربط تفسيرك بإحدى أفكارك. وحينذ تستحق إحدى العقوبات أيضاً.

بحيطة بالغة حزن حسن جان لأنه ليس موجوداً في الحلم، وأنه قد جرح سلطان السلاطين بلسانه. بعدئذ عندما وصل سلطان السلاطين إلى جوار أستاذه حليم أفندي، فتح الموضوع ثانية، وحكى ما حدث:

«إذا وقع شيء لأستاذي حسن جان فماذا يفعل، وبماذا يجيب. قال: ألا يفرض

هذا عقوبته ، وضربه علقة ؟» التفت حليم أفندي إلى حسن جان ، وقال: «في الحقيقة أنني لم أكن أتوقع منك تصرفاً متسرعاً. تصرفت بتسرع».

طأطأ حسن جان برأسه نتيجة خجله:

«ليسجل حلمكم في الليلة التي رأى فيه سلطان سلاطيننا حلمه ، فهل كان بعد بليلة أو قبل بليلة ؟ بداية سجل لي ما إذا كان حلم سلطاننا حدث في الليلة نفسها أو بعدها أو قبلها». ثم أضاف بأن الجزاء الأكبر سيمنح سفير الدولة العثمانية آخر العقوبات التي أصدرها.

قبل سليم خان بهذه الكلمات ، ودوّن على خرقة شريفة حلمه الذي رآه في تلك الليلة.

بعد عدة أيام ، جاء بعض السعاة برسائل العرض والطلب يبلغونه برحيل الشيخ الجليل.

استدعى سليم خان حسن جان وحليمي أفندي ، وأبلغهم بالوفاة ، وعرض عليهم الرسالة الواردة. وقد دفع الفضول الاثنين معاً. عندما قرئت الرسالة ، وظهر بأن الليلة التي رأى فيها سليم خان الحلم توفي محمد بهتشتي ، وبقي نديمه حسن جان حزيناً عدة أيام ، وفرحه بحلة ثمينة ، ومائتي دينار. وقال حسن جان: «هذا التلطف الكبير هو من كرامات الشيخ محمد بهتشتي». ودعا لروحه الرحمة.

وهناك معلومات تتضمنها الرسالة تفيد بأن الشيخ محمد بهتشتي أورد النصائح التي قدمها لسليم خان ، إضافة إلى المعلومات الآتية:

عندما كان حضرة الشيخ على فراش الموت ، استدعى وجوه مدينة دمشق ، وبعد أن عددوا له مناقب سلاطين بني عثمان مع مناقبه ، عددوا له الأحوال التي تسترعي الاحترام والإعجاب.

«يا وجهاء الشام الشريف، وأهله! لقد أرسل الخالق العظيم الكريم هذا السلطان العثماني المبارك إلى هذه الدولة. إنه رحمة جاءتكم من الحق. لقد أنقذكم من الإداريين الظالمين. انظروا إليه نظرة الله تعالى المفعمة بالحب، فسترون نظرتكم والتقاليد قد جعلت الطباع وسلطان السلاطين حاكماً عليكم. احذروا أن تخرجوا رؤوسكم من نير عبوديته. أرسلوا معي لعظمة سلطان السلاطين برفقة دعائي وتحياتي الكثيرة أخباراً مليئة بالحب».

أثيرت عواطف سليم خان إزاء كلمات الشيخ محمد بهتشتي وأدعيته، ولم أستطع منع عينيه من الطفح بالدموع.

كان يحب البساطة

لم يكن السلطان سليم الجبار يولي الأبهة والعظمة أي أهمية. كان يحب البساطة، ويرتدي الثياب البسيطة. عندما مثل بين يديه ابنه سليمان بألبسة فيها إفراط بالزركشة، غضب منه وقال: «يا ابني سليمان، ماذا ستلبس أمك؟»255.

أثناء حملة مصر كان جنوده يرتدون الدروع، وعندما رأى جنود المماليك يرتدون ألبسة كثيرة الزركشة، التفت إلى كمال باشا زادة، وسأله: «ما الحكمة من هذا الأمر؟». أجابه كمال باشا زادة إجابة مفعمة بالحكمة: «من الطبيعي أن يبذل جنودك كل تضحية من أجل اغتنام هذه الألبسة التي يرتديها المماليك. لهذا السبب فإن وضعهم هذا سيكون أحد الأسباب التي تؤدي إلى نصركم»256.

هو أيضاً لم يكن يريد إنفاق مزيد من النقود على أشياء ومفروشات فخمة في القصر. ولم يكن يقبل بإنفاق قرش واحد من أموال الدولة هدراً.

بعد عودته من حملة مصر، وفي أثناء ذهابه إلى أدرنة لقضاء فترة هناك، أمر دفتر دار الخزينة عبد السلام بيك ببناء قصر بسيط قريب من الشاطئ. فقام ببناء القصر الجميل

جداً والمدعو قصر يالِ ، وفرشه بشكل جيد.

أثناء تجوال سليم خان في القصر ، ورؤيته الرفاهية التي فيه شعر بالضيق ، وتوتر ، فقال: «أنا لم أسمح لك بإنفاق كل هذه المبالغ. لقد طلبت مكاناً ظليلاً يحميني من الشمس وأرتاح تحته» فرد عليه عبد السلام بيك من أجل أن ينقذ الوضع257 بأنه بنى القصر من أمواله الخاصة ، ويريد تقديمه هدية لسلطان السلاطين ، ورجاه أن يتقبله منه.

تقبل سليم خان رجاء دفتر داره شريطة ألا يعود لمثل هذا الأمر ، وخلع عليه خلعة بالمناسبة ، وقدم له مختلف المكافآت258.

سلوك سليم الجبار هذا أكسب الخزينة غنى لم ير من قبل. كان هناك خاتماً بيد مشرف الخزينة الأساسية وخزينة القصر الداخلية ، فقال له سليم خان: «كل من يأتي ولو بقطعة ذهبية صغيرة لملء الخزينة التي ملأتها بذهبي ، عليك أن تمهرها فوراً ، ويستمر ختمها بخاتمي أيضاً»259.

استخدم سليم خان هذا الخاتم بعد عودته من حملة مصر ، وهو من العقيق الأحمر. في وسطه كتبت عبارة «السلطان سليم خان» ، ومن حولها: «التوكل على خالقي». وقد التزم السلاطين العثمانيون جميعاً حتى نهاية دولتهم بوصية سليم خان ، ودائماً ختمت الخزينة الداخلية بخاتمه260.

الشاعر الجبار

يعتبر سليم خان أفضل شاعر يستخدم اللغة الفارسية في الأدب التركي كله. ديوانه باللغة الفارسية هو عمل فني حقيقي. طبع الديوان في ألمانيا ، وترجم جزء منه إلى التركية. وعلى الرغم من كتابة منافسه الشاه إسماعيل أشعاراً بلغة الناس مستخدماً اسماً فنياً هو «خطائي» ، فإن قصائد سليم خان التركية قليلة جداً. كان الشاه إسماعيل يؤلف قصائد بسيطة بهدف دعائي من أجل جذب أتراك الأناضول بشكل خاص إلى جانبه. وبالمقابل هناك من كتب بأن سليماً أراد أن يكتب بالفارسية من أجل التأثير بالشعب الإيراني ، ولكن

على ما يبدو أن أصحاب هذا الرأي لم يقرؤوا قصائد سليم. لأن سليماً تلقى تعليماً رفيع المستوى ، فهو يبرز أمامنا بهوية الفنان.

هذه ترجمة غزل فارسي قدمه سلطان السلاطين مستخدماً الاسم الفني «سليمي»:

فليكن عذاب عشقك دواء لقلبي العليل

وآلام الحب بلسماً لروح حبيبك العاشقة

وتكفيني بشراه لي بأنّ رأسي سيواريه الثرى في سبيله

ذلك أنّ رأسي على الدوام رهن إشارة منه

وإن مزّق جسدي إرباً إرباً بخنجره فلن أعترض

فلتكن مئات الأرواح فداء والقلوب قرباناً على بابه

وتقبيل قدم الحبيب منتهى المجد والغنى بالنسبة لسليم

فمن دونه ليدفن الثرى كل الأمجاد والثروات

وإن كان مجنون ليلى سيد صحاري البلاء

لكن بلاءه لا يوازي ما ألم بي جراء عشق الحسناء

وإلى جانب السلطة التي كان يمارسها سليم خان ، فقد كانت حياته أقرب لحياة الدراويش ، وهذه الأبيات توضح رغبته العميقة في مصاحبة أرباب العلم وأهل التصوف والعرفان:

ما سلطان العالم سوى نزاع بلا طائل

فسلطان الأولياء عندي لا يُعلى عليه

ولسنا متأكدين من وجود الأبيات التي سنوردها بالفارسية ، ولكن ترجمتها الجميلة خير توضيح لوصف حالة السلطان:

لم أشعر بالغيرة من شيء في هذه الدنيا برمتها

سوى من عادة العشق التي وجدت قبل أن أخلق

ذلك أنني كنت أصون قلبي من الهموم

ولكنني أدركته بروحي وقلبي حتى قبل أن أخلق

أيا قلبي استأنس الجفاء ، ففي سبيل عشق المحبوب

فالجفاء رسول الأهواء والوفاء مقدمة الفراق

فيا إلهي حين ألقت ليلى بحبائل العذاب على قلب مجنون

أين كان قلبي المجنون يسير على غير هدى ؟

ليتني دفعت رأسي ثمناً قبل أن يُذاع سر العشق

فإعلان الحب للجمال لهو بلاء لا أعظم منه

لا تغتم يا سليم لأنك ابتليت بالسقوط في محنة العرش والسلطة

فما العمل إزاء مشيئة الله وإرادته الحكيمة[261]

وقد وصف ساهي جلبي موهبة سليم خان الشعرية بالقول:

«أشعاره تفيض بالمشاعر والإحساس ، ومن المؤكد لو أنه تفرغ لكتابة الشعر بشكل تام ، ولم يتبوأ السلطة ، وينشغل بمشاكل الرعية وأمور البلاد ، لاستطاع أن يبزّ أشعار أمير خسرو الدهلوي التي لن تستطيع منافسة موهبته»[262].

لا توجد أشعار مكتوبة بالتركية في ديوان السلطان سليم ، ولكن أبياته المنقولة عن العديد من الشعراء والمذكرات التي كتبها في مختلف المناسبات ، تؤكد رأي ساهي جلبي. ففي هذه الأبيات المنسوبة إليه مثلاً نجد الخيلاء والتواضع يسيران جنباً إلى جنب.

لا أعلم أي خيانة ارتكبتها بحق الدهر

حتى استحالت عبرات عيني دماً لا دموعاً

ورغم أنّ الأبطال يذرفون العبرات بين براثني

لكن الدهر شاء لي الآه وجعله من نصيبي

أما هذه الأبيات الغزلية المتقنة التي كتبها سليم خان بالتركية ، فتوضح تمكنه من صنعة الشعر وبراعته فيها:

ذرفت عيناي الدمع كفيض البحار

فاحتار الأصدقاء ولم يعلموا ما ألمّ بي

وما من جسر لعبور سيل الدمع الهائج

سوى حاجبيّ اللذين كجسر يستند على عينيّ

في كل ليلة أرتدي ستار الليل المرقش بالذهب

وتغدو الأفلاك والكائنات خلاني حتى الصباح

كنت سأرضى بالغربة عن الديار والوطن

لو أنّ الأحزان والمحن والبلاء كفّوا عن مرافقتي

فيا أيها الدهر ما لم يشرب سليم خان ثمانية أقداح

لن يغدو قادراً على مجاراة الدهر والسير في دروبه

سليم خان على صفحات المؤرخين

«لم يكن للمال والملك والثروة قيمة لديه ، وكان يفضل لو أنه رجل بسيط الحال خالي القلب من الهموم ، على أن يكون سلطان العالم. وكان يحب أن يعطي المناصب العالية لمن يستحقها عن جدارة ، ويعتبر أنّ التعامل مع الجبناء والخونة والسفهاء والبخلاء وفاسدي الطباع من أسوأ ما يمكن أن يتعرض له الإنسان. وكان بارعاً في إنجاز كل ما يقوم به على أحسن وجه ممكن. يتجنب مصاحبة الجهلاء واللهو ، ويرنو لعظيم الأمجاد ، سلطاناً واسع العلم حسن الطالع.

كان الحكام حين يجلسون على العروش ويتقلدون السلطة والتاج ، يلتفتون للجاه والمجد ، أما هو فقد توجه صوب ديار المعرفة والبساطة ، وغدا سلطان السلاطين على مملكة الفضائل والمحاسن. ولم ينحنِ تحت عمامة السلطة ، بل كان يخجل من سطوة التاج والعرش ، ورغم أنه الوريث الأنسب بطول قامته وحسن قوامه لجبّة الخلافة ، لكنه اختار ثوب الفقراء وكسوة البسطاء من رعاياه ، ولم يلق بالاً لأثواب الأطلس المزدانة بخيوط الذهب ، ولا بالحرير ولا البذخ والبهرجة. كما لم يكن مولعاً بالطعام والنوم. كان عالي الهمة نشطاً ، يبذل أقصى جهده في أداء واجبه والقيام بمهامه ، ويعمل ليل نهار من أجل تحقيق مطامحه على أكمل وجه وكما يليق بمقامه.

كان في ساحة الوغى يترأس صفوف المقاتلين ، ويتحلى بجرأة الأسود حين اتخاذ القرار ، ويعتبر أزمنة القتال أعياداً مزدانة ، يهجم على صفوف العدو بشجاعة وبسالة ويعلو عليهم كراية النصر على الدوام».

شكري بدليسي:

إنه أبو الفاتحين ورياح الدهر

لم يشهد العالم من يدانيه

إنه أمير المكارم وملكها

وهو سيد ساحات الوغى

سليم خان فارس كل ميدان

والسلطان سليم الذي دان العالم له

حامي المؤمنين من البلاء ؛ سليم

وملاذ أهل الإسلام ؛ سليم

فاضت الأرض والسماء بهيبتك

وانحنت أمامك حتى الطيور والنمل

وغرق العالم في الدماء المسفوحة بسيفك

فأنت أشجع الفرسان وأبرعهم

وغدا العالم ربيعاً مع حكمك

وغمرته الأزاهير مع تاجك العظيم

سليم خان أمل أمة الإسلام

دانت الأرجاء لقوة السلطان سليم

خوجا سعد الدين أفندي:

«لو أقدم المؤرخون على كتابة قصة حياة السلطان الجليل ، لنتج عن ذلك كتاب

عظيم بالفعل. وغدت صفحات الدهر أوراقاً ، ومحور الأرض قلماً ، وأما نهايته فستبلغ حتى حدود عطارد ، ولن يكفي كل ذلك لتصوير عظمة سلطنته ، ومجد سلطته. كان لا يدانيه أحد في الشجاعة والجرأة والحنكة في الحكم. كان جميل المحيا مشرقه ، فصيح الكلام بليغه ، واسع الأفق والمعرفة. باب سلطنته العظيمة ، قبلة العلماء ، أما ديوانه الذي يضاهي السماء علواً ورفعة ، فقد كان مجمع أهل القلم والسيف على حد سواء».

حسن جان:

«كنا نذكّره بأوقات الطعام ، ذلك أنه لم يكن يرنو سوى إلى غذاء الروح ، وقد قرأ كافة الكتب القيمة الموجودة في الخزينة العامرة (مكتبة القصر) ، وكانت مجالس العلم التي يعقدها تستمر حتى ساعات الفجر ، لتغدو مأوى للأرواح السامية. وأفضل أيامه وأحب الأوقات إلى قلبه ، هي تلك التي يقضيها في ميادين الجهاد في سبيل الله. وحتى في أحلك ساعات القتال لم يعرف الخوف سبيلاً إليه ، وكان يجول على جنوده في حبور وعزم».

لطيفي:

«كان كريم النفس فصيح اللسان ، سلطاناً على قدر كبير من العلم. مطلعاً على كافة المسائل التي تهم عصره. وكان إلى ذلك يتحلى بشجاعة وجرأة وجسارة القلب ، ما يخوله ارتداء درعه والهجوم على الأعداء بمفرده كسهم خارق. كان كالقلعة التي تواجه صفوف العدو ، والمدافع المشتعلة التي تفرق جموعهم ، وكان يسدد هجماته على قلب الجيش دوناً عن أجنحته ، وكأنّ هذا البيت قد قيل خصيصاً للتعبير عن شمائله:

حتى لو رصّت صفوف العدو من سفوح قاف حتى سفوحه

فسيجاهد في سبيل الله ولن يولي الأدبار عن ساحة الوغى

وقد عُرف عنه بأنه أكثر السلاطين العثمانيين معرفة وفصاحة ، واسع المعرفة والفهم شديد الذكاء. وكان على قدر كبير من العدل ، ينصف رعاياه ويعيد إليهم حقوقهم

دون حاجة بهم للانتظار حتى يوم الحساب.

لم تبلغ استغاثة مظلوم السماء

فدعوات الخير تفيض من كل مكان

كما بلغ مستوى عالياً من الحنكة والعلم بفضل ذكائه وأفقه الفكري الرحب والتعليم عالي السوية الذي حصل عليه، وذلك ما منع حتى أكثر الدهاة من خداعه أو الاحتيال عليه. حتى إنّ أكثر الرجال علماً وإلماماً بتفاصيل الأمور وخباياها، كانوا يغدون في حضرته كالتلاميذ الصغار الذين ينتظرون التصويب من معلمهم. ورغم كل ذلك فلم يقم باتخاذ أي خطوة دون الاستعانة بالمشورة وأخذ النصح.

وكانت هيبته وصلابة شخصيته تزرع الخوف في قلوب رجاله ووزرائه. وكانت هيبته هذه معروفة للداني والقاصي في أقاليم السلطنة السبع وأطرافها، لذا كانت كل بقعة من سلطنته تنعم بالأمان والرفاه، حتى إنّ عهده كان ينافس عهد أنوشيروان. والخلاصة أنّ الجميع كان راضياً عن حكمه والتدابير التي يتخذها، وكانوا مداومين على مباركته حتى يوم البعث بالقول «بوركت، فقد أحسنت القول والفعل».

ما الحكم إلا ثوب فصّل لحسن قوامه

والسلطنة علامة تليق بمقامه العظيم

مصطفى نوري باشا:

«كان السلطان سليم خان شجاعاً، قائداً إدارياً، يلتزم بوعوده، مطلعاً على مجريات العصر وتطوراته، عصبي المزاج مهيباً، لا يحيد عن الصواب، وكريماً إلى حد كبير، حلو الحديث، سلطاناً عظيم الشأن».

شخصية سليم خان

في الحقيقة هناك جدل قائم حول اللوحة التي يقال بأنها تعود للسلطان سليم ، حيث يضع في أذنه قرطاً ، ويقول المعترضون بأنّ هذه اللوحة إنما تعود للشاه إسماعيل وليست للسلطان العثماني ، ويسوقون الدليل على ذلك معتمدين على القرط الذي يضعه سليم خان في اللوحة ، والقلادة التي في عنقه ، والتاج المزين الذي يعتمره..

ذلك أنّ المنمنمات العثمانية بشكل عام والتي تصور السلطان سليم ، لا نجده فيها يضع قرطاً في أذنه ، كما أننا لا نعثر في المصادر التاريخية على ما يشير لارتدائه الأقراط. وتعتبر هذه المعلومات كأدلة لتدعيم رأيهم المعارض أعلاه.

ولكن علينا التنويه بالمقابل إلى الأمر التالي ؛ فباستثناء الثياب التي ألبسها الفنانون الأوروبيون للسلطان في اللوحة ، فإن شكله يكاد يطابق صفاته التي قدمتها المصادر التاريخية.

لم يكن سليم خان ملتحياً ، وكان شاربه طويلاً ، كشوارب المحاربين بشكل عام. ووجهه دائرياً ، بارز العظام ، وبالمقارنة مع المنمنمات فإننا سنجد تشابهاً كبيراً مع اللوحة. ويمكن لمنمنمة محمد بورصوي أفندي في كتاب (هونير نامه) التي يصور فيها جلوس سليم خان على العرش ، أن تشكل مرجعاً لهذه اللوحة.

وبذلك نفترض أنّ الرسامين الأوروبيين قد قاموا بالاعتماد على شكل السلطان في هذه المنمنمة مكتفين بتغيير ثيابه وزينته الخارجية. والنقطة التي يتوجب الإشارة إليها في هذا السياق ، هي أنّ الفنانين الأوروبيين لم يرسموا لوحاتهم استناداً لمقابلتهم سليم خان ، بل من خلال الاعتماد على أوصافه الواردة في المصادر الأوروبية من جهة ، وعلى صورته المرسومة في المنمنمات من جهة أخرى ، وبالتالي فمن الوارد ارتكابهم لبعض الأخطاء في تصوير ثيابه وما كان يتقلده من زينة..

وبالمقابل فإنّ الذين ينسبون اللوحات التي تصور سليم خان إلى الشاه إسماعيل دون تمحيص ، لا يكلفون أنفسهم عناء التحقق فيما إذا كان الشاه بالفعل يرتدي على

الطريقة المبينة في اللوحة ، ويضع أقراطاً أو عمامة بذلك الشكل. وحتى لو فعلوا ذلك فلن يعثروا في اللوحات التي تخصه على هذا النوع من المقتنيات والثياب. وهناك أمر آخر لابدّ من ذكره: هو أنّ ملامح الشاه إسماعيل لا تطابق أبداً تلك التي لسليم خان في اللوحة ، وللتحقق من الأمر يمكن العودة إلى اللوحة التي تصوره والمتصدرة لأولى صفحات كتاب (تاريخ الشاه إسماعيل).

وبذلك نستطيع القول بأنّ الأقراط والقلادة والعمامة التي يتقلدها سليم خان في تلك اللوحات ، لا تعود إليه بكل تأكيد ، وقد تكون إضافة من مخيلة الرسام ، ولكن اللوحة تعود إلى السلطان بكل تأكيد ، بسبب قربها من ملامحه ، ولا علاقة لها مطلقاً بالشاه إسماعيل. أما موضوع مدى الشبه الحقيقي بين اللوحات وسليم خان فهو بحاجة لنقاش آخر.

بعض من قصصه

تناقلت بعض كتب المناقب بالإضافة لمخيلة الناس الكثير من القصص والحكايا التي تتوافق مع صفات السلطان سليم خان ، ومن المحال بطبيعة الحال التحقق من مدى صدقيتها ، ولكن لا يمكن إنكار أنّ الكثير منها انتشر بسبب مواءمتها لشخصية السلطان سليم خان. واستناداً لذلك سنورد بعضاً منها مما يتوافق مع صفاته الشخصية وسيرة حياته.

لو أنّ الدنيا برمتها لي..

تعبر هذه الحكاية عن المكانة التي كان السلطان يافوز سليم يوليها للشعراء ، وعن مدى عطفه واهتمامه بهم:

أثار الشاعر حكمت الذي كان من أهل العلم والأدب ، ولسبب من الأسباب غضب السلطان عليه ، ولخوفه من نقمة السلطان عليه ، توارى عن الأنظار وأخفى أثره. وكان يجول من بلد لآخر باحثاً عن مكان يأويه ، وفي النهاية استطاع أن يصبح كاتباً لمفتي

ولاية فان.

وبعد مضي الوقت هدأ غضب السلطان وأراد أن يراه مجدداً ، ولكن هيهات أن يعثر عليه.. ففكر واستشار وخطرت له فكرة.. فعلى جري عادة ذلك العصر في المجالس الأدبية ، يلقي أحد الشعراء بشطر شعري مميز ، ليقوم بقية الشعراء بالرد عليه بشطر أكثر بلاغة وجمالاً منه.. وهذا ما يمكّن من ظهور أبيات مختلفة من جهة ، ويتمكن الشعراء من معرفة صاحب الكلمات على الفور بسبب معرفتهم لأسلوب كل شاعر من جهة أخرى.. وكما يقال فإنّ (أسلوب البيان ، مرآة الإنسان).

وبذلك لجأ سليم خان إلى هذه الطريقة ، وأعلن عن منح مكافأة كبيرة ، لأجمل شطر متمم للشطر الذي ألفه بنفسه ، وكان من المؤكد بأنّ الشاعر حكمت لن يقاوم وسيشارك في هذه المسابقة. وأعلن السلطان حينها «سأتعرف عليه من خلال أسلوبه» وقد ألقى بالشطر التالي:

لو أن الدنيا برمتها لي لما أذهبت بهمي ، فلمَ ذلك ؟

وعلى الفور خرج المنادون معلنين في كافة أرجاء الدولة العثمانية العلية عن المسابقة التي أقامها السلطان.

وبالطبع فقد كان عدد المشاركين كبيراً ، وكل من كان قادراً على الكتابة ، أمسك بالقلم ليرد على شطر السلطان بشطر أجمل ، ويرسله إلى القصر. ولكن السلطان لم يقبل أياً منها بل بقي ينتظر.

وحين سمع الشاعر حكمت الذي كان في وان بالمسابقة ، حمل قلمه على الفور ، وكتب شطراً متمماً وأعطاه للوالي وهو يقول:

«سيدي! دعنا نرسل هذا الشطر إلى السلطان باسمك» وقد رضي الوالي بالفكرة تحت إلحاح الشاعر ، وأرسل الرسالة.

وحين قرأ سليم خان الرسالة القادمة من وان ، أرسل المكافأة إلى والي وان على الفور مع فرمان ينص على ما يلي «خذ المكافأة ، وأرسل لي حكمت»..

ومن خلال هذه الحادثة تولد البيت الشعري التالي ، وانتقل إلينا عبر الموروث الأدبي

لو أن الدنيا برمتها لي لما أذهبت بهمي ، فلمَ ذلك ؟

ذلك أنّ جسدي هذا مجبول منذ الأزل بتراب الهموم

لمن هذه القصيدة ؟

يشير جُلساء السلطان يافوز سليم ممن كانوا يلازمونه إلى قوة ذاكرته ، بالإضافة لحدة ذكائه. وكما هو معروف في الموروث الأدبي لدينا ، أنّ الجوائز الشعرية كانت سنة نبوية ، فحين جاء الشاعر كعب بن زهير إلى النبي الكريم ليشهر إسلامه ، وألقى على مسامعه قصيدة (البردة) التي امتدح فيها الرسول (ص) ، قام بخلع بردته عليه. وهي دلالة على التقدير والتبريك في آن معاً. ومن ثم غدت عادة منح الشعراء الخلع والقفاطين عادة لدى أصحاب المكانة المرموقة في العالم الإسلامي. كما منح الحكام ورجال الدولة مكافآت مجزية للشعراء الذين كتبوا قصائد على أسمائهم ومدحوهم فيها. وكان لذلك دور بالغ الأثر في تطوير الشعر والأدب والعلوم بشكل عام في سائر ديار المسلمين.

وفي عهد السلطان يافوز سليم ، كتب أحد الشعراء قصيدة يمتدحه فيها ، وذهب للمثول بين يديه من أجل قراءتها أمامه في إحدى المجالس الأدبية التي كان حسن جان أيضاً حاضراً فيها. وبعد أن أتمّ قراءتها ومكث ينتظر جائزته ، سأله السلطان:

«أنت من كتب هذه القصيدة ؟».

«بلى مولاي السلطان ، أنا عبدكم من كتبها» وهنا احتد سليم خان وهو يقول:

«ولكنها قصيدة يعلمها الجميع ، ألا تخجل من الادعاء بأنك من كتبها ؟».

فألمت الحيرة بالشاعر..

«لا يا مولاي ، أنا من كتبها ، وهي المرة الأولى التي أقرؤها أمامكم»..

«أيعقل ما تقول ؟ إنها قصيدة مشهور».

فرد الشاعر:

«لا يا مولاي ، ذلك محال»..

ولكن سليم خان يقول له:

«أحقاً ذلك ؟ إذاً فلتسمع جيداً».. ليلقي القصيدة بأبياتها التسعة والعشرين دون أي خطأ.

تتعاظم حيرة الشاعر ، ولا يستطيع الرد كما يجب مكتفياً بالتلعثم مردداً «هذا محال يا مولاي..».

فيقول له السلطان:

«إن كنت لا تصدقني سيقوم حسن جان أيضاً بقراءتها عليك الآن ، هيا يا حسن اقرأ لنا القصيدة..».

وهنا يلقي حسن جان أيضاً القصيدة كما فعل السلطان قبلاً..

فينضح الشاعر المسكين بالعرق ، ويتمنى لو أنّ الأرض تنشق وتبتلعه ، ذلك أنه تخلى عن فكرة الجائزة ، وبات يشعر بخزي لا يوصف لأنه وقع موقع المحتال أمام السلطان..

ولكن سليم خان أشفق عليه وهو يقول «لا تحزن ، فقد أعجبتني قصيدتك كثيراً».. ومنحه جائزة مضاعفة لإدخال السرور إلى قلبه.

وقد تبين أنّ السلطان سليم خان يحفظ القصيدة التي تلقى على مسامعه من أول مرة ، فيما حسن جان يحفظها من المرة الثانية..

كيف ؟

وهذا مثال آخر عن التقدير والاهتمام البالغ الذي كان سليم خان يظهره لمن يرتاد مجلسه ممن يختارهم من الصفوة..

فأثناء التوجه في الحملة على مصر ، كان حسن جان برفقة السلطان سليم خان في القارب الذي كان يعبر بهم إلى أوسكودار (الجانب الآسيوي).

لا نعلم عما كان يدور نقاشهما على وجه التحديد ، ولكن السلطان سليم خان يسأل مرافقه وهما في وسط المضيق ، وكأنّ السؤال خطر بباله فجأة:

«هل تحب البيض يا حسن جان ؟».

فيجيبه دون تردد:

«بلى يا مولاي»..

يقطعون الدروب والمدن والبلاد ويخوضون المعارك ، وأخيراً تنتهي حملة مصر ، ويعودون إلى إسطنبول مجدداً. وقد مضى على حديثهما أكثر من عامين. ولأنّ سليم خان كان يشعر بالضجر من التحضيرات لمراسم الاستقبال التي ستقام له في اليوم التالي ، خرج للإبحار وسط المضيق.

وكان برفقته حسن جان مرة أخرى ، ولا أحد يعلم ما الذي كانا يتحدثان أو يفكران فيه هذه المرة أيضاً ، وحين بلغا منتصف المضيق ، يسأله سليم خان بشكل مفاجئ كما في السابق:

«كيف ؟».

ليجيبه حسن جان بسرعة البرق ودون تردد من جديد:

«نصف مسلوقة يا مولاي..».

كانا يفكران معاً ويشعران معاً.. وهذا ما يمكن أن نسميه «وحدة الحال»..

لعبة الشطرنج

في الفترة التي كان فيها يافوز سليم خان أميراً على ولاية طرابظون ، كان يدرك الخطر الذي يمثله الشاه إسماعيل حاكم الصفويين على الدولة العثمانية ، وقد أرسل إلى إسطنبول العديد من الرسائل ليوضح فيها هذه الحقيقة ويطلعهم على الأمر. ولم يكتف بذلك ، بل قام بتبديل ثيابه متنكراً على هيئة درويش ، وقام برحلة تنطوي على الكثير من المخاطر والمشاق بمفرده ، متجهاً إلى تبريز عاصمة الدولة الإيرانية ، من أجل الاطلاع على أحوال هذه الدولة عن كثب ، والتعرف على الشاه عن قرب.

كان الشاه مولعاً بلعبة الشطرنج ، وأحد البارعين في لعبها ، وكان في كل يوم ينظم أكثر من جولة للعب الشطرنج ، ويستقبل كل من يشاء اللعب ، بغض النظر عن موقعه الاجتماعي. ولم يظهر حتى ذلك الوقت من تمكن من التغلب عليه ، وبالطبع لا يمكن أن نتغاضى عن دور الخوف من الشاه في هذا الشأن. وكان يافوز أيضاً أحد البارعين في لعبة الشطرنج ، وأثناء رحلته كان يقوم بجمع المعلومات عن الدولة الصفوية ، وهكذا توجه نحو تبريز ما إن دخل الأراضي الإيرانية ، وهناك أعلن عن رغبته أمام قصر الشاه في لعب الشطرنج ، فتوجه الحراس للداخل لإعلام الشاه بأنّ «هناك درويشاً يقف على باب القصر ويريد لعب الشطرنج مع مولانا الشاه».. وكان الشاه يحب اللعب مع الغرباء على وجه الخصوص ، وبذلك فقد قبل يافوز على الفور ، وخاطب الدرويش حين مثوله بين يديه بالقول «درويش بابا! من أين أتيت وإلى أين أنت متجه ؟..» ليرد عليه الدرويش باحترام وبلغته نفسها «أنا قادم من قزوين ، وقد أتيت للتبرك برؤية مولانا الشاه».. فيسأله الشاه «ما أخبار البلاد والعباد الذين مررت بهم ؟».. ليرد عليه يافوز بالقول «بفضل همة مولانا

العظيم ، فالأمان في كل مكان ، والرفاه والأمن يغمر الناس ، وكل عبادك في خير حال».. وقد استحسن الشاه هذا الكلام ، فخاطبه بالقول «بلغني أنك ترغب في لعب الشطرنج معي ، هيا اجلس قبالتي».. فيقول له يافوز وهو يجلس في الطرف المقابل «لقد جئت لنيل شرف اللعب مع مولاي الشاه» ، حيث يتعمد الخسارة في الجولة الأولى من اللعب ، ولكنه يهزم الشاه في اللعبة الثانية ، لأنه أكثر براعة منه. وقد استاء الشاه بصورة بالغة للخسارة التي تعرض لها أمام أنظار الجميع ، ووجه لطمة بيده إلى صدر يافوز وهو يقول: «أيها الدرويش المعتوه ، كيف لك أن تهزم الشاه في لعبة الشطرنج ؟ ألا تملك من الذوق والأدب شيئاً ؟.. أليس لديك حرمة اتجاه السلاطين ؟..» فيرد عليه يافوز في هدوء بالغ:

«مولاي الشاه ، لو كنت أعلم بقواعد اللعب المشروطة معكم مسبقاً ، لما أقدمت على ما حدث»..

وعلى الفور يتمالك الشاه نفسه ويرد عليه:

«لا شروط للعب مع الشاه ، هيا فلتغادر في سلامة».. فيغادر يافوز القصر متجهاً إلى الخان الذي نزل فيه ، وفي اليوم التالي يرسل إليه الشاه كيساً مليئاً بألف قطعة ذهبية.. يمضي يافوز النهار في غرفته مرتاحاً ، ويخرج بعد حلول الظلام ، ويتسلل إلى حديقة القصر ويزيح الحجر الذي يعتليه الشاه أثناء امتطائه لظهر حصانه ، ويحفر حفرة تحته يضع فيها كيس النقود ويعيد الحجر لمكانه ، وبعد قضاء تلك الليلة في تبريز يغادر صبيحة اليوم التالي باكراً ، ليعود إلى طرابظون على وجه السرعة.

يستاء الشاه إسماعيل من الهزيمة التي لحقت به في لعبة الشطرنج على يد درويش غريب ، ويقرر أن يعاود اللعب معه ، والتحرك بحذر هذه المرة حتى يتمكن من إلحاق الهزيمة به. كما كان يعول على عدم تجرّؤ الدرويش محاولة التغلب عليه مرة ثانية بعد أن شاهد الغضب الذي ألمّ بالشاه. فيقوم بإرسال أحد رجاله إلى الخان الذي كان يقيم فيه بعد انقضاء يومين على الحادثة لدعوته إلى القصر ، لكن صاحب الخان يخبره بأنّ الرجل قد غادر ، دون أن يطلع أحداً على وجهته القادمة. ولأنه كان قد أخبر الشاه سابقاً بأنه قادم من

جهة قزوين ، يأمر هذا الأخير فرسانه بالتوجه إلى هناك على وجه السرعة ، ولكنهم يعودون دون العثور على أثر للأمير الشاب ، أو الوقوف على مَن يعرفه أو مَن رآه وسمع عنه..

ولكن أحد أتباع الشاه كان قد تعرف على الأمير ، فوصل الخبر إلى مسامع الشاه الذي استدعاه للمثول أمامه على وجه السرعة وسأله:

«أصحيح أنّ من لعب معي الشطرنج هو الأمير سليم ؟».

«بلى مولاي الشاه ، فقد مكثت سابقاً في طرابظون وقابلته هناك»..

«ولمَ لم تطلعني على الأمر منذ البداية ؟»..

«منعني من ذلك هيبة الأمير ، ولم أتجرأ على الاعتراف»..

وقد تمكن الأمير الذي اعتلى العرش في الرابع والعشرين من نيسان العام ألف وخمسمائة واثني عشر بعد الكثير من الصراعات ، والذي ألحق الهزيمة بالجيش الصفوي في معركة تشالديران في الثالث والعشرين من آب العام ألف وخمسمائة وأربعة عشر ، من دخول تبريز مرة أخرى ، ووصل أمام قصر الشاه الذي أسند إليه ظهره وأخذ يجول بناظريه على الجهات الأربع ، ومن ثم نظر إلى رجال دولته ، وأخيراً خاطب سيكبان باشي (قائد قوات السيكبان) باليميز عثمان آغا بالقول:

«لقد وضعت كيساً تحت الحجر الذي كان الشاه يصعد عليه لاعتلاء ظهر الحصان وراء هذا الباب ، وفيه ألف قطعة ذهبية ، وهو من مالي الخاص. وأنا أمنحك ذلك المال. ارفع الحجر لتأخذهم».. وإزاء هذا الكلام ألمت الحيرة برجاله ، فما من أحد كان يعلم بمجيء السلطان يافوز سليم إلى تبريز قبلاً.. وبعد برهة من التردد ترجل عثمان بيك من على ظهر حصانه ، وتوجه نحو الحجر وما أن رفعه حتى وجد تحته القطع الذهبية الألف ، التي تناثرت في الحفرة بعد أن بلي الكيس. فقام بجمع القطع ووضعها في منديله ، ليتجه نحو ركاب السلطان ويقبل يده. وبعد أن يطلع أركان الدولة على حقيقة الوضع ، يدركون أنّ السلطان

يافوز سليمان كان يخطط لفتح إيران منذ أن كان أميراً..

وبالرغم من أنّ مغادرة سليم خان لإمارته دون أخذ الأذن ، كانت خطوة غير جائزة كما أنها بالغة الخطورة ، ولا يمكن الركون إلى صحتها كثيراً ، ولكن سولاك زادة يوثقها في تاريخه ، معلقاً عليها بالقول «وقد وردت في بعض كتب التاريخ»263. وبالنظر إلى شخصية سليم خان ومناقبه ، لن نستغرب كثيراً قيامه بأمر مماثل.

آخر الأنبياء دليلهم

حين سار سليم خان على رأس الحملة المتوجهة إلى مصر ، صادف الكثير من الإشارات ذات الدلالة المعنوية ، وقد تطرقت المصادر إلى قسم كبير منها. وبالرغم من أنّ الحادثة التالية لم ترد في المصادر الأساسية ، لكنها تشير إلى الجانب الديني لشخصية سليم خان ، وتتوافق مع الإشارات الإلهية التي رافقته خلال حملته على مصر.

فبعد أن اجتمع الجيش العثماني برمته في غزة ، وقام بسد احتياجاته هناك ، بدأ رحلة عبور سيناء مصر (صحراء التيه) وذلك في التاسع من كانون الثاني العام ألف وخمسمائة وسبعة عشر ، ودخل تلك الصحراء الرملية الواسعة..

وفي أحد الأيام وفيما هم يسيرون على الرمال الحارقة ، ترجل السلطان يافوز سليم خان عن حصانه ، وبدأ يكمل الرحلة سيراً على قدميه. وحين رأى الفرسان وأركان الدولة ما قام به السلطان ، جاروه في الترجل والبدء في المسير.

واستبد التعب والاختناق بالكبار في السن من أركان الدولة ، ولم يعودوا قادرين على إتمام الرحلة سيراً ، ولكن أحداً منهم لم يتجرأ على الطلب من يافوز أن يمتطي الحصان..

وأخيراً توجهوا إلى كمال باشا زادة يترجونه ، وعلى إثر ذلك توجه العالم الجليل إلى السلطان بالقول:

«يبدو أنك تريد الوصول إلى مصر بمفردك يا مولاي. ذلك أنّ جنودك ورجال دولتك مشرفون على الهلاك إن بقينا على هذا الحال»..

فرد عليه السلطان سليم خان بتواضع وصوت بالكاد يُسمع:

«يا معلمي ، كيف لي أن أعتلي ظهر الحصان ورسول الله (ص) يتقدمنا سيراً على الأقدام ؟»..

وهناك حلّ رباط التعب عن قدمي كمال باشا زادة وواصلوا الرحلة سيراً على الأقدام.

وبعد مرور بعض الوقت عاد السلطان سليم خان ليمتطي حصانه ، فجاراه في ذلك جنوده ورجال الدولة ، وبذلك حصلوا على قسط من الراحة.

ومن الوارد أنّ السلطان سليم قد تمكن من رؤية الرسول الكريم لسلامة طويته ، ومن ثم غابت هذه الرؤية عن ناظريه. وبعد برهة أخذ المطر الذي بدأ في الهطول يتحول إلى وابل غزير ، وغدت أرض صحراء سيناء التي لم تشهد سقوط المطر منذ سنوات طويلة ، متماسكة بعض الشيء ، يسهل السير عليها بصورة أكبر.

وأخذ الجميع يردد «إنها بركة من الرسول الكريم» ، وأخذوا يرفعون أيديهم بالحمد والثناء ، واعتبروا الحادثة بشرى لهم على قرب فتح مصر.

الأصدقاء قلة قليلة

تنسب إلى سليم خان رباعية شعرية ، ويقال بأنّ هذه الأبيات التي إن قُرِئت من اليسار إلى اليمين ، ومن الأعلى إلى الأسفل تعطي المعنى ذاته ، موجهة إلى الشاه ، دون وجود ما يثبت هذا الادعاء ، وخاصة أن كلمة شاهي (مولاي الشاه) لم ترد في متن القصيدة. وهذه هي الأبيات:

لا تظنن مطلقاً ، بأن الكل لك ، يكنّ الإخلاص ، ويصبح خليلاً

أوَتظن الكل ، صديقاً صدوقاً ، فربما الجميع ، هم لك أغيار

وربما الكل ، يكن الإخلاص ، ويغدون أصدقاء ، وجنوداً أوفياء

يغدون أصدقاء ، أو يغدون أغيارَ ، يغدون جنوداً ، أو يغدون خصوماً264

المرثية

لقد كان لموت هذا السلطان العظيم المفاجئ ، وقع عظيم على كمال باشا زادة ؛ أبرز علماء عصره ، فنعاه في المرثية الرائعة التي سنورد أبياتها:

حسرت البيارق والأعلام عن رأسها

وانحنت السيوف والأقلام لتسفح العبرات

اصطبغ وجه الأعلام بحمرة الدماء

وتقوس الرجال من الألم وهم ينشجون حزناً

حتى القمر استحال بياضه إلى عتمة

وترقرق الدمع في أعين النجوم

وذرف الأفق قطرات من الدم لوعة

حتى اصطبغ العالم برمته بتلك الدماء

وأما الفجر فأطلق زفرة عمية من الألم

فغاب نوره وغطت الظلمة كل مكان

وارتدى الدهر ثوباً أكثر حلكة من الليل

وأعلن الحداد على سلطان العالم

ذلك السلطان الذي غدت السماء داره

وأصبحت النجوم تتشرف بخدمته

كان كالشمس في عزمها وقوتها وفي

الشجاعة رستماً وجيماً في مجالس العلم

ولكن الدهر الذي لا يرأف بأحد

ابتلاه بجرح لا دواء أو شفاء له

فليتك رأيت ما كابده السلطان

حتى أسلم الروح وفارقه النَفس

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء

لقد زلزل فرسانه وخيله وجه الأرض

وبات أولئك الشجعان لوحدهم في الوغى

ومن بين آلاف الخدم والرعايا

لم يرافقه أحد في رحلته الأبدية

وغدت ليالي السرور ذكراً غابراً

مع رحيله الذي لم يخطر على بال

بلغت آهات العباد حدود السماء

ولف ضباب الحزن تلك الليالي المقمرة

حتى العالم العجوز انحنى ألماً

وأخذ يشكو الدهر لأمه أحزانه

واصطبغ وجه الكون بالأسى

واستحال إلى السواد وهو ملتاع

وغرق وجه البسيطة كلها بالدموع

وتصاعدت آهات الألم وأناته حتى السماء

وتشقق عرشه منكوباً من لوعته

وغدت خيمته كصحراء من السواد

وبالرغم من أنه أدرك بأن التاج ليس باقياً

فها قد غادر السلطان عرشه أيضاً

غادر الخليفة وشمس هذا الزمان

وامتزج بالظلمة واختفى عن الأنظار

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء

كان سليمانَ مجالس الكرم كلها

وفي ساحات الوغى أشجع من نريمان

ومن يقرأ ملاحمه ويسمع بطولاته

فما حاجته بملاحم الآخرين ؟

وحين كان يستوي على عرشه

كانت القلوب ترتعش من هيبته

يرنو إليه المجد والنصر على الدوام

حتى حاكم مصر كان أحد مماليكه

وما خان التتار وسهوب القفجاق

سوى واحد من خدمه ورعاياه

وطوال هذه السنين كان الدهر

يترقب مجيئه بحسرة وينتظر

لكن سلطانه ذبل في عز الربيع

وذوت وردته اليانعة في لمح البصر

كان جنة في وسط جحيم هذا العالم

فلتكن جنان الخلد مثواه الأخير

أين السلطان الذي قاد جيوشاً جرارة

أين ذاك الذي فتح الأمصار والبلدان ؟

أين السلطان الذي جعل الفؤاد يذرف

دماء بدل الدموع من لوعة فراقه

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء

كان أكثر الفرسان جرأة وقت الشدائد

حكيماً في القرار ، صاحب بأس ودهاء

بارعاً في فنون الحروب والحكم معاً

فما حاجته إلى وزير أو إلى مشير

يده كحد السيف ، ولسانه كنصل خنجر

وساعده كرمح وإصبعه كسهم خارق

حقق الأمجاد في وقت قصير

وامتد ظله ليشمل العالم برمته

كان شمس عصره ، ولكن ظلال

الظهيرة طويلة القوام قصيرة الآجال

امتدح الشعراء تاجه وعرشه العظيم

وكلاهما يفتخران به ، وبه يتباهيان

كان قلبه يطرب حبوراً وسروراً

حين تناديه ساحات الجهاد والوغى

فلا في ميادين القتال ومجالس السرور

لم يكن له مثيل في كل هذا العالم

كان يشرق كشمس على كل احتفال

وفي القتال يغدو أسداً لا يدانيه أحد

وحين تموت أسود ساحات القتال

فلتذرف السيوف دماء بدل الدموع

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء

حتى الدهر تمرغ في التراب لوعة

وقد بلغه قرب موعد رحيله والفراق

ترك كل الناس غارقين في الدموع

بعد أن جفت شفتا سلطان القارات والبحار

أين من بلغ في الكمال أسمى المراتب

وفي الفضيلة والعلم أعلى مقام؟

من غدا القمر عمامته والشمس تاجه

ذاك الذي يجدر بالإسكندر وجيم خدمته

لم يعرف العالم ظلماً في عهده وظلمة

وقد أشرقت بنور عدله على كل البلاد

وغدا ساعده غمداً لسيفه البتار

ولسانه كنصل خنجر في قول الحق

وكالعاصفة التي تنزع عن الشجر أوراقه

جاء الموت ليقتلعه كوردة يانعة

فاحترق العالم بنيران هذه المصيبة

وغامت صفحة السماء وسط الضباب

وتمزقت صفحة الأرض وفاضت السيول

وهامت الكائنات وهاجت البراكين

واقتطع الدهر من الشمس والقمر

صخرتين ليلطم بهما صدره الموجوع

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء

حتى غيوم الربيع على صفحة السماء

تذرف عليه الدموع مدراراً وتبكيه

وما تساقط الثلوج والأمطار سِوى

لإطفاء نيران اللوعة في قلب الزمان

حتى بات المطر دمعاً للدهر

حين يسفح العبرات على ألم الفراق

فيما الغيوم ارتدت ثوب الثلوج

وهي تجول باكية في كبد السماء

أما عرشه فقد بات كالأطلال

يبكي صاحبه حرقة وتفجعاً

وحتى الجبال باتت ينابيعها

كمجاري الدمع التي تفيض ألماً

وحتى أكثر الرجال صلابة وبأساً

انهاروا في البكاء من وقع المصاب

والأنهار بكته وفاضت بالدموع

فلا السدود منعتها ولا الحجارة

والينابيع وكل من له عين

بكت كلها عليه تأسياً وحزناً

بكاه الترك الروم العرب والعجم

وبكاه الديلم والتتار والتركمان

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء

ذبلت جنان البلاد بكل ورودها

وجفت أنهار الكرم والسخاء في أرضها

وبات العالم كله في حداد وسواد

فقد انحبست شمس برج الشرف

وانتحبت الأرض والدهر في أنين

لقد غرق العالم في الحزن والآلام

وتوشح الخزامي بحمرة الدم القانية

والبنفسج قصت جدائلها حداداً ولوعة

حل طوفان الموت دون علم أو خبر

فانهار سدّ الإسكندر على وقعه

رحلت روح العالم إلى دار البقاء

فجفّت الأرض واستحالت يباباً

ونزع جسده المبارك عنه في النهاية

ثياب العافية واستعد للرحيل

وامتلأت الأقداح بدل الشراب الزلال

بالدمع والأحزان بالأسى والهجران

كان سلطان العرب والعجم الروم

والأناضول ، ولكنه خضع لأمر الموت

فيا للوعة بعد موت السلطان سليم

فليبكه القلم والسيف على حد سواء265

الرحيل

حين دقت ساعة الرحيل في أحد الأيام

كانت الدعوة من الحق العلي إلى الطريق

فاضت عيناه بدموع الألم والفراق فيضاً

وكان على السلطان العظيم توديع رعاياه

لقد أفنى جلّ عمره تحت راية التوحيد

ورفع كلمة الحق في كل موطن وموئل

وسلم روحه الطاهرة تحت ظلال الراية

ودخل جنان الخلد مع الشهداء والأبرار

فازدانت رياض الخلد برايات النصر

التي أحضرها معه من المعارك الكثيرة

كان مقصده والمراد أن يرى خير الأنام

لذا سار في الدرب راغباً مسروراً

فقبّله فخر العباد على جبينه

وكافأه على كل ما بذله من همة

وشفع له في ديوان الحق الرحيم

وتطهر من كل ذنب ومن كل إثم

ورغم فراقنا لسلطان عظيم مثله

وغرقنا في الأسى والحزن عليه

ورغم أن الرايات نكست عليه حداد

لكن السلطان سليمان سيعليها من بعده[266]

Notes

[1←]

لمعرفة هذه التعقيدات يمكن مراجعة كتاب الحاج سعد الدين أفندي «تاج التواريخ ، III» ، إعداد عصمت برمقسيز أوغلو ، أنقرة 1999 ، المجلد الثالث ، ص 185—187 ؛ واقعة السلطان بيازيد وسليم خان ، قصر طوب قابِ 1416 ، ص 1.

[2←]

«تاج التواريخ» ، III ، ص 188.

[3←]

«تاج التواريخ» ، III ، ص 191.

[4←]

ابن كمال ، تواريخ آل عثمان ، الدفتر الثامن ، إعداد أحمد أوغور ، أنقرة 1997 ، ص ؟ ؛ «تاج التواريخ» ، III ، ص 194—195.

[5←]

«تاج التواريخ» ، III ، ص 196.

[6⟵]

ابن كمال ، الدفتر الثامن ، ص 17.

[7⟵]

ابن كمال ، الدفتر الثامن ، ص 18—21 ؛ «تاج التواريخ» ، III ، ص 198—202.

[8⟵]

ديوان السلطان جم بالتركية ، إعداد خليل إرسويلو ، إسطنبول 1981 ، ص 68.

[9⟵]

«مذكرة سيهي بيك» الجنان الثمانية ، إعداد مصطفى إيسِن ، أنقرة 1998 ، ص 53.

[10⟵]

ابن كمال ، الجزء (الدفتر) الثامن ، ص 24.

[11⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 211—212.

[12⟵]

ديوان السلطان جم بالتركية ، ص 20.

[13←]

ضمت حاشية السلطان جم ثلاثين شخصاً ، ومع شرائه لاثنين من الأسرى الأتراك من جزيرة رودوس غدت اثنين وثلاثين شخصاً. انظر حقي أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) ، أنقرة 1975 ، المجلد الثاني ، ص 170.

[14←]

خير الله أفندي (تاريخ الدولة العثمانية) ، إعداد زوهوري دانشمان ، إسطنبول 1972 ، المجلد الخامس ، ص 102—104.

[15←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 220.

[16←]

ديوان السلطان جم بالتركية ، ص 60—61.

[17←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 226.

[18←]

تاريخ سولاك زادة ، إعداد وحيد جابوك ، أنقرة 1989 ، ص 393. تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 231. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) ، نشر مؤمن جيفيك — إرول كليج ، إسطنبول 1984 ، المجلد الثالث ، ص 864.

[19←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 233.

[20←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 233.

[21←]

تاريخ سولاك زادة ، المجلد الأول ، ص 394.

[22←]

بخصوص الروايات المختلفة حول موت السلطان جم ، تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 231—232. ابن كمال الجزء الثامن ، ص 144. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) ، المجلد الثالث ، ص 863—864. تاريخ أوزونجارشلي ، المجلد الثاني ، ص 173—174. نيكولاس يورغا (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) ، ترجمة نيلوفير إيبجلي ، إسطنبول 2005 ، المجلد الثاني ، ص 209.

[23←]

تاريخ سولاك زادة ، المجلد الأول ، ص 394.

[24←]

مذكرة لطيفي ، إعداد مصطفى إيسن ، أنقرة 1990 ، ص 231—232

[25←]

انظر زكي أركان (يوميات التاريخ)، إسطنبول 2002، ص 136.

[26←]

نظر يلماز أوزتونا (تاريخ تركيا العظيمة)، إسطنبول 1977، المجلد الثالث، ص 172–173.

[27←]

تاج التواريخ، المجلد الثالث، ص 235.

[28←]

ابن كمال، الجزء الثامن، ص 144.

[29←]

نيكولاس يورغا (تاريخ الإمبراطورية العثمانية)، المجلد الثاني، ص 207–208.
هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الثالث، ص 864–865.

[30←]

ابن كمال، الجزء الثامن، ص 68–70. تاج التواريخ، المجلد الثالث، ص 236–238.

[31←]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 73.

[32⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 239. ابن كمال الجزء الثامن ، ص 74—75.

[33⟵]

عاشق باشا زادة (تاريخ آل عثمان) ، علي بيك نشري ، إسطنبول 1332 ، ص 227.

[34⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 240—242. عاشق باشا زادة ، ص 227—228.

[35⟵]

من أجل الأسباب السياسية للصراع العثماني — المملوكي انظر: شهاب الدين تيكين داغ (صراع النفوذ في كيليكيا في عهد بيازيد الثاني ، أولى الحروب العثمانية مع المماليك 1485—1491) ، المجلد الواحد والثلاثون ، أنقرة 1967 ، ص 123.

[36⟵]

ابن كمال الجزء الثامن.

[37←]

صراع النفوذ في كليلكيا ، ص 353—355.

[38←]

عاشق باشا زادة ، ص 231.

[39←]

عاشق باشا زادة ، ص 233—234.

[40←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 256—259.

[41←]

صراع النفوذ في كيليكيا ، ص 361—365.

[42←]

اج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 270—271. عاشق باشا زادة ، ص 240. صراع النفوذ في كليكيا ، ص 372.

[43←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 285—287.

[44←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 289—292. يورغا (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) ، المجلد الثاني ، ص 234—235.

[45←]

ابن كمال الجزء الثامن ، ص 175.

[46←]

صلاح الدين تانسيل (الحياة السياسية للسلطان بيازيد الثاني) ، إسطنبول 1966 ، ص 144—150. يورغا (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) ، المجلد الثاني ، ص 226—227.

[47←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 271—272.

[48←]

شير بعض المصادر أنّ هدف حملة السلطان منذ البداية كان الأراضي الألبانية ، ولم تكن حملة المجر سوى إحدى تكنيكات التضليل. ولهذا السبب تم إرسال القبطان سنان باشا على رأس ثلاثمائة سفينة إلى مدينة فلوره على السواحل الألبانية. انظر كنه الأخبار مكتبة نورعثمانية ، رقم 3406. تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 273. يورغا (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) ، المجلد الثاني ، ص 226.

[49⟵]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 127—128.

[50⟵]

مقابل إظهار المصادر العثمانية الدرويش على أنه من الطائفة العلوية (تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 275 — ابن كمال الجزء الثامن ، ص 128) ، يدعي يورغا في تاريخه أنه كان أحد أتباع إيفان بيك الذي خسر كل ما يملكه في آخر حملة على ألبانيا ، وغدا قاتلاً وقاطع طريق (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) ، المجلد الثاني ، ص 243.

[51⟵]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 128. وجاء في (كنه الأخبار) أنّ إسكندر باشا طعنه بسيفه في صدره وأسقطه أرضاً. أما إدريس البدليسي فيقول بأنّ أول من أنزل به ضربة هو شخص يدعى آيدين في كتابه (الجنان الثماني) ، مكتبة توب كابي صراي. الرقم 196.

[52⟵]

تزامنت الفترة التي حدث فيها الاعتداء مع تنظيم مجموعات من الدراويش الصفويين في كل من روميلي والأناضول ، لذا فمن الجائز اعتبار هذا الاعتداء خطة من الدراويش الصفويين لزرع الفوضى في الدولة العثمانية.

[53⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 275.

[54⟵]

عاشق باشا زادة ، ص 8.

[55⟵]

خليل إينالجيك (الجيش التركي في الدولة العثمانية)، الثقافة التركية العدد 22 ، أنقرة 1964 ، ص 7–10.

[56⟵]

عارف كوداي (فرقة المغاوير ضمن تنظيم الجيش العثماني)، رسالة ماجستير ، جامعة الفرات ، معهد العلوم الاجتماعية ، إلازغ 2001 ، ص 11.

[57⟵]

عبد القادر أوزجان (المغاوير)، المجلد الثاني ، إسطنبول 1989 ، ص 249.

[58⟵]

يلماز أوزتونا (فرقة المغاوير الفرسان العثمانية)، مجلة التاريخ والحضارة ، العدد 21 ، تشرين الأول 1995 ، ص 15.

[59⟵]

يشار غوكجيك (فرقة المغاوير عبر تاريخ الإمبراطورية التركية وغازي ميخال

أوغلاري)، قونيا 1997 ، ص 109.

[60←]

محمد زكي باكالِن (قاموس المصطلحات والتعابير العثمانية)، إسطنبول 1993 ، ص 37.

[61←]

كوداي (فرقة المغاوير)، ص 12—14.

[62←]

فرانز بابينجر (السلطان محمد الفاتح وعصره)، ترجمة دوست كوربة ، إسطنبول 2002 ، ص 314.

[63←]

كوداي (فرقة المغاوير)، ص 29—41.

[64←]

عاشق جلبي (مشاعر الشعراء)، إعداد فيليز كلِج ، أنقرة 1994 ، ص 482.

[65←]

هامر (المجلد الرابع ، ص 976)، وأوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 209. يوردان أنّ ميهال أوغلو علي بيك أيضاً كان بين الأسرى ،

وأنه تم إعدامه بعد الحرب بالرصاص. وبالمقابل يورد كمال باشا زادة أنّ ميهال أوغلو علي بيك شن هجمات جديدة على المجر للانتقام مما حصل في هذه الحرب ، وتمكن من إلحاق الدمار بها ، وفي النهاية فارق الحياة في العام تسعمائة وخمسة هجرية ، أي في العام 1499. انظر ابن كمال الجزء الثامن ، ص 130 ، 233.

[66←]

سورة البقرة ، الآية 249.

[67←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 284—285.

[68←]

كان البنادقة يولون ثقة كبيرة لقوة أسطولهم ، وخلال المراسلات التي تمت بخصوص الدخول في حرب مع الدولة العثمانية ، رفض قادة البنادقة رغبة الدوق بالحفاظ على السلم مع العثمانيين ودفع الجزية لهم ، واعترض أحدهم مخاطباً الدوق "ابقَ جالساً في مكانك ، وأرسلني على رأس الجيش ، وسأتجه عن طريق البحر لمواجهة العدو والقضاء عليه» انظر ابن كمال الجزء الثامن ، ص 179.

[69←]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 297—298.

[70⟵]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 179.

[71⟵]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 185.

[72⟵]

كاتب جلبي (تحفة الكبار في أسفار البحار) ، إعداد شايك غوكياي ، إسطنبول 1973 ، ص 29—30.

[73⟵]

تاريخ سولاك زادة ، المجلد الأول ص 418—419. تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 303—305. ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 186—190.

(*) وفق حساب أبجد لقيم الحروف ، فإن جملة "هذا البلد آمن» تشير إلى تاريخ الفتح ، وهو 905 هجري

[74⟵]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 190.

[75⟵]

تحفة الكبار في أسفار البحار ، ص 31.

[76⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الثالث ، ص 307—308.

[77⟵]

عاشق باشا زادة ، ص 259.

[78⟵]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية) ، المجلد الثالث ، ص 993.

[79⟵]

صمت مير أوغلو (عهد بيازيد الثاني ، التاريخ الشامل للإسلام منذ البداية وحتى يومنا الحالي) ، إسطنبول 1989 ، المجلد العاشر ، ص 265—266.

[80⟵]

ن أجل مغامرة الأمويين في الأندلس انظر: محمد أوزدمير (الأندلس) ، إسطنبول 1995 ، المجلد الحادي عشر ، ص 211—216.

[81⟵]

صالح بن شريف (رثاء الأندلس) ، إعداد سزاي كاراكوج ، إسطنبول 1967 ، ص 29—35.

[82⟵]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني، ص 200–201.

[83←]

ابن كمال، الجزء الثامن، ص 145.

[84←]

جواد أوككيكول (البحار التركي العظيم الريس كمال)، إسطنبول 2007، ص 54–57.

[85←]

بيري ريس (كتاب البحرية)، مكتبة جاكعة إسطنبول، الرقم 6605.

[86←]

إدريس بوستان (الريس كمال)، ذلك الخامس والعشرون، ص 226–227.

[87←]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني، ص 225–229. تانسيل (بيازيد الثاني)، ص 240–245.

[88←]

جاغتاي أولوجاي (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً؟)، مجلة التاريخ 1956، العدد 9، المجلد السادس، ص 56.

[89←]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 261—262.

[90←]

من أجل مرثية الأمير محمد كاملة انظر ديوان نجاتي بيك ، إعداد علي نهاد تارلان ، أنقرة 1992 ،ص 125—128.

[91←]

تانسيل (بيازيد الثاني) ، ص 248.

[92←]

أولوجاي (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً ؟) ، مجلة التاريخ 1956 ، العدد 9 ، المجلد السادس ، ص 63—66.

[93←]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية) ، المجلد الرابع ، ص 1018—1020. تاريخ سولاك زادة ، المجلد الأول ، ص 445—446.

[94←]

ناك رواية تفيد بأنّ شاكولو لم يقتل في هذا الصراع ، بل هرب إلى إيران. ولكنهم أثناء الطريق تهجموا على قافلة تعود للإيرانيين وقتلوا أفرادها ، فقام الشاه بمعاقبتهم. انظر أولوجاي (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً ؟) ،

مجلة التاريخ 1956 ، العدد 9 ، المجلد السادس ، ص 72—73.

[95⟵]

جاغتاي أولوجاي (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً ؟) ، مجلة التاريخ 1956 ، العدد 9 ، المجلد السادس ، ص 72—73. تانسيل (بيازيد الثاني) ، ص 253—257. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) ، المجلد الثاني ، ص 230—231.

[96⟵]

بن كمال (تاريخ آل عثمان) ، الجزء التاسع ، ولي الدين أفندي الرقم 2447. كما يورد جاغتاي أولوجاي أيضاً بأنّ عدم إنجاب الأمير كوركود لابن ذكر كان يصعب فرصة توليه العرش (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً) ، العدد التاسع ، ص 57. فيما يورد إسماعيل حقي أوزونجارشلي بيك بأنّ الأمير مات مع ابنتيه وابنه الذي لم يذكر اسمه (التاريخ العثماني) ، المجلد الثاني ، ص 251.

[97⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 123—124.

[98⟵]

أولوجاي (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً ؟) ، مجلة التاريخ 1956 ، العدد العاشر ، ص 120—121.

[99⟵]

سورة ص ، الآية 26.

[100⟵]

رغم وجود مزاعم تفيد بأنّ السلطان بيازيد حين ترك سلطنته لابنه سليم ، صبّ عليه اللعنات ، ولكن ما من تأكيد لذلك في المصادر التاريخية ، التي تفيد بأنّ بيازيد خان ترك السلطة لابنه بعد أن قدم له الكثير من النصائح ، وابتهل له بالدعاء. انظر تاريخ سولاك زادة ، المجلد الأول ، ص 467—468. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 94—97.

[101⟵]

سورة الواقعة ، الآية 79.

[102⟵]

خير الله أفندي ، المجلد الخامس ، ص 141—143.

[103⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 107—109.

[104⟵]

مصطفى إيسن — فؤاد بيلكان (السلاطين الشعراء) ، أنقرة 1997 ، ص 44—45.

[105⟵]

نهاد سامي بانارلي (التاريخ المصور للأدب التركي)، إسطنبول 1997 ، المجلد الأول ، ص 449.

[106←]

مذكرات لطيفي ، ص 72.

[107←]

بانارلي (التاريخ المصور للأدب التركي)، المجلد الأول ، ص 449.

[108←]

سورة آل عمران ، الآية 134.

[109←]

مذكرات لطيفي ، ص 110.

[110←]

مذكرات لطيفي ، ص 150.

[111←]

مذكرات ساهي بيك ، ص 155–156.

[112⟵]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1031.

[113⟵]

تاريخ سولاك زادة ، المجلد الأول ، ص 474.

[114⟵]

ديوان عدلي ، المكتبة الوطنية ، الرقم 274.

[115⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 106—107.

[116⟵]

ار أندريا غريتي القصر العثماني بصفته سفير البندقية ، ومن ثم ترقى حتى وصل إلى منصب الدوق البندقية ، انظر هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1029.

[117⟵]

مذكرات ساهي بيك ، ص 52.

[118⟵]

ديوان نجاتي بيك ، ص 96–98.

[119⟵]

أولوجاي (كيف أصبح السلطان يافوز سليم سلطاناً ؟) ، مجلة التاريخ ، العدد الحادي عشر ، ص 190–191.

[120⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 159–160

[121⟵]

جلال زادة مصطفى (السليم نامه) ، إعداد أحمد أوغور – مصطفى الجوخدار ، أنقرة 1990، ص 330.

[122⟵]

فاروق سومر (دور أتراك الأناضول في تأسيس الدولة الصفوية وتطورها) ، أنقرة 1976، ص 20–22.

[123⟵]

حسن روملو (أحسن التواريخ ، تاريخ الشاه إسماعيل) ، ترجمة جواد جفان ، أنقرة 1994 ، ص 74. ومن أجل المعتقدات الدينية للصوفيين انظر: سامي سافاش (العلوية في الأناضول خلال القرن السادس عشر) ، أنقرة 2002 ، ص 48–66.

[124⟵]

تاريخ الشاه إسماعيل ، ص 102–103.

[125⟵]

تاريخ الشاه إسماعيل ، ص 149–150.

[126⟵]

سومر (تأسيس الدولة الصفوية)، ص 24.

[127⟵]

سومر (تأسيس الدولة الصفوية)، نقلاً عن أنجيوليو (سرد لرحلات إيطالية)، ص 24. بالإضافة لذلك انظر ابن كمال (تاريخ آل عثمان)، الجزء الثامن ، مكتبة الفاتح ، رقم 4221.

[128⟵]

ابن كمال ، الجزء الثامن ، ص 274.

[129⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 264–266.

[130⟵]

شهاب الدين تيكينداغ (حملة السلطان يافوز سليم على إيران في ضوء المصادر والوثائق الجديدة)، مجلة التاريخ، المجلد السابع عشر، العدد 22، إسطنبول 1968، ص 52–53.

[131←]

أرشيف متحف قصر توب كابي، الرقم 6401. ومن أجل كامل هذه الفتوى انظر: تيكينداغ (حملة السلطان يافوز سليم على إيران)، ص 54–55.

[132←]

أحمد أوغور (ابن كمال)، إزمير 1987، ص 73–74.

[133←]

تاج التواريخ، المجلد الرابع، ص 176. (وقائع السلطان بيازيد والسلطان سليم)، ص 74. منجم باشي (صحائف الأخبار)، مكتبة نور عثمانية، الرقم 31.

[134←]

سومر (تأسيس الدولة الصفوية)، ص 36.

[135←]

جان لويس بيكوا غرامونت (الصفويون والعثمانيون في النصف الأول من القرن السادس عشر)، إهداء للبروفيسور الدكتور باكير كوتوك أوغلو، إسطنبول

1991 ، ص 208.

[136←]

أثناء البحث في تاريخ الوضع الإداري والاقتصادي لتوكات بين الأعوام 1455—1574 ، تبين لي أنّ عدد السكان انخفض من خمسة عشر ألف نسمة في العام 1455 إلى ثمانية آلاف في العام 1485 ، وأنّ نسبة العائلات انخفضت بمقدار 42%. ومن أهم الأسباب لذلك هي أعمال السلب والنهب المرعبة التي كانت تقوم بها قوات أوزون حسن في المنطقة ، نص رسالة الدكتوراه غير المنشورة لأحمد شمشيرغيل حول توكات المدينة العثمانية (1455—1574) ، إسطنبول 1990 ، ص 75—76. وبالتالي لو أقدم السلطان سليم خان على اعتداء من هذا النوع ، لورد ذلك بكل تأكيد في سجلات الطابو.

[137←]

إرهان أفيونجو (الإمبراطورية العثمانية في مواجهة المشاكل) ، المجلد الثاني ، إسطنبول 2005 ، ص 50.

[138←]

ما أنّ المؤرخ حسن روملو في تاريخ الشاه إسماعيل يلقي بتبعة الاضطرابات التي ظهرت في المنطقة وتسببت في الكثير من النوائب وأدت لدمار توكات ، على كل من أوستاجال أوغلو ونور علي خليفة ، انظر (تاريخ الشاه إسماعيل) ، ص 177.

[139⟵]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 256.

[140⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 129.

[141⟵]

كري بدليسي (سليم نامه)، إعداد مصطفى أرغونشاه ، قيصري 1997 ، ص 139.

[142⟵]

نقلاً عما رواه الأئمة فإن الشاه إسماعيل الذي أعلن أنّ خروج الحملة في يوم الثلاثاء لا يجوز ، وبالمقابل اعتبر السلطان سليم خان خروجه في الحملة في هذا اليوم هو فأل حسن بالنسبة إليه. وقد أعلن إزاء ما قاله الشاه قائلاً "إنه يوم مناسب لأهل الإيمان ، وبعون من الله فقد أعلنت يوم الثلاثاء تاريخ بدء الحملة على الروافض ، وبإذن الله سيكون السعد من نصيبي ، وسوء الطالع من نصيبهم إن شاء الله». انظر مذكرات حيدر جلبي ، إعداد يافوز سينيم أوغلو ، إسطنبول ص 43—44. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 177—180.

[143⟵]

بالنسبة لتاريخ تحرك السلطان سليم خان من أدرنة ووصوله إلى إسطنبول وما حصل لاحقاً ، نلاحظ وجود تغيير هذه التواريخ بفارق يوم أو يومين في كل مصدر من المصادر.

[144⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 131.

[145⟵]

لال زادة مصطفى ، ص 362—365. ومن أجل الحصول على نبذة أو آراء مختلفة انظر: مذكرات حيدر جلبي ، ص 43—44. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 177—180.

[146⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 366.

[147⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 367.

[148⟵]

شكري بدليسي ، ص 148.

[149⟵]

صلاح الدين تانسيل (السلطان يافوز سليم)، إسطنبول 1969 ، ص 43.

[150⟵]

اج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 186. مذكرات حيدر جلبي ، ص 44. جلال زادة مصطفى ، ص 368–369.

[151⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 369–370.

[152⟵]

مذكرات حيدر جلبي ، ص 47.

[153⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 370. شكري بدليسي ، ص 150.

[154⟵]

شكري بدليسي ، ص 155.

[155⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 188–189. جلال زادة مصطفى ، ص 372. شكري بدليسي ، ص 152–153.

[156⟵]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية) المجلد الرابع ، ص 1067. أزوزنجارشلي (التاريخ العثماني) ، المجلد الثاني ، ص 267–268.

[157⟵]

من أجل هذا الرأي انظر شكري بدليسي ، ص 162—171. لطفي باشا وتواريخ آل عثمان ، إعداد كاهيان أتيك ، أنقرة 2001 ، ص 206—213.

[158⟵]

تاريخ آل عثمان ، إعداد مصطفى كارازيبك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، إسطنبول 1994 ، ص 264—266.

[159⟵]

ابن كمال ، الجزء التاسع ، ص 133. بالإضافة لذلك انظر: حديدي (تواريخ آل عثمان 1299—1523) ، إعداد نجدت أوزتورك ، إسطنبول 1991 ، ص 390.

[160⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 205.

[161⟵]

من أجل وقائع الحرب العامة انظر: لطفي باشا وتواريخ آل عثمان ، ص 213—216. ابن كمال ، الجزء التاسع ، ص 133. جلال زادة مصطفى ، ص 378—380. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ،ص 201—209.

[162⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 152—153 ، 380—382.

[163⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 152. وقعت تاجلي خاتون أسيرة بيد مسيح بيك والي سنجق فيدين ، واستولى على كل مجوهراتها باعتبارها غنيمة حرب. انظر: حقي أوزونجارشلي (مجوهرات تاجلي خانوم زوجة الشاه إسماعيل)، مجلة بيلليتين ، المجلد الثالث والعشرون ، العدد 92، تشرين الأول 1959 ، ص 611—619.

[164⟵]

كينداغ (حملة السلطان يافوز سليم على إيران)، ص 75. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 541.

[165⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 390.

[166⟵]

تاريخ سولاك زادة ، إسطنبول 1997 ، ص 375—376.

[167⟵]

شكري بدليسي ، ص 215.

[168⟵]

في الحقيقة سيقوم ابنه سليمان بعد اعتلائه العرش برفع الحظر عن تجارة الحرير ، وإعادة البضائع التي تمت مصادرتها إلى أصحابها. انظر: م. طيب غوكبيلغين (السلطان سليمان القانوني)، إسطنبول 1992 ، ص 13.

[169⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 215–216.

[170⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 246.

[171⟵]

تاريخ آل عثمان ، ص 283–284.

[172⟵]

أزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 280–281.

[173⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 278.

[174⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 415.

[175⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 129—130.

[176⟵]

مذكرات حيدر جلبي ، ص 415.

[177⟵]

تشير المصادر المملوكية أنّ قانصوه الغوري الذي توفي في الرابعة والثمانين ، كان متجبراً سفاكاً للدماء ، وخلال مدة حكمه التي استمرت خمسة عشر عاماً وعشرة أشهر ، كان كل يوم فيها يثقل على كاهل الشعب وكأنه ألف عام.
انظر: (التاريخ العثماني) لأوزونجارشلي نقلاً عن ابن إياس ، المجلد الثاني ، ص 286.

[178⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 285—288.

[179⟵]

تاريخ سولاك زادة ، ص 389.

[180⟵]

ورد في (تاريخ آل عثمان) أنّ آلاغوز بيك هو القائد الذي قام الغوري بقطع رأسه ، وهو من زمرة العاملين في الإسطبل الأميري ، وقد تمّ قتله بعد أن غضب عليه السلطان ، ص 288.

[181⟵]

في الحقيقة صرح السلطان سليم خان فيما بعد لسيدي محمد بيك بن السلطان الغوري في القاهرة بأنه "أقسم بالله إنني لم أكن أنوي قتله ، وكنت أنوي منحه أحد السناجق في ولاية الروم ليمضي فيه بقية حياته. ولكن إرادة الحق كانت غير ذلك» انظر: كشفي محمد جلبي (سليم نامه)، مكتبة السليمانية ، أسعد أفندي ، الرقم 2147.

[182⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 291.

[183⟵]

شهاب الدين تيكينداغ "التاريخ العثماني من الفاتح وحتى مراد الثالث 1451—1574» ملاحظات دراسية ، إسطنبول 1977 ، ص 135—136.

[184⟵]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1122.

[185⟵]

تاريخ آل عثمان ، ص 288—289.

[186⟵]

عبد الوهاب الشعراني (الكبريت الأحمر ، دخيلة اليواقيت)، القاهرة 1369 ، المجلد الأول ، ص 188. أحمد أوغور (السلطان يافوز سليم)، قيصري 1992 ، ص 132.

[187⟵]

ترجمة الشقائق النعمانية ، مجدي أفندي ، ص 360. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 135. هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1134.

[188⟵]

تاريخ سولاك زادة ، ص 392—393.

[189⟵]

كاظم يشار كوبرامان (المماليك منذ التأسيس وحتى يومنا التاريخ الإسلامي الشامل)، المجلد السادس ، إسطنبول 1987 ، ص 533.

[190⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 300.

[191⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 425—426.

[192⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 305—306. جلال زادة مصطفى ، ص 426—427. شكري بدليسي ، ص 268.

[193⟵]

بحسب ما أورده شكري بدليسي فقد خاطب حسين باشا السلطان بالقول “يا مولاي! دعنا لا نمضي أكثر من غزة ، ذلك أنّ المسير في تلك الصحاري الرملية غير ممكن. حيث سيلحق ضرر بالغ بالناس ، وسيتحمل السلطان وزر ذلك. كما أنّ الناس ستهلك في هذه الحملة ، والجند سيلاقون الأمرّين ، ومما لا شك فيه أنّ شجعان الروم لن يتمكنوا من عبور تلك الرمال. فيا سلطاني جامع المجد ، سيفنى كل جندك. لذا دعك من هذه الفكرة ودعنا نرجع إلى الشام. وتابع طريقك في سعادة لتصل إلى موطنك» ، ص 268—269.

[194⟵]

قال حسن جان نديم السلطان سليم خان “كان سيقتل لو لم يهرب تلك الليلة إلى الصفويين» انظر: تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 308.

[195⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 308—309.

[196←]

للاطلاع على مسيرة الصحراء انظر: جلال زادة مصطفى ، ص 426—427. شكري بدليسي ،ص 269. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 309.

[197←]

الداعي الشيرازي وسليم نامه ، إعداد عبد السلام بيلغين ، أنقرة 2007 ، ص 178—179.

[198←]

جلال زادة مصطفى ، ص 427.

[199←]

برامان (المماليك)، ص 539. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 288—289.

[200←]

جلال زادة مصطفى ، ص 427.

[201←]

هناك وجهات نظر مختلفة بخصوص تنظيم الجيش العثماني في معركة الريدانية ، فحسب ما جاء في مذكرات حيدر جلبي عين سليم خان والي ولاة الأناضول مصطفى باشا لقيادة الميمنة ، ووضع الميسرة تحت قيادة والي ولاة روملي

كوجوك سنان باشا ، أما قلب الجيش فقد كان تحت قيادة الصدر الأعظم سنان باشا ، وبعد اتخاذ التدابير العسكرية اللازمة ، أخذ قسماً من الفرسان والتفوا حول جبل المقطم حيث علم بوصول بقية جيش المماليك ، ص 199—200. وقد أورد أوزونجارشلي وبقية المصادر الترتيب ذاته للجيش. انظر: أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) ، المجلد الثاني ، ص 289. وفي الحقيقة فإنّ هذا الوضع كان سيجعل القوات العثمانية تحت مرمى نيران مدافع المماليك ، وكان لانفصال سليم خان عن الجيش مع قسم من فرسانه أن يتسبب في إضعاف موقعه ، ويعرض الجيش للهزيمة. ولذلك فإن معظم المؤرخين وفي مقدمتهم سعد الدين أفندي يقولون بأنّ سليم خان تحرك مع الجيش العثماني ، وغير من نتيجة المعركة. حيث تفيد هذه المصادر بأنه ترأس قلب الجيش بنفسه ، فيما أسلم قيادة الميمنة إلى الصدر الأعظم سنان باشا ، والميمنة للوزير يونس باشا ، ومن المرجح أنّ هذا ما حصل. انظر: تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 311. شكري بدليسي ، ص 273. هامر (تاريخ الدولة العثمانية) ، المجلد الرابع ، ص 1138.

[202⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 429—430.

[203⟵]

يورغا (تاريخ الإمبراطورية العثمانية) ، المجلد الثاني ، ص 285.

[204⟵]

مذكرات حيدر جلبي ، ص 200. تاريخ سولاك زادة ، ص 400.

[205←]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني، ص 543. هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع، ص 1175.

[206←]

الداعية الشيرازي وسليم نامه، ص 190–191. جلال زادة مصطفى، ص 430–431.

[207←]

تاج التواريخ، المجلد الرابع، ص 318–320. مذكرات حيدر جلبي، ص 203. جلال زادة مصطفى، ص 431–432.

[208←]

تاج التواريخ، المجلد الرابع، ص 325. كوبرامان (المماليك)، ص 538.

[209←]

تاريخ سولاك زادة، ص 405

[210←]

تاج التواريخ، المجلد الرابع، 327.

[211←]

ريخ سولاك زادة ، ص 407. هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1147—1148. أوزتونا (التاريخ التركي الشامل)، المجلد الثالث ، ص 241—242.

[212⟵]

كوبرامان (المماليك)، ص 539.

[213⟵]

ستلم شهسوار بيك السلطان المملوكي ، شرط أن يحافظ على حياته ، ولكنه أخل بالاتفاق وقام بإعدامه مع ثلاثة من إخوته على باب الزويلة في القاهرة ، انظر أحمد شيمشيرغيل القايي الجزء الثاني ، إسطنبول 2006 ، ص 260.

[214⟵]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1149.

[215⟵]

للاطلاع على معلومات أوسع انظر: مصطفى أوزون (الأزهر ، القسم المعماري)، المجلد الثاني عشر ، إسطنبول 1995 ، ص 53—58.

[216⟵]

لطفي باشا وتواريخ آل عثمان ، ص 238—239.

[217←]

لة من أجل قياس ارتفاع وانخفاض مستوى مياه النيل في مصر ، حيث يتم توجيه رافد من النهر إلى أحد الأحواض التي توضع الآلة في منتصفه ، ويقوم أحد الموظفين بقياس مدى الارتفاع اليومي الحاصل. وأجريت أول عملية لقياس منسوب النيل من قبل يوسف عليه السلام بن يعقوب عليه السلام ، ومن ثم قام العديد من الأشخاص بقياسه بوسائل مختلفة ، وكان آخرها المقياس الكبير الذي تمّ تصميمه بأمر من الخليفة المتوكل.

[218←]

هامر (تاريخ الدولة العثمانية) ، المجلد الرابع ، ص 1155. من ثم تم إلقاء القبض على قانصوه أديلي وأحضر للمثول بين يدي السلطان سليم خان ، حيث سأله الأخير عن سبب إقدامه على هذا العمل ، فرد عليه قانصوه بأنه حزن حزناً شديداً على مقتل تومان بيك ، وكان يفقد عقله ، وهذا ما دفعه للتورط في أمر مماثل ، فقام السلطان متأثراً بإخلاص الرجل لقائده بالعفو عنه. كما أنّ خاير بيك أيضاً قد تواسط من أجل العفو عنه. انظر: تانسيل (السلطان يافوز سليم) ، ص 198.

[219←]

منارة الإسكندرية التي تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ، تم بناؤها قبالة ميناء الإسكندرية على جزيرة فاروس لإرشاد السفن ، وقد أنشئت في عهد بطليموس الثاني في الأعوام 280—284 ق.م ، بارتفاع مائة واثنين وعشرين متراً ، وتتألف من ثلاثة أقسام فوق بعضها البعض على شكل

برج. وقد ثبتت في قمتها مرآة يقال بأنها كانت تعكس الضوء لمسافة خمسين كيلومتراً. ولم يبق للمنارة أثر في يومنا الحالي بسبب الزلازل ، حيث توجد في موقعها مكتبة الآن.

[220←]

كان سيدي محمد بيك بن قانصوه الغوري أيضاً أحد أعضاء هذه الهيئة. وقد تزوج اللالا مصطفى باشا القائد الشهير الذي قام بفتح قبرص من ابنته ، ورزق بابن منها أسماه محمد ، وقد توفي حين كان والي ولاة حلب. انظر: أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) ، المجلد الثاني ، ص 293.

[221←]

زكريا كورشون (الحجاز) في الجزء المتعلق بالعهد العثماني ، المجلد السابع عشر ، إسطنبول 1998 ، ص 437—439.

[222←]

جلال زادة مصطفى ، ص 268.

[223←]

ج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 336—337. في الحقيقة لقد خدم خاير بيك الدولة العثمانية بإخلاص في عهد سليم خان ، وأثناء وقوع تمرد جانبردي الغزالي في عهد السلطان سليمان القانوني ، لم يشارك فيه ، بل ساهم بشكل كبير في القضاء عليه. ولهذا الاعتبار قال عنه شكري بدليسي:

اسمه يحمل الخير حين يقال

وستكون عاقبته مليئة بالخيرات

وكانت هذه الكلمات بالفعل تنطبق عليه. انظر ص 295.

[224⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 136—137.

[225⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 137—138.

[226⟵]

لطفي باشا وتواريخ آل عثمان ، ص 239—240.

[227⟵]

مذكرات حيدر جلبي ، ص 219. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 338. تانسيل (السلطان يافوز سليم)، ص 203.

[228⟵]

مذكرات حيدر جلبي ، ص 219—220. تاسنيل (السلطان يافوز سليم)، ص 204.

[229⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 339. يقال بأن السلطان سليم لم يمنح المنصب لهذا الرجل الذي يكن له محبة كبير ، خوفاً من اضطراره لقتله إن ارتكب خطأً يوجب ذلك.

[230⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 342—343. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) ، المجلد الثاني ، ص 295—296.

[231⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 340—341.

[232⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 439. يورد الخوجا سعد الدين أفندي بأنّ سليم خان أعطى هذا الأمر بعد عودته ، كما أمر بالانتهاء من بناء الكلية في أسرع وقت ممكن. وقد أوردت المصادر ذلك. انظر: تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 341—342. أوزونجارشلي (التاريخ العثماني) المجلد الثاني ، ص 305. تانسيل (السلطان يافوز سليم) ، ص 206.

[233⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 439. تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 342.

[234⟵]

جلال زادة مصطفى ، ص 268.

[235←]

سيدي مرادي (غزوات خير الدين باشا) والذي صدر بعنوان (كتاب رحلات القبطان باشا)، أحمد شيمشيرغيل ، إسطنبول 2003 ، ص 83—85 .

[236←]

تانسيل (السلطان يافوز سليم)، ص 44.

[237←]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 140—141. تاريخ سولاك زادة ، ص 417—418.

[238←]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 356—357.

[239←]

تقرحات تظهر غالباً على الرقبة والظهر والأرداف ، والتي تتجمع وتتحول في نوع من الدمامل التي تنمو بسرعة أو السرطان.

[240←]

سورة ياسين ، الآية 58 ، {سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}.

[241←]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 359—362.

[242←]

تاج التواريخ ، المجلد الرابع ، ص 362. تاريخ سولاك زادة ، ص 422.

[243←]

لطفي باشا وتواريخ آل عثمان ، ص 243.

[244←]

جلال زادة مصطفى ، ص 222—224.

[245←]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 304—305.

[246←]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 303.

[247←]

سومر (تأسيس الدولة الصفوية)، ص 37.

[248←]

يحيى كمال (مع رياح الشعر القديم)، إسطنبول 2008 ، ص 23.

[249←]

(مصادر حول تنظيم الدولة العثمانية ، الكتاب المستطاب)، إعداد يشار يوجيل ، أنقرة 1988 ، ص 29—30.

[250←]

رسائل كوجي بيك ، إعداد يلماز كورت ، أنقرة 1998 ، ص 58—59.

[251←]

مصطفى نوري باشا (نتائج الوقائع ، التاريخ العثماني بمؤسساته ومنظماته) جاغتاي ، المجلد الأول والثاني ، أنقرة 1979 ، ص 87. أحمد أوغور (ابن كمال)، ص 96—97. شرف الدين توران (كمال باشا زادة)، المجلد الخامس والعشرين ، أنقرة 2002 ، ص 238.

[252←]

(مصادر حول تنظيم الدولة العثمانية ، حرز الملوك)، إعداد يشار يوجيل ، أنقرة 1988 ، ص 193.

[253←]

تاج التواريخ ، المجلد الخامس ، ص 219—220. هامر (تاريخ الدولة

العثمانية)، المجلد الرابع ، ص 1176—1177. يوسف كوجوكداغ (عائلة الجمالي في عهد بيازيد الثاني ، يافوز والقانوني)، إسطنبول 1995 ، ص 67—68.

[254⟵]

تاج التواريخ ، المجلد الخامس ، ص 220—221. كوجوكداغ (عائلة الجمالي)، ص 69—70.

[255⟵]

نتائج الوقائع ، المجلد الأول والثاني ، ص 125.

[256⟵]

نتائج الوقائع ، المجلد الأول والثاني ، ص 124—125.

[257⟵]

بات الدفتردار عبد السلام بيك من أثرياء تلك الحقبة ، وكان يلقب بأبو الحيرات ، وحين قام بتولي مصاريف القصر ، منحه السلطان بعضاً من أملاكه نواحي مدينة إزميت من أجل دعم الوقف. انظر أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 305.

[258⟵]

أوزونجارشلي (التاريخ العثماني)، المجلد الثاني ، ص 305. هامر (تاريخ

الدولة العثمانية) المجلد الرابع، ص 1178.

[259⟵]

نتائج الوقائع، المجلد الأول والثاني، ص 1161.

[260⟵]

أ. حقي أوزونجارشلي (مؤسسات القصر في الدولة العثمانية)، أنقرة 1984، ص 319–320.

[261⟵]

لي نهاد تارلان (ترجمة ديوان السلطان يافوز سليم عن الفارسية) إسطنبول 1946، ص 16، 59.

[262⟵]

مذكرات ساهي بيك، ص 55.

[263⟵]

تاريخ سولاك زادة، ص 430–431.

[264⟵]

ي الحقيقة لا يمكن استحضار الخصائص المتعلقة بإمكانية تعدد طرق قراءة الأبيات دون تغير المعنى بعد ترجمتها.

[265←]

أحمد أوغور (ابن كمال)، ص 100–105.

[266←]

مع رياح الشعر القديم ، ص 10.

Table of Contents